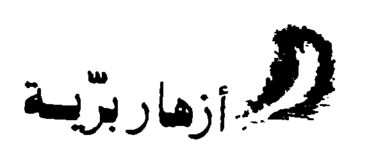

كيمبرلي فريمان
أزهار برية
روايـــة
ترجمة : عدنان محمد
١٢٢
مكتبة الرمحي أحمد


أزهار بريّة

غلاسكو، 1929. أحلام بيتي بلاكسلاند كبيرة. كبيرة جداً. تعانق عالمَ الموضة والأقمشة. وبالمقابل، فإن ما لم تكن تحلم به أبداً، هو أن تكتشف، عشية عيد ميلادها التاسع عشر، أنها حاملٌ من عشيقها، وهو رجل متزوّج.

لندن، 2009. إيمّا بلاكسلاند-هنتر، نجمة رقص الباليه في باليه لندن. تعيش حلمها، وتملك كل شيء... إلى أن أتى يومٌ فقدت فيه كل شيء.

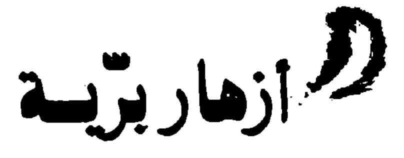
عشرات السنين تفصل بين المرأتين، ولكنهما اضطرّتا إلى خلق القوة لإعادة بناء حياتهما. فقد أوصلهما ميراثٌ إلى ويلدفلاور هيل، وهي مزرعةٌ في الريف الأسترالي. وهناك تتعلّم كلٌّ منهما كيف تنهض من جديد، وتكتشف ما تريده حقّاً.

"قصة رائعة عن الأسرة، والأسرار، والفعل السحري للحب."

كيت مورتون

■ الطبعة الأولى 2017

كيمبرلي فريمان



روايـة

ترجمة: عدنان محمود محمد

العنوان الأصلي للكتاب

Fleurs sauvages

Kimberley Freeman

وُلدَتْ كيمبرلي فريمان في لندن، ونشأت في أستراليا، حيث ما تزال تسكن. حصلت على إجازة وماستر ودكتوراه من جامعة كوينزلاند. وهي اليوم توزّع وقتها بين عملها كأستاذة جامعية ونشاطها ككاتبة. تُرجمت كتُبها إلى 20 لغة، وكسبت ملايين القرّاء.

أزهار بريّة (شارلستون، 2015) هي روايتها الأولى التي نُشرت في فرنسا.

لجانين الغاليـة



تمهيد

سيدني 1989

الفتاة الصغيرة ترقص.

الساق اليمنى، خطوة الهر، الساق اليمنى، وثبة صغيرة.

– إيمّا! لقد طرحَتْ جدّتُك عليكِ سؤالاً.

– «إيه؟».

الساق اليسرى، خطوة الهر، الساق اليسرى، وثبة صغيرة. وهكذا دواليك، على الأرض، من شعاع شمس إلى آخر. إنها تعشق بيت جدّتها، وبخاصة قاعة الموسيقى التي يزيّنها ضوءُ النهار بأشكالٍ عبر الستائر الشفّافة، وحيث توجد أماكن كافية للرقص دون توقّف.

– إيمّا، أقول لكِ إن...

قاطعتها الجدةُ بصوتها المُنْغم:

– دعيها بسلام، يا عزيزتي، فأنا أحبّ كثيراً أن أراها ترقص.

الساق اليمنى، خطوة الهر...

– لو أنها تمنح دراستَها وسلوكَها الوقتَ الذي تمنحه للرقص، لما طُردت من مدرستين من قبل.

الساق اليمنى، وثبة صغيرة.

تعتمت الجدة:

- إنها ما تزال في الحادية عشرة. وما يزال أمامها وقتٌ طويل لتتعلّم التصرّفات الحسنة، بعد أن تكبر، وأنتِ التي أصررتِ على تسجيلها في مدارس هؤلاء المرائين.

الساق اليسرى، خطوة الهر... «لا، لا، لا!» إيمّا ضربت بقدمها. *تنفسي، ابدئي من جديد، الساق اليمنى، خطوة الهر، الساق اليمنى، وثبة صغيرة*. تنبّهت إلى الصمت الذي ران في الغرفة، رفعت عينيها وهي تظن أنها وحيدة. لكن جدتها ما تزال موجودة، تنظر إليها، وهي جالسة على كنبة كبيرة قرب البيانو ذي الذيل. استردّت إيمّا أنفاسها، مدّت عمودها الفقري، ثم نظرت من جديد باتجاهها. رأت فوق رأس جدّتها لوحة معلّقة تمثّل شجرة سَنْطٍ عند غروب الشمس: وهي لوحة الجدّة المفضّلة. لم تكن إيمّا تفهم كيف لشجرةٍ أن تثير هذا القدرَ من الاهتمام. ولكن جدّتها تحبّها كثيراً، إذن فهي تحبّها أيضاً.

قالت أخيراً:

- ظننتُ أنكِ قد ذهبتِ.

- لا، كنتُ أنظر إليكِ. أمّكِ خرجت منذ عشر دقائق. أعتقد أنها مع جدّكِ في الحديقة.

ثم ابتسمت الجدةُ وسألتها:

- أنتِ تعشقين الرقص، أليس كذلك؟

أومأت إيمّا برأسها بالإيجاب. إنها ما تزال تجهل الكلمةَ المناسبة لوصف شعورها حيال الرقص. إنه ليس الحب، بل هو شعور أكبر منه بكثير.

وضعت الجدة يدها على الكنبة بجانبها، وقالت:

- اجلسي لدقيقة. فحتى نجمات الرقص بحاجة إلى الاستراحة.

اضطرّت إيمّا إلى الاعتراف بأنها تُحسّ بألم في ربلتَي ساقيها، ولكن هذا لا يهمّها، بل إنها تتحرّق رغبةً في أن تُصاب باللغب وتُدمى أصابعُ قدميها، فقد قيل لها إنها تتحسّن. ومع ذلك، فإن الجدة رائعة لأنها ظلّت تنظر إليها طوال هذا الوقتَ. اجتازت القاعة وأتت لتجلس. الموسيقى تصدح في صدر البيت: إنها أغنية قديمة لفرقةٍ كبيرة تحبّها الجدّة. إيمّا تفضّل كثيراً جدّتها على جدّها. فهو لا يكلّ من الكلام، وبصورةٍ خاصة عن حديقته. إيمّا تعرف أن جدّيها شخصان مهمّان لأنهما يمتلكان كثيراً من المال، حتى وإن كانت لا تُعير كثيراً من الأهمية لنشاطاتهما الحالية أو الماضية. جدّتها مسلّية، وجدّها مملّ. هذا كلّ ما في الأمر.

قالت الجدة وهي تأخذ يد إيمّا الصغيرة بين يديها:

- حدّثيني عن الرقص. هل تحبّين أن تُصبحي راقصة باليه؟

هزّت إيمّا رأسها، ثم قالت:

- ماما تقول أن لا أحد تقريباً يصبح راقصة باليه، وأن عليّ أن أفعل شيئاً آخر في تلك الحالة. ولكن ليس لديّ كثيرٌ من الوقت للرقص.

- أنا أعرف أمك جيداً.

في تلك اللحظة، ابتسمت الجدّة فظهر غضنان عند زاويتَي عينيها الزرقاوين، ثم علّقت:

- وهي ليست دائماً على حق.

أخذت إيمّا تضحك بعذوبةٍ وغُنج. فأضافت الجدّة:

- ولكن عليكِ أن تعملي عملاً شاقاً.

عادت إيمّا إلى جدّيتها، رفعت ذقنها وقالت:

- وأنا أفعل ذلك.

- نعم، نعم، ولكن بحسب ما قيل لي، إنكِ تتدرّبين كثيراً بحيث لا يعود لديك وقتٌ للأمور الأخرى، بما فيها اكتساب الأصدقاء.

عند ذلك غزا وجهَ الجدة تعبيرٌ عجزت إيمّا عن استجلائه. هل هو القلق؟ أم شيء آخر؟ بقيتا صامتتين للحظات. في الخارج، شمس الخريف تتخلّل أغصان الأشجار المتصادمة. أما في الداخل، فالصمت يرين في جوٍ حارّ.

أصلحت الجدة جلستها على الكنبة وضغطت على يد إيمّا قبل أن تتركها وهي تقول:

- سوف أعطيكِ وعداً.

- أي وعد؟

- هو نوعٌ من التحريض.

- انتظرت إيمّا دون أن تعرف ما تعنيه هذه الكلمة بالضبط.

إذا أصبحتِ راقصة باليه، فسوف أقدّم لكِ هدية. هدية ثمينة.

لم تشأ إيمّا أن تبدو قليلة التهذيب، ولكنها عجزت عن التظاهر بالحماسة، فابتسمت ثم قالت:

- شكراً.

كما تتمنّى أمها.

ضحكت الجدّة وهي تقول:

- آه يا صغيرتي، لم يُعجبكِ وعدي، أليس كذلك؟

هزّت إيمّا رأسها وقالت:

- أنت تعرفين يا جدّتي، إذا صرتُ يوماً راقصة باليه، فإني سأحصل على كل ما أريد.

وافقت الجدّة قائلة:

- حلمٌ وقد تحقّق.

- نعم.

- ومع ذلك، فإني سأفي بوعدي، لأنكِ ستكونين بحاجة إليه فيما بعد. فراقصات الباليه لا يرقصن إلى ما لا نهاية.

لكن إيمّا كانت قد ابتعدت. فتخيُّلها أن حلمَها قد تحقّق زوّد أعصابَها وعضلاتها بفيض من الطاقة: يجب أن تتحرك. *خطوة الهر*، *وثبة صغيرة*.

ختمت الجدّة كلامها بصوت ناعم:

- حاولي ألاّ تنسي أن النجاح ليس كل شيء.

واتّخذت هيئة واجمة، في حين أن إيمّا لم تلتفت إليها، بل واصلت الرقص ببساطة.

الفصل الأول

بيتي، غلاسكو، 1929

أحلام بيتي بلاكسلاند كبيرة. كبيرة جداً.

هي ليست تلك الرؤى المتفرّقة، والمضطربة التي تداهمها في نومها، بل الأحلامُ التي تأتي لتطمْئِنها قبل أن تنام، في سريرها المخلّع، الجاثم على الأرض في شقة أبويها المثلّجة. إنها أحلامٌ حيّة، وثاقبة.

أحلامٌ تعانق عالم الموضة، والأقمشة والثروات، بكل تأكيد، العالم الذي يتلاشى فيه الواقعُ البائس لأسرتها الفقيرة حتى يندثر تماماً. ولكنْ، ما لم تحلم به أبداً، هو أن تكتشف، عشية عيد ميلادها التاسع عشر، أنها حاملٌ من عشيقها، وهو رجل متزوّج.

أمضت شهر شباط، وهي تعدّ الأسابيع وتُعيد عدَّها بطريقة استحواذية. أرجعت الزمن في رأسها، وحاولت أن تجد التواريخ الدقيقة. أخذت معدتها تنقلب بسبب روائح الطعام، وأصبح نهداها حسّاسَين. وفي بداية آذار، علمت بيتي أن طفلاً من هنري ماك كونيل ينمو في بطنها.

ذاك المساء، وصلت إلى النادي، وكأن شيئاً لم يكن. ضحكت لمزاح تيدي وايلدر، وتشنّجت حين ضغطت على خصرها يدُ هنري الدافئة. كبتت غثياناً سبّبه دُخان سيجار. وتركت الجرعةُ الأولى من الكوكتيل

المكوّن بصورة رئيسة من الجن طعماً لاذعاً ومُرّاً على لسانها. ومع ذلك، لم تكفّ عن الابتسام. فهي معتادة جداً على ردم الحفرة الموجودة بين ما تشعر به والطريقة التي يجب عليها أن تتصرّف بها.

صفق تيدي صفقتين قويتين بيديه فانتقل الدخان مع الرجال شاربي البراندي إلى طاولة القمار الموجودة في وسط القاعة. هذا الثلاثي غير المتساوي كثيراً مكوّن من تيدي وأخيه بيلي على دالهاوسي لين. فوق مطعم والدهما مؤسسة نظامية في كل شيء. في هذا المطعم كانت بيتي قد التقت للمرة الأولى بهؤلاء الرجال. وكانت آنذاك تعمل نادلة فيه. على أية حال، أهلها يعتقدون أنها ما تزال كذلك. عرّفها تيدي وبيلي إلى هنري، واكتشفت النادي بعد وقت قصير: وجه آخر لغلاسكو. لامعٌ بالظلمة، حيث لا أحد يكترث لمعرفة من هي، ما دامت جميلة. كانت تُمضي نصف الليل في تقديم المشروب، والنصف الآخر بمرافقة كورا، وهي صديقة تيدي.

أشارت كورا إلى بيتي لكي تأتي وتجلس. تجمّعت النساء الأخريات قرب المدفأة. كانت كورا الملكة الرسمية لهذا المكان بحلقات شعرها الصغيرة الملتصقة بأذنيها بعصبة من الساتان. على الرغم من أنه ما من امرأة تحبّ هذه الفكرة، فإن النساء الأخريات يتحاشين الوقوف بجانبها مخافة مقارنات ظالمة. لا ريب في أن بيتي كانت ستقلّدهن، لو لم تقرّر كورا أن تصبحا صديقتين حميمتين.

أمسكت بيد بيتي وضغطت عليها بقوة بيدها: استقبال نموذجي من طرفها. شعرت بيتي باحترام شديد وبغيرة فظيعة في الوقت نفسه تجاه كورا وعينيها الغامقتين المُكيَّجتين جداً، وشعرها البلاتيني اللون، وسحرها المسترخي، وميزانيتها غير المحدودة المخصّصة للفساتين ذات العقد المصنوعة من الموسلين أو من الكريب الصيني. تبذل بيتي قصارى جهدها لتكون بمستواها. فقد كانت تشتري أقمشتها، وتخيط ثيابها بنفسها، ولم يكن بوسع أحد أن يعرف أنها ليست مصمّمة ومصنوعة في باريس. وكانت تصفف شعرها بما يتماشى مع الموضة- شعرها الكستنائي

قصير، ولكن كان لديها انطباع بأن وجهها المكشوف هكذا وعينيها الواسعتين الزرقاوين تفسد كل حظ لها بأن تبدو غامضة ومُغوية. لا ريب في أن الغلامور والثقة فطريان عند كورا، بينما كان يجب على بيتي أن تناضل دائماً.

أطلقت كورا نفثة طويلة من سيجارتها في الهواء قبل أن تقول: «إذن، كم أسبوعاً مضى عليكِ».

انقبض قلب بيتي والتفت فجأة نحو كورا. كانت صديقتها تنظر أمامها بخط مستقيم، وشفتاها الحمراوان تضغطان على طرف منسمها. وفي خلال لحظة اعتقدت بيتي أنها تخيّلت هذا السؤال: سِرُّها المخجل يجب أن لا يُفضَح بأية حال من الأحوال.

ثم التفتت إليها كورا. رفعت حاجبيها الناعمين المقوسين، وابتسمت بعيني ظبية: «بيتي، الدخان يُكسبكِ لوناً أخضر، ولم تلمسي كأس خمرك. في الأسبوع الماضي ظننت أنك مريضة، أما هذا الأسبوع... أنا على حق، أليس كذلك؟».

– «هنري لا يعلم». خرجت الكلمات من فمها بخرق ويأس.

استعادت كورا نعومتها وداعبت يدها قائلة:

– ولن أقول شيئاً. أعدكِ. تنفسي يا عزيزتي. تبدين متحجِّرة.

اعتذرت بيتي وقامت ببسط عضلاتها لكي تستعيد الرشاقة والهدوء المنتظرين منها. قبلت سيجارة من كورا على الرغم من أن التدخين يسبب لها الغثيان. يجب أن لا يلاحظ أحد شيئاً وألا يطرح أسئلة. بيلي وايلدر، على سبيل المثال، بخديه الأحمرين وبضحكته العنيفة: أوه، سيجد ذلك مثيراً للضحك. ومع ذلك، هي تعرف أنها لن تستطيع أن تخفي الأمر إلى ما لا نهاية.

– «لم تردّي على سؤالي. كم من الوقت مضى عليكِ؟».

أضافت كورا بنبرة حيادية جداً كما لو أنها تسأل بيتي ماذا أكلت على الغذاء.

– لم تأتني الدورة الشهرية منذ سبعة أو ثمانية أسابيع.

تمتمت بيتي. شعرت أنها ضعيفة ضعفاً رهيباً، كما لو أنها قد خُدشت بقوة. إنها لا ترغب في الكلام حول هذا الموضوع ولا التفكير فيه دقيقة واحدة زيادة. وهي ليست مستعدة لتكون أماً: فهذه الفكرة كافية لتجمّد دمها.

قالت لها كورا:

– ما يزال الوقت متاحاً.

وأخرجت علبة البودرة من حقيبة يدها وفتحتها بطَقّة قوية. فارتفعت ضحكات على طاولة القمار.

خفّ العبء الذي يثقل كاهل بيتي لثانية أو ثانيتين، فقالت:

– صحيح؟ أنا لا أعرف شيئاً عن هذا. أعرف أني غبية، ولكن...

كانت قد صدقت هنري عندما وعدها بأنها لن تتعرض إلى أي خطر إذا ما انسحب من جسدها في اللحظة المناسبة. وكان قد رفض أن يتخذ احتياطات أخرى وقال لها: «الواقيات الإنكليزية تناسب الإنكليز. وأنا أعرف ماذا أفعل». كان في الثلاثين من عمره، وكان قد خاض الحرب. وبيتي تمحضه ثقتها.

قالت لها كورا بصوت خافت:

– اسمعيني الآن، هناك بعض الأشياء يا عزيزتي: يمكنك أن تأخذي حمّاماً ساخناً كلّ يوم، وزيت كبد سمك المورة وتركضي في كل مكان حتى الإنهاك.

أغلقت علبة بودرتها بحركة مصوّتة واستعادت نبرتها الحيادية المعتادة:

– ما تزالين في البدايات. صديقة ابنة عمي كانت حاملاً في الشهر الثالث حين خرج الولد مع كمية من الدم. أمسكت الشيء الصغير بيديها، لم يكن أكبر من حجم فأرة. وبالمقابل، فقد خُرّبت. وبعد أن تزوّجت باتت تتحرّق لإنجاب بطفل.

تزوجَت. ولكن بيتي غير متزوِّجة، بل إن هنري هو المتزوّج من مولي، كلب الصيد الإيرلندي كما يحلو له أن يناديها. كان هنري يؤكد لها أنه زواج بلا حب، بين شخصين كانا يظنّان أن أحدهما يعرف الآخر، ولكنهما أصبحا غريبين أحدهما عن الآخر. وعلى الرغم من كل شيء، فإن مولي زوجته، وبيتي ليست كذلك.

دخّنت نصف السيجارة كيفما اتفق، ودون أناقة، ثم اعتذرت لكي تبدأ خدمتها. كما كانت تحمل الكؤوس على الصينية كانت تراقب فك هنري المربّع، وشعره الأشقر المذهّب. إنها تتحرّق رغبةً في لمسه، ولكنها لا تريد أن تشتّت تركيزه. فهي ما تزال تخشى على أن تكلّمه عن هذا الطفل: إذا كانت كورا محقّة، وإذا كانت هناك فرصة أن تُسقط بيتي حملها، فلماذا تخلق المشكلات؟ من الممكن أن لا ينتج شيءٌ عن هذا. فقد ينتهي كل شيء غداً أو في الأسبوع القادم. انتهى. بعض الحمّامات الساخنة. من البدهي أنه ليس من السهل عليها أن تبقى ساعات طويلة في الحمّام، على سفرة الدرج التي يتقاسمونها مع البناية كلّها، ولكن إذا ما دخلته في الصباح الباكر...

رفع هنري عينيه عن أوراق اللعب ورأى أنها تنظر إليه. رفع رأسه باتجاهها: كان هنري بالضبط، ما من حركات غير متّزنة، ولا غمزة عين ولا حركة يد غبية. نظرته الرمادية والملحّة توضّعت عليها. فوجب عليها أن تحوّل بصرها. ركّز انتباهه من جديد على أوراقه بينما حملت صينيتها إلى البار في زاوية القاعة وأخذت تصفّ زجاجات الجن والبراندي على الرفوف الزجاجية. كانت تعشق عيني هنري لأنهما شاحباتان، شاحبتان بغرابة. وصار بوسعها أن تفهمه من خلال نظرته عندما يبقى صامتاً، وهو لا يتكلّم غالباً. ذات يوم، في بداية علاقتهما، راقبتُه وهو يلعب البوكر، ولاحظت التناقض بين بؤبؤه وقزحيته. عملياً هي تستطيع أن تقرأ عينيه كما تقرأ خطوط يدها: إذا ما وقع على ورقة جيدة، كان بؤبؤاه يتّسعان؛ وإذا كانت

الورقة سيئة، يتقلّصان. كان هذا غير قابل للإدراك تقريباً، إلا بالنسبة إلى المرأة التي لا تكلّ من النظر إلى عينيه.

بكل تأكيد، أصبحت تراقب اللاعبين الآخرين من حول الطاولة، وتحاول أن تخمّن ما بأيديهم. لم يكن الأمر سهلاً، وبخاصة لدى بيلي وايلدر الذي كانت نظرته السوداء شبه كتيمة. ومع ذلك، عندما يكون الرهان مرتفعاً، ويحاول الرجال إبداء هيئتهم الساكنة، فإنها تتمكن من معرفة ما إذا كانوا يخدعون أم لا. كان هنري يقول إنها ترّهات. حاولت أن تشرح له وجهة نظرها، ولكنه أنزلها عن ركبتيه وأبعدها عن طاولة القمار. ولأنه لم يستمع إلى نصيحتها، فقد خسر الدور وركبه مزاج فظيع طوال أيامٍ وأيام. وبعد ذلك، صارت تفضّل البقاء بعيدة، فليس لهذا كثيرٌ من الأهمية.

أومأت إليها كورا أن تعود، فلديها كلام تريد أن تتقاسمه معها:

– هل رأيتِ فستان إيفي أوهارا؟

ركّزت بيتي نظرها إلى إيفي، وكانت ترتدي قميصاً داخلياً حريرياً تحت فستان اسطواني الشكل له خمار مزيّن باللآلئ والبرق، وزهرة من الحرير تُحيط بعنقها، وتنتعل حذاء كعباه عاليان من طراز لويس الخامس عشر. وحوضها الواسع مضغوط جداً بهذا الفستان المدغدِغ: إن موضة الأزمنة الحديثة لا ترحم الردفين. ولم تكن إيفي شيئاً فيه. كان بوسعها أن تبدو بهية وطويلة، تشبه إلهة لو أن مصمّمة أزياء صمّمت هذا القماش تصميماً أفضل.

قالت كورا:

– إنها تبدو كبقرة.

– إنه الفستان.

دوّرت كورا عينيها، لكن بيتي، هذا المساء، لا تملك القلب لتستمع إلى ملاحظات كورا اللاذعة حول عيوب النساء. منهارة، استمعت لحظة ثم عادت إلى البار.

السهرة مستمرة والكؤوس تتلاطم، والرجال يضحكون، وموسيقى الجاز تصدح قوية من الفونوغراف، والدخان لا يتبدّد أبداً. بدأت بيتي تشعر بالتعب يغزو حتى عظامها، وتحرّقت رغبة في الذهاب إلى النوم. ومع ذلك، من المستحيل بالنسبة إليها أن تُظهر رغبتها جليّاً. فقد كان يحلو لتيدي وايلدر أن يسمّيها «بيتي - حتى - الفجر»، ولم يكن من النادر أن تذهب إلى محل كاميليا، وهو محل للفساتين على القياس بعد ساعتين من النون فقط ولكن في هذا المساء، شعرت بيتي أنها بعيدة عن هذا الضجيج وهذا الفرح، فقد كانت في منتهى القلق.

أخيراً، وقف هنري، وجمع رزمة من الأوراق النقدية من فئة الخمس جنيهات في حالة فوضى. كانت السهرة جيدة، وهو يعرف متى يتوقّف، بعكس المقامرين الآخرين. اجتاز القاعة متبوعاً بصرخات لوم نصف جادة، ثم وقف أمام البار، غير مكترث بكلام أصدقائه. مدّ يده إلى بيتي دون أن يبتسم. سلطةٌ صمّاء تصدر عن هنري لا يستطيع أحدٌ أن يقاومها. وبيتي لهذا أحبّته، فالآخرون يبدون في نظرها صاخبين وأغبياء مقارنةً به. كفَتْها نظرةٌ واحدة إلى يده، ومعصمه الضخم وأظافره المربّعة لكي تتذكّر كيف وجدت نفسها في هذا الوضع الشائك. وكانت تكفي نظرة واحدة من هنري لتشعر بحرارةٍ في جسدها.

جذبها نحوه، ويده على ردفها. هي تعرف ماذا يريد. فالقاعة الخلفية الصغيرة بانتظارهما بمقعدها اللدن، وسط البراميل وأكداس الصناديق الفارغة. كحالها دائماً، أخذت ترتعش وهي تبتعد عن النادي الذي تُنيره نارٍ الحطب. سخر منها هنري بلطف، ونفث هواءً ساخناً في أذنها، مفترضاً أن ارتعاشاتها هي بسبب الرغبة. ولكن في تلك اللحظة، شعرت بيتي بوطأة نقص حكمتها وسرعان ما انطفأت رغبتُها.

إذا اكتشف تمنّعها فإنه لم يُبدِ منه شيئاً. أواخر أشعة الضوء انطفأت حين أغلق الباب خلفه واحتضنها بذراعيه.

حرارة ملابسه الخشنة، وصوت أنفاسه وخفقان قلبه جعلتها تستسلم فانبسطت عضلاتها كلّها بفعل الحب. إنه يبدو حنوناً جداً بعيداً عن نظرات أصدقائه.

قال لها وفمه في شعرها:

– عزيزتي، أنتِ تعلمين أني أحبّك.

– وأنا أحبّك أيضاً.

وكانت تودّ أن تكرّر هذه الكلمات بصوتٍ أعلى وأقوى.

مدّدها برفق على المقعد ومرّر يده على تنورتها. فتقلّصت. ضمّها إليه بقوة أكثر ففهمت أن لا جدوى من المقاومة. فقد فات الأوان. كما كان سيقولِ والدها، ما فائدة اتخاذ الاحتياطات بعد حدوثِ الشيء؟

والدها. من جديد غمرها الخجل والشعور بالذنب.

– بيتي؟

ناداها هنري بصوت لطيف على الرغم من أنها تجد نفسها مقيّدة بيديه كسلسلتين حول ركبتيها. همست: ـ نعم، نعم!

ما تزال بشرة بيتي وردية بفعل حرارة الماء عندما ارتدت ملابسها في الحمّام البارد والرطب. ها قد مر أسبوع على الحمامات الساخنة، ولم تكن النتيجة سوى نظرات مدام بيترز، جارتها الفضولية. عادت إلى البيت ووجدت والدها يجلس إلى طاولة في المطبخ، مستغرقاً في عمله على الآلة الكاتبة، وقطرات من العرق تتكوّر بقلق على أنفه على الرغم من برودة الغرفة. إنها لا تستطيع أن تتذكّر آخر مرة رأت فيها والدها مسترخياً. كلّما مرت الأيام، ازداد انطواءً على نفسه، كعنكبوت أدخل أرجله قبل أن يموت. هناك غسيل منشور على الحبل الذي يجتاز المطبخ، وأمها تنام دائماً خلف الستارة التي تفصل الصالون على الغرفة المشتركة.

قال بيتي:

– لقد أطلمتَ الصباح!

رفع والدها رأسه ثم وجّه إليها ابتسامة صغيرة.

- أستطيع أن أقول لكِ الشيء نفسه.

أجابها بصوتٍ اتّضحت فيه لكنتُه الإنكليزية. ولكنةُ أمها اسكتلنديه، كثيفة كضباب غلاسكو. أما لكنتُها هي فتقف في مكان ما بين اللكنتين.

- لقد عدتِ متأخرة من المطعم، وها أنتِ تستعدّينً للعودة إلى العمل.

كانت بيتي تعمل في محل كاميليا الواقع في *سوشايهيل ستريت*، منذ ثلاثة أسابيع. وقبل ذلك كانت تعمل في قسم التفصيل عند بولي، وهو محل كبيرٍ كان الزبائن فيه أقلّ تطلّباً بكثير، وبالمقابل كانت فيه الملابس أقل جمالاً بكثير. كل الملابس التي تراعي آخر صيحات الموضة تصل من القارة إلى محل كاميليا، وإليه تأتي أغنى نساء غلاسكو ليتسوّقن: زوجات كبار مزوّدي البواخر ومستثمري الخطوط الحديدية وبناتهم. لم يكن من النادر أن ترى بيتي نساء يدفعن خمسين جنيهاً كثمن لفستان دون أن يرفّ لهن جفنٌ، بينما تعود هي إلى بيتها بأربعة شلنات في الأسبوع.

وعدها وهو مطأطئ الرأس، يسوّي نظارته:

- لن تبقي طويلاً في هاتين الوظيفتين. سوف أنتهي قريباً. هذا مؤكّد.

- هذا لا يزعجني.

استولى عليها شعور بالذنب. فوالدها سوف يُصعق عندما يعرف أنها تعمل في نادٍ، وتعتمد على الإكراميات من الرجال الذين يجدونها جميلة، أو من بعض الجنيهات التي يدسّها هنري في جيبها عندما يربح في القمار. كان والدها يظن أنها فتاة محترمة، عذريتُها لم تُمس.

عاد إلى عمله: *تاب، تاب، تاب*... عندما رأته بيتي لامع الجبين من القلق انقبض صدرها. كل شيء كان مختلفاً منذ سنة فقط. فقد كان والدها مدرساً في بيكهام كوليدج في لندن. لم يكونوا أغنياء، بل سعداء في هذه الجامعة وفي بيتهم الصغير المرتب جيداً والذي تغمر نوافذه شمس الظهيرة. وجدت بيتي الحياة في لندن مثيرة للحماسة بعد أن نشأت في مدينة بيرويك - يوبون - تويد الحدودية حيث كانت أمها تعتني كثيراً

بحديقتهم الباردة والصغيرة. لكنّ إلحاد والدها لم يكن خافياً على أحد، على الرغم من اعتراضات أمها الاسكتلندية التي كان إيمانها البروتستانتي قوياً، ولم يتأخّر العميد الجديد في إبداء استيائه منه. وفي خلال شهرين فَقَدَ والدها عمله وشقته الوظيفية.

لحظة كانت سترفع الستارة لترتب سريرها وتأخذ حذاءها، رجاها والدها قائلاً:

– بيتي، اعتني بنفسك يا عزيزتي.

انتظرت لحظة. فوالدها لم يُبدِ عاطفة حقيقية نحوها من قبل، وكلمته «يا عزيزتي» قبضت قلبها مرة أخرى. عادت لتجلس إلى الطاولة مقابله لكي تنظر إليه وهو يضرب على الآلة الكاتبة. لقد ورثت شعره الكستنائي وعينيه الزرقاوين، ولكنها لم ترث، ولله الحمد، أنفه البارز ولا فمه ذا الشفتين الرقيقتين جداً. في تلك اللحظة بالذات، بدا في عيني بيتي كما كان يبدو لها دائماً: غريباً بجانبها، رجلاً تعرفه جيداً دون أن تعرفه أبداً. لقد نقلهم نقصُ المال من لندن إلى غلاسكو، حيث أشفقت جدة بيتي لأمها عليهم وآوتهم. لم يقدّم أحدٌ بعدُ لأبيها منصبَ معلّم، لكنه رفض أن يبحث في مجال آخر، فهو متشبثٌ بفكرة أن ذكاءه سيجعله ينتصر. إذن كان يعمل على كتابه، وهو واثق من أنه سيعجب أحد الناشرين حين ينتهي، وأن جامعةً ما في مكان ما من العالم سوف توظّفه. وجدّة بيتي تعتقد أن جهده ضائع. وإذا كانتْ أمها من هذا الرأي أيضاً فلن تقول عنه شيئاً.

لاحظ والدها أنها تراقبه فرفع عينيه وسأل بحيرة:

– بيتي؟

– هل تحبّني يا بابا؟

كيف استطاعت هذه الكلمات أن تخرج من فمها؟ فهي لم تكن تريد أن تلفظها.

– حسنٌ... أنا...

شعر بالارتباك فخلع نظارته ومسح زجاجها بنشاط بقميصه، وأضاف:

– نعم، يا بيتي.

– هل ستحبني دائماً، مهما فعلت؟

خفق قلبها بسرعة أكبر، وغزاها خوف بدائيٌّ، ذلك الخوف الذي يمكن أن يقرأه والدها في أفكارها.

– كما ينبغي لأبٍ أن يفعل.

نهضت. فكرت للحظة أن تداعب معصمه قبل أن تفطن وتقول كاذبة:

– أنا لست تعبة. أنا بخير.

أبقى رأسه مطأطئاً ثم قال:

– هذا أحسن. يجب أن أتابع عملي. فهذا الكتاب لن يُكتب من تلقاء نفسه.

رافقها صوت الآلة الكاتبة إلى داخل غرفتها حيث وجدت حذاءها وانتعلته. كانت أمها تشخر بهدوء، فرفع منظرُ وجهها الهادئ معنوياتها قليلاً. لم ترَ بيتي أمَّها تُبدي شيئاً آخر سوى هيئة تعبة وقلقة منذ زمن طويل. رأت بيتي مخطط فستان كانت تعمل عليه مثبتاً بدبابيس إلى الجدار، والورق الكستنائي يتدلّى من مسامير التثبيت التي يُفترض بها أن تثبته: إنها لم تعد تملك أية رغبة في الاهتمام بذلك منذ أن اكتشفت حملها. فلماذا تفصّل فستاناً لن تتمكن من ارتدائه إلا بعد زمن طويل؟

جلست على حافة السرير وأسندت ساعدها إلى بطنها. أية أسرار توجد في الداخل؟ وأي نوع من حياة جديدة تنمو فيه؟ عندما وافتها هذه الفكرة أصابها الخوف بالدوار. قطّبت حاجبيها بقوة آملة أن تنفرغ أحشاؤها من محتواها. ولكن لم يحصل شيءٌ من هذا من قبل.

الفصل الثاني

انصرمت الأسابيع والجنين بقي بعنادٍ في رحمها. ظنت للحظات أن لديها تشنجات لم تُظهر سوى ارتعاشات من الخوف. ومع مرور الزمن أخذت تشعر أكثر فأكثر بأنها مضغوطة في مشداتها، وبما أنها لطالما كانت نحيلة، بل ضامرة، فإن بطنها المنتفخ بدأ يظهر. الحمد لله أنها ترتدي فساتين واسعة تُخفي تفاصيلها ومعطفاً واسعاً، كان هنري يفضل أن يمارس الحب في الظلام وهي كانت تُحسن خلع ملابسها دون أن يتنبه أحد لذلك. لقد تشبثت بأمل أنها سوف تنزف بلا أدنى شك كما تخيلت ذلك مئة بل ألف مرة. الكابوس سينتهي والحياة سوف تستمر كما يجدر بها أن تفعل.

بات نزولُها من سريرها أكثر فأكثر صعوبةً. وذات صباح بارد من شهر نيسان بقيت بقيت لاطيةً تحت لحافها حتى أتت أمها لتوقظها بلطف قائلة:

– بيتي، بيتي، عزيزتي. سوف تتأخرين عن عملك.

قسرت بيتي نفسها على فتح عينيها. فأضافت أمها:

– أنا آسفة. ولكن لا أريد أن تُغضبي ربة عملك. الزمن صعب. وقد تفقدين عملك.

ردّت وهي تدفع اللحاف عنها وتفرك عينيها:

- شكراً ماما.

كانت أمها واقفة تسعل بقوة. بدا وكأن هذا الصوت لن يتوقف أبداً، ولكنها تمكّنت أخيراً من السيطرة على سعالها. في أثناء ذلك، ارتدت بيتي ملابسها بسرعة، ثم قالت لأمها:

- إن هذا السعال سيئ!

- سوف تتحسن حالي.

- ها قد مرّ أسبوع. ربما يجب عليك أن تراجعي طبيباً.

التفتت أمها نحوها بعينين حزينتين. وانخفض جفناها إلى الزوايا الخارجية كما لو أن ثقل همومها يستريح هناك.

- أنا لا نستطيع أن أدفع للطبيب يا ابنتي، ولا أن آخذ أي يوم عطلة. سوف أتحسّن بعد يوم أو يومين.

نظرت إليها بيتي وهي تجتاز زاوية الصالون وتمشط شعرها قليلاً وتتمكيج أمام مرآة صغيرة كابية اللون موضوعة على كدسة من الحقائب. ألا يرى والدها حالة أمها؟ ألا يفهم أنه لو كان لديه عمل حقيقي...؟ بالتأكيد هو لا يرى شيئاً. لقد تزوجت أمّها منه بسبب ذكائه، وبعد ذلك أصبحت سجينة هذا الذكاء.

المحل الذي تعمل فيه بيتي أربعة أيام في الأسبوع يعود لأنتونيا هانواي، أخت الشهير جيمس هانواي الذي يدير شركة خياطة في *باث لين*. ويحدو بيتي أملٌ دفين بأن تولد انطباعاً جيداً لدى أنتونيا لكي تستطيع أن تحصل ذات يوم على عمل عند جيمس: أن تصبح مصممة أو حتى خياطة.

كانت تحتفظ ببضع رسوم أولية مطوية في محفظة يدها فلعله يأتي ذات يوم إلى المحل. ولم يأتِ أبداً.

دخلت إلى المحل وهي ما تزال تتثاءب، ما سبّب لها نظرةً قاسية وجّهتها إليها ربّة عملها. أنتونيا امرأة صعبة حتى وإن كانت بيتي تعلم أن هذا ليس بإرادتها. يجب أن يأخذ الزبائن موعداً قبل المجيء إلى

المحل. لذا فإن بيتي والمساعدين الآخرين كانوا ينتظرونهم وكأنهم من أفراد العائلة المالكة. وقد يحصل أحياناً أن يكونوا منهم بالفعل. بيتي تفترض أن هذا القلق الدائم هو الذي يجعل العمل عند أنتونيا لا يُطاق. ولكنّ هذا لا يهمّها كثيراً، فهي تعشق هذا المحل. وإجهات العرض تنتظر في خطّ مستقيم على الأرض المقطّعة إلى مربّعات متناوبة الألوان. وحجرات القياس الموجودة في القبو مُنارة بشمعدانات ساطعة. وهناك كناري أصفر، اسمه ريكس، يرفرف بجناحيه في قفصه الحديدي وهو يتأمّل الشارع عبر النافذة الناتئة. قالت لها لورنا، وهي إحدى المساعدات، إن هذا رابع كناري يُدعى ريكس تضعه أنتونيا أمام النافذة، وشرحت لها:

– حين يموت عصفور، تأتي بعصفور جديد في اليوم التالي. هي لا تريد أن تواجه زبوناتها الموت، حتى وإن كان قدرهنّ جميعاً، تلك البقرات المتغطرسات.

تعلّمت بيتي أن تحبّ بعض الزبونات اللائي يرتدن محل كاميليا، ولكن هناك أخريات تكرههن حتى المقت، والليدي ميريام منشن تأتي في المقام الأول. فهي امرأة أربعينية ليست أثخن من سلك حديدي، تقتّر بالرقة مع الآخرين بكثير من السهولة بحيث أنها تنفق مالها لتقديم الهدايا. وقد كانت بيتي تخدمها صباح اليوم الذي أحسّت فيه بأول وخزةٍ في خاصرتها اليسرى.

في البداية ظنّت أن بوسعها تجاهلها. ذهبت لتُحضر فساتين مختلفة من واجهات العرض وأسرعت إلى إنزالها الواحد تلو الآخر إلى غرفة التجريب في القبو. استعاد قلبُها العامر بالأمل إيقاعه البطيء: فالحدث وقع، ومن المؤكّد أن الحمّامات الساخنة وزيت كبد سمك المورة والصلوات الدائمة قد فعلت فعلها أخيراً. وشعرت بالرعب، في الوقت نفسه. وإذا كان ذلك مؤلماً؟ وقذراً؟ فكيف ستُدير المسألة بكتمان في العمل؟

قالت أنتونيا لليدي ميريام: «أعتقد أن الفستان الأزرق يناسبك تماماً».
ثم استمزجت رأي بيتي التي تجتهد في إبداء هدوئها:
- ما رأيك يا بيتي؟
- القَصّة رائعة، واللون يناسب بشرتك تماماً...
انتابها تشنّج مؤلم في عمق بطنها، فلم تستطع الامتناع عن اللهاث والضغط على بطنها.
سألتها أنتونيا بنبرة جافة:
- ماذا بك يا بيتي؟
- أنا أتألّم...
هذا لا يمكن أن يحدث هكذا! فقد كان يُفترض بها أن تنزف بصمتٍ وبسرعة في البيت، قرب الحمّام. ويجب أن لا يعلم أحد أبداً.
مرّت دقيقة دون أن يحدث شيء. الحركة الوحيدة التي تنبّهت إليها هي نظرة الليدي التي انتقلت من وجهها إلى بطنها. تكوّرت بيتي، ففهمت الليدي ميريام.
- يجب أن أذهب إلى البيت.
تلفّظت بيتي بعسر مُديرةً ظهرها، ثم أسرعت نحو الدرج. فقالت أنتونيا التي قلقت بكلّ تأكيد من الانطباع الذي يمكن أن تتركه بيتي لدى الليدي ميريام:
- انتظري أيتها الفتاة!
فقالت الليدي:
- دعيها تذهب!
هربت، صعدت الدرج، خرجت من المحل، أسرعت في الشارع تحت رذاذ المطر.
وبعد لحظة، اختفى الألم، واستردّت أنفاسها.
يجب أن تعود إلى البيت! كان ما يزال أمامها ثلاثمائة متر لتجتازها حين أدركت أنها نسيت معطفها في المحل. أخذت ذراعاها ترتعشان،

واقشعرّ بدنُها. الشارع المظلِم والرطب والصاخب يمتدّ تحت قدميها. ومع ذلك فقد بدا لها صوتُ تنفسها أعلى من صوت السيارات.

ثم غزاها ألمٌ جديد، عنيف ومُمضٌّ، جعلها تنثني. قَسَرت رئتيها على الامتلاء بالهواء. هي تعرف أنها لا تستطيع أن تعود إلى بيتها وهي في هذه الحالة. فوالدها سيراها، وعلى أية حال هي بحاجة إلى طبيب.

التجأت تحت واقية أحد المحلات وحاولت أن تُنسق أفكارها. إن أبويها لا يملكان أجرة الطبيب: فقد أكدت لها أمها ذلك في الصباح نفسه. في تلك اللحظة، تذكرت يوماً كانت فيه في النادي، وكان هنري وبيلي وايلدر ثملَين إلى درجة أن أحدهما لم يقبل مزاح الآخر، فتشابكا بالأيدي. وكسر بيلي كأساً على رأس هنري الذي لم يتوقف نزيفه، فضغط منديلاً على جرحه وذهب في منتصف الليل إلى عند الدكتور ماكنزي في *ويست جورج لين* يرافقه بيلي الواجم تماماً. وكان الدكتور ماكنزي هو من ولّد هنري قبل ثلاثين عاماً، وبقي طبيبه منذ ذلك الحين. ربما إذا طلبت مساعدته واعترفت له بأن الطفل الذي هي في طور فقدانه الآن هو ابن هنري...

ولكنّ هذا سيسبّب الخجل والمتاعب لهنري.

الألم شديد، وهي بحاجة إلى مساعدة. غيّرت اتجاهها وذهبت صوب *ويست جورج لين*. اسودّت الغيوم في السماء، وتحوّل الرذاذ إلى مطر. مطر قوي وبارد يغسل المجاري وينبجس من حول عجلات السيارات التي تمرُّ بأقصى سرعة. التصقت بالأبنية لتتجنب طرش الماء. وأخذت وقتاً للوصول إلى مقصدها مبلّلة الحذاء. بقيت واقفة مبللة أمام عيادة الدكتور ماكنزي، غير قادرة على دفع الباب. لم يكن هناك من شرفة تلتجئ تحتها والمطر يهطل عليها حتى صارت كإحدى تلك السلال المليئة بالنفايات الجاثمة أمام العيادة عبر الشارع.

صعدت الدموع إلى عينيها، ولأول مرة، منذ أن اكتشفت حملها، تسمح لنفسها بأن تبكي مصيرها وفقدان براءتها وعزتها وما بقي لديها

من كرامة بعد الانحطاط الاجتماعي لأسرتها. لكنها تبكي أيضاً هذا الطفل الذي لم يطلب أن يُخلق والذي لن تكون له أبداً فرصة تنفس هواء فلاسكو الرطب ولا أن يشعر بلمسة أمه ولا رؤية ابتسامة عيني والده الرماديتين الغامقتين. إنها تبكي بين يديها والمطر يحاصرها ثم، وكما بفعل السحر، توقف دفق المطر فجأة.

– هل أنت بخير يا آنسة؟

رفعت عينيها. ما يزال المطر يهطل من حولها، لكنَّ رجلاً طويلاً عريض المنكبين كان يقف بجانبها، ثم ظللها بمظلته السوداء الواسعة.

مسحت بيتي دموعها واستردت أنفاسها ثم قالت:

– شكراً أنت لطيف جداً. أنا... يجب عليَّ أن أعود إلى البيت.

– هل أنت بحاجة إلى طبيب؟

وأشار إلى باب العيادة. نظرت إلى البناء قبل أن تلتفت من جديد إلى الرجل ثم هزّت رأسها وقالت:

– لا أملك ما يكفي من المال.

– أوه، لا بأس عليك. تعالي، لا أريد أن أدعك في الشارع، تحت المطر، وفي ضيق كهذا.

أخرج حزمةً من المفاتيح وفتح الباب وأدخلها، وسرعان ما أدركت أن هذا الرجل هو الدكتور ماكنزي. وضع مظلته في أصيص قرب الباب وطلب منها أن تنتظر في غرفة فارغة تطلُّ على الشارع. بقيَت هناك تقطر ماءً على الأرض بينما كان يفك أزرار معطفه. لم يكن هناك من أحد في الاستقبال. أمسك منشفة بيضاء وخشنة من الجانب الآخر من الكونتوار وناولها إياها، ثم قال:

– عادةً أنا لا أعمل صباح الخميس. فأنت محظوظة لأنك وجدتني.

مسحت شعرها. كانت رائحة قوية للملمع الشمعي بالليمون وللمرهم تفوح من الغرفة.

قال لها:

– تعالي من هنا.

وقادها إلى غرفة الكشف حيث يتدلى مصباح من طرف سلسلة فوق سرير ضيق. جلس إلى مكتبه، ولكنها شعرت بضيق شديد ولم تستطع إلا أن تبقى واقفة أمامه كتلميذة مشاغبة تنتظر عقاباً.

– هيا أيتها الفتاة، ما هي مشكلتك؟

أنا حامل و...

احمرّ خداها من الحرارة بينما أخذ جسمها يرتعش. أضافت أخيراً:

– أعتقد أني في طور فقدان الجنين. فلدي ألم فظيع...

لم يقطّب حاجبيه، ولم يُبدِ أية علامة استهجان. بل بالعكس، نهض وساعدها على الاستلقاء على السرير قائلاً:

– دعيني أرَ.

مسّد فستان بيتي المبلل قبل أن يجسَّ بطنها بيديه الصلبتين. راقبت وجهه القريب جداً من وجهها حابسة نصف أنفاسها.

سألها:

– هل تسمحين؟ يجب أن أرفع فستانك.

وافقت بإغماض عينيها. ثم توضّعت يداه الباردتين على جلدها العاري، ونزلتا إلى أسفل حوضها وهما تضغطان وتجسّان. ونزلتا بثقة إلى الأسفل، إلى المكان الذي لم يلمسه إلا أحدٌ سوى هنري. لكنَّ الوضع مختلف هذه المرة، فلا حرارة ولا تهوّر، بل برودة وآلية. قال لها الطبيب:

– ولكنك لا تنزفين. هل نزفت قبل الآن؟

– لا.

– كم عمرك؟

قالت كاذبة:

– إحدى وعشرون سنة.

- هل الألم الذي تشعرين به يشبه التقلصات التي تنتابك في أثناء الدورة الشهرية؟

شعرت بيتي بانزعاج شديد لأن عليها أن تتكلم عن أشياء كهذه لرجل. ومع ذلك فقد قالت:

- لا، إن الألم إلى الأسفل، وإلى الجانب الأيسر. في الواقع... أعتقد أن الألم قد اختفى من جديد.

أضناها الخجل والخوف، ولم تكن قد أدركت هذا من قبل.

عندما فتحت عينيها رأت أنها مرتدية ملابسها. وكان الدكتور ماكنزي قد اتخذ مكانه خلف مكتبه، لكنها بقيت على السرير.

- إنه لأمر عادي في هذه المرحلة من الحمل أن تشعري بالألم الذي تصفينه. جسمك يتهيأ للمخاض. وأربطة حوضك تتمدد. أنت شابة، لذا فإن هذا مؤلم بالنسبة إليكِ. فلقد أنهيت نموك للتو.

المخاض؟ هي لم تفكر به ولا ثانية واحدة. دار بها رأسُها.

- إذن ليس هناك ما يقلق أبداً. الجنين بحالة جيدة جداً.

ضربتها الصفةُ الحتمية للوضع على بطنها كحجر. قالت دون أن تتمكن من ضبط نفسها:

- لا!

امتلأت عيناها بالدموع من جديد، لكنها حبستها.

قطّب الدكتور ماكنزي حاجبيه وقال:

- أوه، لقد فهمت.

قالت وهي تنزل عن السرير، كما لو أن كل شيء يجري على ما يرام:

- أشكرك. ولن آخذ المزيد من وقتك...

لكنّ النشيج تملّك جسدها فأجلسها بيد مصمِّمة على كرسي قرب مكتبه قبل أن يناولها منديلاً. ثم قال:

- أنت لست متزوجة، أليس كذلك؟

- لا.
- وهل الوالد مطّلع على الأمر؟
فكرت بهنري، عملياً إن الدكتور ماكنزي يعرفه منذ نعومة أظفاره، وقالت:
- ليس بعد.
- يجب أن تقولي له.
وهدأ صوته وهو يضيف:
- لديك طفل في بطنك أيتها الفتاة. منذ ما يقارب الثلاثة أشهر. وحظوظك في إسقاط حملك ضئيلة جداً. هل تفهمين ما أقوله لك؟ ليس من مخرج الآن. عليك أن تقولي له.
أفلحت في أن تعترف بعد صمت طويل:
- إنه متزوّج.
ضغط على شفتيه فتحولتا إلى خطين عميقين اختفيا تحت لحيته، ثم قال:
- لقد فهمت.
- ومع ذلك يجب أن أقول له؟
- أيتها الفتاة، لا أعتقد أن لديك خيار آخر.
في الخارج، بدت الغيوم أعلى في السماء، وتوقّف المطر. عادت بيتي إلى محل كاميليا، متأهّبةً للاعتذار من أنتونيا، وإنقاذ عملها بشكل أو بآخر. فهذا ليس أوان البقاء بلا عمل. الناس جميعاً يتحدثون عن الانهيار الكبير. حتى كبار مموّني السفن أخذوا يترددون في تشغيل الناس. كانت بيتي تعرف أن عليها أن تتوسل. ضغطت على الجرس قبل أن تذهب إلى النافذة الناتئة لتلقي نظرة. ظهرت أنتونيا من القبو حيث توجد حجرات التجريب. عندما رأت بيتي اتخذت هيئة مكفهرة.
فتحت أنتونيا الباب مواربةً وسألتها:
- ماذا تريدين؟

– أريد أن أعتذر، فأنا...
– أنت مبلّلة كحساء. أنا لا أريد أشخاصاً مثلك في المحل، يا بيتي بلاكسلاند. فلديّ سمعة يجب أن أحافظ عليها.
اقترحت بيتي، وهي متنبهة إلى صوتها المجنون واليائس:
– سأذهب إلى بيتي لأغير ملابسي وأعود مباشرة.
– تغيّرين ملابسك؟ يمكنك أن تغيري ملابسك، ولكنك لا تستطيعين أن تغيري نفسك. لقد ساعدتني الليدي ميريام على فهم ما يحدث في محلي. أنت حامل. ولست متزوجة. والإشاعات تقول إنك على علاقة مع هنري ماك كونيل. هل الطفل هو ابنه؟ هو لديه زوجة، وأنت تعرفين.
قالت بيتي بتوسل يائس:
– من فضلك يا مدام هانواي، لا أستطيع أن أعود إلى بيتي دون أجر. إن عائلتي...
– كان يجب عليك أن تفكري بذلك قبل أن تطأ قدمكِ محلي مع مشكلاتك كلها. هناك دستة من الفتيات يتوسّلن إليّ كل يوم لكي أعطيهنّ عملاً، وما من واحدة منهنّ حامل. ليس لدي من مشكلة إلا الحيرة في الاختيار. فلماذا أُبقي عليكِ؟
– أرجوك... من فضلك!
– الليدي ميريام قالت لي صراحة إنها لن تعود إلى هذا المحل إذا بقيتِ. ويجب أن أفكر في تجارتي.
جفّ حلق بيتي. لا بدّ أن هيئتها تائهة لأن أنتونيا هدأت بعد لحظة وقالت:
– أنا آسفة يا صغيرتي.
كان صوتها هادئاً. ولم تنظر إلى عيني بيتي وهي تضيف:
– ولكنك لن تضعي قدمك في محلي.
ثم أغلقت الباب.

الفصل الثالث

شهيق، زفير

وجدت بيتي نفسها في الشارع، تحت النادي. هذا المساء، سوف تُخبر هنري. تنفسها يشكل سحابة أمامها. إنها قلقة وبطنها يزعجها. حاولت أن تفهم لماذا هي تخاف منه، فهو يحبّها. هذا ما يقوله على أية حال. حاولت أن تُقنع نفسها بأنه سيساعدها وبأنه لن يغضب. أنفقت وقتاً أكثر من المعتاد على مكياجها، وعلى رسم نظرة عميقة وهادئة، وشفتين حمراوين ومنتفختين. إذا وجدها جميلة فإنه سيكون لطيفاً معها، وسيُشفق عليها.

كيف وصلت إلى هنا، إلى تمنّي الشفقة؟ فلطالما كانت فخورة بأحلامها الكبرى وبضحكتها الرنّانة وبانطلاقها وبجرأتها. بينما هي تقف الآن في الشارع وسط روائح اللحم المشوي ودخان السجائر المتصاعد من المطعم، أدركت بهلع أن هذا لم يكن سوى مظهر للغرور الطفولي. فبعد كل شيء، إن الكلام عن مشاريعها الكبرى أسهل من أن تفعل أي شيء لتحقيقها. ومن الأسهل الاختلاف مع كورا. فإن ملاحظاتها اللاذعة وثقتها الوقحة بنفسها، بلتر من الكحول في الدم. في الحقيقة ما هي إلا سوى فتاة مسكينة، ضئيلة بصورة غريبة، نتاج أم ضعفها مبالَغ فيه،

وأب يحمل مُثُلاً عليا غبية. بدت هذه البديهية لبيتي بقوةٍ جعلتها تكاد تدور على أعقابها وتهرب.

ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً. في الوقت الحاضر، يجب أن يعتني بها شخص آخر سواها. فهذا الطفل الذي شعرت بحركاته في بطنها، هذا الصباح بالذات، بحاجة إلى أب.

كانت الدرجة الأولى من الدرج هي الأصعب ارتقاءً، ثم تعرّفت إلى رائحة السيجار، وإلى أصوات الضحكات التي تنفجر هذا المساء أقوى بكثيرٍ من المعتاد، فصعدت باتجاهها. أخذ قلبها يخفق بشدة في صدرها. سوفً تخبر هنري، وبعد ذلك، لا تهم الطريقة التي سينهار بها العالم، وهو سينهار على أية حال.

لم تتوقّع أن يكون هناك احتفال.

النادي مستنفر. فهناك أشرطة الزينة موصولة من طرف القاعة إلى طرفِها، على مقربة خطرة من المدفأة. واختفت طاولة القمار، وحلّت محلّها طاولة طويلة تتبختر عليها أصناف الطعام. ألقت نظرة سريعة في القاعة بحثاً عن هنري. وهي لا تريد أن تكون مضطرة للكلام مع أي شخص آخر. فشفتاها ليستا مستعدّتين إلا للفظ جملة واحدة: «هنري، أنا حامل». ولكنها لم ترَ أثراً لهنري.

قال لها تيدي وايلدر، كان يرتدي بنطالاً بسيطاً جداً وكنزة شيتلاند، ذات أشكال هندسية، وخدّاه أحمران لامعان:

– ادخلي إذن يا بيتي! إنه احتفال وداع، ونحن بحاجة إليك في البار حالاً.

– وداع؟

قفز قلبُها في صدرها. فهنري سيرحل. إنه سيهرب مع كلبه السلوقي الإيرلندي. سألت بوجل:

– من سيسافر؟

أجاب تيدي وهو يخنق ضحكته:

- ليس شخصاً عزيزاً عليك، فلا تقلقي، بل هو أخي بيلي. إنه سيركب السفينة بعد غدٍ مسافراً إلى أستراليا.

ثم وصلت كورا. أمسكت يدُها البيضاء الباردة بيد بيتي. سحبتها إلى البار وصرخت ليعلو صوتُها على صوت موسيقى الجاز المنطلقة من الفونوغراف:

- هل سمعتِ؟ بيلي سوف يسافر!

لم يُخفِ صوتُ كورا حماستها، فهي تحتقر بيلي. ومعظم الناس يحتقرونه. فهو غريب الأطوار وصفيق ومغرور. وتقول الإشاعات إنه يتعامل مع عصابة شوارع، وإنه يدخّن الأفيون، ويعاشر المومسات. ولا تعرف بيتي ما إذا كانت هذه القصص صحيحة حقاً.

أخذ تيدي يصرخ ويضحك مع صديق آخر، بينما تشبّثت بيتي بكورا وسألتها:

- أين هنري؟ يجب أن أكلّمه.

- لم يصل بعد. سيجارة؟

هزّت بيتي رأسها بالرفض. فأضاء وجه كورا. رفعت ذقنها بحيث يستطيع الجميع أن يروا صدرها الأنيق الأبيض، وقالت:

- إن بيلي متهم بتزوير الأرقام عند برودمور.

حوّلت بيتي انتباهها إلى كورا، وفي هذه اللحظة هنري غير موجود. شجاعتها بدأت تتلاشى. إنها تأمل أن يبقى لديها منها عندما يصل. قالت:

- تزوير الأرقام...؟

- تماماً، بتزوير الحسابات. وهو يهرب قبل أن تقبض عليه الشرطة. وقد أوجد له والده عملاً عند صديق في تاسمانيا، في طرف العالم، حيث المكان الذي يليق به.

ثم ألقت نظرة من حولها لتتأكّد من أن أحداً لا يستمع إليها وأضافت:

- إنه مذنب يا بيتي. هذا مؤكّد. وقد قال ذلك لتيدي. فقد وضع مائتي جنيه في جيبه.

- هل لهنري علاقة في ذلك؟

فبيلي هو المشرف على هنري ويعمل في حسابات شركة نقل.

هزّت كورا رأسها بقوة، وقالت:

- لا، فهنري لم يتبعه. لكن بيلي رجل سيئ، وأنا مسرورة لرحيله.

قسرت بيتي نفسها على الابتسام وقالت:

- سوف يشتاق إليه تيدي، إذ سيشعر بالوحدة.

قالت كورا وهي ترفع حاجبيها بحركة معبّرة:

- تيدي بصحة جيدة، وسوف أهتمّ به.

لم تستطع بيتي أن تنظر إليها. فلماذا هي التي حبلت وليس كورا؟ ظلّم الوضع ينهشها، فشعرت فجأةً بحاجة إلى الابتعاد عن كورا التي تتمتّع بصدر وبطن رائعين. استدارت وأخذت تجري، مطأطئة جداً، ومبعِدةً الناسَ من طريقها. صرخت كورا باسمها بصوتٍ آمر، ولكنها تجاهلت صوتها، ككل الأصوات والضحكات الأخرى والحضور الظالم.

عندها لحق بها.

- بيتي؟

- هنري؟

الارتياح والخوف امتزجا في صوتها.

- ماذا بك؟ فأنت شاحبة جداً.

- أنا...

استردّت أنفاسها، وأضافت:

- يجب أن أكلمك الآن.

- ها نحن نتكلّم.

- لا. يجب أن أقول لك شيئاً مهمّاً.

ثم كنست القاعة بنظرة تائهة، وأضافت:

- على انفراد.

قطّب حاجبيه مُظهراً تعبيراً تعرفه بيتي جيداً. إنها تحب وجهه الجاد وعينيه الذكيتين. هي تحبّهما بقدر ما تتألّم منهما. قسرت نفسها على الأمل. فهو يعرف ما العمل، وسيساعدها.

- حسنٌ، موافق.

قال قبل أن يمسك بمعصمها برفق. اقتربا من القاعة الخلفية. دفع هنري الباب، لكنهما فوجئا بزوج آخر، نصف عاريين، على المقعد. أطلق شتيمة ثم أغلق الباب.

قال دون أن يترك يدها:

هيا بنا إلى الخارج!

شقّ طريقاً لهما بين الحضور، ثم قادها إلى الدرج. طمأنتها يدُه المصمّمة: فقد أخذ ينتابها إحساس غريب من الهدوء والقبول، كما لو أنها في حلم. ومع ذلك، فقد كان هواء الليل بادراً وهي لم تأتِ بمعطفها. شمت رائحة المطر وهو على وشك الهطل ورائحة غازات عوادم الحافلات في شارع دوغلاس.

سألها هنري موجّهاً إليها نظرته الرمادية والهادئة:

- ما الأمر؟ و

تلذّذت بتلك اللحظة. فهي هائمة بحبّه. والحب سيحلّ كل شيء. لكن الرياح الباردة التي هبّت ذكّرتها بذراعيها العاريتين وبالجنين في بطنها.

- هنري، أنا حامل!

تجمّد، تمثالاً. وعلى الرغم من الظلام، رأت بؤبؤيه يتقلّصان. ولأول مرة منذ تعارفهما يبدو حائراً. مرت ثانية، ثانيتان، ثلاث. تبخّرت الثقة التي كانت تشعر بها بيتي. لم يتحرّك، ولم ينبس بكلمة. شعرت بدموعها تصعد، وتخز عينيها، ثم بارتياحٍ كبير عندما تشكّلت وأخذت تسيل.

قال بكل هدوء وحنان أرعباها:

- أوه، يا بيتي!

- أنا آسفة. حقاً أنا آسفة.

كما لو أنها هي وحدها المخطئة، وكما لو أن لديها شيئاً مؤذياً لا يسير بشكل جيد، وأنها المسؤولة عن حملها، وكما لو أن لا علاقة له بهذا كلّه.

- لا، لا، أنا الآسف. أنا لا أستطيع....

طأطأ رأسه وزمّ أنفه، ثم هدأ وقاطع بصرها، وقال:

- عزيزتي، أنا متزوّج من امرأة أخرى، كما تعرفين.

تجمّد دم بيتي، فقالت:

- ولكن وأنا؟

- مولي زوجتي، وليس من السهل...

- أوه يا إلهي، أوه يا إلهي...

وابتعدت عنه وهي تترنّح. فغريزتها توسّلت إليها بأن تهرب.

ولكنه لحق بها، وجذبها إليه، وغطّى بالقبل وجهَها المبلّل بالدموع.

- أحبّك، أحبك، ولكن الحقيقة هي أن مولي لا تقبل الطلاق.

- ماذا يجب عليّ أن أفعل؟

شهقت بيتي، ثم أضافت:

- لقد فقدتُ عملي، ولا أستطيع أن ألبّي حتى حاجاتي، فكيف أهتم بطفل...

- سوف أساعدك إذا استطعت. أرجوك أن تهدئي، ولا تتكلّمي بصوتٍ عالٍ، يا عزيزتي. من فضلك، اهدئي وقولي لي: هل يعلم أحدٌ آخر بهذا؟

- كورا.

- وهل أخبرَتْ تيدي؟

أخذ هنري شهيقاً عميقاً، ثم قال:

– هذا ما سنفعله: سوف نصعد ونأخذ معطفك، وسنقول للجميع إنك تشعرين بتوعّك، وإنك ستعودين إلى البيت. ويجب ألّا تعودي إلى النادي قبل فترة طويلة.

– ولكن...

– أنا بحاجة إلى بعض الوقت فقط. لكي أنظّم أموري. أنتِ تثقين بي، أليس كذلك؟

فراغ كبير حلّ بداخلها. لا، إنها لا تثق به. بالتأكيد لا. لهذا السبب استغرقت هذا الوقت لكي تقول له الحقيقة. ها هي تدرك ذلك الآن، وها هو ألمها يتضاعف.

سألها:

– هل ستفعلين ما قلته لك؟

أي خيار آخر لديها؟ هزّت رأسها، دون أن تتمكن من لفظ كلمة «نعم».

مضى أسبوعان دون أي خبر عن هنري. وكل يوم تغوص أكثر في عدم اليأس. كل صباح ترتدي ثيابها وتخرج من الشقة لئلا يفهم أبواها أنها لم تعد تعمل. وقد انتهى بهما الأمر بأن اكتشفا ذلك، يوم فتشت أمها عن المال في حافظة نقودها دون جدوى. كل يوم تمشي على غير هدى حتى تورمت قدماها وتصل إلى *غلاسكو غرين*، حديقة المدينة. في كل مكان، المدينة تتطور: نباتات خضراء وكثيفة من البتولا والزيزفون، وأزهار برية بألوان فاقعة على طول أرصفة الكلايد، وإوزات تتبختر متبوعة بفراخها بقوائمهم الخرقاء. وفي جسمها أيضاً، جنينها يرفس رفساتٍ صغيرة جدارَ بطنها الذي كبر بطريقة واضحة وأخذ يستدير بشكل حتمي.

في أثناء نزهاتها عبر غلاسكو، سكنتها صور أخرى أيضاً. نساء يرتدين الأسمال وليس لديهن بيوت، وأطفال قذرون يتسولون المال والطعام، كومة من البطانيات القديمة الرثة تنتظر استقبال مالكها بالنسبة

إلى الليل، في أحد الزواريب. خيالها الذي لم تكن تستخدمه فيما مضى إلا لكي تحلم بفساتينها ونجاحها، أخذ يذرع من الآن فصاعداً الشوارع الصغيرة دون إذن منها. إنها تجد نفسها، مع ابنها، سجينَيْ بردٍ شتوي سوف يهبط عليهما قريباً كظل أسود. استشرفت مستقبلاً مظلماً، محكوماً بالجوع.

كانت تعود إلى بيتها كل مساء عند غروب الشمس. فتجد والدها ما يزال أمام آلته الكاتبة. وأمها تخلع حذاءها لتريح قدميها التعبتين في نهار من العمل في المغسل. لم تكن الكلمات تخرج من فمها، لكن عينيها كانتا تتوسلان زوجها لكي يجد عملاً حقيقياً. انطوت بيتي على نفسها ولم يريا شيئاً في ذلك.

ولم تتصل بها كورا لكي تعرف أخبارها. لقد فوجئت بالحزن الذي سبّبه لها هذا. هل كانت صداقتهما قليلة الأهمية إلى هذا الحد في نظر كورا؟ منذ اليوم الذي عرفت فيه أن بيتي حامل، لم تسألها عن حالها ولم تعرض عليها مساعدة. بدا وكأنها أغفلت مشكلتها كلّياً وها هي الآن قد نسيت بيتي بالسرعة نفسها.

أخذت بيتي تنتظر. إنها تنتظر هنري. تنتظر أن يعرف أبواها أنه لم يعد لديها عمل. تنتظر أن يكبر بطنها كثيراً بحيث أن فستانيها لا تعود تستطيع إخفاؤه. تنتظر أن يهبط الحكم عليها.

وذات صباح، هبط الحكم.

كانت بيتي في الحمام. ولحظةَ خروجها من المغطس ذي الميناء المخرب والصنابير الصدئة دخلت أمُها.

كان دخولها مقصوداً بكل تأكيد. فقد ساورها الشك وهي تعلم أن بيتي هنا. قفل الباب لم يكن يعمل منذ أشهر، لكنَّ كل سكان البناء الذين يستخدمون الحمام اعتادوا على ترك خفهم أمام الباب ليدل هذا على أن الحمام مشغول.

سعت بيتي لإيجاد منشفة. عارية، من المستحيل عليها أن تُخفي بطنها المنتفخ. وبعد أن دخلت أمها، أغلقت الباب برفسة، تقدمت بسرعة وسحبت المنشفة بحركة قوية. ثم أمسكت يدي بيتي وأبعدت ذراعيها بعنف.

– ماما!...

عبرت نظرتُها جسم بيتي من رقبتها إلى فخذيها، ثم أفلتت يدي ابنتها وأخذت تنظر إليها شذراً.

قالت بيتي، دون أن تلمح أية شفقة في عيني أمها، بل لمحت ذعراً:

– أمي، أنا آسفة!

– يجب أن تذهبي.

– لا! ماما، لا تطرديني!

– «يجب ألا يعرف أبوك هذا أبداً. يا للعار! يا للعار!» وضربت أمها بيديها على فخذيها كعصفور وقع في فخ، وقالت: «ارتدي ثيابك، واذهبي!».

التقطت بيتي منشفتها وشدتها على جسمها وقلبها وحلقها جافان. قالت:

– ولكن ليس لدي أي مكان أذهب إليه.

– لا يهمّني!

أصبح صوت أمها هستيرياً وهي تقول:

– والدك سوف يموت من العار. ولن يحصل أبداً على عمل لائق إذا عرف الناس أن ابنته هي... هي...

لم تستطع أن تجد كلمات وأنهت جملتها بسعال قوي جاف.

– ولكن أنا...

تلَقت بيتي صفعة قطعت احتجاجاتها. رفعت عينيها نحو أمها لترى نظرتها المجنونة.

– ماما؟

حاولت أن تُمسك يدي أمها التي ابتعدت بعنف.
- لا، دعيني بسلام. هذا قاس جداً هكذا.
«مشروع ذكرى راود بيتي فجأة. صورة أمها وهي تمشّط شعرها قبل المدرسة، ذات صباح. كان الثلج يتساقط في الطرف الآخر من النافذة. كانت يدا أمها حارتين، وهي تدندن أغنية فلكورية اسكتلندية قديمة. هذه الذكرى تتناقض بقسوة مع اللحظة الحاضرة بحيث أن بيتي شعرت بانقلاب معدتها، كما لو أنها ستتقيأ».
- لا تستطيعين أن تفعلي هذا. فأنا ابنتك!
ردّت الأم بقسوةٍ بالغة:
- لا! أنت لست ابنتي. نحن لم يعد لدينا بنت.

***

الهواء كثيف في الخارج. كانت بيتي ترتدي ثياباً سميكة، ولكن باستثناء حافظة النقود التي رمَتْها لها أمها في قفص الدرج، كانت يداها خاويتين عندما ابتعدت عن البناء بأقصى سرعة. بعد بضعة شوارع توقفت وقلبها يخفق، وهي مترددة أي مكان تقصد. مكتب هنري لكي تتوسل إليه؟ بيت جدتها، في *تانوش سايد*، بحديقته الخربة حيث الطحالب تنمو أكثر من العشب؟ أو الزاروب الأكثر جفافاً والأكثر حرارة تجده لكي تستعد لضياعها؟ بقيت في مكانها دقائق طويلة وعصيبة. حتى بدا لها العالم يدور بها.
في ذهنها، هناك شخص واحد قد يعرف ما العمل. إنه كورا.
لم تزر بيتي كورا من قبل، ولكنها تعرف أين تسكن. فقد دلّها هنري ذات مساء بينما كان يوصلها إلى بيتها مشياً على الأقدام. وهو بيت عسلي اللون مبني من الحجر الرملي في *وودلاندز تيراس*. كان والد كورا ملك النقليات البحرية، ويمتلك أراضي أيضاً. قسرت بيتي نفسها على

عدم التفكير في الكيفية التي ستكون عليها حياتها لو أنها تمتلك بيتين مثل هذا وليس شقة صغيرة، ولو أن لديها أباً يؤمّن لها حاجاتها.

وصلت لاهثة، إلى أسفل درجٍ خارجي واسع، ثم توقّفت لتسترد أنفاسها. إنها لم تُدرك حتى أنها ركضت. شمس الصباح ثقبت الغيوم والرطوبة التي تركها مطر الليلة السابقة الذي تبخّر. في الحديقة كانت العصافير تغرّد جماعياً. انتظرت بيتي حتى تباطأت دقات قلبها، ومسحت وجهها المغطّى بالدموع براحة يدها، ثم صعدت الدرجات وضغطت على جرس الباب.

انفتح الباب الثقيل مُصدِراً صريراً. والتفت إليها رأس كارهٌ تحت قبعة بيضاء رخيصة. سألت المرأة العجوز:

– نعم أيتها الفتاة؟

– أتيتُ لرؤية كورا.

رفعت المرأة العجوز، الخادمة، برأي بيتي، حاجبيها وسألتها:

– ومن أنت؟

– أنا اسمي بيتي، وأنا صديقة كورا. من فضلك، أنا بحاجة لكي أكلّمها بضع دقائق فقط.

– انتظري هنا.

قالت لها الخادمة قبل أن تعيد إغلاق الباب.

بدا لها أنها ستنتظر ساعات. في البعيد، أصوات السيارات أخذت تعلو. ها هو نهار عادي يبدأ بالنسبة إلى الآخرين. وبدأت بيتي تعتقد أنهم بدؤوا ينسونها. ثم انفتح الباب من جديد وظهرت كورا.

– يا إلهي، بيتي بلاكسلاند! ما تزال الساعة التاسعة صباحاً.

– أنا آسفة، آمل ألا أكون قد أيقظتُك، ولكني لا أعرف إلى أين أذهب.

– لا بأس عليك. هيئتك مرعبة! هل أكلتِ؟ أستطيع أن أصنع لك الشاي.

– أنا...
مرتجفةً، أخذت بيتي نفساً عميقاً لئلا تبكي وقالت:
– أتمنى أن أشرب كأساً من الشاي.
– ادخلي. انتبهي إلى الدرجة الصغيرة هنا. إنك لا تضعين أدنى حد من المكياج. وجهك كئيب. هل تريدين أن أجلب لك أحمر شفاه؟
لم تكف كورا عن الكلام وهما تجتازان مدخلاً طويلاً، ودخلتا إلى صالون نوافذه تصل إلى الأرض.
– ها قد وصلنا. اجلسي هنا، سأجلب لك الشاي، وبعد ذلك، سوف تروين لك كل ما حدث.

انتظرت بيتي في هذه الغرفة الهادئة والمشمسة. إنها لا تعرف ماذا تفعل بيديها. وُلد لديها انطباع بأنها خرجت من جسدها، وبأنها تنظر إلى نفسها من بعيد. فلا شيء من هذا يمكن أن يكون واقعياً. شعرت أنها صغيرة جداً حين رأت معصميها الدقيقين والشاحبين، إنهما معصما طفل. عادت كورا حاملة صينية، وفي فمها سيجارة. وضعت الصينية وصبّت فنجاناً لبيتي، شاياً قوياً.
جرعت بيتي منه جرعةً فحرقت لسانها.
سألتها كورا مصدرةً تكشيرة محبّبة:
– ماذا حصل لك؟ ظننت أنكِ لم تعودي تريدين أن تريني. لقد تركتِني فجأة يوم ذلك الاحتفال، ولم تعودي بعده إلى النادي.
– لقد منعني هنري من العودة إلى هناك.
– صحيح؟ لماذا؟
– بسبب الطفل.
– الـ..؟

ركّزت انتباهها إلى بطن بيتي، وجحظت عيناها. وأضافت:

- عزيزتي بيتي، أما تزالين حاملاً! لقد ظننتُ أنك تخلّصتِ من هذا الطفل. فأنتِ لم تلمّحي إليه بعد ذلك.

لم تستطع بيتي إلا هزّ رأسها، ثمّ زمّت شفتيها لتحبس دموعها.

- وماذا حدث بعد ذلك؟ هل أتى لرؤيتك؟ وهل سيهتم بك؟

- قال إنه سيفعل ذلك، ولكني لم أعرف أخباره. فزوجته....

- يا لها من بقرة عديمة الفائدة! إنها لا تستطيع حتى أن تنجب أطفالاً! يجب عليها أن تدعه يذهب.

طوّقت كورا كتفي بيتي بذراع حانية ثم سألتها:

- بماذا يمكنني أن أساعدك؟

- لقد طردتني أمي. ولا أعرف إلى أين أذهب. هل يجب عليّ أن أرى هنري؟ ولكني لا أريد أن أعقّد له حياته...

- ولم لا؟ فقد جعل حياتك صعبة جداً، هو.

سحقت كورا سيجارتها نصف المستهلكة بيدها الحرة. ثم قالت:

- لا، لا تذهبي لرؤية هنري، فسوف يعاملك معاملة سيئة.

- إنه ليس سيئاً إلى هذا الحد. فهو رجل جيد، إنه...

أسكتتها كورا إذ رفعت يدها البيضاء وقال:

- هناك فئتان من النساء على الأرض، يا بيتي: من يفعلن الأشياء، ومن يدعن الأشياء تُفعَل. فحاولي أن تنتمي إلى الفئة الأولى.

ثم نظرت مباشرة إلى عيني بيتي وأضافت:

- أنا أعرف مكاناً في شمال إنكلترا، تُديره صديقة لخالتي. الفتيات من أمثالك يذهبن إليه، ويلدن أولادهن فيه، ويتركنهم لكي يُتبنّوا.

ويمكنك أن تعودي إلى غلاسكو في عيد الميلاد، وكأن شيئاً لم يكن. ويمكنني أن أرتّب لك كل شيء.

دار رأس بيتي. فكورا هنا لتقترح عليها كل ما تحتاجه: مكان تذهب إليه، وطمأنينة، وخيّرتْها في أن تُصبح أماً. ومع ذلك، فقد تغيّرت بيتي. ببطء ولكن بثقة، أصبح قدرُها محتوماً، وانتهى بها الأمر بأن صارت تشعر بحنان تجاه الطفل الذي يكبر في رحمها. هذا الشعور المتين كخيط حرير، كان يربطها بطفلها.

قطبت كورا حاجبيها ثم سألتها:

– ألم تستوعبي فكرة الاحتفاظ بالطفل بعد؟

كانت بيتي يائسة، إما أن تفعل ما عرضته عليها كورا، أو تذهب إلى الدمار بخطا حثيثة. اجتهدت في اتخاذ صوت قوي ثم ردّت:

– بكل تأكيد لا. فأنا لم أُرد هذا الطفل أبداً.

الفصل الرابع

من نافذتها في موركومب *هاوس*، ميّزت بيتي سطوح الأبنية التي تسدّ عليها منظر البحر. مرة في الأسبوع فقط، يوم الثلاثاء، تنزل الفتيات الأربع عشرة المقيمات هنا إلى الشاطئ، في نهاية النهار، لئلا يُصدم أحدٌ من عدد الأولاد غير الشرعيين الذين سيولدون. يجمعن القواقع، ويرتّبنها في محافظ أيديهن، ويضعن أقدامهن في البحر المتجمّد، ويُخزّنّ أكبر كمية من الهواء النقي حتى يحين خروجُهن المقبل.

بيتي تحب أن تفتح النافذة ولو بضع سنتيمترات، ولكن درفاتها مثبّتة بمسامير. وعلى السطح المقابل نورسٌ ريشه مشعّث بفعل الرياح التي تهبّ على البحر كل مساء، عند الأصيل. وضعت يدها على بطنها. فطفلها يتحرّك ويرفس في الداخل.

ولكنه لم يعد ابنها. فقد قالت لها المديرة إنهم وجدوا عائلة للطفل، زوج من المسيحيين الأفاضل أتيا من دورهام، ولديهما من قبل ابنتين بالتبنّي، ويأملان الآن أن يتبنّيا صبياً. أعطتها المديرة هذه المعلومة بنبرةٍ قاسية، كما لو أنها تحذّرها من أن ليس لها مصلحة في أن تلد بنتاً. اجتهدت بيتي بأن لا تفكر في جنس الجنين: فمعرفة ما إذا كان صبياً أو

بنتاً تجعله واقعياً جداً، ومحدّداً جداً. وبما أن عليها أن تترك هذا الطفل، فمن غير المفيد أن تتخيّله بالتفصيل.

كانت ستعطي كل شيء في هذه اللحظة، للاستفادة من حنان أمها، وحكمة أبيها. وهي تجد نفسها هنا، على وشك وضع طفل، بينما لطالما تخيّلت نفسها طفلة. فتية ومروّعة، تحلم بأن تواسى. ولكن لا مكان للطمأنة في موركومب *هاوس*. ولا يُقدّم لها كل يومٍ سوى عبارات عن العار.

تحوّلت بيتي عن النافذة، وأمسكت كتاباً. المديرة لا تسمح لهنّ بأن يقرأن في غرفهن إلا الكتاب المقدّس والأعمال الكلاسيكية. لم تكن بيتي ترغب في قراءة الكتاب المقدّس، وكانت تشعر بكثير من السأم في قراءة كاتب كلاسيكي. ولكنها أفلحت أخيراً في إيجاد رواية لتشارلز ديكنز استرعت انتباهها. فاستلقت على سريرها، وركّزت في المطالعة.

الغرفة صغيرة وباردة في فصل الخريف. ولدى وصول طفلها لم يكن يوجد سجادة لعزل برودة الأرض، ولا ورق جدران ولا لوحات تقاوم برودة الجدران الأربعة في هذه الغرفة التي تذرعها بانتظار ساعة الغداء بعد أعمال السخرة الصباحية، وكذلك ساعة العشاء بعد الأعمال اليدوية. كان سريرها مرتّباً، ولكن سرير ديليا ليس سوى كومة من الشراشف الفوضوية. ديليا تقاسم بيتي غرفتها منذ وصولها، قبل ثلاثة أسابيع. مساء الليلة الماضية، أخذت ديليا تبكي وتنتحب. وأُخذت لتضع طفلها. وبيتي نصف نائمة، رأت أحلاماً امتزج فيها الدم بالموت بصراخ أطفال. كانت أعصابها متوفزة، ولا تستطيع التركيز على الجمل التي تقرأها.

فُتح الباب بحركة قوية، فرفت بيتي عينيها لترى ديليا مرتدية فستاناً حائل اللون حتى بدت أزهاره الحمراء رمادية.

– ديليا؟ هل عدت؟

سألت وهي ترفع تنهض. أبدت ديليا ابتسامة متشنّجة، ابتسامة تحاول إخفاء جرح عميق:

- لقد قُضي الأمر.

ألقت بيتي نظرة على بطن ديليا الذي تعرفه مستديراً يكاد ينفجر، فلم ترَ إلا حدبة صغيرة تحت فستانها. سألتها:

- هل...

قاطعتها بصوتٍ قاسٍ، وسأخرج بعد أسبوع:

- لقد تمّ الأمر.

- والطفل؟

- لم أرَه. فقد وضعوا... وضعوا... شرشفاً أمام عيني...

ارتعشت ابتسامة ديليا ثم انتحرت وهي تقول:

- حتى إني لا أعرف ما إذا كان صبياً أم بنتاً.

جلست بحذرٍ على سريرها ثم تمدّدت.

انقبض قلب بيتي وهي تسأل:

- هل سمعتِ صوته؟

ثم أسرعت إلى جانب ديليا، وأبعدت شعرها عن وجهها، فأجابت:

- صوت ضعيف جداً، كمواء هر.

عادت ابتسامتها وهي تقول:

- أما الآن، فقد انتهى الأمر، وسأعود إلى بيتي في الأسبوع القادم، وسأتمكن من أن أعيش حياتي المعتادة، والحمد لله.

أبعدت يد بيتي، وتشبّثت بالشرشف. فسألتها بيتي:

- هل هذا مؤلم؟

- ألم فظيع. دعيني الآن. يجب أن أنام.

نهضت بيتي وعادت إلى النافذة، ووضعت جبينها على زجاجها البارد. مخاضها لن يتمّ قبل عدة أشهر، ولكنها متحجّرة منذ الآن. طفل ديليا ذهب. هذا الجزء من الحياة الذي نما مرتبطاً بها، ها هو الآن بين يدي شخص آخر، وأحشاؤها انفرغت. بكت بيتي لهذه الفكرة، وتركت

دموعها تسيل على خدّيها، وهي مدركة أنها لا تبكي حظّ ديليا، بل حظها هي.

اتّخذ البحر اللون الرمادي، ومساحات واسعة من الزبد تتموج على الشاطئ حين سلكت الفتيات الطريق. ألقت بيتي نظرة إلى السماء الداكنة وهي تمسك بقبعتها بيد قوية لئلا تطير. لا بدّ أن المطر سيهطل. وخروجهم الأسبوعي سوف يُختصر، وسوف يعدنّ إلى موركومب *هاوس* في وقت أبكر من المتوقع. وقد تكون لديهنّ وظائف إضافية يجب أن يقمن بها حول الكتاب المقدس لكي يكفِّرن عن خطاياهنّ.

صرخت المديرة بهنّ وهنّ منتشرات على الشاطئ:

– اذهبن واستنشقن قليلاً من الهواء النقي، أيتها الفتيات!

الفتيات اللواتي كنّ على وشك الوضع جلسنّ منهكات خائفات يتأملن الأمواج الرمادية. أما اللواتي ما تكاد بطونهن تظهر فقد ركضنّ حتى لامسن الماء وبلّلن فيه أصابع أقدامهن. واللواتي وصلن إلى وسط حملهن، مثل بيتي، أخذن يتنزهن على طول الشاطئ بحثاً عن قواقع أو قطع زجاج ملونة أو يكون الملحُ قد صقلها. صممت بيتي على الاستفادة من هذه الاستراحة في الهواء الطلق فمشت بخطوات سريعة على الرمل الرطب. هواء البحر ودقات قلبها خفّفا دماغها المخدّر بعد ساعات من الحصر في ردهات مظلمة تفوح منها رائحة الملفوف.

في البعيد، ميزت خيالاً إلى جانب الشاطئ. لم تُعره انتباهها في البداية، إلى أن رأت يداً ترتفع كما لتُصدر إشارة نحوها. حركة خجولة. بطّأت سيرها. إن رجلاً يرتدي بدلة رمادية ووجهه مغطى بقبعته، يشير إليها.

ألقت نظرة من فوق كتفها. الفتيات الأخريات بعيدات عنها بحوالي عشرين متراً إلى الوراء ويبدو أن لا أحد لاحظ وجود هذا الرجل. التفتت إليه وأخذ قلبها يخفق: فقد عرفته حتى قبل أن تتأكد عيناها منه.

هنري.

تجمدت بيتي. فهي لا تستطيع أن تجري نحوه لأن المديرة ستلاحظ ذلك. ولا يستطيع أن تتجاهله أيضاً.

في تلك اللحظة بالذات انشقت الغيوم فوق رأسها وأخذ المطر يهطل. رنّ صوتُ المديرة قوياً في أذنها على الرغم من الرياح:

- هيّا أيتها الفتيات، فسنعود حالاً.

تعود؟ كيف يمكنها أن تعود؟ فهنري هنا على بعد نحو مئة متر على الشاطئ، يقف تحت المطر.

- اذهبنَ وابحثنَ عن بيتي! بحق السماء، بيتي الجميع ينتظرونك!

أمسكت يدٌ بذراعها - إنها إحدى الفتيات الجديدات، وقد نسيت اسمها. قالت بلكنة شمال شرق إنكلترا المميّزة:

- هيّا بنا! وإلا فسنموت هنا تحت المطر.

حرّرت بيتي ذراعَها والتفتت نحو هنري.

فإذا به قد اختفى!

كررت الفتاة:

- هيّا!

رأت زميلاتها يبتعدن عن الشاطئ بأقصى سرعة والمديرة الغاضبة تُطلق إشارات قوية بكلتا ذراعيها. ألقت نظرة أخرى: ما من خيال في الأفق.

وماذا إذا لم يكن هنري؟ وماذا إذا كان مجرد وهم خلقه يأسُها؟

مسحت دموعها وهي تمشي على الشاطئ نحو الأخريات بخطا ثقيلة. انضمت إليهنّ لحظةَ كنّ يجتزن الشارع. خلف السرادق وقفت سيارة أوستن سوداء تشبه سيارة تيدي وايلدر في كل شيء.

استردت بيتي روحها. رجال كثُرٌ يملكون سيارة أوستن سوداء. وعلى الرغم من كل شيء، فقد كان هذا كافياً لكي يُحيي الأمل. المطر يهطل بقوة والمديرة تمشي خافضة الرأس تحت مظلة سوداء. لا أحد ينظر إليها في هذه اللحظة بالتحديد...

انفصلت بيتي عن المجموعة وأسرعت إلى الشاطئ. دون أن يناديها أحد. ركضت بأقصى سرعة يسمح لها بها جسمها المثقل، ثم بطّأت خطوها حين أدركت أنها وحيدة على الرمل.

بحرٍ رمادي، سماء رمادية، ووحدة كلية. ولا هنري. لم يأتِ، ربما لم يأتِ قط.

ثم غيّر خفقانُ قلبٍ كلَّ شيء فيما بعد، إذ سمعت أحداً يصرخ باسمها:

- بيتي!

التفتت فرأته يقف إلى الجهة القريبة من الطريق ويشير إليها. داست الرمال بخطوات واسعة ثم ألقت بنفسها عليه بقوة حتى كادت أن ترميه، ولكنه كان صلباً وثابتاً كصخرة.

- كنتُ أظن أنك لن تأتي أبداً!

- لقد فقدتُ أثرك! أهلك لا يعرفون شيئاً عنك، وكورا اعترفت لي بكل شيء، ولن أغفر لها إخفاءها ذلك عني.

كانا مبلّلين بالمطر، ولكنهما ممسكان أحدهما بالآخر بقوة. أرجَعَ رأسَه أخيراً وقال لها:

- لقد أتيت لرؤيتك. بسرعة، اتبعيني. فقد استعرتُ سيارة تيدي.

كنست ما حولها بنظرة سريعة، سوف تُرى بكل تأكيد. لا شك أن المديرة سترسل من يبحث عنها. أحاطها هنري بذراعه وقادها بأقصى سرعة نحو السيارة.

جلست في الداخل وهي تقطر ماءً بينما كان المطر يطرق بقوة سطح السيارة. لم يقلع هنري، وبدلاً من ذلك التفت وألقى عليها نظرته الرمادية. قلبها يخفق بقوة ولكنها لا تجرؤ على الكلام. قال لها أخيراً:

- اذهبي معي!

هل كان هذا خياله أم أن نفسه تفوح منه رائحة الجن؟

- كيف ذلك؟

ولكن كان الأوان قد فات. فقد لفظ الكلمات التي كانت تتحرّق لسماعها، والتي لم تجرؤ حتى على تخيّلها.

– لقد أرسلتُ برقية لبيلي، وسوف يجد لي عملاً.

استولى عليها دُوار.

– يمكننا أن نكون معاً.

قالت وهي تبحث عن هواء:

– وزوجتك؟

– أنا لا أحبّها. بل أنت وحدكِ من أحب. وولدنا. لن تعثر علينا أبداً. لقد وجدتُ لي ولكِ مكانين على سفينة تجارية، ستنطلق من لندن بعد ثمانية أيام. معي أربعون جنيهاً. هل ستأتين معي؟ الآن؟ إلى لندن؟

في الخارج، هدأ قرع المطر. نظرت إليه بيتي بثبات، سيلٌ من الأفكار يداهمها: فسوف تترك كورا بعد كل ما فعلته من أجلها! وأبواها لن تراهما أبداً! ولكن أياً من هذه الأفكار لم يستطع أن يعقّلها. ففي أعماق نفسها هي تريد أن تذهب مع هنري، وهذه الرغبة تغلّبت على كل شيء.

– نعم، هيا بنا!

هبط الليل خلف نوافذ غرفتهما الصغيرة في فندق بايسواتر. كانت بيتي تراقب الطريق، فقد تأخّر هنري. في كل دقيقة تمرّ يزداد تساؤلها إلحاحاً ما إذا كانت قد اتّخذت القرار الصحيح. أليس من الظلم أن تفقد إيمانها به بمجرّد أن غاب عن حقل رؤيتها؟».

في الغرفة المجاورة، عبر الجدار الرقيق، سمعت أحدهم يغني *وداعاً أيها العصفور الأسود*. ذلك اللحن الفرح يناقض بردَ الغرفة وهبوط الليل والحذرَ الذي يدفعها قلبُها إلى اتّخاذه.

غداً سيسافران على سفينة شحن ليس فيها مكان إلا لمسافرَين اثنين، ولن يهتم بهما أي مضيف. ويجب على هنري أن يعمل ليدفع أجر الرحلة. سوف يمرّان بالهند وسيصلان إلى هوبارت، بعد ثمانية أسابيع.

ثمانية أسابيع في البحر. في اللحظات التي لا تجد نفسها مغمورة بالشك والتعب، ترى هذا كله مغامرة. ولكن في اللحظة نفسها بدت لها صعوبة هذه الرحلة هائلة ومثبّطة.

أية وعود هذه التي لم يعدها بها هنري! الحب الأبدي. وتربية ابنهما معاً (وهو واثق من أنه سيكون صبياً، هنري صغيراً). حياة جديد في عالم جديد. وسيكونان زوجين متزوجين، وسيكفّ الناس عن مناداتها بيتي بلاكسلاند، بل سيصبح اسمها مدام هنري ماك كونيل. سوف تنجب أطفالاً آخرين. وسيعملان عملاً قاسياً لتأمين المال للبيت. سيكون بيتهما صغيراً، وسيشيخان فيه.

ومع ذلك، فقد كانت هناك علامات كثيرة خاطئة في هذه السمفونية الخيالية. سوف يعملان مع بيلي وايلدر. ومن المحتمل أن تأتيهما زوجته، وكان عاجزاً عن ممارسة الحب معها كامرأة حامل.

قال وهو يدفع بلطف وعوده:

– لا بأس، فأنت مختلفة. هذا كل ما في الأمر. أنت لا تشبهين بيتيّ أنا، وبعد أن تضعي طفلك سوف تعودين كما كنت من قبل.

لو لم يأت هنري لأخذها لكانت ما تزال في موركومب *هاوس*، تنتظر ككل الفتيات الأخريات أن تلد ابنها ثم تتركه. وضعت يدها على بطنها المنتفخ. لماذا لا تستطيع أن تمتنع عن الشعور بثنائية مرعبة؟ أحياناً تشتهي هنري، والطفل وحياتهم الجديدة. وأحياناً لا. بل كانت تفضّل فقط ألا تكون قد عرفت هذا الوضع أبداً.

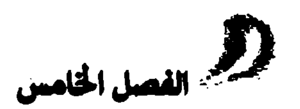
ولكن هذا حدث بالفعل.

ظهر للتو، ها هو يمشي بخطا بطيئة في الشارع، إنه منشغل بالتحضيرات الأخيرة لرحلتهما. فقد ذهب ليجلب لها حقيبة مليئة بالفساتين الواسعة من عند صديق لتيدي في *بادينغتون*. فلم يكن لدى بيتي أي ثياب إلا تلك التي هربت بها عن الشاطئ، وستصبح ضيقة عليها قريباً.

رفع نظره نحو النافذة ورآها تراقبه فرفع لها يده مسلّماً، دون ابتسام، لأن الابتسام ليس جزءاً من عادات هنري.

هي لا تستطيع أن تشكّ بنفسها، ليس الآن، وهذا ليس أكثر تعقيداً. فقد اتخذت قرارها، أو على الأقل، إن قلبها هو الذي اتخذه نيابة عنها.

غداً ستبدأ الرحلة. غداً سيصبح التراجع مستحيلاً.



الفصل الخامس

إيما، لندن، 2009

كنت متأخرة لكنني أتخيل أن جوش قد اعتاد على ذلك الآن. ومع ذلك فإن التدريب قد انتهى على رأس الساعة بالضبط وانطلقتُ من *استوديو شافتتسبوري أفينيو* مع أفضل نوايا العالم: لم أتوقف لكي أنظر أو أشتري أي شيء كان. ولكن في آخر *إيوستون روود* تعرّف إليّ بعضهم.

قال لها صوت ناعم خلفي يدنو أكثر فأكثر:

– اعذريني! اعذريني!

التفتُّ فرأيتُ امرأة في الخمسين من عمرها وابنتها، مراهقة صغيرة خرقاء، تسرعان نحوي. قلت:

– صباح الخير.

سألتني المرأة وهي تمسّد قميصها كما لو أنها تستعد لاستقبال الملكة شخصياً:

– أنتِ إيمّا بلاكسلاند ـ هانتر، أليس كذلك؟

– نعم، وأنا مسرورة جداً بلقائكما.

ألقت المرأة نظرة على ابنتها قبل أن تعود إليّ وتقول:

– هذه ابنتي غلينيس. إنها تعشق الرقص. هل لديك نصيحة تعطينها إياها؟ فهي تريد أن تصبح مثلك.

– «ماما!» صاحت غلينيس منزعجة من هذا التفصيل كما يمكن أن تفعل فتياتٌ في الثانية عشرة.

هنا كان عليّ أن أكتفي بالابتسام بلطف وأستدير مقدمة لهما اعتذاراتي مدّعية أني مشغولة جداً، إلخ.

لكني لم أستطع. فلطالما نصحتني جدتي أن أوزّع أفراحي لكي تدوم. عندما كنت صغيرة، كانت لندن مدينة أحلامي. لكي أعيش فيها وأعمل فيها وأتميز في مجالي. كان ذلك شرفاً. لم أكن أكلُّ من كوني معروفة بهذه الحماسة من سكانها. بطبيعتي، أنا أميل إلى الابتعاد عن الناس، ولاسيّما الأطفال، ولكن لا يستغرق هذا أكثر من عشرين دقيقة من وقتي. إذن في هذه الظهيرة الصيفية الطويلة تكلمت مع غلينيس، وأعطيتها نصائح ورقصت معها على الرصيف أمام المسافرين الحائرين الذين يستعجلون لركوب قطارهم في *كينغس كرووس* أو *سانت بانكراس*. لم يلبث خَرَقُ غلينيس أن تبخّر وأخذت عيناها تشعّان إثارة. وفي النهاية وقّعت لها أوتوغرافاً على ظهر مغلف قديم قبل أن أشجّعها على متابعة الرقص.

«شكراً ألف مرة» قالت لي غلينيس وهي تضغط المغلف إلى صدرها

– شكراً، ألف مرة!

هزّت أمها رأسها عرفاناً ثم قالت:

– إنها لسعادة كبرى أن نلتقي بك. لطالما كنتُ من المعجبين بما كانت تفعله جدتك. لا بدّ أن نساء أسرتك يمتلكن شيئاً ما في دمهم. حسُّ الإبداع، والطاقة.

عضضت لساني لئلا أقول لها: «أنت لا تعرفين أمي!» وتابعتُ طريقي. ها قد تأخرتُ الآن، تأخرت كثيراً.

ومع ذلك فقد وصلت إلى المطعم قبل جوش. الطاولة التي حجزناها تنتظرنا. جلست إليها منزعجة من الزوايا الحادة للفوط الكتانية المطوية، ومن الصمت شبه المُطبق الذي يكتنف المكان.

مضت عشر دقائق ولم يأت. ليست عادته. فأنا أعيش مع جوش في شقة واسعة في تشلسي منذ ستة أشهر. وحياته مضبوطة كالساعة. المنبه يرن فينهض! بينما لا أكفُّ أنا عن الضغط على زر الإيقاف لكي أستفيد من نثرات النوم، حتى أسمعه يضع حذائه قرب باب المدخل ثم أنهض أخيراً مغزوّةً بشعور بالذنب. إذا قال إنه سيعود عند الساعة السادسة فهو يعود عند السادسة : لا بعدها ولا قبلها. وإذا ارتبط بحدث خارج عن سيطرته، وقلّما حصل ذلك، فإنه يتصل و...

هاتفي! هل شغّلتُه؟

بحثت في محفظتي. أنا أكره هذا الجهاز، لكن جوش أصرَّ أن أشتري واحداً. وأنا بالكاد أعرف كيف يعمل وتسع وتسعون بالمئة من الوقت أنسى أنه معي. كل أسبوع صندوق البريد يمتلئ بدستة من الاتصالات. أحياناً أوفر على نفسي المهمة الكريهة لسماعها كلها. إن وقتي مخصص لأشياء أهم.

انغلقت يدي على الهاتف الجوال... أربعة اتصالات فائتة. كنت أتصارع مع مختلف الخيارات، محاولة أن أتذكّر كيف أدخل إلى صندوقي الصوتي، عندما سمعت باب المطعم يُفتح. عرفت أنه هو.

ابتسم لي. ابتسامة تُبدي الرجل الكامن خلف مظهره الهادئ، فرغباته الدفينة وأهواؤه تتناقض مع مظهره الرصين. كل شيء بدأ معه. لم يكن لديّ تجربة كبيرة مع الرجال قبل جوش. فقد كان لدي رفاق صغار، بالتأكيد، ولكن كان لدي ترف اختيار الذين يغذّون أحلاماً كبرى ويجدون أنفسهم دائماً عاجزين عن تحقيقها : من فنانين مدّعين وصحفيين مبتدئين. أما جوش فإنه طَموحٌ ويمتلك روحاً متوثّبة، يعمل في

شركة لمعاملات البورصة، وعائلته لها تاريخ طويل مع الثروة. وقد هُمتُ به.

ولكن هذا المساء، ثمة شيء مختلف في ابتسامته، حذِر وتحفظ

قال وهو يجلس:

- أنا آسف لتأخري.

مازحتُه قائلةً:

- لا بأس. أعرف ما قيمة هذا، الآن.

لم يضحك. بل بدا وكأنه لم يسمعني. أشار إلى النادل بأن يقترب. طلبنا نبيذاً ولكن قلنا له إنه يلزمنا بضع دقائق لكي نقرّر حول الوجبة. ضمّ يديه ونظر إليهما لحظة. سألتُه:

- هل كان نهارك جيداً؟

رفع عينيه وقال:

- لقد اتصلت أمي.

- آه؟

لقد انتقلتِ أسرته إلى إسبانيا قبل عام. وأنا لم ألتقِ بها من قبل. سألته:

- هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم، نعم.

ثم كنس من جديد القاعة بنظره. ثمة شيء ما جعله عصبياً، لا شكّ في ذلك. قال:

- سيأتون جميعاً إلى باريس لمدة أسبوع في نهاية شهر تشرين الأول. أمي وأبي وأختي. ويريدون أن أنضم إليهم هناك.

- عظيم، أنا...

استعرضت صفحات أجندتي في رأسي. يا إلهي أين هي إذن أديلاييد، مساعدتي، عندما أحتاج إليها؟ ماذا سأفعل في تشرين الأول؟ هل ستكون جيزيل قد انتهت؟ ها هو جوش يطلب مني أن أقابل أسرته.

علامة. علامة بديهية بأنه يفكر بمستقبل علاقتنا. إن قضاء أسبوع في باريس سيكون أمراً عظيماً. نحن لم نسافر معاً من قبل. فلطالما كنت مشغولة. ثم عاد هذا إليّ: اختيارات فترة عيد الميلاد. لا أستطيع أن أفوّتها، فسألتُه:

– هل يجب أن نبقى هناك الأسبوع بأكمله؟

قطّب حاجبيه بانزعاج ثم قال:

– معظم الناس يأخذون عطلة يا إيمّا. هذا غير معقول!

– هذا معقد، فأنا ملتزمة بعقد. ويجب عليّ أن أؤمّن الحصول على عقد آخر بعد هذا. في هذا العالم...

– من المستحيل أخذ استراحة. نعم، أعرف ذلك فلقد قلتِه لي. ولكنك بحاجة إلى استراحة، وأنا بحاجة لكي أعرّفك إلى أهلي.

– حاجة؟ لماذا؟

– لأنها أسرتي.

– ولكنك لم تلتق بأسرتي.

– إنهم في أستراليا. وأنا أضمن لك لو أنهم موجودون في الطرف الآخر من المانش لمدة أسبوع فقط، فإني سأبذل جهدي للذهاب لرؤيتهم.

– اسمع يا جوش، يجب أن لا تثور أعصابُك. سوف أرى ذلك مع أديلاييد. فهي أجندتي. إذا أعطيتَني التواريخ الدقيقة فسوف...».

فجأة نهض جوش ويداه على طول جسمه وقبضتاه مضمومتان. الزبائن الجالسون إلى الطاولات المجاورة أخذوا ينظرون إلينا باهتمام. أدرك أنه أثار الانتباه فعاد إلى الجلوس. وانحنى إلى الأمام؛ من البديهي أنه أطلق العنان لغضبه إذ قال:

– لا يمكننا أن نستمر هكذا.

بدأ يستفزني الآن. فردة فعله مبالغ فيها. قلت:

– أعتقد أنه من المعقول أن أتحقق من أجندتي قبل أن ألتزم.

– تلتزمين معي أنا؟

هززت رأسي وسألته:

- ماذا تطلب مني بالضبط؟

لدي انطباع بأننا نلعب لعبة لا أعرف قواعدها. أن يبدو جوش معبَراً إلى هذا الحد، فهذا لا يشبهه أبداً بحيث أني متأكدة من أن حوافز مظلمة تثيره. يبدو وكأنه يسعى إلى خصام. سألته:

- ما هي المشكلة الحقيقية؟

- هل تعرفين ماذا أريد في الحياة يا إيمّا؟ سألني.

- بالتأكيد. أنت تريد... أن تنجح في عملك و...

توقفت فجأة. هل أنا لا أعرف حقاً ماذا يريد في الحياة؟ ثم أضاف:

- أن أتزوج؟ أن أؤسس أسرة؟

- لم تكلمني في ذلك قط

زفر بحزن وقال:

- بلى. ولكنك لم تستمعي إليّ، هذا كل ما في الأمر.

نظر إلى عيني مباشرة قبل أن يقول:

- وأنت هل تريدين الشيء نفسه؟

- ربما. ذات يوم.

- قريباً ستبلغين الثانية والثلاثين سنة.

- وماذا في ذلك، ما يزال أمامي كثير من الوقت.

لماذا وُلد لدي إحساس بأن صدري أخذ ينقبض؟

- يجب أن أرقص كثيراً، قبل ذلك.

مرّر جوش يده في شعره ثم أخذ شهيقاً عميقاً قبل أن يقول:

- أنا آسف. فعلاقتنا لا تتقدّم. وأريد أن أضع لها حداً.

عبرت شحنة كهربائية قفصي الصدري، وتحول العالم إلى مكان خطير وقاطع. فراغ. صمت طويل. خفت أن أتكلم، أن أقول إن هذا كان يجب ألا يكون. علاقتنا لا تتقدّم؟ من وجهة نظري، هي تتقدّم تقدّماً جيداً جداً. عندها اخترت أن ألفظ هاتين الكلمتين:

- جيد جداً.

رفع رأسه، فرأيت الغضب يمرُّ على جبينه لحظة. إنه يظن أن هذا لا يهمّني. ولكن هذا غير صحيح. فبكل بساطة الصدمة أسكتتني. الناس جميعاً يؤولون دائماً نواياي تأويلاً خاطئاً. أنا لا أقول أبداً ما يجب. هذا كل ما في الأمر.

استعاد جوش حيويته الهائلة لكي يقوم بوادع مشهود. جمع مفاتيحه وهاتفه قبل أن ينهض، ثم قال:

- أنا ذاهب. سوف أحجز غرفة في *بيركلي* لهذه الليلة وسوف أمر بسرعة إلى الشقة لكي آخذ أشيائي غداً عندما تكونين في الاستديو.

حاول أن يداعب شعري لكنني تراجعت. قال بصوتٍ ناعم ومألوف تعلّمتُ أن أحبّه حقاً:

- «أنا آسف يا إيم. ولكنك لست الفتاة التي تلزمني».

وددت أن أصرخ، أن أقلب الطاولة، أن أوجه رفسة إلى بطنه فيزرقّ بسببها. لكنني لم أفعل هذا أبداً. فأنا موضع نظرات الآخرين جميعاً: إيمّا بلاكسلاند ـ هنتر، الراقصة نجمة الباليه في لندن. حفيدة إمبراطورية النسيج *بلاكسلاند* وول. أحمل سمعة العائلة على كتفيٍّ الضعيفتين.

غادر. انتظرتُ خمس دقائق قبل أن أغادر أنا أيضاً، متجاهلة نظرات الفضوليين الذين تركتهم خلفي.

***

رفضت أن أصدق أن جوش لن يعود. بالتأكيد، في اليوم التالي مرَّ ليأخذ ثيابه وأشياء زينته وأقراصه المُدمجة بينما كنت أتدرب، لكنه لم يأخذ أياً من النباتات الخضراء الموجودة على السطح والتي كان يحب الاعتناء بها. أنا واثقة من أنه سيعود من دون أن أتصل به. أريد أن يتصل هو بي. فهو مدين لي باعتذارات، ليست قليلة.

تطاول الصيف. كنت أنتظر ظلمة الشتاء بنفاد صبر. ومع ذلك أخذت الأيام تتثاقل في مضيّها والفور يقاوم حيرة قلبي. الحرارة تزيد من تعذيبي. على الأقل، في سيدني البيوت مبنية لكي تتحمل درجات الحرارة المرتفعة، ولكي تعرّر الهواء إلى داخل جدرانها. أما هنا فتبدو الأبنية كلها وكأنها مصممة بهدف تخزين حرارة خانقة.

وبالتالي، بما أن ما ينتظرني في البيت يتلخّص في تلك الغرفة الصغيرة الحارّة، فقد أخذت أتأخر أكثر فأكثر في استوديو التدريب. الطريقة المثلى لنسيان جوش وانتظار عودته هي الغرق في العمل. شارفت التدريبات من أجل إنتاج جيزيل في شهر أيلول، على نهايتها، فقلّما كنتُ أفكّر فيه منذ مجيئي وحتى ذهابي. ولكن الحزن ما يزال موجوداً، فهو يصطادني عندما أرتدي ثيابي المدنية، وأمشّط شعري لكي أفكّ عقده. الوحدة. لن ألتقي بجوش على العشاء، ولن أجده في البيت كذلك.

كل مساء من هذين الأسبوعين، فكّرتُ أن أمشي من طرف المدينة إلى طرفها. أحياناً يكون السير مزدحماً جداً فأهرب إلى الحدائق. وفي أماس أخرى أرقب بكلل واجهات المحلات. يوم الجمعة الثاني، لاحظتُ وجود مواد من ماركة بلاكسلاند - وول سيلفريدجس أند كو، فدخلتُ لرؤيتها عن كثب. كانت بلاكسلاند وول متخصّصة في الألبسة الجاهزة للنساء الأنيقات. وهذه السنة أنزلوا تايورات مستوحاة من عقد الأربعينيات، تنّوراتها زاهية الألوان وقصيرة، قصيرة جداً. أشك أن تكون أمي قد صمّمتها، فانقبض قلبي. لو كانت جدتي ما تزال على قيد الحياة لكانت أول من اتصلتُ بها. «جدتي، لقد تركني، ولا أعتقد أنه سيعود». كان صوت جدتي سيهدّئ روعي ويهديني إلى الطريق الصحيح. صه أيمّا، ستسير الأمور. أنا أعرفك جيداً - وأعرف أنك ستخرجين بسلام. جدتي تثق بي أكثر مما أثق بنفسي.

مرّرت يدي على كُمّ أحد التايورات وحاولت أن أكبح قلقي. جوش سيعود، ابقي إيجابية.

– هل لي بمساعدتك؟

التفتُّ فرأيتُ شابة طويلة القامة أظافرها لا تنتهي، وهي مطلية على الطريقة الفرنسية. أجبت:

– لا، شكراً.

أضافت المرأة الشابة:

– أوه، ولكنك إيمًا بلاكسلاند ـ هنتر!

– نعم، أفترض هذا.

جوش وأنا كنا نمزح كثيراً حول اسمَي عائلتينا. فاسم عائلته مركّب أيضاً: جوشوا هامر ـ ليندون. إنه يغضب من آباء الأزمنة الحديثة وحاجتهم إلى الاحتفاظ باسم الشهرة لأمهاتهم. فقال: ولدانا سوف يُدعَيان بيل وبن هامر ـ ليندون ـ بلاكسلاند ـ هنتر، ليحفظ الله الجيل القادم.

بكل تأكيد، أنا لم آخذ كلامه على محمل الجد. فالأطفال لا يشكّلون جزءاً من مشروعي. على الأقل، ليس في المستقبل القريب على أية حال، فافترضتُ أن الأمر سيكون نفسه عند جوش.

– هل يزعجك لو طلبتُ من ربة عملي أن تأتي؟ فهي سيتطير فرحاً لمقابلتك!

ولكن هذا المساء أنا غير قادرة. سوف أصبح مغرورة كبيرة، أعرف ذلك. وسوف أغذّي ثرثرات المحل لمدة أسبوع.: «إيمًا بلاكسلاند ـ هنتر أتت لترى مجموعتنا ولم تقبل أن تكلّمنا».

قلت لها:

– أنا آسفة، إنهم بانتظاري...

تراجعتُ وكدت أن أقلب إحدى المانكانات التي تشبه ساقاها في كل شيء ساقي البائعة. ثم كرّرت:

– حقاً أنا آسفة.

هربتُ مسرعةً في الشارع وسط الناس. أخذ بطني يقرقر قليلاً. ركبتُ مترو بوند ستريت، وعدتُ إلى البيت.

كلما أفتح الباب، أحبس أنفاسي ويراودني أمل بأن يكون جوش قد عاد إلى البيت. ولكن لا، فهو ما يزال خالياً ومظلماً. علّقت مفاتيحي على المشجب وأنرت المصباح. الضوء الأحمر يغمز على المجيب الآلي. هذه المرة إنه جوش بلا شك. لقد دامت طويلاً هذه المهزلة الغبية. ضغطت على زر الاستماع، فلم يكن جوش، بل هو أديلاييد، مساعدتي التي تعمل معي بنصف دوام.

«اتصلي بي. الأمر هام، هام جداً. ليس له علاقة بالعمل ولكنه مهم رغم ذلك. وأنا لا أريد أن تسمعيه إلا من فمي».

قطّبت حاجبي ثم أغلقت الجهاز. فليست لدي رغبة في أن أتصل بها. يبدو أن الأمر كما هو في كل الحالات: كما لو أن لديها أخباراً سيئة.

بدأت أفتح نوافذ الشقة كلها. نسيم حارٌ ومعبأ برائحة البنزين دعا نفسه إلى الداخل. صببت لنفسي كأس نبيذ. تحققت مما بقي لدي من طعام. لا شيء. تُرى كم من الزمن مضى على آخر مرة تسوّقتُ فيها؟ ألقيت نظرة على الهاتف. هام جداً. لا أريد أن أعرف. فأنا خائفة من سماع ما لديها لتخبرني به.

ومع ذلك فقد اقتربت منه أخيراً. تناولت السماعة وأدرت الرقم. رفعت أديلاييد السماعة بعد أول رنة وقالت:

– أيمّا؟ هل أنت جالسة؟

أخذت دقات قلبي تُسمع في حلقي. ملتُ إلى مسند الكنبة وقلت:

– الآن، نعم.

– لقد رأيت جوش هذا المساء.

– جوش؟ جوشي أنا؟ هل...؟

هل ينوي *العودة*؟ لكنني عرفت من نبرة صوتها أنه لا ينوي أن يعود، بل إنها ستخبرني خبراً محزناً.

– لقد كان مع شخص آخر، إيمَا. حقاً أنا آسفة.

انقلبت معدتي. تشبثتُ بطرف الكنبة بيدي الحرّة، وسألتها:

– هل تقصدين...؟

– امرأة، نعم، وليست أي امرأة، إنها سارة، سكرتيرته.

لا أتذكرها جيداً ووجدت من المستغرب أن تتذكرها أديلاييد. ولكنهما كانتا بلا شك على اتصال لتنظيم مواعيدنا، جوش وأنا كان لدينا نحن الاثنين برنامجاً حافلاً جداً.

بطريقة أو بأخرى نجحت في الحفاظ على صوتي هادئاً وأنا أقول لها:

– شكراً لأنك قلت لي هذا.

– حقاً أنا آسفة، وكنت أفضل أن أزفّ إليكِ خبراً ساراً.

– لا، لا. أنا فرحة لأنك قلت لي هذا.

هل أنا فرحة حقاً؟ أم أن الأمر يتعلق فقط بنوع من السطحية الفارغة يقولها الناس عندما يُمزق قلبهم ألف مزقةٍ؟ قلت لها:

– سنلتقي في الاستوديو.

أغلقتُ الخط وانزلقت على الكنبة وأنا مغمضة العينين. جوش وسكرتيرته. يا لها من صورة مرعبة. لقد قلب الصفحة بسرعة: أقل من أسبوعين بعد...

فجأة تذكرت. سارة. إن لها وجهاً قاسياً، وهي ليست جميلة أبداً. وكان يذكر اسمها غالباً في أحاديثنا ولم أعرها كثيراً من الاهتمام. أما الآن، فأنا أفهم أن تفاصيل هامة جداً كانت قد فاتتني. تلك الأمسيات التي كان يعود فيها جوش متأخراً من المكتب، ورحلات عمله، مرة كل شهر على الأقل والقرب الدائم من جهاز البلاكبيري الذي كان ينقر عليه غاضباً بسبابتيه في كل دقيقة من النهار أو من الليل. هل كانت لديه

مغامرة منذ البداية؟ ألم يكن إنذاره الأخير وسيلةً استخدمها لكي يختار أخيراً بينها وبيني؟

نما لدي انطباع بأني أتفكّك من الداخل، وبأني صرت رماداً. لا أريد أن أكون وحيدة، ولكن صديقاتي قليلات جداً. اثنتان منهنَّ في الخارج مع الباليه. وصديقة طفولتي في أستراليا تعيش الآن في... أين هذه الدولة؟ ولأول مرة منذ زمن طويل أرغب في رؤية أمي. حقاً إن رغبتي عارمة في رؤيتها.

أمسكت السماعة من جديد وأدرت رقمها حتى قبل أن أفكر. أخذ الهاتف يرنّ في الطرف الآخر من الخط، على بعد آلاف الكيلومترات عني. في الفراغ أدركت بأن أملي سيخيب كثيراً إذا لم يرد عليَّ أحد. حتى وإن أخذت أمي تتحرش بي لكي أعود إلى البلد، شعرت بحاجة ماسة لسماع صوتها.

كنت على وشك أن أضع السماعة حين سمعت ضجيجاً في الخط وكلمة «آلو؟» لاهثة.

قلت بصوت محطَّم:

– ماما؟

– أوه، إيم، ماذا حدث؟ يبدو أنك لست...

– لقد تركني جوش.

«وانفجرتُ في نحيب شديد، هو أول نحيب أطلقه منذ أن غادرني جوش في المطعم».

– لقد ذهب مع سكرتيرته.

ردت أمي:

– أنا آسفة يا عزيزتي.

ثم رافقت بكائي بكلمات صغيرة مهدئة. لأول مرة منذ سنوات أندم لأني لست عندها، في سيدني، حيث أستطيع أن أضع خدي على صدرها لتواسيني كطفلة. كانت العلاقات متوتّرة بين أمي وبيني، ولم

ننجح أبداً في التغلب على اختلاف شخصيتينا. ولكنها تبقى دائماً أمي، المرأة التي داوت جراحي في الركبة بلصاقات وكانت ترافقني إلى دروس الباليه.

تمكنت أخيراً من التغلب على دموعي وقلت:

– حبيبتي ماما. كان لدي انطباع بأني أعيش حياة رائعة، ثم انهار كلّ شيء في لحظة واحدة.

– «يمكنك أن تعودي إلى البلد».

أصبت بانزعاج مألوف ثم قلت:

– لا.

– في العطلة فقط. فآخر مرة أتيت إلى هنا كانت قبل وفاة جدتك.

– لا أستطيع. فأنا أتدرب من أجل إنتاجٍ جديد.

– حسنٌ، تعالي بعده.

– سيكون هناك عرض آخر.

سمعت تنهيدة في الطرف الآخر من الخط:

– إيمّا لقد قارب عمرك الثانية والثلاثين. وأنت لا تستطيعين أن ترقصي إلى الأبد.

بلى، أستطيع. فجسمي ما يزال رشيقاً. لن أستمر إلى الأبد ولكني آمل أن أرقص عشر سنوات أخرى، وربما أكثر. لقد رأيت فيديوهات مايا بليستسكايا وهي ترقص حتى سن الثالثة والستين. منذ أن كنت طفلة وأنا لا أرغب في شيء إلا في الرقص. والتفكير في إيقافه مستحيل. أنا لا أعرف كيف أوقفه.

قلت أخيراً:

– ماما، أعدك بأن أعود إلى الوطن بعد أن أتوقف عن الرقص. أما الآن، فهو حياتي.

في الواقع، هو كل ما بقي لي.

لا بدَّ أني سمعت بتعبير «القلب الكسير» مئات المرات في حياتي ولكن من الآن فصاعداً كل عضلة من عضلاتي وكل عصب من أعصابي سيفهم دلالته. قلبي، هذا العضو الحيوي الذي بفضله يجري الدم في جسمي لا يكفُّ عن إيلامي. أستيقظ مع هذا الألم وأنام معه عندما يأتي المساء. أبكي في يديَّ، وفوق مغسلة الحمام، وأنا أجهِّز نفسي صباحاً. لا أستطيع أن أنظِّم أفكاري. أنا لم أعد أتعرف إلى نفسي.

الوسيلة الوحيدة بالنسبة إليَّ لتخفيف هذه المشاعر الفظيعة هي الحركة. كل مساء، بعد أن تنتهي التدريبات أبقى في مكاني لأرقص وأرقص. أيضاً وأيضاً. أديلاييد تتركني عند الساعة السادسة وتعود بحكمة إلى بيتها لتلتقي بأسرتها في كلافام. أعشق هذه الصالة المليئة بالأنوار وجدرانها العالية البيضاء ومراياها الطويلة. لدي فضاء العالم كله لكي أعبِّر عن غضبي وعن ألمي. كلما آلمتني قدماي، أملك حظاً في التوصل إلى نسيانه، أنا أعرف هذا. أرقص كمجنونة. أرقص كما لو أن الرقص هو الشيء الوحيد الذي يبقيني على قيد الحياة. وبطريقةٍ ما هذا صحيح.

توماس، حارس البناء، يذرع المرات بضجيج كبير. أسمع الشفّاط والماء يجري في المجاري. ذات مساء أتى لينظف المرايا من طرف القاعة إلى طرفها. وقد آثر ألا ينظر إليَّ وأنا أعذب جسدي. بعد ظهر يوم الجمعة الثاني لم تفلح أديلاييد في حفظ لسانها.

– ها قد مرَّ أسبوعان وأنت تتدربين هكذا. وأنت تعرفين أن هذا مضرٌ لك.

– التدرب ليس شيئاً سيِّئاً.

– إلا إذا أجهدت جسمك. إذا عرف برايان...

– لا مصلحة لك في أن تخبري برايان!

برايان ليدكي هو المدير الفني. وفي المرة الأخيرة عندما اختارني لم يتأخر عن سؤالي عن عمري.

قلت:
– أنا بحاجة إلى التدرب يا أديلاييد. لقد أضعت كثيراً جداً من الوقت مع جوش، وفاتتني تدريبات، وفقدت لياقتي.
– لم تفوّتي تدريباً واحداً، إيم. أنا أشرف على أجندتك، وكنت سأعرف.
– كان بوسعي أن أذهب إلى التدريبات الإضافية.
اختنقت بضحكة خبيثة وقالت:
– تبارك اسم الله، عودي إلى بيتك، لصالحك.
في بيتي، في هذه الشقة الفارغة التي أصبحت عزيزة جداً عليّ.
– ساعة أخرى.
علّقت أديلاييد محفظتها بكتفها قبل أن تذهب وهي تتنهد. ابتلعت شعوري بالذنب وتوجهت نحو الحاجز. ربلتا ساقيّ تؤلمانني. ومع ذلك رفعتهما.
عملت عملاً قاسياً جداً هذا المساء. في البداية، لم ألاحظ أني لا أسمع صوت شفاط توماس. وفي النهاية قمت بعدة تمارين تمدّد. لقد أدركت شيئاً فشيئاً أني أمتلك حقاً الاستوديو بمفردي. ذهبت إلى الباب وألقيت نظرة في الممر. عادةً أضواء خافتة تنير اللوحات الخشبية والأدراج الكبرى. ولكنه كان مظلماً كأنه فرن. إما أن توماس لم يأت، أو أنه أنهى عمله باكراً ونسيني. فأنا بكل تأكيد مسجونة في هذا المكان.
احترت: فأنا لا أعرف ما إذا كان يجب عليّ أن أضحك أو أبكي. ولم أقم لا بهذا ولا بذاك. يجب علي أن أذهب إلى حجرتي لكي أرتدي ملابسي، فتركت باب الصالة مفتوحاً أملاً في أن يرافقني بصيص نور حتى حجرة الملابس. لم أفلح في وضع المفتاح في قفل حجرتي في هذا الظلام. غيرت رأيي وقررت أن أنزل إلى الطابق الأرضي لأرى ما إذا كان بوسعي أن أفتح باب المدخل من الداخل. وإذا لم يكن الأمر كذلك تخيلت أن أنام على الأرض وعندها لن أكون بحاجة إلى تغيير ملابسي.

بطريقة ما، هذه الفكرة وافقت مزاجي كروح مسكينة ووحيدة. فكّرت بهاتفي المحمول في حجرتي، ولكني أعرف أنه سيكون قد فُرّغ. فأنا لم ألمسه منذ أسبوع.

مشيت في الممر. واختفى النور قرب الأدراج، لكني أمسكت الدرابزين بيدي اليمنى ونزلت بهدوء الدرجة الأولى، تلمساً، ثم الثانية، ثم الثالثة.

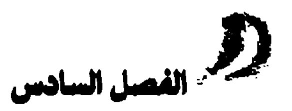
لكن التالية لم تكن موجودة. على أية حال إن أصابع قدمي لم تجدها، وحصل شيءٌ غريب في الظلام: لم تستجب عضلاتي التعبة بعد أسبوع من التدريب المشدد. وفي خلال لحظة تذكرت أن الأدراج تنعطف نحو اليسار في هذا المكان بالتحديد، ولكن كان الأوان قد فات، وسقط جسمي.

حدث كل شيء بسرعة رهيبة. فقد هويت على الدرج وسقطت على سجادة خشنة كلعبةٍ تركها طفل أخرق.

لم يكن الألم مباشراً. ومع ذلك فقد أخذ قلبي يخفق بقوة كما لو أنه يعرف شيئاً لم يتبيّنه دماغي بعد. حاولتُ أن أنهض.

ركبتي اليمنى انهارت تحت ثقلي، ووُلد لدي انطباعٌ بأنها غير موجودة. وعندها شعرتُ بألم منتشر جعلني أصرخ. وأخذ المفصل يتورّم على شكل بالون مُلئ ماءً.

ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟ هذا مستحيل. سمعت دمي يندفع في أذنيّ، وتملّكني شعور بالغثيان. انهرتُ على الأرض، ويداي تضغطان على ركبتي، وصرخت طالبة المساعدة في ظلمة هذا المكان الخالي.



الفصل السادس

سَلْسلتُ الاختصاصيين وأيام الألم. أعلن الأطباء جميعاً تعبيراً لا يُطاق عن جدّية الحالة وتعاطفاً حيالي. وفي نهاية الأسبوع الأول كنتُ قد سمعت الكلام نفسه مئة مرة، وألفَ مرة في نهاية الأسبوع الثاني. زاوية السقوط مَزّقت أربطتي. لم تمزّقها بمعنى الحاجة إلى الثلج والراحة، لا، بل بمعنى أنها تفتّتت. الألم لا يمكن إخماده إلا بمهدّئات قوية. والاختصاصيون تمتموا بصوت حزين بأن توقّعهم قد أخطأ. وجرّاح عظمية فتح ركبتي ثم أغلقها قبل أن يوصي بتدخّل أحد زملائه. هذه المرة حدث العمل الجراحي ولكن النتيجة لم تكن «كما كان مأمولاً».

احتجْتُ إلى ثلاثة أسابيع كاملة بسبب مضادات الألم والصدمة والكلمات المهدّئة الغبية التي استخدمها الجرّاحون لفهم أنهم يقولون لي إن ركبتي غير قابلة للإصلاح. سوف أتمكّن من المشي من جديد حتى وإن كان من الممكن أن يصبح الألم كبيراً جداً، مع تقدّم السن ومع الضعف، بحيث أكون بحاجة إلى مفصل صناعي. أما بالنسبة إلى الرقص، فمن غير الوارد التفكير فيه.

العالم اهتز.

الأسوأ حصل، واستمرارية الحياة لم يكفّ عن مفاجأتي. لم يبق لي إلا أن أعتاد على ذلك لأن الزمن يرفض أن يتوقّف. السيارات تسير دائماً في الناحية الأخرى من نافذتي. وعروض جيزيل تمّت مع راقصة أخرى أقل مني سناً في رأس الإعلان. لم يتوقّف قلبي، وجسمي لم ينس أن يتنفس. وتابعتُ حياتي في شقتي التي أُسدلت ستائرها لاتقاء النور الصيفي.

اشتقتُ إلى الرقص. اشتقتُ إليه كثيراً بحيث أني بتّ أشعر بانقباض في صدري يكون أحياناً أشدّ إيلاماً من ركبتي. لستُ مستعدّة لترك الرقص، ولكن هل سأفعل ذلك ذات يوم، على أية حال؟ الحق أقول، لم أستطع أن أنفي الحذر الذي قُدّمت لي به أدوار في الآونة الأخيرة، والأحاسيس الصغيرة بالتصلّب في ردفيّ في بداية التدريبات، والبصل على قدميّ والجروح بين أصابع قدمي بسبب انتعالي لأحذيةٍ رهيبة طوال سنوات. في السنة الماضية، سبّبتْ لي بحيرة *البجع* مع خطواتها اللامتناهية على رؤوس أصابع قدمي، تقلصات في الساقين. وقد وجب عليّ أن أضع قدمي في الثلج لكي تدخلا في الحذاء. في الحقيقة لم يكن لديّ إلا سنتان أو ثلاث سنوات من الرقص الاحترافي. وبعض الراقصين لا يتوقّفون أبداً. بكل تأكيد لن أكون جزءاً من هؤلاء. حتى وإن توقّفت، فلن أحصل على شيء. لا شيء.

في الليل، عندما يتأخر النوم في المجيء أرفض أن أفهم ذلك. عندها أتخيل نفسي وأنا أرقص. أما الآن فأنا لا أفعل سوى أني أحجل، ولكني آمل أن أتمكن من المشي من الآن حتى نهاية الشهر. ثم... لماذا يجب عليّ أن أصدق الأطباء عملياً؟ فإذا تمكنت من المشي أتمكن من الجري. وإذا تمكنت من الجري أتمكن من القفز. وإذا تمكنت من القفز أتمكن من الرقص. وقد يأخذ هذا سنة أو سنتين أو...

في الليل أتكور على مخدتي مرعوبة من فراغ الحياة التي تنتظرني.

في أواسط شهر أيلول أنجزت بطاقاتي واستعددت لوداع شقتي مع التيراس على السطح، فلم يكن سهلاً عليّ دفع الإيجار بمفردي في الزمن العادي، فما بالك بالصحراء المالية التي أجد نفسي فيها، بين آخر راتب وتعويض ضمان المرض، والتي جعلت الأمر مستحيلاً؟

أتت ديلاييد لمساعدتي، ليباركها الله. أفترض أنها شعرت بالذنب بسبب حادثي. فلو أنها نجحت في إقناعي بالعودة ذاك المساء، لما بقيتُ حتى خيم الليل ولما سقطتُ. ولكنني لم أنقم على أديلاييد ولا على الحارس ولا على أي شخص كان. لقد فهمتُ جيداً ما حدث: فقد أصابني الحظ العاثر، بأسوأ أنواعه، وأخذتُ أنتظر، كهرٍ مترصد، المصيبة القادمة التي ستقع على رأسي.

إنها لن تتأخر في الحدوث، هذا مؤكد. لقد فقدت حبيبي وعملي وبيتي. وفي المرة القادمة سيكون الأمر أكثر سوءاً. أنا مسكونة بهاجس السرطان، وحوادث السيارة والخطف والإرهاب وارتفاع حرارة الأرض واحتمال حدوث عصر جليدي جديد وانقراض الأنواع. أنا لا أكفُّ أبداً عن القلق. هكذا أشغل وقتي في أثناء الساعات الطويلة التي تفصل اللحظة التي ينتهي فيها مفعول المنوِّمات عن تلك التي أستطيع فيها أن أتناول منوِّماً آخر دون أن يؤذيني ذلك.

سألتني أديلاييد. فقد حجزت لي استوديو مفروشاً في هولبورن حيث أستطيع أن أبقى حتى أجد مسكناً أكثر ديمومةً، في طابقٍ أرضي، دون أدراج:

– أين كتُبك؟

اعترفت وأنا أغلّف جائزة أخرى من جوائز الرقص في ورق حريري:

– ليس لديّ كتب، فأنا أعطيها لمنظمة أوكسفام[1] بعد أن أقرأها، لأنها تشغل مكاناً كبيراً.

---

[1] جمعية خيرية لمساعدة العالم الثالث.

اصطنعت أديلاييد هيئة مرعوبة وقالت:
- عندما نقرأ كتاباً، يصبح جزءاً من حياتنا. ألا تعرفين هذا؟
- حتى لو كان روايات محطة؟
- حتى روايات المحطة.
كنست أديلاييد الغرفة بنظرها ثم أضافت:
- عملياً، حقاً أنت ليس لديك... شيء مهم. لقد جهزت نفسي لانتقال قاس ومغبر جداً، ولكن قطع الأثاث ليست لك، والمطلوب فقط هو توضيب ملابسك و...
قاطعتها:
- أعرف. جوائز الرقص. لقد كان جوش يقول الكلام نفسه. ذات يوم اشترى لي إطاراً ووضع فيه صوراً لنا فرميته وانكسر الزجاج ووضعته في درج طاولة زينتي. إنه في الداخل، في مكان ما.
ها قد نجحتُ في الكلام عن جوش وعنِ الرقص دون أن أبكي. لا، فأنا أبكي كثيراً، عملياً.
وضعت أديلاييد يدها على كتفي وضغطتها. ثم قالت:
- ستسير الأمور.
- لا، لن تسير.
- بالتأكيد ستسير.
أشرت بأصبعي إلى الكرتونة المليئة بالجوائز التي آثرتُ أن أحمي زواياها المشغولة بشكل جميل بورق حرير. إن حياتي كلها في داخل هذه الكرتونة: مغلفة وجاهزة للإرسال. قلت:
- لدي انطباعٌ بأني فقدتُ كل مرسى. لقد فقدت حبيبي. والآن أفقد شقتي...
- هل أنت مضطرة حقاً للرحيل؟ ألا تستطيعين أن تنتظري قليلاً أيضاً؟
- سأخلو من المال قريباً.

– أنا لا أفهم يا إيم. لقد كانت جدتك مليونيرة وقد توفيت منذ بضع سنوات. ألم تترك لك شيئاً؟

– لا. أنا لا أعتمد على هذا، ولا أريد أن تفعله على أية حال. لذا فهذا سيّان عندي.

عندما تُوفّيت جدتي لم تترك شيئاً لعائلتها. فقد فهمتُ منذ نعومة أظفاري أن جدّيَّ شخصان مهمّان جداً: جدتي بسبب تجارتها، وجدي بسبب عمله في البرلمان. لكنهما لم يُظهرا غناهما أبداً، ولم يتهرّبا من مسؤولياتهما تجاه المجتمع. فقد كان مشروع جدتي بين يدي مساهمين، ووُزّعت وثروتُها الشخصية على ستين جمعية خيرية مختلفة في أستراليا. وهذا أحد الأسباب التي جعلتني أرفض العودة إلى البلد. شعر أبي وأمي بكثير من المرارة، مع أنهما يملكان أسهماً ولا ينقصهما المال. لقد حدث تحقيقٌ قضائي وخلافات حمقاء. إذ لا شيء يدمّر الأسرة أكثر من وفاة قريب غني. «بالإضافة إلى ذلك أنا لا أستطيع أن أصعد أدراجاً الآن. فمن الأفضل لي أن أرحل».

في هذه اللحظة قُرِع الباب. قالت أديلاييد:

– سوف أفتح، لا تتحركي أنت.

افترضت أن الشيّالين قد وصلوا مع شاحنتهم قبل الموعد بساعة. لكنني لم أتوقع أن أسمع صوت أمي في أسفل الدرج.

قفز قلبي في صدري. حاولت أن أنهض بأقصى سرعة. آلمتني ركبتي وعدت إلى الجلوس. ثم ظهرت أمي. مشت نحوي بخطا سريعة وهي منتصبة القامة. شعرها الأسود اللامع مربوط عند قاعدة رقبتها ومنسدل على شكل ذيل حصان. لطالما عرفت الانزعاج لأن لي أماً جميلة. عندما كنت مراهقة، وكانت أمي آنذاك ما تزال تعمل كعارضة أزياء محترفة، كنت أعلق لها صوراً على مرآة غرفتي، وأجلس أمامها وأسأل نفسي باشمئزاز حول الفوارق بين لونَيْ بشرتينا وبين عينينا وبين فمينا. بعد ذلك أسحب الصور وأرتّبها وأتدرب على مدى ساعة وكأني كنت أريد أن

أطرد شياطيني. كل ما يهم راقصة كلاسيكية هو أن يكون لها جسم صلب ورشيق وخفيف لكي تُحمل. الأمر الذي قد لا يكون حالتي أنا إذا أصبحت طويلة مثل لويز بلكسلاند ـ هنتر.

قالت أمي وهي تنحني لتضمني بذراعيها:

– عزيزتي، هيئتك شاحبة وتعبة.

تمتمتُ:

– شكراً.

جثت أمي على ركبتيها فحسدتُها على السهولة التي تحرّك بها مفاصلها. غمرتني موجة من اليأس. ثم أضافت:

– دعيني أنظر إليك.

ألقيت نظرة إلى أديلاييد التي هزت رأسها ثم غادرت الغرفة بصمت.

فسألتُ أمي:

– هل أتت الفكرة منك أم من بابا؟

– من الاثنين. لكني أنا من نظّمتُ كل شيء. وأنا خائبة الأمل...

هذه التكشيرة لفتاة صغيرة وهذا الرفّ بالأهداب سيكونان غير مناسبين نهائياً لو أنهما صدرا عن امرأة في الثامنة والخمسين من عمرها، ولكن لسبب أجهله، فإنهما ما يزالان يحتفظان بجاذبية لدى أمي.

– الشيء الأول الذي أردت أن أفعله هو أن آتي لرؤيتك يا ابنتي. لكني لم أستطع الامتناع عن التفكير بأنك ستعودين وحيدة.

وقفت من جديد وهي تمسّد تنورتها، ثم أضافت:

– لكنك لم تفعلي ذلك، لذا أتيت إليك.

– لن أعود إلى البيت.

– ولم لا؟».

فتحت فمي لكي أجيب ولكن سؤالها فاجأني. ولم لا، عملياً؟ فمنذ أسابيع وأنا ألازم سريري في مصيبتي. لا آكل بشكل جيد، وأتناول كثيراً من المسكنات. لقد نظرت إلى نفسي في المرآة: نظرتي فقدت كل بريقها.

لم يعد لدي شيء في لندن بعد الآن. هل سيكون أمراً سيّئاً إلى هذا الحد أن أكون مع أسرتي؟

شعرت أمي بتردّدي فانتهزت الفرصة وأعلنت وهي تنتفخ افتخاراً وطنياً:

– إن أخصائيي سيدني هم من بين الأفضل في العالم، وسوف يعتنون بك وبركبتك.

ثم وجهت إليّ طلقة الرحمة قائلة:

– والدك يعرف معالِجة فيزيائية ساعدت أحد لاعبي سيدني *سوانز* لاستعادة استخدام ركبته. هي مشهورة جداً وأعتقد أن لاعب كرة القدم يتابع نشاطه الآن.

لقد أخذت قلبي رهينة. هل قالت لي إن تلك المعالجة يمكنها أن تساعدني على الرقص من جديد. لأني إذا تمكنت من الرقص سيكون لدي مستقبل. وإلا فإني سأبقى الكتلة البشرية التي أنا هي الآن.

حبست أمي أنفاسها. قلتُ أخيراً

– موافقة، فسوف أعود.

***

احتجت إلى ست دقائق طويلة، وأصابعي تضغط على الدرابزين، وجبيني يتفصّد عرقاً وركبتي تصرخ ألماً، لكي أتمكن من صعود الدرج الضيق المؤدي إلى التيراس على السطح.

كانت برودة الطقس غير طبيعية في هذا الفصل. بدت موجاتٌ من رياح شمالية شرقية حاملة غيوماً رمادية وكأنها شربت البحر في طريقها. بعد أن مررت من أمام أصايص مهملة مشيت على الأرضية الخشبية حتى الدرابزين الذي انحنيت عليه لكي أتنفس ملء رئتيّ.

أحببنا، جوش وأنا، هذا المنظر على التايمز مع *باترسي بارك* مع قماش في الخلفية. الكآبة استأثرت بي. أذكر يوم انتقلنا إلى هنا. وكنت أتدرب من أجل جولة في الأرياف على *دافينيز وكلويه* وكان جوش قد حصل على ترقية. قمنا باستراحة من فك أغلفة الأغراض وترتيبها لنصعد إلى هنا مع أطباق صينية وزجاجة شمبانيا. عندما أظلمت السماء وأخذت الأنوار تتلألأ عبر لندن بأكملها، ذهب جوش وأتى بمجموعة من البطانيات ومارسنا الحب تحت النجوم. كان لقبلاته طعم الشمبانيا وصلصة الصويا. أحسست بالبرد وضحكت في الوقت نفسه. كنا على ثقة من أن كل شيء سيسير من الآن فصاعداً كما نشتهي.

ربما بالنسبة إلى جوش لم تحدث الأشياء كما كان يريد. لا أعرف شيئاً عن هذا. وأدركت أني لا أعرفه بسبب هذا. فأنا لم أكن أطرح عليه أسئلة حول عمله لأن عمله كان يضجرني. هل بدوت أنانية؟ ظاهرياً، نعم. ربما كانت لديه دائماً سكرتيرة تنتظر في الكواليس لتستولي على رفاق النساء من أمثالي.

كانت أمي ستأتي لأخذي بعد ساعة. وكانت قد حجزت تذكرتي طائرة حتى قبل أن تغادر أستراليا. في درجة رجال الأعمال لكي أستطيع أن أمدّ ساقي طوال الرحلة إذا لزم الأمر. على الرغم من كل شيء، كنت أخشى رحلة طويلة بهذا القدر. يجب علي أن أتناول ما بقي لدي من منوّمات ومسكّنات ألم في أثناء الرحلة. لم أجدّد وصفاتي الطبية بإرادتي، فقد قررت أن أستعيد لياقتي. وكرامتي. وربما قدرتي على الرقص، منذ اللحظة التي سأهبط فيها في أستراليا.

كم كنت أتمنى أن توقف أمي خطاباتها حول «الأعمال الأخرى» الممكنة. وبصورة خاصة تعليم الرقص. التعليم! أنا ما أكاد أقيم علاقات مع البالغين، فما بالك مع الأطفال؟ لا شك في أني سأكسرهم.

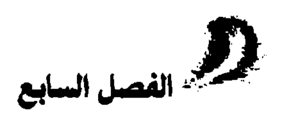
الكوريغرافيا: لا. وسأكون غيورة جداً عندما أرى الآخرين يتحركون بسهولة، مليئين بالحياة، بينما أبقى أراقبهم على خط التماس.

تنهدت وأسندت مرفقي على الدرابزين، وقلت:

– إلى اللقاء. إلى اللقاء يا سماء لندن، يا أيها النهر، ويا أيتها السيارات، ويا أيها الناس، ويا أيها الحلم.

التَوَتْ أحشائي ألماً وأنا أضيف:

– فأنا عائدة إلى بلدي.



الفصل السابع

بعد وصولنا، انتظرت أمي أسبوعاً، المدة التي لزمتني لكي أعتاد على فارق التوقيت وأوقف المسكنات قبل أن تُظهر أسبابها الحقيقية حول عودتي. ربما كانت ستنتظر أكثر لو لم يمر خالي مايك فجأة ويترك القطعة بصورة لا إرادية.

إنه فصل الربيع في سيدني والهواء مضمَّخ برائحة الياسمين الذي تزرعه أمي في آخرِ الحديقة. كنت قد بدأت إعادة التأهيل مع امرأة كان يعرفها أبي، وتبعاً لنصائحها صرت أقوم بالمشي ذهاباً وإياباً في فسحة المدخل متجنبة خطم تايغر الكلب الألماني الصغير ذي العاطفة الفائضة الذي أهداه أبي لأمي بمناسبة عيد الميلاد. لولا مضادات الألم لكان مفصلي حساساً جداً لا شيء أكثر ضماناً من هذا. المعالِجة الفيزيائية لم تعطني آمالاً زائفة. فبرأيها، هذا الجرح كان سيصبح ضربة حظ رهيبة لعموم البشر، وبالنسبة لراقصة... ولكنها أعطتني نصيحة جيدة: أنْ أركِّز على اليوم الذي أعيشه. وأن التفكير بكل الأيام التي تنتظرني سيكون غير مفيد وقد يشلّني، وبالمشي بالنسبة لهذه اللحظة، وإعادة بناء عضلات ساقي، وأن عليَّ أن أعيش في الحاضر خشية أن يؤذيني الماضي أو المستقبل.

كان أبي في العمل. إنه يملك محل خردوات. والداي لم يتزوجا قط، ولهذا السبب ورثت اسم شهرة أمي الطويل. بين وقت وآخر يتكلمان كلمات ملغزة حول «الاحتفال بحبهما». وهذه فكرة تربكني وتملأني بفرح غريب في آن واحد.

فسحة المدخل. بالطول وبالعرض.

قُرع الباب.

– خالي مايك!

ترددت في فتح ذراعيَّ وصليت في سري ألا يرفعني ويحركني في كل الاتجاهات، كعادته. فلهذا الرجل جثة دبٍّ ضخم. وقد كان معروفاً بمقالبه مع قبضتي يديه المعقدتين وقنابله عندما يغوص في المسابح.

– إيم، يسرني كثيراً أن أراك. أنت رائعة. يبدو أن شمس أستراليا مفيدة لك.

لم أقل له إني لا أجتاز الشارع دون قبعة وكريم شمسي ـ فأنا أتمسّك كثيراً بلون بشرتي العاجي. فاكتفيت بالرد:

– إنه لأمر جميل أن أكون في بلدي.

– كم من الوقت ستبقين؟

أغلق الباب خلفه واتجه نحو المطبخ دون أن ينتظر جوابي. ثم سألني:

– «هل اتصل بك هيبيرد؟ إلى أين وصلنا؟».

لا أعرف عمّا يتكلّم. ولكن كثيراً ما يتطرّق خالي مايك إلى موضوع هو وحده يفهمه. تبعتُه بخطا بطيئة، وأدركتُه لحظة أخرج زجاجة بيرة من البرّاد ووضعها على البار بصوت قوي على البار الرخامي.

سألني:

– هل تريدين زجاجة؟

– ماما! لدينا زيارة!

كنتُ أعرف أنها كانت ستنزعج لحضور خالي مايك. سواء نعم أم لا، فهي تريد أن تراه، وهذه قصة أخرى.

فتح خالي مايك الزجاجة قبل أن ينتقل إلى خطة العمل:

– إذن، ماذا لديك؟

– عفواً؟

– هيبيرد، موثّق عقود مامي بيتي.

– مامي بيتي!

آخر مرة ناديتُها بهذا الاسم كنتُ في الثامنة من عمري. هززتُ رأسي وقلت:

– أنا لا أعرف أبداً عمّا تتحدّث.

– يا إلهي. أنت تتكلّمين بلهجة إنكليزية فصيحة. يجب أن تتخلّي عنها.

سمعت وقع خطوات على موكيت الدرج. لقد أتت أمي لتنقذني. دخلت إلى المطبخ بهيئة الغلامور وفرضت أن أعرفها بها دائماً. وعندما رأت خالي مايك، تشنّج جسمها كله.

في تلك اللحظة بدأتُ أدرك أنها لم تقل لي كل شيء.

قالت بإهمال:

– مايك!

– لويز!

– لقد سبق أن طلبتُ منكَ أن تترك إيمّا بسلام.

– بسلام؟ أنا خالها. وقد أردتُ أن آتي لأطمئنّ عليها.

– كُفَّ عن الكذب، فأنا أعرف تماماً لماذا أتيت.

– يجب أن يُخبرها أحدٌ ما، وأنتِ لم تخبريها، بكل تأكيد.

– يا لك من أناني! لقد أجري لابنتي عملان جراحيان، وقد علمت للتو أنها لن تستطيع أن ترقص أبداً. فالباقي يمكن أن ينتظره.

اختنق خالي مايك بالضحك ثم قال:

– لا تدّعي أنك تحميها يا لويز. فأنت ترغبين مثلي بمعرفة ما سيحدث.

نظرت إليهما وهما يتبادلان التهم فتعاظم قلقي. سألت وحلقي جاف:

– هل يستطيع أحدٌ منكما أن يشرح لي ما يحدث؟

التفتت إليّ أمي بابتسامة مصطنعة وقالت:

– لا شيء خطير، يمكننا أن نتحدث عن ذلك فيما بعد.

تدخّل خالي مباشرة:

– أنا لا أعرف لماذا يجب أن نؤجل هذا إلى ما بعد. فمنذ سنوات ونحن ننتظر.

رفعت كتفيّ وقلت:

– أنا فضولية، والآن أود أن أعرف.

ألقت أمي نظرة على خالي مايك فرأيت منخريها قد اتسعا قليلاً، وهذه علامة على أنها تكتم انفعالاتها، ثم قالت:

– هيا بنا نشرب الشاي في الحديقة. يجب أن نفعل الأشياء حسب الأصول.

بكل تأكيد عرفت أن المقصود هو ميراث جدتي. فأمي وخالي مايك لم يقبلا أبداً فكرةَ أنها لم تترك لهما شيئاً. فهل ورّثتني شيئاً ما؟ كانت تعبدني ولم يكن هذا سراً يخفى على أحد. فقد كان هناك دائماً رابط خاص بيننا. وأحياناً أتساءل ما إذا لم تكن أمي غيورة من العلاقة التي كنت أقيمها مع جدتي: فقد كانت شائكة بالنسبة إليهما. فكرة الميراث تربكني لكنها لا تثيرني في شيء. الشيء الوحيد الذي أرغبه هو أن أرقص من جديد. وربما أن ألتقي بجوش، جوش الذي لم يخدعني. أما الأمور المادية فلم يكن لها أهمية كبيرة في نظري أبداً.

شارفت الظهيرة على نهايتها. في البعيد تهدر آلة التعشيب، وامتلأ الهواء برائحة العشب المقطوع حديثاً. بينما كانت الشمس تنحدر في السماء رأيت بشائر مساء مخملي أزرق يستقر وبدأت أستشعر اهتزازت ألم

أضم في ركبتي. انتظرت أمي وخالي مايك وشككت في أنهما يتخاصمان بينما كانت أمي تملأ إبريق الشاي وتضع الفناجين على صينية. لهذا السبب أخذ الشاي كثيراً من الوقت لكي يصل. استندت إلى مسند كرسيي ومددت ساقي الجريحة. مرَّ من فوق رأسي طيرانُ عصافير أو أشكال سوداء غامضة. لا أستطيع أن أفسّر ذلك، لكنَّ نهايات النهار لطالما كانت مصحوبة عندي بشعور بالعناء واليأس. اشتقت إلى لندن وإلى جوش وإلى استوديو التدريب أيضاً. من السهل عليَّ أن أتخلى عن المهدّئات والمنوّمات، لكنَّ هذه التعلقات الأخرى، هذه الأشياء التي رمزت إلى سعادتي طوال سنوات بدا من المستحيل عليَّ نسيانها. الحزن يتعاظم بداخلي وليست لدي أية وسيلة للتعبير عنه. فلطالما كان تحريك جسمي طريقتي في التعبير. طوال حياتي كبالغة، وحتى قبل ذلك، كنتُ أضع انفعالاتي الأكثر شدة في عضلاتي وأوتاري لتحريرها فيما بعد عبر الرقص. والآن لم أعد أملك سوى عينيَّ لكي أبكي، وقد أضحت دموعي تُضجرني إلى أقصى درجة.

رفعت رأسي فرأيت أمي وخالي مايك يقتربان. هل هذا خيالي أم هو الجشع هو الذي يبدو في عيونهما؟ يبدوان غاضبين. من ناحيتي، أنا أعرف أن أي مبلغ من المال لا يمكن أن يعيد إليَّ سعادتي.

بلطف مفتعل يسعى إلى إخفاء توترهما، جلسا إلى الطاولة الحديدية، أحدهما إلى يميني والآخر إلى يساري. صبّت أمي الشاي لي ولها، أما خالي مايك فقد أبقى على البيرة. أخذا يثرثران عن كل شيء وعن لا شيء. وأخذت أستمع إليهما بأذن كما لو أني أجلس بعيداً. ثم سألتُ أخيراً:

– كم؟

تبادلت أمي وأونكل مايك نظرة، فأضفت:

– أنا لا أفهم لماذا لم تكلّماني من قبل.

– إننا لا نعرف كم المبلغ، هذه هي المشكلة، السيد هيبريد قال...

- لا يمكننا أن نحدثك عن هذا الموضوع بسبب شرط غبي في وصية جدتك بيتي.

- يا عزيزتي، إنها تطلب أن تعودي إلى أستراليا قبل أن تحصلي على أي شيء كان. أو قبل حتى الكلام عن الميراث.

حرّكت أمي الشاي بحيويةٍ ثم أضافت:

- هي تريد أن يكون ذلك هدية من أجل... تقاعدك.

حاصرتني الذكريات فرأيت نفسي جالسة مع جدتي في قاعة الموسيقى في بيتها الكبير في بوينت بايبر. *راقصات الباليه لا يرقصن إلى ما لا نهاية*. أثار الغضبُ أعصاب جسمي كلها. وأعلنتُ بقوة:

- لن آخذ تقاعدي، لا أريد أن آخذ شيئاً من جدتي. وهو لن يكون شيئاً ذا أهمية على أية حال. فقد أعطت مالها إلى الجمعيات الخيرية وإليكما، ولا بدّ لكما أن تهضما ذلك. لا أريد أن أصبح متقاعدة. سوف أشفى، وسأعود إلى لندن وأتابع الرقص.

تلا كلامي محيطٌ من الصمت. بقيت زجاجة بيرة خالي محصورة في وسط طريق شفتيه. لو كنتُ مؤهّلة جسدياً لانطلقت كإعصار. وجب عليَّ أن أهدأ لكي أنهض بحذر عن كرسيي وأبتعد وأنا أحجل.

قالت أمي:

- عودي، يا إيم.

- دعيها تهدأ يا لويز.

- يجب علينا حقاً أن نتكلّم.

لكني لم أعد. ولم أنظر إلى الخلف لأنهما كانا سيريان دموعي لو فعلت.

حبست نفسي في غرفتي، كما لو أني عدت من جديد إلى سن الرابعة عشرة. لم أنزل عندما سمعت صوت سيارة أبي في الممر ولا عندما وصلت رائحة الثوم المقلي إلى أنفي، ولا عندما قرعت أمي باب غرفتي وهي تصرخ:

- ألن تأتي لتأكلي؟
صرفها صمتي.
خيّم الظلام وجلست على سريري، ونافذتي مفتوحة مواربة. أخذت أصغي إلى الجداجد وهي تغني، وإلى النسيم العليل وهو يحرك الأوراق العريضة لأشجار الكافور التي تحاذي الجدول الموازي للشارع، وأصوات السيارات في البعيد على الأوتوستراد. الظلام يتكاثف والبرد يشتد. لم أضئ أي مصباح. بدوت كأني مشلولة وكما لو أنه من المستحيل عليَّ التفكير في الحركة في آن واحد. على أية حال لم أكن أفكر في شيء. فقد حاولت ألاّ أفكر.
سمعتُ أبويَّ يشاهدان التلفزيون، وأبي يصعد الدرج ثم طقطقة أنابيب الحمام وهو يستحم. ثم سمعتُ أمي تُغلق باب المدخل وتطفئ الأنوار. وسمعتهما يأويان إلى السرير، وسمعتُ أصواتهما الخافتة في الظلام. تخيّلتُ أنهما يتكلّمان عني، لأني فقدتُ التّماسّ مع الواقع، ولا أريد الميراث، ولأني ما أزال أعتقد أني أستطيع الرقص.
عند منتصف الليل، كنتُ ما أزال صاحية. نهضتُ. وفّر لي نصفُ القمر ما يكفي من النور لكي أجد حقيبتي تحت النافذة. لم أُخرج أمتعتي بعد. الإنكار. في جانب الحقيبة، في صندوق مغلّف بالساتان، يوجد حذائي الخاص بالرقص. غالباً ما كنتُ أنتعل هذا الحذاء، وماركته روسية، لجعله مريحاً ومرناً. ولكنه ما يزال بعيداً عن البلى. بل إنه حذاء ممتاز. وإلى جانبه التاج الذي اعتمرتُه في بحيرة *البجع* في يوغوسلافيا في السنة السابقة. وكان قد صمّمه خصّيصاً من أجلي صائغٌ تشيكي، وإنه يدلّ على ذوق مميّز على الرغم من أن أحجاره مزيفة. وضعته على رأسي، وانزلقتُ بهدوء على الأرض ورفعت تنورتي حتى الردفين لأربطَ حذائي. فأنا لم أنتعله منذ الحادث. قمتُ بهذه الحركات بألفة مطمَئِنة. ثم نهضت من جديد كيفما اتفق. وأنا كنت قد رقصت وأنا أتألم من قبل.

ببطءٍ وقفت على رؤوس أصابع قدميّ ثم... انحناء.

في خلال لحظة قصيرة جداً، ربما نانو ثانية، وُلِد لدي انطباع بأن كل شيء طبيعي. فعضلاتي ردّت الفعل كما يُفترض بها أن تفعل، وفية لذكرياتها. ولكنّ ألماً مبرحاً ما لبث أن كنسَ كل بصائص أملي. صرخت وانهرت أرضاً. وسمحت لنفسي بأن أبكي. أبكي ألمي. أبكي خيبتي. أبكي فقدان كل ما هو عزيز عندي. كان رأسي يعرف ذلك منذ البداية لكنّ قلبي فهم للتو. إذا كان ممكناً أن تشفى ركبتي في زمن إعادة التأهيل، فسأكون عجوزاً جداً للنجاح في اختبارات الانتقاء. وسيكون ذلك مغامرة كبرى. وبما أن عمل الهاوية أو الأدوار الصغيرة لم تكن تليق بي، فسأقبلها طواعية، وهذا يعني أن عملي قد انتهى تماماً.

طرقات خفيفة على الباب، فصرخت مباشرة:

– اذهبوا!

لقد كان والدي. دخل وسأل:

– إيم؟ هل سقطت؟ هل أنتِ بخير؟

أشعل مصباحاً ساطعاً بشكل فظيع، ثم ألقى نظرة عليّ وعلى تاجي الذي ما يزال على رأسي وعلى الحذاء المدبب في قدميّ ثم أسرع وحملني بين ذراعيه. بكيت على صدره ووجهي مغطى بالدموع. أجلسني على السرير بحذر. بالنسبة لرجل بضخامته ورجولته، استغربتُ النعومة اللامتناهية التي يُبديها دائماً. سألني:

– هل تألمت؟ هل تريدين أن أستدعي طبيباً؟

أجبتُ بصوتٍ مرتعش:

– أنا لم أسقط، أنا أبكي لأني... فهمت أني...

لم أستطع أن أكمل كلامي.

أبعد شعري عن وجهي المحرق ثم قال:

– أنا آسف جداً من أجلك يا قلبي، وسأفعل أي شيء لكي يسوّى هذا. ولكنّ هذا غير ممكن.

بكل تأكيد هذا غير ممكن. ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً. بيدٍ حذرة خلعت تاجي وناولته إياه وأنا أطلب منه:

- ارمه، فأنا لا أريد أن أراه أبداً.

منذ يوم الاثنين التالي قصدتُ مكاتب السيد هيبيرد، موثّق عقود العائلة منذ أقدم زمن أذكره. لم أسمع من قبل أحداً يناديه بغير السيد هيبيرد، على الرغم من أني لا أشك في أنه يمتلك اسماً أولاً ككل البشر. ولكنه ما يزال متعلقاً بالقديم، بقمصانه المكوية بعناية وربطات عنقه العريضة بعض الشيء. كان من غير المناسب أن أخاطبه بغير اسم عائلته.

كانت أمي حاضرة، بكل تأكيد. ومن دواعي سرورها الكبير أني رفضت أن يأتي خالي مايك. لم تكن أمي قادرة على البقاء في مقعدها، وهذه علامة واضحة على عصبيتها. بالنسبة إلي، أنا لست عصبية. بعكس أمي، فأنا لا أنتظر الحصول على مال. لقد كانت جدتي تتمتع بحس سليم جداً لأنها تركت لي مالاً. فقد كنت أفكر بأنّ إرْثَ جوهرةٍ ثمينة أو كتابٍ يمثّل كثيراً في نظرها. أتخيل أن أحصل على رمز، على شيءٍ ما يمكن أخذُ عبرةٍ منه. عبرة لا تهمني كثيراً في الوقت الحاضر.

بكل تواضع، فتح السيد هيبيرد الملف على مكتبه المصنوع من خشب السنديان، الساعة الجدارية تشير إلى الثواني، واللوحات تراقب المشهد والغبار يتراكم على الرفوف. إنه يعرف محتوى الملف من قبل، لكنه يلعب دوره كمقدم برنامج تلفزيون الواقع. *الرابح هو...*

أخذت أمي تلوي يديها بأناقة.

- إيمّا، لقد أعطتني جدتك تعليمات محددة جداً. فقد تركت لك شيئاً ما له قيمة وجدانية كبرى، ولكن بعدة شروط. أحد الشروط أن تعودي إلى أستراليا.

ابتسم ثم قال:

- أهلاً وسهلاً بك في وطنك.

لم أستطع أن أنظر إليه في عينيه. فهو لا يعرف شيئاً عن جرحي ولا عن فقدي. لا بدّ أن حزني بدا له واضحاً فجأة. غاضت ابتسامته وتراجع. ثم أضاف بصوت حزين:

- مهما يكن من أمر، فإن الميراث المقصود يحوي أيضاً قيمة مالية، ولكن يُمنع عليك بيعه في خلال الأشهر الستة التالية للحصول عليه.

- ما هذا؟

تدخلت أمي، وقد عجزت عن ضبط نفسها زمناً أطول.

لم يوجه إليها السيد هيبيرد حتى نظرة. فالمشكلات التي سببها ميراث جدتي وضعته في خلاف مع أمي وخالي».

- هناك بيت يا إيمّا.

قالت أمي وهي تقفز عن مقعدها:

- بيت؟ ولكنك اهتممت ببيع بوينت بايبر، أنا أذكر ذلك. والمال كله ذهب إلى ملجأ حيوانات سخيف.

تنحنح السيد هيبيرد، وضع الأوراق على الملف بحركة غامضة وانتظر أن تعود أمي إلى الجلوس. بيت. جدتي ورّثتني بيت. هذا شيء جيد، أليس كذلك؟ يجب عليّ ألا يكون لدي انطباع بأني أحمل عبئاً.

- كما قلت لك، كان لهذا البيت أهمية كبرى بالنسبة إلى بيتي.

دفع الملف نحوي وهو يقول:

- إنه في تاسمانيا.

علّقت أمي:

- هذا الخراب القديم؟ كنت أعتقد أنها باعته منذ سنوات. أهذا كل شيء؟ هل أنت متأكد؟

قلت للسيد هيبيرد وأنا أتأبط الملف:

- شكراً، ولكنني لا أعرف ماذا أفعل به. هل البيت بحالة تجعله قابلاً للبيع؟ أقصد أنا لست مضطرة للذهاب إليه، أليس كذلك؟

رقّ صوت السيد هيبيرد أكثر وهو يقول:

– جدتك أصرّت على أن تذهبي إليه، ولكنها كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تجبرك على ذلك. كما قلت لك، يمكنك أن تبيعيه بعد ستة أشهر وليس قبل. أعتقد أنها كانت تأمل أن تُمضي فيه بعض الوقت.

– في تاسمانيا؟

– نعم، إنه جميل جداً، وسيعجبك.

أعرف بوجود هذه المزرعة لتربية الخراف، بكل تأكيد. إنها تثير فيَّ إحدى أقدم ذكرياتي: عندما كنت نائمة عند جدتي واستيقظت مرعوبة في منتصف الليل. أسرعت إلى قاعة الموسيقى حيث كانت تبقى إلى وقت متأخر من الليل. وضعت رأسي على ركبتيها وطلبت مني أن أنظر إلى شجرة سنط كانت تحبّها كثيراً. قالت لي إن هذا هو منظرها المفضّل في المزرعة، وأنها تهدأ دائماً وتسعد عندما تراه. نظرتُ إلى اللوحة بعناية لدقائق طوية، وهي تداعب شعري حتى أنام.

اجتاحني الفضول لرؤية ذلك المكان. إن الانطلاق من لندن من أجل الذهاب إلى سيدني شيء، ولكن الذهاب لزيارة جزيرة مليئة بالمزارع في طرف العالم...

«بيعيها، إذن»، نصحتني أمي بصوتٍ خافت. فأنت لا تستطيعين الذهاب إلى هناك في وضعك الحالي وأنتِ بحاجة إلى أن أهتمَّ بك. ويمكنك أن تجني منه مبلغاً جيداً.

فكرتُ بأمي وبالأونكل مايك اللذين كانا يقولان لي، كلاهما، يائسين، ما يجب أن أفعله، من أجل الإبقاء على ما بقي لهما من ميراث أمهما. ثم فكّرتُ أخيراً بجدتي، وبما كانت تحاول أن تقوله لي بتوريثي هذا البيت. أنا أعرف كم كانت متعلّقة به. لذا قرّرتُ أن أسمعها هي، وليس ابنتها.

«سأذهب إلى هناك»، أعلنت.

أسكت الذهول أمي. ابتسم السيد هيبيرد، وهذه المرة رددتُ له ابتسامته.

«أنا في غاية السرور يا إيم، قال. وبيتي ستكون سعيدة أيضاً. وقد تحملين بعض الحياة في ذلك البيت القديم.

– سأذهب إليه وألقي نظرة، هذا كل ما في الأمر، أوضحت، ويداي في الهواء تدوران حوله. ولن أبقى فيه طويلاً».

بدا على وشك أن يضيف شيئاً. ثم تراجع. سوّى وضع ربطة عنقه، ثم قال: «الأملاك لم تُبَع بالمزاد، إذن البيت ما يزال مليئاً نوعاً ما. ويجب أن يقوم أحدٌ ما بالفرز».

– فرز ماذا؟ الكتب؟ أدوات الزينة؟

– عملياً، أثاثه كلّه ما يزال موجوداً، ومغطّى بأغلفة لحمايته. كراتين، وكراتين...لا أعرف ماذا. فقد خزّنت كثيراً من أشيائها هناك. ومن الممكن أن يكون بانتظارك عمل شاق.

– هل تريدين أن آتي معك؟ سألتني أمي.

«لا» أجبتُ بسرعة بكل تأكيد. فحككت ذراعها بحنان، وأضفت: «لا، ستسير الأمور. في الواقع، لقد بتّ مستعجلة لأكون هناك».

الفصل الثامن

بيتي هوبارت، 1988

كانت بيتي تنشر الغسيل على الحبل الصغير الذي يربط مقدمة سطح البيت بالنهاية من ناحية أخرى، عندما سمعت صفرة ساعي البريد في الشارع. في الآونة الأخيرة، بات هذا الصوت يملأها خوفاً، على الرغم من براءته، لأن ديونهما تتراكم، والدائنون لا يكفّون عن إزعاجهما بتذكيرهما بحجم ديونهما.

أنهت نشر قمصان هنري ومسحت يديها بمريلتها. لقد احمرت أصابعها وانتفخت عند المفاصل بعد أن أمضت هذا الصباح في فرك الملابس وعصرها فوق طست الغسيل الذي يتصاعد منه البخار. ثم توجّهت بتوجّس نحو صندوق البريد.

إنه صباح آذاري جميل، بارد جداً، وإن كانت السماء صافية ومشمسة. كانت جارتها دوريس بيني تنفض سجادتها في الفسحة السماوية. الضربات القوية والموقّعة ترنّ بين بيوت الشارع الصغير وترسل في الهواء سحائب من الغبار تتصاعد نحو الشمس. أخرجت بيتي مغلّفاً واحداً من علبة الرسائل، وقلبته ولم تتعرّف إلى اسم الشخص الذي هي

مدينةٌ له بالمال. لم يدم ارتياحها طويلاً، لأنه كان من الأقل خطورة عليها أن تكتشف اسم دائن من اكتشاف الاسم المكتوب على المغلّف.

قالت لها دوريس بصوتٍ مليءٍ بالأمل:

- صباح الخير.

وضعت بيتي الرسالة في جيب مريلتها، واحتفظت برأسها مطأطئاً وهي عائدة إلى البيت. فهنري واضح جداً في هذه النقطة: يجب أن لا تتخذ أصدقاء، وأن لا تطيل الكلام مع أحد، إلا إذا كان يعرف سرّهما من قبل. لقد بذلت دوريس جهودا كثيرة لإقامة علاقة بينهما، بيد أن بيتي لم تقدّم لها سوى اعتذارات مستعجلة أو يداً مرفوعة يمكن أن تعني إما ردّ التحية أو الطلب منها أن تبقى بعيدة. كما إنه من غير المسموح لبيتي أن تتصل بأي شخص كان في بلادها، مسقط رأسها. ومع ذلك فقد أرسلت رسالتين إلى كورا مع بيلي، ولم تردّ كورا عليها. شعرت بيتي بالحنين إلى الوطن: فقد اشتاقت لأصدقائها، واشتاقت لأبويها. وهي تتحرّق رغبة لتُفضي بسرّها لأحدٍ ما، ولكن هنري يحرّم عليها هذا.

انغلق الباب خلفها بصوت قوي. اتجهت إلى المطبخ الصغير، وأخرجت الرسالة من جيبها. قرأت من جديد اسم المرسل. إنه مولي ماك كونيل. زوجة هنري. زوجته الحقيقية، وليست هذه الزوجة المتخيّلة التي لبست بيتي ثيابها منذ ثلاث سنوات. رغبت أصابعها كثيراً بفضّ الرسالة، ولكنها لم تجرؤ، فطبع هنري صعب جداً، وقد ازداد صعوبة منذ أزماتهما المالية. ومشكلاتهما ما تني تتفاقم لأنه أخذ يشرب لكي ينسى، وأخذ يقامر محاولَةً منه لإخراج نفسيهما من الحفرة التي سقطا فيها.

وضعت بيتي الرسالة بعناية على جدار المدفأة. كان عليها أن تنتظر عودة هنري لِكي يقرأها ويشرح لها عمّا تتكلم. لم يعد هناك من شك بأن مكانهما قد كُشف: فإذا كانت مولي قد تجشمت عناء إيجاده، ربما تريد أن يعود إليها. خامرت بيتي رعشة صغيرة من الشعور بالذنب. ففكرة أن

يُصبح هنري مشكلةَ شخص آخر خففت عنها العبء للحظة. ما زالت تحبه ولكنهما أصبحا مرتبطَين بمتاهة من الأمور الشاقّة والمعقّدة.

في الممر سمعت صوت باب يُفتح. ثم أطلّ وجهُ طفلة مليء بالنعاس.

– ماما؟

نهضت بيتي وحملت لوسي بين ذراعيها وقبّلت خديها الحارّين وسألتها:

– هل نمت جيداً يا عزيزتي؟

هزت لوسي رأسها ثم فركت عينيها بمعصميها الصغيرين وقالت:

– أريد أن آكل.

أجلستها بيتي إلى طاولة المطبخ وأخذت تحضّر لها سندويشة صغيرة من بقايا الليلة الماضية. قسمتها إلى أربع قطع صغيرة ووضعتها أمامها، لكن الطفلة رفعت أنفها قبل أن تقول:

– لا أحب هذا.

قالت بيتي ككل يوم عند الغذاء:

– لم تذوقيها. إنها جبنة بالمخلل. وهذا هو الطبق المفضل عند بابا.

بحركة مسرحية فركت لوسي بطنها وانقضّت على السندويشة. القول إن البنت الصغيرة متعلقة جداً بأبيها هو تلطيفٌ للكلام. فلوسي وهنري صُنعا من العجينة نفسها. حتى الشعر الأشقر والعينين الرماديتين. وعندما تبتسم لوسي فقط ترى بيتي تشابهاً مع ابنتها. فمنذ ولادتها وهنري يحبها بجنون. إنها فتاة غريبة الأطوار بحيث أن بيتي لا تستطيع أن تسيطر عليها. ومع ذلك عندما يأتي المساء، ويعود هنري من عمله يكفيه أن يأخذ ابنته بين ذراعيه ويكلّمها بهدوء حتى تكفَّ أخيراً عن البكاء وتحشر جسمها بكتفه وتنام. لقد أنهكت صدمةُ الأمومة بيتي كثيراً بحيث أنها تشعر بالغيرة منها.

والآن، بعد أن أصبحت لوسي في الثالثة من عمرها، ترسّخ الحب الذي كان يجمع الأب والبنت بعمق في الواقع بحيث نما لدى بيتي

انطباعٍ بأنها بعيدة عنهما، وأن صوتها لم يعد واضحاً ووجهها لم يعد صافياً. بكل تأكيد، هي التي تُمضي نهارها بأكمله مع الفتاة الصغيرة، والتي تصنع لها الدمى من قطع القماش، والتي تتمدد إلى جانبها وتغني لها لكي تنام وقت القيلولة. لكنَّ هذا القرب الجسدي ليس شيئاً مقارنة بالحميمية التي يتقاسمها هنري مع لوسي. إذن حتى في الأيام التي تكون الحياة مع هنري لا تطاق ـ عندما يعود إلى البيت متأخراً وثملاً، وعندما اضطهدها بسبب الابتسامة التي تبادلتها مع الخبّاز، وعندما يغضب ويضرب بقبضته على طاولة المطبخ، وعندما يبدأ قلب بيتي يغلي لأنها تعرف أنه كان يفضّل أن يضرب بها جسمها ـ، لا تستطيع أن تتخيل الذهاب مع لوسي. فالطفلة لن تفارق أبداً والدها المعبود.

لم تفارق بيتي الرسالة بنظرها بينما كانت الفتاة تتناول غداءها. قد تكون هناك أخبار سارة. وقد تكون مولي قابلت رجلاً آخر وتريد أخيراً أن تُطلّق هنري. وربما أمضت أشهراً في البحث عنه لكي تمنحه حريته. ولكنَّ بيتي لا تستطيع أن تتخلّص من شعور بالرعب. دفعت لوسي طبقها الفارغ وقالت:

– هل أستطيع أن ألعب في الحديقة؟

– لا يا عزيزتي، يجب أن نذهب للتسوق من المحل. فلم يعد هناك شيء من أجل عشاء بابا.

ولا مال لشراء الطعام، ولكنها تأمل أن يسمح لها السوبر ماركت بدين آخر.

ركضت لوسي وأحضرت حذاءها. ألقت بيتي نظرة أخيرة على الرسالة ثم قررت ألا تعود إلى التفكير فيها حتى عودة هنري، راجية أن يعود باكرا لكي يتغير.

مشت بيتي على الشاطئ المؤدي إلى المحلات. وركضت لوسي أمامها على بعد بضعة أمتار وهي تجمع الحصى أو تداعب هراً تائهاً. من المكان الذي تسير فيه بيتي تستمتع ببانوراما تمتد من السواري في المرفأ إلى برج

مكتب البريد. منظر السفن لا يكفُّ عن ملئها بالرعب. فقد أمضيا، هنري وهي، شهرين على متن سفينة شحن مثيرة للغثيان حتى وصلا إلى هنا، تلخَّصت الأيام العشرة الأولى منها بضباب مستمر وبدوار البحر، أما الأيام التي تلت فكانت كابوساً إذ أصابتها القمرةُ المغبرّة والوسخة برهاب الأماكن المغلقة. ولم تكن تكفّ عن انتظار اللحظة التي تصبح فيها خارج الماء. لكنَّ نزولهما على اليابسة لم يوفر لها أي فرح. فهي ليست في بلدها، بل في بلد غريب سماؤه واسعة، وبعض الناس فيه ما يزالون ينتقلون بعربات تجرها أحصنة. وبات حنينها إلى بلدها صعب التحمل جداً بحيث أنها أخذت تتساءل ما إذا كان السبب الوحيد الذي من أجله لا تعود إلى بلدها ليس سوى تصور رحلة بحرية طويلة أخرى. فقد أقسمت أنها لن تضع قدمها على سفينة أبداً.

سرعان ما وجد هنري عملاً وسقطت أيامهما في الروتين. استأجرا بيتاً صغيراً من بيلي وايلدر في شارعٍ مليء بالرواقات القرميدية خلف أسيجة من العوسج. وُلدت لوسي ليلا، في العطلة الأسبوعية، دون تأخُّر، وفي الألم. لم يُتح الوقت للقابلة لتأتي وهنري هو من أخرج الطفلة من جسمها وغلفها ببطانية صغيرة بانتظار أن يأتي أحدٌ لمساعدته. بنظرة غائمة أعلن لبيتي أنهما رُزقا ببنت وبقيا جالسين أحدهما بجانب الآخر في صمت مطبق، والطفلة بين ذراعيهما حتى الفجر. امتلأ قلباهما بفرح عارم، لكنَّ سعادتهما لم تدم.

محل البقالة تديره امرأتان مُسنّتان لطالما خلطت بيتي بينهما، جين وليسلي. لا يمكن القول إنهما امرأتان مسنتان محببتان. بل هما من النوع الصارم والخبيث. هما متقاربتان جداً، وليستا أختين، وبيتي تشك في أن تكونا أكثر من صديقتين. وحين أسرّت بهذه الفكرة لهنري اتهمها بأن لديها أفكاراً مخجلة. أحزنها ذلك: فهل يجب عليها أن تقوم بفرز أفكارها قبل أن تشاركه بها؟ أية حميمية يمكن أن تنمو بينهما ما دام يحكم عليها بهذا العنف؟

على أية حال، هل تقاسما حميميةً من قبل؟ فإذا ما استثنيَتْ مزاحاتهما في النادي، كانت أول مرة أمضيا فيها وقتاً معاً على السفينة التي أقلتهما إلى هوبارت. واكتشفا أن هناك أشياء قليلة يمكن أن يقولها أحدهما للآخر.

تجارة جان وليسلي مزدهرة. ومع ذلك فهما تتذمران دائماً من عدم امتلاكهما ما يكفي من المال. ولهذا السبب تبقى مصابيح المحل مطفأة في النهار. ولمّا كان عمق المحل خالياً من النوافذ فإنه يبقى مغبشاً دائماً. الزاوية هي التي اختارتاها لوضع الدمى في مكان مرتفع، على رفوف من خشب السنديان، بعيداً عن المتناول. وهي القسم المفضّل لدى لوسي، إذ إنها تنظر إلى دمى «مدام ألكساندر» باشتهاء. الطفل الصغير بالبيجاما الحمراء هو دميتها المفضّلة. وتعرف بيتي جيداً أن ما يمنع لوسي من ارتقاء المعروضات كلها للوصول إليها هو خشيتها من سماع صوتي جان وليسلي يلعلعان في أرجاء المحل. تركت بيتي ابنتها في تأمّلها، وتناولت سلة ودارت في أرجاء المحل. لم تأخذ إلا الأشياء الضرورية ولكنها استغربت سرعة امتلاء السلة بالمواد.

اقتربت من الكونتوار بجزع. وجهت إليها جين (أو ليسلي... لا، فإن تلك التي شعرها رمادي فولاذي هي جين) ابتسامةً متوتّرة، وقالت:

– طاب نهارك يا مدام ماك كونيل.

– طاب نهارك، أنا... أتساءل ما إذا كان بوسع زوجي أن يمرّ لاحقاً لدفع ثمن هذه المشتريات.

ارتعشت ابتسامة جين، لكن نظرها برد وهي تقول:

– أخشى كثيراً أن ننتظر أيضاً أن يسدّد لنا زوجك ثمن مشتريات يوم الخميس الماضي.

– نعم، أعرف. سيأتي ويبرّئ ذمته من ثمن كل مشتريات هذا الأسبوع.

فيوم الجمعة هو يوم الراتب. حتى وإن لم يبق لهم منه شيءٌ كثير. بعد ثمانية أشهر من ولادة لوسي، كبّر بيلي وايلدر شركته ووظف هنري عنده. وبعد عدة أسابيع، أعلن لهنري أن أشخاصاً كثراً يفقدون أعمالهم، وأنه لا يستطيع الاحتفاظ به إلا إذا خفّض من أجره. كل أسبوع، وقبل أن يقبض هنري بنساً واحداً، يحسم عليه بيلي الإيجار وديون القمار من ورقة راتبه. وأحياناً يكون المبلغ النهائي أدنى من التعويضات الاجتماعية الممنوحة للناس الأكثر فقراً: كانت بيتي ستكون أكثر ارتياحاً مع بطاقة التغذية. فقالت بصوتٍ خافت:

– نحن نريد أن نأكل فقط.

تنهّدت جين وقالت:

– البعض يعيشون بؤساً شديداً بحيث أنهم يطبخون الحساء مع العشب، يا مدام ماك كونيل، ولكن بما أن زوجك يعمل، فسأمنحك فرصة أخرى.

ثم التفتت وفتحت أحد الأدراج وأخرجت منه دفتراً متآكل الزوايا. فتحته على الكونتوار، وقالت:

– سوف أمدّد دينك حتى نهاية الشهر. وإذا لم تسدّدي ديونك بتاريخ 31 آذار، لن تتمكّني من التسوق من هنا. هل فهمت؟

اكتفت بيتي بإيماءة من رأسها. بينما أخذت جين تسجّل الحساب وتعلّق الإيصال في الدفتر، حرصت بيتي على إخفاء وجهها المحمرّ خجلاً. الانزعاج أسهل احتمالاً اليوم لأن شيئاً ما أكثر إقلاقاً يعذّبها: ففي البيت رسالة تنتظر عودة هنري وهي تخاف مما تحويه.

وهي ترجو أن يعود هنري باكراً لكي يخلّصها من عذابها، تفرّغت بيتي لترتيب البيت وإعداد العشاء. فكرت بفتح الرسالة بالبخار. ولكن ليس من المفيد أن يغضب هنري. وفي نهاية المطاف ألبست ابنتها لوسي وأخرجتها إلى الحديقة. بينما كان الظل يغزو العشب النادر، أخذت لوسي تركض مفتوحة اليدين وهي ترسم دوائر طفولية لا تنتهي، متسلّية

بدفن ونبش قبور عائلتها من الدمى المصنوعة من ملاقط الغسيل. مرت ساعة عودة هنري المعتادة، وعند غروب الشمس، عندما بدأت لوسي تشكو من أنها جائعة، أدركت بيتي أن هنري قد قرر بكل تأكيد أن يشرب كأساً عند بيلي.

أدخلت لوسي، وحضّرت لها الطعام: سندويشة شحم مع بقايا حساء البازلاء. ليس لبيتي أية شهية. وسهرتها مكرّسة كلياً للأعمال المنزلية: تحميم لوسي، واختراع قصص لها لكي تنام. بكت الطفلة قليلاً لأن والدها لم يعد، لكن بيتي طمأنتها إذ قالت لها إنها كلما نامت في ساعة مبكرة، كلما رأت والدها بصورة أسرع عندما يأتي الصباح.

بعد أن نامت البنت، جلست بيتي وبيدها أشياؤها التي هي بحاجة إلى خياطة. إنها تصنع ثيابها كلها، وثياب لوسي أيضاً، وتبحث أحياناً عن الثياب القديمة وتقصّها وتعيد خياطتها. اليوم، لقد بات حلمها في تصميم الأزياء مضحكاً، ولكنها ما تزال تحبّ رسم أشكال لفساتين، وقد امتدحتها نساء الحي على ثياب لوسي. بيتي تحافظ كثيراً على تحفظها، فتهزّ رأسها بلطف دون أن تُفتح حديثاً. ولكن عندما فاتحت هنري بفكرة إقامة تجارة تقوم على تصميم ملابس للأطفال وبيعها، سخر منها قائلاً: «الناس لم يعد لديهم مال، والأطفال يكبرون بسرعة كبيرة بحيث يصبح من الغباء إنفاق المال على ملابس جديدة. اكتفي بما تفعلينه».

أخذت بيتي تراقب الساعة بقلق، وهي تخيط. لم تشعر بالجوع، ولكنها أكلت قليلاً واحتفظت ببقية عشائها لهنري عندما يعود إلى البيت. ولم يكفّ نظرها عن الوقوع على الرسالة. كلما اشتدّت الرياح البحرية برد الطقس بحيث بات ضرورياً إشعال المدفأة. أخذ القلق يغزو بيتي أكثر فأكثر. إنها قلقة بشأن مولي، كلب الصيد الإيرلندي التي لم تقابلها أبداً ولكنها مرتبطة بها برباط وثيق. فبيتي سرقت زوج مولي، هذا ما يجب قبوله. وماذا يحصل للنساء اللواتي يخطفن أزواج الأخريات؟ تخشى بيتي أنها تعرف الجواب من قبل.

كانت الساعة تشير إلى الثانية والعشرين عندما توقّفت عن الخياطة. حتى وإن عاد هنري الآن فسيكون ثملاً أكثر من أن تتمكّن من الحديث معه. لبست قميص نومها وصعدت إلى سريرها. هبّات الرياح تهزّ النوافذ بين وقت وآخر. نامت بيتي نوماً متقطّعاً، مشوباً بأحلام وأفكار مقلقة.

بعد بضع ساعات، وفي جوف الليل سمعت أصواتاً.

صحت في خلال لحظة ونهضت. إنه هنري: هل رأى الرسالة؟ نزلت عن السرير وفتحت الباب. في الطرف الآخر من الممر، في الصالون، كانت الأنوار مُضاءة والمدفأة تشخر. إنهما يرويان سخافات حول زبون غني، وينفجران ضاحكين على نكاتهما البذيئة. ميّزت صوت معانقة كؤوس، فهما يشربان. أملت أن يكون بيلي هو من اشترى الكحول لأن هنري لا يملك مالاً ليصرفه على هذا.

عادت بيتي إلى سريرها، تاركة الباب موارباً لكي تستطيع أن تُصغي. لم تتبيّنْ إلا نتفاً من حديثهما. ثم سمعت دوي انفجار بالضحك، وبعد وقت قصير فتحت لوسي باب غرفتها. فقد أيقظاها.

– بابا؟

صاح هنري بصوتِ سكّير:

– برغوثتي الصغيرة! تعالي إلى هنا يا عزيزتي. تعالي وقولي: مساء الخير، لأونكل بيلي.

فكرة أن يدنو «أونكل بيلي» من ابنتها جعلت جلدها يقشعرّ كجلد الدجاجة. فأسرعت إلى التقاط لوسي عند باب الصالون، وقالت لها:

– هيا يا قلبي عودي إلى سريرك.

ألقى هنري عليها نظرة غاضبة وقال:

– لم أرها طوال النهار. دعيني على الأقل أَقُلْ لها مساء الخير، أيتها المرأة الطيبة.

عضّت بيتي شفتيها لئلا تقول له إنه هو المسؤول إذا لم يكن قد رأى ابنته اليوم لأنه فضّل على ذلك الخروج والشرب، واللعب أيضاً بلا شك.

ارتمت لوسي بين ذراعي والدها. فرفعها واحتضنها بشوق. قال بيلي:
- أوه إنها صورتك طبق الأصل يا هنري!
- إلا عندما تبتسم، فعندها تشبه بيتي.
التفت بيلي نحو بيتي ووقع نظره على قميص نومها. ضمّت ياقة قميص نومها حتى الرقبة. وجّه إليها ابتسامة قاسية - على أية حال هي لم تعرف له سوى هذه الابتسامة - ومدَّ إليها كأس ويسكي فارغة وقال:
- هل تريدين كأساً؟
- إنها الواحدة صباحاً!
- هذا سيساعدك على النوم.
لم تجب بيتي، بل وجّهت نظرها إلى سطح المدفأة. الرسالة ما تزال غير مفتوحة.
وضع هنري لوسي قبل أن يقول لها:
- هل تريدين أن تغني أغنية صغيرة لأونكل بيلي؟ الأغنية التي اخترعتِها عن العصافير؟
ثم التفت إلى بيلي وقال:
- إن هذه الطفلة ذكية إلى درجة لن تصدقها.
تدخلت بيتي قائلة:
- حقاً يجب عليها أن تنام، يا هنري.
- أريد أن أبقى واقفة مع بابا.
استسلم هنري لبيتي وقال:
- أمك على حق. لكني مسرور كثيراً لرؤيتك يا برغوثتي.
داعب شعرها بنعومة وقال:
- هيا اذهبي إلى سريرك الآن. وستغنّين لي أغنيةً صباح الغد.
وضعت بيتي لوسي في سريرها وجلست قربها. الآن البنت مضطربة وعيناها مفتوحتان. شكت بيتي في أنها ستستطيع أن تنام من جديد. طلبت منها:

– أغمضي عينيك. الاتجاه: بلد الأحلام. اذهبي إلى تحت شجرة الكستناء. وقومي بنزهة.

ابتسمت لوسي وسألت:

– هل أستطيع أن آكل بعض الكاتو؟

– نعم قطعة كاتو مع المربى في الوسط.

تظاهرت الفتاة الصغيرة بأنها تأكل قطعة ضخمة، ثم التفتت وأغمضت عينيها بقوة. تركتها بيتي وأغلقت الباب بهدوء قبل أن تقف عند مدخل الصالون. كان هنري قد هدأ، لكنّ بيلي يقهقه على قصة مضحكة. انتظرت حتى هدأ وابتسمت له بلطف، وسألته:

– هل لديك أخبار عن أخيك يا بيلي؟ هل وضعت كورا حملها؟

– نعم، نعم، فقد أصبح تيدي أباً وهو فخورٍ بذلك. إنه صبي صغير أسمياه فرانك. وقد انتقلا إلى إدمبرا واشتريا بيتاً مع حديقة، ويعيشان أفراح الحياة العائلية.

وجدت بيتي عناءً في كبت غيرتها، وهي تقول:

– «انقل إليهما محبتي، هلّا فعلتَ ذلك؟».

ومرّ نظرُها على هنري فقالت له:

– وأنت يا هنري، يوجد رسالة من أجلك، هناك.

وأومأت برأسها باتجاه المدفأة. ثم أضافت:

– قد تكون هامة. أما أنا فسأذهب إلى النوم.

عادت على أعقابها، وقلبها يخفق. وصلت إلى غرفتها، ولم تغلق الباب كلياً، بل مررت رأسها من فتحته. صمت طويل. إنه يقرأ الرسالة.

– ماذا يحدث يا ماك كونيل؟ هل هناك أخبار سيئة؟

سارع هنري إلى الرد:

– لا شيء.

رأته يجتاز الغرفة ويقترب من النار. سوف يُحرق الرسالة، ثم قال:

– حماقات، لا أكثر. هل تريد كأساً أخرى؟

ذهبت بيتي إلى سريرها وأغمضت عينيها. لقد أحرقها. وهذا يعني أنه لا يريد هذه الرسالة، وأن كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟ لم تستطع النوم. بعد نصف ساعة أغلق بيلي الباب، وانزلق هنري في السرير، بجانبها، دون أن يحدث صوتاً، لئلا يوقظها.

التفتت إليه وقالت:

– هنري، الرسالة...

– لا تطرحي عليّ أسئلة.

– ولكن ماذا تريد؟ ماذا...

صرخ فرنّ صوته بشدة في الظلام بحيث أن جسمها كله قد تصلب من الصدمة:

– قلت لك ألاّ تطرحي عليَّ أسئلة!

فتحت فمها لتتكلم، وتطلب منه أن يطمئنها، لكنها لم تشأ أن يعود إلى الصراخ. لقد أحرقها، فهذا يعني أنه يريد أن ينساها. ويجب عليها أن تكتفي بذلك.

كان هنري يعتقد أن من الأفضل له أحياناً أن يتولّى تسيير أموره بنفسه. وعلى الرغم من أنه كرر لبيتي مرات لا تُحصى بأن عليها أن تذهب إلى محل البقالة وتعقد اتفاقاً، فإنها تقول إنها عاجزة عن ذلك لأن المرأتين اللتين تديران المحل لهما وجهان قاسيان، وهما ترفضان تمديد دينهما. لم يكن هنري يصدق شيئاً من هذا. فبرأيه، إن بيتي كسولة وتهتم كثيراً برأي الآخرين. لذا اعتمر قبعته وذهب إلى هناك بنفسه مشياً، مع لوسي المتشبّثة بيده لكي يعقّل جين وليسلي. إنه لا يستطيع أن يسدّد لهما: ليس بعد، ولكنه ينتظر قدوم مال بعد وقت قصير. فقد يأتيه الحظ على طاولة القمار. في الواقع إنها لا يمكن أن تلومه أكثر.

– بابا، أنت تسير بسرعة كبيرة جداً.

بطّأ هنري مشيته وضغط ضغطة خفيفة على يد ابنته وقال:

– آسف، يا عزيزتي.

– ماما تتركني أجمع الحصى.
– ليس لدينا وقت اليوم.
لكنّ فكرة أن يُقارن ظلماً ببيتي أزعجته وقال:
– أوه، أنا كاذب كبير. اذهبي يا لوسي واجمعي حصى جميلة.
سحبت أصابعها الحارة من يده وأسرعت إلى جانب الطريق. راقبها، وابتسامة معلقة على وجهه، وهو واع بأن الطفلة تجعله دائماً يصبح أحمق. فكلما نظر إليها، وحتى كلما فكر بها، يذوب قلبه. ما تنفكّ ليلة ولادتها تعاوده مع سلسلة من الصور الكابوسية الممتزجة بالدم وبجسم متألم. وهو لا يستطيع الامتناع عن التفكير في هذه الليلة كلما نظر إلى بيتي. هذا كما لو أن لوسي ظهرت فجأة بين يديه، كما لو أنها تقول له:
– أنا لك، لا تتركني أبداً.
وصلا إلى أسفل الشاطئ. في المحل، يرين الصمتُ النموذجي لفترة نهاية الظهيرة. كانت المرأة الأضخم من بين المرأتين، ليسلي، تُدخل اللوحات الإعلانية، بينما كانت جين تُجري حساب الصندوق داخل محل البقالة. جرت لوسي إلى ركن الدمى، بينما مشى هنري نحو الكونتوار.
رفعت جين رأسها دون أي ابتسامةٍ، وقالت:
– سيد ماك كونيل؟ آمل أن تكون قد أتيت من أجل تسديد دينك.
هنري ليس من النوع الذي يبتسم، ولا الذي يُغري الناس. تكلّم بصوت واضح وبعزة نفس:
– لستُ قادراً على الدفع اليوم. أريد أن تمدّدا ديننا حتى 30 نيسان، وهو موعد أتوقع أن أسدّد لكما فيه ديوني كلها.
لم يكن قول هذا الكلام بهذه الصعوبة، فلماذا تتهيّب بيتي هذه المهمّة؟
– لا.

ارتجف هنري وسأل:

– عفوا؟

– لا، إن عملي لا يقوم على تمديد ديون الدافعين السيئين. كثير من الناس يمرّون بمصاعب مالية يا سيد ماك كونيل. مصاعب مالية حقيقية، ولكن أنتما فقط من تطلبان منا أكثر مما يمكن أن نعطيكما.

بدأ الغضب يتصاعد بداخله. فماذا تعني بـ «مصاعب مالية حقيقية»؟ تُرى هل تكلمت بيتي عن ديونه في القمار؟ ألا يمكنها أن تضبط لسانها؟ يا لها من غبية! ضم قبضتيه، ونهشته رغبةٌ في أن يكسر اللوح الزجاجي الذي يفصل بينهما لأن سماع صوت انكساره وحده يرضيه.

أضافت جين:

– أرى أنك لا تقدّر جيداً ما قلتُه لك. ولكن لا شيء مما يمكنك أن تفعله يمكن أن يغيّر رأيي في شيء. ما عدا، بكل تأكيد، أن تردّ لي جزءاً من المال الذي أنت مدين لي به.

هدأ هنري. هزّ رأسه، قبل أن يستدير دون أن يقول كلمة واحدة. توجه إلى داخل المحل حيث لوسي تتأمل بعينين واسعتين ومستديرتين تشكيلة من الدمى الصغيرة، البعيدة عن متناول يدها. وقالت:

– «بابا... الطفلة».

رفع عينيه ورأى دمية صغيرة، ليست أكبر من يده ترتدي لباساً أحمر. توسلت إليه لوسي بنظرها، فلعن نفسه. لو أن بيلي لم يجعله يخسر كثيراً من المال (فليذهب إلى الشيطان، من أجل كل ما فعله!)، لتمكن من شراء هذه الدمية الصغيرة لابنته. وبدلاً من هذا...

نظر هنري إلى الخلف، فرأى جين تحسب أموالها، وليسلي ما تزال في الخارج، والظلام مخيم داخل المحل.

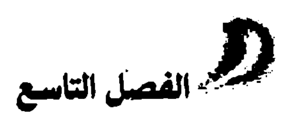
بعد ثانية، كانت اللعبة في جيبه. دفع لوسي إلى الخروج وإلى كبت ضحكتها وتأثُّرها. حملها بين ذراعيه ونزل بها إلى الشاطئ بأقصى سرعة حتى ساحة السوق. وبما أنها كانت خاوية، فقد جلس، وتسلّت لوسي

بالتحقق من محتوى جيبَيْ هنري، إلى أن وجدت الدمية. ثم وضعت ذراعيها الصغيرين حول رقبتها وصرخت من السعادة.

بينما كانت لوسي تلعب بلعبتها وسط أوراق الدلب، والسفن الراسية ترقص في المرفأ، هبط غضب هنري واستعاد حالته الطبيعية. وشعر ببعض الارتباك أيضاً. سرقة دمى لابنته، هل وصلت به الحال إلى هذا؟ في الماضي، كان يعرف ما يريد أن يفعله في حياته. لكنْ بيتي وصلت بعينيها الزرقاوين الواسعتين وبشرتها البيضاء الناعمة... لزمن طويل، بدت له أنها حبه الأكبر. أما الآن، فقد أصبحت ندمه الأكبر.

ولاسيما في الوقت الحاضر، بعد أن عثرت مولي عليه. ولاسيما الآن بعد أن أخبرته مولي في رسالتها أن أباها قد توفي في إيرلندا تاركاً لها ثروة صغيرة. إنها ما تزال تتمنّى أن يعود هنري إليها، على الرغم من كل شيء. لطالما كانت مولي هكذا، كريمة، قلب ملاك.

هزَّ جسمه. هذه الحياة لم تعد حياته. إن حياته هناك. راقب لوسي لحظة أخرى. ابتسم من جديد. هذه الطفلة توفر له كثيراً من السعادة. كل الخيارات التي قام بها قادته إلى هنا، إلى أن يعيشا هذه اللحظة معاً، وهي تستحق العناء. سوف يبقى دون مال مولي، ودون العبادة التي محضَتْها له بيتي. فمن أجل حب البنت، يستطيع أن يتحمّل كل شيء.



الفصل التاسع

على الرغم من أن هنري منعها من القيام بذلك، فقد قرعت بيتي باب جارتها عدة مرات. كان يأسها يشمل عدة مستويات، ولكن حاجتها ماسّةٌ إلى المال. فزوج الأحذية الوحيد الذي أتت به من غلاسكو، ذلك الذي كانت تنتعله حين فرّت من موركومب هاوس، استنفد كل إمكانيات الإصلاح.

ومع ذلك فإنها لن تطلب المال من دوريس. فهذه الفكرة ترعبها. هي تعرف أن هذه المرأة العجوز تعيش وحيدة. وربما كان لديها أعمالٌ صغيرة تقترحها على بيتي. يمكنها أن تأخذ مالاً على مساعدتها في أثناء غياب هنري، ولن يعرف شيئاً عن هذا الموضوع.

قرفصت بيتي لتضبط ثوب لوسي الذي يجب عليها أن تُطيله. فهذه الفتاة تنمو بسرعة كبيرة.

– ماذا سنفعل هنا يا ماما؟

– يجب أن أقول بضع كلمات للمرأة التي تسكن هنا. واسمها دوريس.

صمتت قليلاً ثم أضافت:

– وبابا يجب ألا يعرف شيئاً.

قالت ذلك وهي تعلم انه لا يوجد وسيلة أضمن لكي تقول لوسي ذلك. فهي لا تستطيع أن تُخفي أي سر عن والدها.

تعتمد بيتي بالأحرى على كون لوسي طفلةً صغيرة من السهل تحويل اهتمامها. إن ظهيرةً تُمضيها مع دُماها المصنوعة من ملاقط الغسيل في سفينة مصنوعة من علبة صابون ستساعدها على نسيان كل شيء.

فُتح الباب. ظهرت دوريس وألقت عليها نظرة فضولية ثم قالت:

– مدام ماك كونيل؟

– بيتي.

ردت وهي تمد إليها يدها.

ضغطت دوريس يدها بسرعة مع ابتسامة ثم قالت:

– إنه للطف منك أن تأتي. هل أستطيع أن أقدّم لك كأساً من الشاي؟

– أنا...

ترددت بيتي قبل أن تقرر أنه يجب عليها أن تخلق جواً من الصداقة مع هذه المرأة، فقالت:

– بكل تأكيد. شكراً. وسأكون في غاية السعادة.

أدخلت بيتي لوسي وأجلستها في الصالون مع الدمية الصغيرة التي اشتراها لها هنري. لم تقل شيئاً في تلك اللحظة، لكنّ مشتريات أخرى كانت ستكون أكثر فائدة من دمية. بينما أخذت لوسي تتسلّى بهيئة سعيدة، حضّرت دوريس الشاي ونظرت بيتي إلى الغرفة التي تجلس فيها. كل شيء فيها ممتاز. من الواضح أن هذه المرأة ليست بحاجة إلى أية مساعدة في المهمات المنزلية. فكلُّ السطوح تلمع، وهي مزين بتماثيل صغيرة من الزجاج وشمعدانات من البورسلين وعلب من الفضة. ويتدلّى صليب ثقيل مزخرف فوق المدفأة. وفي الأعلى تتربع لوحة لمسيحٍ أزرق العينين وأشقر الشعر، كصورة كائن عزيز.

قالت دوريس وهي تصب الشايَ:

– يجب أن أعترف أني لن أصدق أبداً أن أراك جالسة في صالوني.

فسّرت بيتي:

– حقاً أنا آسفة، فزوجي وأنا نبقى في بيتنا.

لم يكن هذا صحيحاً كلياً. فهنري معروف جداً في البارات. على أية حال، إن قلةَ كتمانه قد ساعدت بكل تأكيد مولي على العثور عليه.

قالت دوريس وهي تجلس قرب بيتي على الكنبة ذات المسند العالي:

– لا حاجة للتبرير، وأنا مسرورة لمجيئك، فأنا أشعر بالوحدة بعد وفاة زوجي.

رفت عينيها للحظة ثم قسرت نفسها على الابتسام وقالت:

– وآمل أن تعودي.

– حسنٌ، هذا أحد الأسباب التي أتيتُ من أجلها لكي أكلّمك. أنا أودّ أن أجد عملاً: عمل منزلي، ربما؟ الطبخ؟ وأنا موهوبة جداً في الخياطة، إذا كنتِ بحاجة إلى إصلاح شيء ما.

هزّت دوريس رأسها ثم قالت:

– أوه، لا، أنا أفضّل أن أقوم بهذا كلّه بنفسي. فهذا يساعدني على الاحتفاظ بلياقتي، كما إني لا أملك المال لتوظيف أحدٍ ما. فمنذ وفاة توم، وأنا مضطرة للانتباه إلى مالي.

كانت لوسي تدور في الغرفة وتتأمل أدوات الزينة التي تتلألأ في كل مكان. أما بيتي فقد حاولت أن تُخفي خيبة أملها.

– من المؤسف أنكِ لا تسكنين في الشمال. فابنة عمي مرغِريت خياطة في ليوينوفرد، ولديها دائماً كثيرٌ من العمل. وغالباً ما توظّف عندها نساء شابّات مثلك.

– ليوينفورد؟ هيٍ، هي بعيدة من هنا؟

– ثمانين كليومترا. مسافة طويلة جداً، ولاسيما أن هناك طفلة صغيرة.

ثم وقع نظرها علي لوسي وابتسمت وقالت:

– إنها رائعة جدا بشعرها الأصهب.

– إنها تشبه أباها. ولطالما كان وسيماً.

تساءلت بيتي وهي تلفظ هذه الكلمات: تُرى أين تبخَّر حبّها لهنري؟ بدت لها الفترة التي كانت فيها نظراتُه الشاحبة تجعل قلبها يرتعش بعيدةً جداً.

احتست بيتي الشاي بأسرع ما يمكن. فقد باتت الآن مستعجلة للعودة إلى بيتها بعد أن عرفت أن دوريس لا تستطيع مساعدتها. وإذا علم هنري بذلك، فستحدث مشكلات. لكن دوريس غاصت في حديث طويل عن زوجها، وعن لقائهما، وعن الخمس والثلاثين سنة التي أمضياها معاً، وعن أولادهما الستة الذين يعيشون في أربعة أركان استراليا. أوقفت حديثها لتسأل بيتي ما إذا كانت تريد فنجاناً آخر.

– لا، لا أريد، فلدي أعمال كثيرة في البيت.

– يجب أن تعودي غداً أو بعد غد. فالصحبة شيء جميل.

بيتي تتلوّى على مقعدها وهي تقول:

– شكراً لدعوتك. سوف آتي قريباً.

شيّعتهما دوريس حتى الباب، ثم قرفصت لتقول إلى اللقاء للوسي. المفاجأة: رأت بيتي دوريس تضع ذراعيها حول ابنتها وتفتّش في قميصها. لحظةَ كانت تتأهّب للاحتجاج أخرجت دوريس تمثالاً صغيرا لفأر من الزجاج، وقالت بصوت هادئ قبل أن تنهض من جديد:

– لا أظن أن هذا لك، أيتها البنيّة.

اشتعل وجه بيتي خجلاً، وصرخت بابنتها:

– لوسي! هل سرقته؟ كيف جرؤتِ على ذلك؟

بدت لوسي تائهة وهي تقول:

– لقد أحببتُه كثيراً.

– حقاً أنا آسفة، فأنا...

– لا بأس. لقد رأيتها تخفيه تحت ثوبها، فتركت لها فرصة لتعيده إلى مكانه.

ثم ألقت نظرة لطيفة على لوسي وقالت:

– يجب أن لا تأخذي أشياء الآخرين، فيسوع يراك.

– ومن هو يسوع؟

أدارت بيتي لوسي وقالت:

– يجب أن نذهب...

– إذا احتجتِ يوماً إلى من يحرسها لك، فلا تترددي في وضعها عندي، وسأكون في منتهى السعادة للعناية بها.

أعادت بيتي ابنتها إلى البيت بأقصى سرعة وهي نادمة لأنها لم تُصغِ إلى كلام هنري، ولأنها حاولت إقامة اتصال مع العالم الخارجي.

أمضوا فصل الشتاء بحرق النفايات في المدفأة وبنقع قليل جداً من الشاي وبالتوسل إلى بيلي بأن يقرضهم إيجار شهر. قَبِل بيلي بحماسة وبيتي لا تعرف ما إذا كان ذلك لأنه لا يتخيل للحظةٍ في أي وضعٍ يائس يمرّون، أو لأنه فرح بقبض فوائد إضافية على قرضهم. وفيما تبقى من الوقت، هو أفضل صديق لهنري. بعض الأسابيع، ولكل طعام، لا تستطيع بيتي أن تسمح لنفسها بشراء إلا زجاجات الشوفان وبعض الخبز والحليب والعسل. لاحظت أن فساتينها أصبحت أوسع على مستوى الخصر، ولكنها كانت متأكدة من أن لوسي تأكل حتى الشبع. بما أن هنري موظف، فإنهم لا يستطيعون الاستفادة من مساعدة اجتماعية. ومع ذلك لم يكن يبقى شيء من راتبه عندما يقبضه لكنه لا يرى، أو يرفض أن يرى الكارثة التي تنتظرهم.

وبالنسبة لآخرين، كان الوضع أسوأ: فذات يوم بينما كانت بيتي عائدة من نزهة مع لوسي، رأت الأسرة التي تسكن في الجانب الآخر من الشارع ـ امرأة نحيلة، رمادية الوجه، وطفلان يبكيان ورجل له هيئة معذبة ـ جالسة على فراش قذر على الأرض مباشرة. فقد طُردوا. نظر إليها الرجل وصرخ بصوت متكسّر: ـ من فضلك، هل لديك شيء ما تعطيننا إياه؟ فأولادي لم يأكلوا شيئاً اليوم وليس لدينا أي مكان ننام

فيه. أبقت بيتي رأسها مطأطئاً. فلو كان لديها شيءٌ ما تعطيهم إياه لفعلت. لكنها لم تكن تملك أي بنس في جيبها منذ أربعة أيام.

– ليس لدينا شيء، تابع الرجل صراخه. لا شيء على الإطلاق.

وأسرعت في العودة إلى بيتها مع لوسي وأغلقت الباب وقلبها يخفق، لكن لوسي سألتها:

– «ماذا يفعلون في الخارج؟ وماذا سيفعلون إذا هطل المطر؟».

لكنَّ بيتي لم تُجب، وألهتها بلعبة وحاولت أن تنسى ما رأته وسمعته للتو. وفي صباح اليوم التالي لم يكن يوجد أحد.

حلَّ برد الشتاء الذي لا يرحم وامتنعت بيتي لأطول وقت ممكن عن الطلب من هنري بأن يتوقف عن الشرب والمقامرة لأنه بات أقل فأقل صبراً عليها، وبات يعدّها لا شيء. ومع ذلك بينما كان عيد ميلاد لوسي الرابع يقترب وبيتي تخشى ألا يكون لديها ما يكفي من المال لشراء هدية ولا حتى سكر وبيض لصنع الكاتو، لم تعد تستطيع الصمت.

كان المطر يهطل في تلك الليلة وسيول الماء التي تنزل من السطح تجعلها قلقة. كان سقف غرفة لوسي يُسرّب الماء والصوت الدائم لقطرات الماء في الدلو يمنعها أحياناً من النوم لعدة ساعات: فقد أرادت بيتي أن تتأكد من أن ابنتها قد وجدت أخيراً النوم عندما ستكلم هنري. خشيت أن يحدث خصام. وبهيئة ذاهلة أخذت تفكُّ حاشية تنورة للوسي لكي تطيلها بينما كان هنري يقرأ. عادة يبقيان هكذا ساعات دون كلام، فقد غدا التواصل بينهما معدوماً منذ زمن طويل.

نهضت بيتي وذهبت لتلقي نظرة على غرفة لوسي. كان تنفس الطفلة عميقاً ومنتظماً. أغلقت الباب من جديد ثم عادت إلى الصالون لتقف أمام هنري.

رفع رأسه أخيراً وقال:

– ماذا هناك؟

– هل تحبُّ ابنتك؟

لم تشأ أن يرنّ هذا السؤال كتحدٍ، ولكنْ شعوراً قوياً، مكبوتاً منذ زمن طويل، استيقظ بداخلها.

– بكل تأكيد.

– ألا تستحق حذاءً جديداً؟ وأن يكون بطنُها ممتلئاً؟ وأن تأكل لحماً أكثر من مرة كل خمسة عشر يوماً؟

تصاغرت عينا هنري وأصبح بؤبؤاه رأسي دبوس. وقف فخفق قلب بيتي. سألها:

– ماذا تريدين أن تقولي؟

– لديك حظ. ولديك راتب. ومع ذلك فإنك تنفق راتبك كله على شرب الجن ولعب الورق. نحن فقراء يا هنري.

خنخن وهو يشيح بوجهه:

– الناس جميعاً فقراء.

أخذت بيتي شهيقاً عميقاً ثم قالت:

– إذا كنت تحب ابنتك فعليك أن تتوقف عن الشرب والقمار.

كانت ردة فعله هي الأكثر سرعة وإيلاماً: صفعة براحة يده على صفحة وجهها.

– ابقي في مكانك، أيتها المرأة الطيبة.

قال هذا ثم مضى متوتراً كوتدٍ، بينما ملأ فيضٌ من الدموع عيني بيتي. لم تستطع أن تناديه، فقد أخمد الخوف صوتها.

حين وصلت الرسالة الثانية لم تكن بيتي بمزاج يجعلها تتجاهلها.

هذه المرة لم تكن بحاجة إلى قراءة اسم مولي على غلاف الرسالة لكي تتعرف إلى خطها. انقبض صدرها.

أجلست لوسي إلى طاولة المطبخ مع لوحة تركيبية من الخشب ثم وضعت الإبريق على موقد الغاز. ترددت قبل أن تنفق بنساً من أجل الغاز، ثم قررت أن هذا يستحق العناء. حين بدأ الماء يغلي تحققت من

أن لوسي لم تكن تنظر إليها فمررت الغلاف فوق سحابة البخار بعناية ثم أدخلت ظفرها بهدوء تحت طيّة الغلاف وهي تشعر بقلبها يخفق في حلقها. فماذا لو عرف هنري بفعلتها؟...

فُتح الغلاف وسارعت بيتي إلى إطفاء الغاز. بيدين مرتجفتين فتحت الرسالة وقرأتها:

عزيزي هنري، لا تستطيع أن تعرف إلى أية درجة وصلت سعادتي حين تلقيت رسالتك...

أرهقها عدم التصديق والغضب الشديد في آن واحد. وضعت الرسالة للحظة. هل كتب لولي؟ لقد منعها من الاتصال بأهلها، ولكنه وجد أن من المقبول أن يكتب رسالة لزوجته؟ انتابها شعور بالاختناق.

سألتها لوسي وهي ترمقها بعينيها الرماديتين:

– ما الذي لا يسير على ما يرام، ماما؟

وجهت إليها بيتي ابتسامة صغيرة مفتعلة وقالت:

– لا شيء يا عزيزتي. لماذا لا تذهبين إلى غرفتي لكي تتنكري بأحد فساتيني؟

– نعم! وهل أستطيع أن ألبس عقدك اللؤلؤي؟

– موافقة، ولكن هذه المرة فقط.

ابتعدت لوسي وهي تتقافز. أما بيتي فقد ركزت اهتمامها على الرسالة. بلعت ريقها قبل أن تفتح الرسالة من جديد:

لم أكفّ عن التفكير بك، والتساؤل ما إذا كنت بخير، وسعيداً. أنت ما تزال زوجي وستبقى كذلك إلى الأبد، على الرغم من القرارات الحمقاء التي اتخذتَها. يجب أن أعترف أني تألمت كثيراً حين علمت أنك رُزقت بطفلة. فكما تعرف، كانت هذه إحدى رغباتي الأعز إلى قلبي. ولكن لم يحالفني هذا الحظ. إذا استطعت أن ترسل إليّ صورة لابنتك فستملئ سعادة وحبورا.

النَمِرة التي تنام داخل بيتي أخذت تزأر. هذه المرأة تريد صورة للوسي؟ وماذا ستفعل بها؟ ليس لديها أي حق في هذه الطفلة ولن يكون أبداً. يجب أن يمرَّ هذا على جثتها أولاً.

ثم جعلت تطرح على نفسها أسئلة. ترى ما الذي تريده مولي؟ كيف بات من الممكن أن تبدو بهذا اللطف؟ لقد هجرها هنري، وعاش حياته في الطرف الآخر من العالم، واختار امرأة أخرى لتكون امرأته. فأين ذهب غضبُ هذه المرأة؟ وأين ذهب سُمُّ الكراهية؟ هل تخبئهما أم أنهما غائبان حقاً؟

الفقرتان التاليتان كانتا تتحدثان عن غلاسكو، وعن الطقس وعن سير العمة القديمة. لكنَّ الفقرة الأخيرة كسرت قلب بيتي:

من نبرة رسالتك، استنتجت أنك لست ضد فكرة أن أستعيد مكاني في حياتك. قد أكون حمقاء (لست حمقاء صغيرة وجميلة مثل بيتي، فأنا أخاف منها، لأني سأكمل قريباً الثانية والثلاثين من عمري)، ولكن عندما قبلت الزواج منك كنت أعدّه التزاماً على مدى الحياة. لا شيء تغير. إذا أردت أن أرسل إليك المال لكي تتمكن من العودة إلى غلاسكو، فإني سأفعل ذلك بكل سرور.

زوجتك مولي.

كيف تجرّأت؟ كيف تجرّأت على أن تقترح على هنري أن يذهب إلى...

ولكن سرعان ما فهمت أن مولي لا تفعل شيئاً أكثر مما فعلته هي نفسها. لقد اقترحت على هنري الرحيل. وكانت تعرف أنه متزوج. وكانت قد سمعت كل القصص عن مولي، مثل أنها امرأة تافهة، ولا تريد أبداً أن تمارس الحب، وتلبس دائماً ملابس لا تماشي الموضة. إنها لم تُعِر أقلّ اعتبار لمولي في أية لحظة.

كانت تريد أن تمزق هذه الرسالة إرباً إرباً. ومع ذلك فقد طوتها ووضعتها بعناية داخل الغلاف وضغطت على حرفها لكي يلتصق جيداً ثم وضعتها على سطح المدفأة. هل سيهجرها هنري؟ بكل تأكيد لا، فهو لن يهجر لوسي. طمأنتها هذه الفكرة لبعض الوقت، فذهبت إلى ابنتها في غرفتها ودخلت معها في لعبة تنكر صاخبة. كانت لوسي تسبح في أحد فساتين بيتي. اعتمرت قبعة ولعبت دور زبونة متطلبة. وجب على بيتي أن تلعب دور جين. محل البقالة العامة مفتوح. لعبتا وضحكتا ثم لمحت بيتي انعكاس لوسي في المرآة. شعرها الأصهب واللامع يشبه كثيراً شعر هنري بحيث أنها فكرت بالرابط الموجود بين هذا الأب وهذه البنت. وعت الخطر فتجمّد دمها.

بكل تأكيد هنري يفكّر بالرحيل مع لوسي.

الذعر وضع أعصابها كلها في حالة استنفار كامل. فإذا كان هنري قد وضع في رأسه أن يأخذ ابنته إلى غلاسكو، ماذا يمكنها أن تفعل؟

خرجت من الغرفة بأقصى سرعة فاحتجت لوسي بقوة وبصوت عال. تناولت الرسالة الموضوعة على سطح المدفأة وألقتها في النار. ونظرت إليها وهي تتكوّر وتسودّ. كلمات مولي واقتراحها لم يعودا سوى رماد الآن.

– ماذا تفعلين، ماما؟

التفتت بيتي ورأت لوسي وهي ما تزال متنكرّة، عند باب الصالون.

– لا شيء.

نهضت وأتت لتجلس القرفصاء أمام ابنتها ثم وضعت يديها على كتفيها الصغيرتين وقالت لها:

– أنت عزيزة جداً عندي، يا قلبي.

لوسي التي لم تبدُ يوماً حنونة مع بيتي تجاهلتها وقالت:

– تعالي أريد أن أشتري عسلاً ولحم خنزير.

تبعت بيتي ابنتها إلى الغرفة وقلبها يخفق، ولكنها مقتنعة بأنها فعلت ما يجب أن تفعله.

حلان وحيدان تبدّيا لهنري لإراحته من الشعور بالذنب في ما يخص عيد ميلاد لوسي. إما أن يقترض مالاً من بيلي من أجل الهدية والكاتو، أو أن يشرب كمية من الكحول كافية لكي يبدّد هذا الشعور. ككل يوم، انقلبت معدته لهذه الفكرة. ومع ذلك فإن مذاق السائل الحارق على لسانه كفي ليهدّئ للحظة خفقانَ قلبه.

قرر أن يتبع الخيارين.

المكتب الصغير الذي يعمل فيه يوجد تحت نافذة الشركة، في الطابق الثاني. إذن لديه إطلالة على ديرونت، النهرِ ذي الانعكاسات المظلمة. ولكن من النادر أن يتأمله. فبيلي يعطيه كثيراً من العمل ويذكره باستمرار بالمبلغ الذي هو مدين له به، وبالكرم الذي أساء استخدامه. شعر هنري بوطأة ديونه تثقل على قلبه كالرصاص.

وعلى الرغم من كل شيء فقد نهض وذهب إلى مكتب بيلي. الباب مفتوح دائماً، وبيلي يعمل عملاً قاسياً، ولا يهمّه ما يُحكى عنه. فهو رب عمل جيد أيضاً، جيد جداً.

قرع هنري الباب فرفع بيلي رأسه وأوما إليه بالدخول.

– ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

ذهب هنري إلى موضوعه مباشرة وقال:

– اليوم عيد ميلاد لوسي، ولن أقبض قبل يوم الجمعة.

– هل تريد سلفة على راتبك؟

– نعم.

نظر هنري إلى إبريق البراندي الموضوع في زاوية مكتب بيلي.

وافق بيلي بهزة من رأسه وقال:

– هيا، وصبَّ لي كأساً أيضاً.

نفذ هنري.

– ها هي جرعات كريمة في الساعة التي نحن فيها.

وانفجر بيلي ضاحكاً وهو يرفع كأسه.

بلع هنري البراندي. أغمض عينيه لحظةً وشعر بالحرارة تغزو صدره.

سأله بيلي:

– كم هي حاجتك؟

– خمسة شلنات؟».

دسّ بيلي يده في جيبه وأخرج بضع قطعٍ. صفّها على المكتب، ثم قال:

– هي ذي، خذها!

جمعها هنري بيد خجولة، ثم قال:

– احسمها من

– في الحقيقة يا هنري، من الأفضل ألا أحسمها من راتبك لهذا الأسبوع لأنه لم يبق لك شيء على الإطلاق.

رفع هنري رأسه ولحس شفتيه وتبع ذلك صمت طويل.

أمسك بيلي بإبريق البراندي وصبَّ له كأساً أخرى ثم قال:

– أشعر أني مسؤول عنك يا صديقي. فقد كنتَ رابحاً كبيراً في غلاسكو. وكنت تعرف متى تتوقف. وأنا لا أعرف ماذا حصل. لكنَّ الحظ بدأ يدير لك ظهره منذ أن تركت زوجتك من أجل هذه الصبية. مع مولي كنت على الخط المستقيم. أما مع بيتي فإنك تفعل أي شيء كان.

بدأت القطع تسخن في يده. وهو لا يستطيع أن يردها إليه، على الأقل الآن. إنه عيد ميلاد ابنته. وقد وعدها بهدية منذ أسابيع. فكيف سيتمكن من تحمّل رؤية خيبة أملها على وجهها هذا المساء؟ إنه يفضّل العمى على ذلك. قال له بيلي:

– خذ هذا المال يا هنري.

– سأرده إليك في المرة القادمة عندما أكسب على طاولة القمار.

ابتسم بيلي بمرارة وقال:

– أنت لا تكسب في أغلب الأحيان، فكيف ستتمكن من الوفاء بوعدك يا صديقي. لا بأس عليك. خذ المال، هذا كل ما في الأمر. ولنعدَّ هذا مساعدة لعيد الميلاد.

أسرف هنري في شكر بيلي، وكره نفسه لأنه مدين له إلى هذا الحد ولأنه فقد رجولته كثيراً.

بعد العمل، ذهب إلى المدينة، فهو لا يستطيع أن يذهب إلى محل البقالة العامة لشراء الهدية لأنه مدين للمرأتين بالمال وستطلبان منه أن يسدد ما لهما عليه. أخذت أفكاره تتّضح كلما مشى. كم أصبح مركز المدينة مثيراً للكآبة مع هؤلاء الناس ذوي الهيئة الكالحة واليائسة الذين يجتمعون ليتسوّلوا عملاً أو مالاً أو ببساطة، ليرافقوا شخصاً آخر هيئته كالحة ويائسة أملاً في أن يشعروا بأنهم أقل سوءاً منه! فهنري فخور بأن لديه عملاً حقيقياً. بيتي لا تكفّ عن الشكوى، لكنها لا تفهم أن حياتهم أيسر من حياة هؤلاء الفقراء ذوي العيون الغائرة التي تتبعه بالنظر عند مروره. دخل إلى محلات وخرج منها بعد أن أنفق ماله. اشترى دمية ساقاها من البورسلين وشعرها أصهب وكاتو جيلاتيني وتوقف بسرعة ليتناول كأساً بما بقي لديه من مال ثم عاد إلى البيت، سحج البابُ البلاطَ عندما فتحه وظهرت لوسي بعد ثانية، ترتدي الفستان القطني الصغير الذي خاطته لها أمها من قمصانها القديمة. هذا كل ما يمكن أن تقدمه بيتي كهدية عيد ميلاد.

صرخت وهي تُمسك بساقه وتشدها بكل قواها:

– بابا، بابا! هل جلبت لي هدية؟

– لندخل يا عزيزتي. دعيني آخذ نفسي.

كانت بيتي هناك قرب موقد الغاز تحرك حساءً قليل السماكة. لم تكد ترفع رأسها. فهي غاضبة. ما تزال غاضبة منه.

قال هنري وهو يُجلِس لوسي على ركبتيه:

– حسنٌ لنرَ! هل كنت رصينة؟

- نعم.
- يجب أن أطرح السؤال على أمك. هل كانت حقاً رصينة، يا ماما؟
شرعت بيتي في ابتسامة وداعبت شعر ابنتها وقالت:
- إنها أرصن الفتيات الصغيرات.
أشار هنري إلى العلبتين على الطاولة وسأل:
- أيهما أولاً؟
أشارت لوسي إلى العلبة المربعة بأصابعها الصغيرة المثارة. نزع هنري غلاف العلبة ثم رفع غطائها، فأطلقت لوسي صرخة حادة قائلة:
- كاتو! ماما، كاتو!
نظرت بيتي إلى العلبة بعينين جاحظتين وسألت:
- كم كلّف هذا؟
لم يُجب هنري. وضع العلبة الثانية بين يدي لوسي وراقبها بفرح وهي تشد الخيط وتتخلص من الورقة الكستنائية وتكتشف الدمية في داخلها. لم تصرخ، بل غاصت في صمت كلي.
- هل أعجبتك يا قلبي؟
لمست لوسي شعر الدمية الحريري وقالت:
- سوف أحبها حتى نهاية حياتي.
تدخّلت بيتي بقلق:
- هنري...
أسكتها هنري بحركة مغتاظة من يده وقال:
- كنت تريدين أن تحصل البنت على كاتو وهدية. فلا تتذمري الآن.
- ولكن...
دفع هنري الكرسي بقوة. إنه لا يتحمل أن يكون في الغرفة نفسها مع بيتي وتأنيباتها المليئة بالقلق، ثم قال:
- نادينا عندما يكون العشاء جاهزاً.
سألت لوسي:

– هل يمكنني أن آكل الكاتو فقط عند العشاء؟

سارعت بيتي إلى الرد خشية أن يقول لها نعم:

– لا، العشاء أولاً، ثم الكاتو.

سحب هنري ابنته من يدها، فقد كانت ذراعها الأخرى تحيط بقوة بخصر دميتها. في الصالون، غاصت في عالمها المتخيل. جلس هنري على مقعده ونظر إليها وهي تلعب. إنها تحدث الدمية بأحاديث طويلة تشوبها فترات صمت لكي تتمكن الدمية من الإجابة.

سأل:

– ماذا ستسمينه؟!

– ماذا تُسمى أنت؟ عندما لم يكن اسمك بابا؟

– هنري.

– إذن سأسميها هنري.

لكن هنري هو اسم صبي. ألا تريدين أن تسميها هنرييتا؟

أوه، بلى. أريد ذلك. هل يعجبك هنرييتا؟

أرقدت لوسي هنرييتا على الكنبة قبل أن تضع إصبعها على شفتيها:

– اسكت الآن، بابا، يجب أن تنام.

فهمس:

– أنا لا أصدر أصواتاً.

تسلقت ركبتيه وعلقت يديها برقبته. كان وجهها قريباً جداً من وجهه. ونفسها تفوح منه رائحة العسل والسكر. قالت:

– أحبك، يا بابا.

– وأنا أحبك أيضاً يا عزيزتي.

– وأحب ماما أيضاً. ولكنها تكون حزينة أحياناً.

– صحيح؟

– أمس كانت حزينة. فقد تلقّت رسالة أحزنتها، أحزنتها كثيراً جداً جداً. لم تبكِ، لكنني رأيت ذلك جيداً. وبعد ذلك تسلينا بالتنكر لبعض الوقت ثم ذهبت وأحرقت الرسالة في المدفأة. بينما الشتاء قد انتهى.

شعر هنري بالتوتّر. هل أحرقت رسالة؟ لماذا؟ وأية رسالة؟ وماذا تحاول أن تخبّئ عنه؟ ثم تذكّر الرسالة التي أرسلها إلى مولي منذ أسابيع مضت، ذات يوم كان فيه سكراناً. فهل ردّت عليه؟

– بابا؟

كانت لوسي تنظر إليه بعينيها الرماديتين الصافيتين. هل تدرك هذه البنيّة إلى أية درجة هي تأخذ قلبه رهينة؟

قال وهو يقبّل خدّيها بحنان:

– برغوثتي! لا تقلقي على ماما. فعندما تذهبين إلى النوم مساء، سأكلّمها وسأحاول أن أرفع من معنوياتها.

خرجت بيتي من غرفة لوسي. شعرت الفتاة الصغيرة بكثير من الإثارة مع الكاتو ودميتها الجديدة التي وجب على أمها أن تغنّي لها نحو عشر أغنيات لتهدئتها وتنويمها. حتى وإن شعرت بيتي بالارتياح لأن لوسي أمضت عيد ميلاد جميل، فقد أحسّت بوطأة القلق تعاودها. فكيف تمكن هنري من دفع ثمن هذه الهدايا؟ وكم من الوقت بقي لهما ليسدّدا ديونهما كلّها؟

إنها تحذره الآن. وتخشى أن يرفع يده عليها من جديد. ولكن عليها أن تعرف من أين أتى هذا المال، وبكم مهم مدينون الآن. رتّبت الصالون. لم يكن هنري على مقعده، بل كان مستنداً إلى جسم المدفأة، ورأسه موضوع على يديه، ونظرته تائهة في النار المطفأة.

انتظرت أن يلاحظ وجودها. زمناً طويلاً. ثم رفع رأسه وسألها:

– ما هذه الرسالة التي أحرقتِها؟

سؤاله غير متوقّع ومرعب. وولد انطباعٌ لدى بيتي بأن قلبها قد توقّف. توجّه نظرها إلى قلب المدفأة. تُرى كيف عرف؟

فسَّرَ قائلاً وكأنه قرأ أفكارها:

– لوسي هي من أخبرتني. على الأقل أنتِ لا تنفين هذا. ولكن ربما كنتِ أكثر حماقة من أن تعرفي الكذب.

كلماته لاذعة. انتصب ومشى نحوها. كانت قدما بيتي مسمّرتين على الأرض. اقترب منها بحيث أنها شمت أنفاسه المشوبة برائحة الويسكي. وجهه محمرّ، ونور المصباح ينير لحيته الصهباء الناعمة. هل وجدته يوماً مثيراً للرغبة؟ ماذا حلّ بذلك الحب المجنون؟ بقيت جامدة، متوتّرة الجسم، مستعدة لتلقّي الضربة التي لن يتأخّر في توجيهها إليها، إنها واثقة من ذلك. سألها بهمس مشوب بالتهديد:

– ممن كانت هذه الرسالة؟

هل ستكون محتالة كفايةً لتكذب عليه هذه المرة؟ لا، لأنه، إذا كتبت له مولي مرة أخرى، وسألته لماذا لم يرد على رسالتها الأخيرة، فسينكشف أمرها. ردّت بصوت أوضح ما يمكن:

– من مولي.

تصاغرت عينا هنري وهو يسألها:

– وهل قرأتِها قبل أن تُحرقيها؟

– نعم.

– وماذا تقول؟

هزّت بيتي رأسها دون أن تجيب. لقد رأته وهو يضم قبضتيه. تسارع تنفّسها، وتوتّرت كل عضلة من عضلاتها وكل عصب من أعصابها.

هذه المرة أخذ يزأر وهو يسأل:

– ماذا قالت؟

وخرج رذاذ من فمه وسقط على أذنها.

تراجعت خطوة، رفعت يديها لتحمي وجهها، ثم شهقت قائلة:

– لا تضربني!

دوّر هنري عينيه. هل فوجئ؟ لم تستطع بيتي أن تُفسر التعبير على وجهه. ثم راقبته وهو يحاول أن يجبر نفسه على استعادة السيطرة على جسمه، ويبسط قبضتيه ويبتعد عنها. انتابته رغبة في أن يضربها: ما من شك حول هذه النقطة. ولكن يبدو أنه اختار ألاّ يفعل ذلك. لسبب هي تجهله، وجدت هذا التحول في الموقف مروّعاً أكثر مما لو أنها تلقّت ضربة منه.

تكلم بصوت جليدي:

– ألا تريدين أن تقولي لي فحوى هذه الرسالة؟

هزّت رأسها من جديد.

انطلق هنري وهو منتصب كوتد:

– إلى أين أنت ذاهب؟

لم يجبها. تناول قبعته ومعطفه المعلّقين عند المدخل ثم صفق باب البيت.

نامت بيتي بعسر شديد، متوترة من فكرة أن يعود هنري، وغاصت في نصف نوم قطعته فترات صحو ووثبات فزع، وقلبها يحترق قلقاً. في كل مرة تتحقق ما إذا كان هنري قد عاد، حابسةً نَفَسها ومديرةً أذنها ومترصّدة أية نأمة. أعادت البطانيات وحاولت أن تنام، لكنّ الأفكار لم تبرحها.

سوف يكتب لمولي من جديد. إنها متأكدة من ذلك. وقد يرسل إليها برقية هذه المرة. وما إن يعلم باقتراحها حتى يعود إلى غلاسكو وسيأخذ معه لوسي. على الرغم من أنها قلّبت الموقف على وجوهه كلّها فقد توصلت إلى النتيجة نفسها. أي سبب لديه للبقاء هنا؟ فمن المؤكد أنه لم يعد يحبها، وليس لديه مال، ويكره عمله، ولا بدّ أن حياته تشبه بؤساً بلا اسم. وإذا ما اقترح أحد ما على بيتي أن تعود إلى غلاسكو وتبقى هناك، فإنها هي نفسها ستغريها هذه الفكرة. ربما كان لديها جنون

العظمة أو أن دماغها مضطرب، ولكن بدا لها من الخطر جداً ألا تتخيل أنه سيرحل. وعندها ماذا سيحلُّ بها؟ بدأت فكرة تتشكل في عقلها. فكرة وجدت عناء في تحملها. هنري ليس هنا، ومن المؤكد أنه نائم عند بيلي، على الكنبة. وبعد ذلك سوف يعمل طوال النهار. وستمر ساعات قبل أن يعود إلى البيت. إذن لديها كل الوقت لكي تهرب.

على الرغم من أنه يقول إنه يحب ابنته، فإنه يبدو عنيفاً معها. هو يُنفق مالهم حتى قبل أن يكسبه، ويحرم لوسي من الأمور الجوهرية في الحياة اليومية، ثم يقدم لها هدايا مضحكة. كم من الوقت بقي لهم قبل أن تزعجه الفتاة الصغيرة بحيث أنه يقوم بضربها، كما ضربها هي؟ فمع الكحول الذي يعبّه، بات من المستحيل عليه أن يضبط نفسه. الشيء الأفضل الذي يمكنها أن تفعله بالنسبة لابنتها هو أن تفصلها عن والدها، حتى وإن كانت تحبّه أكثر من المعقول.

تعرف بيتي أن هذا المشروع مستحيل، ولكنها تذكرت نصيحة كورا، قبل بضع سنوات، لحظة كانت تتأهب لمغادرة غلاسكو: *هناك نوعان من النساء على الأرض يا بيتي: أولئك اللواتي يفعلن الأشياء واللواتي يتركن الأشياء تُفعل*. هل أصغت إليها؟ لا، لقد حاولت كورا أن تحذرها من هنري، لكنها قررت أن تنضم إلى الفئة السيئة من النساء: فقد اختارت أن يُفعل بها.

الآن هي تنتظر الفجر، بين حلمين مضطربين. تنتظر أن يطلع النهار لكي تذهب إلى عند جارتها دوريس وتطرح عليها أسئلة عن ابنة عمها الخياطة، وعن إمكانية حياة جديدة، في مكان ما لا يعرف هنري إليه طريقاً.

على الفطور، بدت لوسي غاضبة ومتطلبة وطلبت أن تأكل كاتو بدلاً من قطعة من حريرة الشعير قدمته لها بيتي وهي تعبة وذاهلة أكثر من أن تستطيع الخصام. لوسي تريد أن ترى والدها. فقد بدت وكأنها فهمت

إنه لم يُمضِ الليلة في البيت وأن غيابه يسبب لديها شعوراً بالهجر. وهذا لن يكون بسيطاً.

بينما كانت بيتي ترفع الطعام تعرفت إلى ضربات سجادة على شرفة دوريس. رمت الأطباق في المغسلة بقرقعة ومسحت يديها بمريلتها وأسرعت إلى الخارج.

– دوريس؟

رفعت دوريس رأسها بفضول. فهي لم تكلمها منذ اليوم الذي سرقت فيه لوسي تمثال الفأر. ردت:

– نعم، يا عزيزتي؟

تنحنحت بيتي وقسرت نفسها على إخراج صوت عادي وهي تقول:

– هل تستطيعين... أن تمري وتحتسي فنجاناً من الشاي؟

ابتسمت دوريس وقالت:

– بكل سرور. لدي بعد أمران أو ثلاثة لكي...

– الآن، من فضلك، قاطعتها بيتي، عذراً، فإن الأمر لا يمكن أن ينتظر.

وافقت السيدة العجوز وطوت سجادتها على الدرابزين الخشبي ومشت في الممر المؤدي إلى جارتها. حين أدخلت بيتي دوريس، أخذ قلبها يخفق بشدة، فأجبرت نفسها على الهدوء. فما هذه إلا المرحلة الأولى، وسوف يجب عليها أن تواجه أموراً أصعب بكثير اليوم. قالت لها بيتي:

– تعالي إلى المطبخ، أنا آسفة، فلم أرفع طعام الفطور بعد.

ثم طلبت من لوسي أن تذهب إلى غرفتها وتلعب مع هنرييتا. وحين أصبحتا وحيدتين، زلفت قطعة في عدّاد الغاز، ثم وضعت الإبريق ليسخن:

سألت دوريس، متوجسّة، وهي ما تزال واقفة:

– هل كل شيء على ما يرام ياعزيزتي؟

ردّت بيتي:

- أرجوك أن تجلسي، أخشى أن لا تكون أفكاري واضحة هذا الصباح.

جلست دوريس إلى الطاولة، وكنست الغرفة ببصرها. حاولت بيتي أن تتأمّل مطبخها بعيني دوريس. الجدران البائسة، وسلال الفواكه المقلوبة على شكل كراس، والصفة المجرّدة للمكان. بينما مطبخ دوريس مطلي بالأخضر، وكل مساحة مغطّاة بعلب من البورسلين من أجل السكر والطحين والتوابل والأرز وحتى البسكويت. تساءلت ما إذا كانت دوريس قد فهمت إلى أية درجة هم فقراء.

أعدّت بيتي الشاي، جلست قرب دوريس وشرعت في طيف ابتسامة وقالت:

- هل تستطيعين أن تساعديني؟ فلدي متاعب.

سارعت دوريس إلى الرد:

- ليس لدي مال لأعطيك.

هزّت بيتي رأسها وقالت:

- أنا لا أريد مالاً، بل أريد أن تكلّمي ابنة عمّك، الخياطة، من أجلي.

- مرغريت؟

راق وجه دوريس، ثم أضافت:

- ولكنها تسكن بعيداً من هنا.

- وأنا أريد أن أذهب بعيداً.

- فهمت. وهل زوجك على علم؟

جرضت بيتي ريقها بصعوبة، ثم قسرت نفسها على قول كلمات لم تفكّر من قبل في قولها إلى أي شخص:

– إن لديه مشكلة مع الكحول والقمار. وإن له طبعاً عنيفاً. وقد منعني من اتّخاذ أصدقاء، وحتى من الاتصال بأهلي. وأخشى أن يؤذينا، ابنتي وأنا.

وافقت دوريس ووضعت يدها على ذقنها وقالت:

– إذن سوف أساعدك على الهرب. مرغريت سوف تستقبلك، وبالمقابل سوف تعملين عندها.

– حقاً؟ وهل ستستقبل ابنتي أيضاً؟

– مرغريت امرأة مسيحية طيبة وأعرف أن لا أحد يعمل عندها الآن. ولن تكون ضد المساعدة ولكن ليس لديها كثيرٌ من المال لتعطيه. وستعاملك بطيبة.«طيبة» بيتي تبكي. فقد اعتادت منذ زمن طويل على خبث الناس.

قالت دوريس وهي تداعب يدها:

– صه! فستسير الأمور يا صغيرتي. إنك تتّخذين القرار الصحيح. وعندما يرى زوجُك أنك ذهبت، سوف يفهم أخطاءه وبفضل الله سيعود إلى الطريق القويم. وبعد ذلك يمكنكما أن تلتقيا.

لم تقل بيتي شيئاً. فهي لا تريد أن يعود هنري إليها أبداً، بل سألتها:

– ألن تقولي له عن مكاني؟

– أقسم لك بشرفي. لن أساعد سكّيراً عنيفاً.

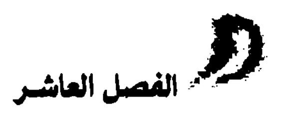
ثم تركت ذراع بيتي وأضافت:

– هيا جهزي أشياءك وسوف أعطيك ثلاثة بنسات لكي تسافري.

بعد ساعة كانت بيتي جاهزة للرحيل. لم يبق لها سوى بضعة أشياء في كرتونة: فالحقائب التي أتيا بها من اسكتلندا بيعت منذ زمن طويل. ثم رمت فيها صورة يظهرون فيها هم الثلاثة: هنري ولوسي وهي، وتساءلت ما إذا كان من الأفضل أن تنسى لوسي أباها. بيتي لا تحمل أية ذكرى طيبة عن سنواتها الأربع. ومن الحكمة الاّ تذكر لوسي وجودَ

هنري. لم تكف الفتاة، ودميتها تحت إبطها،عن السؤال إلى أين تذهبان وعما تفعلانه. قطعت عليها بيتي أسئلتها بالقول إن هناك مغامرة، وإنها ستشرح لها كل شيء عند وصولهما، عندما تنزلان من الحافلة.

كانت دوريس تنتظر أمام الباب وهي ترمقها بنظرات ثابتة. لقد اتخذت القرار الصحيح. اجتهدت بيتي في التماسك. وأمسكت لوسي بيد صلبة ودون أية نظرة، أغلقت باب الرواق خلفها.



الفصل العاشر

الحافلة تسير مُصدرة صوتاً قوياً على طول البحر المظلم، وتجتاز قرى صغيرة وأراضي مزروعة. الخضرة ليست نفسَها التي كانت تراها في اسكتلندا: فهي هنا أبهت وأفتح. لكنَّ الشمس تسطع أكثر فسمحت بيتي لنفسها بأن تستمتع قليلاً. لقد أعطتها دوريس تعليمات على قصاصة ورق: عليها أن تنزل من الحافلة في نورفولك وتستقلّ حافلة أخرى لتنقلها إلى مكان أبعد في الشمال الغربي. وأخيراً، بعد أن تصلا إلى قرية صغيرة اسمها بْليغ، يجب أن تنتظرا عربة قديمة لتأخذهما إلى ليوينفورد.

لم تصادف أية مشكلة حتى أول تبديل للحافلة، ولكن حوالي ساعة الغذاء، مرضت لوسي بسبب السفر وتقيأت على ملابسها. أخرجت بيتي قميصاً نظيفاً من كرتونتها ونظّفت الطفلة نوعاً ما. ومع ذلك فقد بقيت الرائحة وبدأت بيتي تشعر بالغثيان، هي الأخرى.

وصلنا إلى بْليغ ووجدنا المكان الموعود حيث ستأتي العربة لتقلّهما، وجلستا بانتظارها. كانت بيتي قد أعدت سندويشات بالشحم والعسل. وتقاسمت طعامها مع لوسي إلى جانب الطريق.

شعرت بالسرور لتمكنها من الاستراحة، ولو لفترة قصيرة. قلة نومها في الليلة السابقة منحت الأحداث صبغة كابوسية، ولوناً لاواقعياً. ولم تكفّ عبارةُ «لقد تركتُ هنري!» عن التردّد في رأسها، ولكنها ما تزال عاجزة عن تصديق ذلك.

نحو أي عالم غامض تتجه؟ وعلى الرغم من وعود دوريس، هي غير واثقة من أن تقبل مرغريت إسكانها. ولا حتى أن تكون عندها. وماذا إذا قررت أن تزور أحداً ما؟ أو أن تأخذ عطلة؟

قطع صوتُ لوسي قلقها.

– ماما؟ أين بابا؟

– إنه في العمل.

– ولكنه لم يتناول فطوره معنا اليوم.

– لا، بابا... لن نرى بابا لمدة طويلة.

رفعت لوسي عينيها نحوها، وشعرها الأصهب يلمع في الشمس.

– لماذا؟

ودموعها تهدّد بالانهمار.

أدارت بيتي السؤال في رأسها. كيف تشرح الموقف لفتاة في الرابعة من عمرها؟ فغامرت بعبارة:

– بابا مريض. ومن المؤذي لنا أن نبقى بجواره بسبب مرضه.

– ولكني أحبّ بابا.

وأرَتْها دميتَها هنريتا كدليل على ما تقول.

– وبابا يحبّك أيضاً. ولكنه لا يستطيع الاهتمام بنا الآن. لذا علينا أن تذهب ونتدبّر أمورنا لوحدنا.

شرعت لوسي في البكاء مباشرة وهي تقول:

– سوف يشتاق إلينا.

قرفصت بيتي لتضم ابنتها بذراعيها وهي تقول:

– سوف يشتاق إليك، بكل تأكيد.

تعبت لوسي من البكاء، فجلست على العشب. وأخذت بيتي تمشي وعيناها تراقبان الطريق. فبحسب كلام دوريس، كان يجب أن تمرّ العربة منذ حوالي ساعة. تحققت من قصاصة الورق غير مرة. نعم، هي موجودة في المكان الصحيح، تحت اللوحة التي تحمل اسم القرية، باتجاه الشمال الغربي. على بعد مئة متر من أحد المقاهي. فكرت أن تقصده وتستعلم عن تلك العربة، ولكنها خشيت أن تفوتها إذا ما غادرت نقطة الموعد. أصبح النهار قائظاً جداً ـ ورطباً. تأكّدت من أن لوسي تجلس في الظل. في البعيد سمع خرير مياه جدول وسط صخور؛ إنها تتحرّق للذهاب إليه والشرب من مائه. ولكنها لم تَقم بشيء من هذا. بل طال انتظارها أكثر فأكثر، حتى باتت متأكِدة من أن العربة لن تمر بعد ساعة. أخذ الجوع يفتك بها. ماذا ستفعل الآن؟

قالت لابنتها، مخرجة إياها من ذهولها بين العشب:

– تعالي يا لوسي، يجب أن أذهب إلى هذا المقهى وأسأل عن العربة.

نهضت لوسي بعناء، وأمسكت أمها بيدها. وعلى الطريق، ظلّت تنظر باستمرار خلفها. دخلتا إلى المقهى حيث الجو بارد. الرجال الخمسة أو الستة المتكئون إلى البار التفتوا جميعاً، مستغربين وجود امرأة وطفلة. فاحت رائحة بيرة يبدو أن الأرض قد تشرّبتها.

قال البارمان بلهجة فرحة:

– النساء غير مقبولات هنا، يا سيدتي.

– أريد فقط أن أعرف... عربة ليوينفورد؟

– إن فرانك العجوز هو الذي يهتم بها. يا له من رجل المسكين! فهو لا يخرج في أيام العواصف، إذ يعتقد أن الرعد يخيف الحصانين.

– «أيام العواصف؟» ثم فكرت بالطقس الذي في الخارج: إنه حار وصحو.

– لدينا غرفة في الداخل، إذا أردتِ أن تمضي الليلة هنا.

– لا، أنا...

«إنها لا تملك مالاً. معها بنس واحد فقط من أجل العربة. ولكن العربة قد لا تمر».

- «وهل المكان بعيد مشياً؟».

رف عينيه وهو يجري حسابه، ثم قال:

- هممم، ما يقارب الثلاث ساعات من المشي. وقد تبطّئ الطفلة سيرك. هل أستطيع أن أقدّم لك كأس ماء؟

قبلت بيتي بامتنان وتأكّدت من أن لوسي شربت حتى ارتوت. استمعت إلى التعليمات التي أعطاها إياها للذهاب إلى ليوينفورد، ثم بدأت المشي مضطرة.

بعد نصف ساعة، لاحظت أن غيوماً سوداء تتداعى في الأفق. وبعد نصف ساعة أخرى، شكت لوسي من أنها لم تعد تستطيع المشي، عندما سمعتا أول رعدة.

لقد مر قلبها بمحن كثيرة اليوم، الخوف والأمل والشك، حتى كاد أن ينفطر أمام هذا التهديد الجديد. فهما هنا، تمشيان على طريق ترابي وسط اللامكان، وها هي عاصفة تنذر بالهبوب. استراحت، فارتاحت لوسي لتمكّنها من الجلوس إلى جانب الطريق، والعرق يسيل تحت قميصها.

الملاذ، هو الأولوية. فاللجوء إلى تحت شجرة في أثناء العاصفة أمر خطير. إذن يجب عليها أن تجد بيتاً، أو كوخاً أو أي شيء له سقف. أي شيء. دارت دورة كاملة: نحو الشرق تمتد كيلومترات من الأحراج. وإلى الغرب حقول محاطة بأسلاك شائكة أو بأشجار حور باسقة، وطيور الزرزور تتقافز بين أغصانها. إنها أراض مزروعة. والأراضي المزروعة تدل على وجود مساكن.

- ماما! أنا تعبة.

- أعرف يا عزيزتي.

ألقت بيتي نظرة إلى السماء. الغيوم السوداء تتقدم بسرعة، ولكنّ المطر لم يهطل بعد، ولا رياح بعد.

– سوف نجتاز هذا الحقل لنرى ما إذا كان يوجد مكان نستريح فيه.

وافقت لوسي ونهضت.

– هذا جيد.

امتدحتها بيتي ثم أخذتها إلى الأسلاك الشائكة وقالت لها:

– يجب أن تنبطحي على بطنك وتزحفي تحتها، وانتبهي.

سحبت بيتي الأسلاك بحذر ورفعتها إلى أعلى نقطة ممكنة وهي تراقب مرور لوسي وتتأكد من أن أي شوكة لم تُصب ثيابها أو شعرها. قالت لها:

– كأفعى. نعم، هكذا.

دفعت بيتي كرتونتها إلى الجانب الآخر من السياج وهي تعرف أنها لن تتمكن أبدا من المرور تحته. لذا حاولت أن تباعد بين سلكي الوسط وتشق طريقها. وبينما هي تتسلل علق فستانها بأحد الأشواك. شعرت بوخزة في ربلة ساقها.

– ماما، دمك يسيل.

ضغطت تنورتها على الجرح الذي توقف بسرعة عن النزف، وقالت:

– لا بأس. لنذهب، فقد وصلت العاصفة.

حين لفظت هذه الكلمات بدأت الرياح تهب.

تسلقتا بصعوبة هضبة طويلة. وفي الأعلى، رأت بيتي أن الأراضي المزروعة تمتد عدة كيلومترات في الاتجاهات كلها. هضاب خضراء منحنياتها خفيفة تقطعها صخور ضخمة مسطحة. أشجار أوكاليبتوس منفردة هنا أو هناك، خضراء أو يابسة، وأوكار بيضاء للغربان. ولكن ما من مزرعة. عملياً، لم تشاهد لا أبقاراً ولا خرافاً. إما هذا المشروع الزراعي هو أكبر مما تخيلت، أو أنه لم يُنَشَّط أبداً. ومع ذلك، شاهدت بناء

أبيض صغيراً في البعيد. ملجأ. اقترب هدير الرعد، وخيمت على الحقول ظلمة باردة.

حملت لوسي بين ذراعيها وأسرعت إلى النزول عن الهضبة واجتياز الحقل قبل أن تسقط قطرات المطر الأولى.

– أرجوك اعملي على ألا نتبلل أكثر في ما بقي لنا.

بينما هي تقترب لاحظت أن الكوخ مجرد من الباب ومن نصف سقفه. انفطر قلبها أكثر.

شقّ السماء برقٌ يُعمي الأبصار. هذا الملجأ يجب أن يفيَ بالغرض.

وصلتا إليه لحظة بدأ المطر ينهمر. السقف قذر ومتشقق، ولكن إذا جلستا في الزاوية الداخلية فلن يصيبهما البلل. وضعت بيتي لوسي على ركبتيها وساعدتها على بسط عضلاتها. ما تزال الفتاة تشعر بالغثيان. انتقلت العاصفة إلى فوق رأسيهما. لفحات رياح باردة تلسع جسميها وتجمد قطرات عرقهما. تبع الرعدُ البرق. وبعد ذلك انهمر المطر مدراراً. أخذت لوسي تبكي بهدوء - وتنادي أباها. هنا رافقتها بيتي بالبكاء. فقد بكت هنري هي أيضاً، بكت الرجل الذي بدا كائناً ولكنه لم يكن، بكت وحدتها، وبعدها عن عائلتها، والحياة التي عاشتها في الماضي، بكت ابنتها التي ليست سوى جمال نقي، والتي تستحق ما هو أفضل في العالم، والموجودة هنا، في هذا الفقر والشك، ترتعش تحت عاصفة هوجاء، بعيداً عن بيتها.

لم يهدأ المطر. مرت ساعة، وربما ساعتان وانغمرت الأرض بحيث وجب عليهما أن ترتفعا اتقاءً للبلل ومنعاً للماء من التسرب إلى حذاءيهما. تشبثت لوسي بتنورة بيتي بينما أخذت هذه تفكر فيما يجب أن تفعلاه بعد ذلك. فلا يمكنهما أن تبقيا هنا طوال الليل، إذ غمر الماء الأرض الآن. ولكنهما ما تزالان على بعد ساعات من المشي إلى ليوينفورد. إذن يجب أن تنطلقا منذ هذه اللحظة، إذا أرادتا أن لا تجدا نفسيهما في العراء وتمشيا والظلام مُخيِّم.

كيف ستقول لابنتها المرهقة إن عليها أن تمشي تحت المطر؟ لذا بقيت مغروسة في مكانها مجمدة، تنتظر علامة ما. ولكنها لم تر أية علامة، سوى الواقع الرهيب، هذه اللحظة المؤلمة التي تواجهانها.

- لوسي، أنا آسفة يا عزيزتي ولكن يجب أن نعود إلى الطريق، ونتابع السير.

- لماذا؟

- لأنه عندما تسير الأمور سيراً سيئاً فإن الأشخاص الأقوياء يواصلون نضالهم.

ابتعدت لوسي خطوة مصمّمة ومدت يدها لأمها وقالت:

- موافقة يا ماما.

أمسكت بيتي بيد ابنتها وانطلقتا تحت المطر.

مشتا كيلومترات وكيلومترات. المطر يهطل بوتيرة أخف ولكنها متواصلة. العلبة الكرتونية المبللة تراخت تحت إبط بيتي. ولوسي ثابرت كجندي صغير، تضع قدماً قوية أمام الأخرى، ولاحظت أمها بصيص أمل. سوف تصلان إلى ليوينفورد. الآن، لم يبق لهما سوى بضعة كيلومترات لاجتيازها. سوف تستقبلهما مرغريت وستبدأان حياة جديدة، حياة بسيطة، خالية من الخوف.

شيئاً فشيئاً تحول المطر إلى رذاذ، إلى أن أتت اللحظة التي أدركت فيها بيتي أن المطر لم يعد يهطل. في الأفق، يحاول شعاع شمس أن يمتد خلف الغيوم.

دخلتا في منعطف. لم يبق لهما سوى نصف ساعة حتى تصلا إلى مقصدهما، هذا مؤكد. ولكنّ بيتي أدركت أن هناك مشكلة: فالطريق مسدود. والأرض مغمورة على مستوى الجدول، وبات ماء الفيضان كستنائي اللون. توقفت بيتي فقلدتها لوسي.

فرغ رأس بيتي، ولم تعد تستطيع أن تركّز أفكارها. ماذا يجب عليها أن تفعل الآن؟ من المستحيل أن تعودا على أعقابهما لإيجاد طريق آخر:

فهي لا تعرف الطريق ولوسي منهكة. كما لا يمكنهما أن تنتظرا حتى يرتفع الماء. وقد يعود المطر إلى الهطول وسوف تتبللان أكثر. بالإضافة إلى ذلك أخذت درجة الحرارة تنخفض كلما اقترب الليل، وسوف تلقيان حتفهما إذا تأخرتا كثيراً في إيجاد مكان دافئ تجففان فيه ملابسهما. لم تراودها إلا رغبة واحدة، هي البكاء. أن تجلس وتضع رأسها بين ركبتيها وتبكي. ولكنها قالت للوسي وهي تضع الكرتونة أرضاً:

- انتظريني هنا!

اقتربت من الطريق ولاحظت وجود كومة من الأغصان والأنقاض إلى جانبه، ما يعني أن العمق قليل. بحذر شديد، وضعت قدمها على الطريق فصعد الماء حتى كاحلها. مشت خطوة أخرى فلم يصعد الماء إلى أعلى من ذلك. تقدمت ببطء شديد لكي تكوّن فكرة عن المعبر كله. صحيح أن التيار سريع ولكنّ الجدول ليس عميقاً. فإذا ما حملت لوسي يمكنها...

في تلك اللحظة بالضبط التفتت فرأت أن لوسي لم تكن تنتظرها، بل لقد وصل الماء إلى ربلتي ساقيها وهي تتقدم نحوها.

- لا، يا لوسي!

حاولت أن تقوم بنصف دورة لكنّ حذاءها الموحل بطّأ من حركتها.

ثم أخذت الأنقاض الموجودة إلى جانب الطريق تتحرك. في البداية انزلقت فقط إلى جانب الطريق، ولكن بعد ذلك ما لبثت المياه أن حملتها حتى وصلت إلى وسط الطريق أمام لوسي وتقدّمت لتصدم قدمها. سقطت الفتاة فحملتها المياه إلى خارج الطريق. أمسكت بغصن معلّق إلى جانب الجدول بعد عشرة أمتار.

صرخت بيتي:

- لوسي! لوسي!

لقد جفّ حلقها. نزلت الطريق من جديد بأقصى سرعة حتى وصلت إلى ضفة الساقية وانبطحت ويداها ممدودتان باتجاه لوسي.

صرخت الفتاة:

- بابا! بابا!

- امسكي بيدي يا حبيبتي!

- بذلت لوسي محاولةً... ولكنها أخفقت على بعد بضعة سنتيمترات.

- أريد بابا!

اقتربت بيتي قليلاً من الحافة وهي تدرك أنهما ستضيعان إذا ما سقطت هي الأخرى في الماء الجارف. توسلت لابنتها:

- من فضلك، حاولي مرة أخرى يا صغيرتي.

مدّت لوسي ذراعها، لكنها أفلتت الغصن هذه المرة. شعرت بيتي بأصابعها تلامسها قبل أن تراها تختفي تحت الماء.

- لا!

ولكنها ما لبثت أن سمعت أحداً ما يغوص. فقد رمى رجلٌ نفسه في الماء من الجانب الآخر للجدول. لم يكن لدى بيتي أية فكرة عمّن يكون هذا الرجل ولا من أين أتى، ولكنها رأت ظهراً عارياً وأملس. بعد لحظة ظهر من جديد ولوسي بين ذراعيه.

صرخت بيتي:

- لوسي!

- ماما!

أنّت الفتاة بصوت خائف وهي تحاول الإفلات من ذراعي الرجل الغريب.

رأت بيتي أن ابنتها ما تزال تتنفّس على الأقل فصرخت بها:

- تشبثي به! تمسّكي به جيداً!

خرج الرجل من الماء ووضع لوسي بحذر على الضفة الحرجية. انتصب. وجّهَ ابتسامة إلى لوسي ثم قال:

- سوف أجتاز وآتي لأخذك.

وخزت الدموع عيني بيتي وهي تقول:

- شكراً. وألف شكر.

في الوقت الذي أمضته لتركض وتأخذ كرتونتها كانِ الرجل إلى جانبها من الطريق. أمسك بذراعها بيد ثابتة وخاض بها الجدول. أسرعت إلى لوسي التي دفعها اليأس والامتنان لترتمي بين ذراعي أمها. أخذت الطفلة تنشج. حملتها بيتي بين ذراعيها وهدهدتها إلى أن تباطأت دقات قلبها.

ثم التفتت إلى منقذها، وكان قد ارتدى قميصه ولكنه لم يزرّره بعد، وقالت له:

- كيف يمكنني أن أشكرك مدى الحياة؟

هزَّ الرجل كتفيه وقال:

- ماذا كان بوسعي أن أفعل غير ذلك، يا سيدتي؟ هل أبقى أتفرج على الطفلة وهي تغرق؟

ابتسمت له ومدّت له يدها مصافحة وقالت:

- اسمي بيتي، وهذه لوسي.

ضغط بقبضته على يدها قبل أن يبتعد فلاحظت أن يده حارة جداً.

رفعت لوسي رأسها وما تزال أجفانها مثقلة بقطرات الماء وسألته:

- ما اسمك؟

- تشارلي.

قالت له بيتي:

- لقد أنقذت حياتها.

فقال مفسّراً:

- كنت على بعد ثلاثة أمتار ورأيتكما، فركضت لكي أحذركِ من أن الفتاة تتبعك.

ضغطت بيتي على ذراع لوسي، ثم قالت:

- كان يجب عليّ أن أعرف أنها قد لا تطيعني.

ثم ركزت اهتمامها على تشارلي فيما تبقّى من ضوء تلك الظهيرة الآفلة. كان شعره بنياً ومجعداً، وله عيناه سوداوان تقريباً. أخذت تدرك شيئاً فشيئاً بأنه من السكان الأصليين. فهي لم تلتق بأحد منهم من قبل، ولا تعرف أن تقدّر عمره: ربما يصغرها ببضع سنوات. ثمة شيء فرح يكمن في هذه التموجات غير المنضبطة وهذه الأهداب الطويلة وهذه الذقن المحلوقة حديثاً. ثم أدركت أنها تنظر إليه منذ بعض الوقت فحوّلت نظرها عنه. سألها بنبرة مسترخية، وهو يزرّر قميصه:

– إلى أين تذهبان؟

– إلى ليوينفورد. لقد أتينا إلى هنا مشياً من بْليغ، ولم تمر العربة.

– إنه لا يخرج في أيام العاصفة.

ثم غرس تشارلي رأسه في قبعته وأضاف:

– أنا قادم من ليوينفورد. هل لديك أصدقاء هناك؟

– نعم، أقصد لا. سوف نقابل مرغريت داي. فقد قالت لي ابنة عمها إن بوسعها أن تُسكننا.

– نعم، مدام داي سوف تسكنكما بلا مشكلة. فلا تقلقي.

– هل هي... لطيفة؟

رفع تشارلي كتفيه وقال:

– ليس معي.

انفجر ضاحكاً ثم أضاف:

– ولكنها لطيفة. هل تريدين أن أرافقك إليها؟ أن أبقي عيني عليك؟

قدّرت بيتي موقفه وقالت:

– لا أريد أن أزعجك.

هز رأسه وقال:

– سيدتي، أنت مبلّلة وطفلتك مقرورة وخائفة. إذا كان وجود رجل أسود لا يزعجك فأحب أن أساعدك.

– وجود... لا، بكل تأكيد هذا لا يزعجني. فقد أنقذت حياة ابنتي.

وجّهت إليه بيتي ابتسامة صغيرة وأضافت:
- سيكون من دواعي سعادتي أن تقبل مرافقتنا.
انحنى تشارلي. ابتسم للوسي ثم سألها:
- هل تتكرّمين بالصعود إلى ظهري؟
أصدرت لوسي تكشيرة وهزت رأسها. لكنّ تشارلي تجاهلها ورفعها على ظهره وقال:
- هيا بنا!
فرحت لوسي أخيراً لأنها لن تمشي، وضمّت يديها حول عنقه. حملت بيتي كرتونتها التي باتت تحوي الآن ثياباً مبللة ثم مشوا على الطريق، وحذاؤها مليءٌ بالوحل.
- يجب أن أقول لكِ إن لكنتك غريبة يا سيدتي.
- أرجوك أن تناديني بيتي. أنا نصف اسكتلندية.
- اسكتلندا، إنها ليست قريبة. أنت أبعد من وطنك مني.
- ومن أين أتيت؟
كان يمشي بسرعة كبيرة، وكان يجب عليها أن تحثّ خطاها لتبقى بمحاذاته.
- أنا؟ أنا أتيت من الخليج، شمال أستراليا. وقد اجتزتُ البلاد من أعلاها إلى أسفلها. وقد أذهب نحو الغرب الآن. أو أبقى هنا قليلاً. فأنا أحب النور اللطيف الموجود هنا.
- هل أنت من السكّان الأصليين؟
هي لا تعرف ما إذا كان سؤالها وقحاً، ولكنها المرة الأولى التي ترى فيها شخصاً بشرته ليست بيضاء.
- نعم، في الحقيقة أمي كذلك. وأبي كان أبيض لم يقم إلا بالمرور. وهذا من التاريخ القديم.
- ألم تلتقِ به من قبل؟
ظل صامتاً لبعض الوقت، ثم أجاب:

– من التاريخ القديم. وأنا لا أفكّر به أبداً.. ليس لدي أهل: لم يعد يوجد غيري في العالم، وأنا الوحيد الذي أهتمّ بنفسي.

وعبر وجهَه تعبيرٌ حزين، عندها فهمت بيتي أنه أكبر منها سناً، ربما بنحو عشر سنوات.

انتهوا بالوصول إلى لافتة بيضاء كُتب عليها "ليوينفورد". شعرت بيتي بأن بوسعها أن تتنفس الصعداء، لأول مرة هذا اليوم. فها قد وصلوا أخيراً.

بعد اليافطة، تشعَّب الطريق نحو اليسار، ورأت بيتي صفاً من البيوت، ومخازن ومحلات، وسيارات وعربات مصفوفة على الطريق الترابي. قال تشارلي وهو يشير إلى القرية:

– يجب أن تذهبي في هذا الاتجاه، وشارع مدام داي، سيكون الأول إلى يسارك. وبيتها له أشجار ورد أمامه.

ثم قرفص وترك لوسي تنزل بهدوء. فسألته:

«هل تستطيع أن تحملني حتى هناك؟ فأنا تعبة، ولا أستطيع المشي».

هز تشارلي رأسه ثم قال:

– آسف، يا صغيرتي.

نهض ووجه علامة برأسه إلى بيتي، وأضاف:

– آسف يا سيدتي، لم يعد مرحَباً بي في ليويتفورد. لقد غادرتها للتو. والآن يجب أن أعود لآخذ صرّتي عند الجدول، وأذهب إلى بْليغ للعمل هناك.

– لم يعد مرحَباً بك؟ ماذا حصل؟

– أنا واثق من أنك ستسمعين بالأمر.

ثم ابتسم لها وأضاف:

– اهتمّي جيداً بالطفلة.

ثم حك رأس لوسي وقال لها:

- وأنتِ اهتمي جيداً بأمك.

- حسنٌ، وبأبي أيضاً، حين تتحسّن حاله.

كان تشارلي قد استدار، ثم قال:

- هذا جيد.

- إلى اللقاء، وشكراً.

قالت له بيتي في ظهره، فرفع يده علامة وداع دون أن يلتفت.

رأى هنري أنه بحاجة إلى كأس قبل أن يخوض امتحان العودة إلى البيت. لكنّ الكأس استدعت ثانية ثُم ثالثة... وحين عاد إلى البيت، كان الليل قد خيّم تماماً، وها هي أربع وعشرين ساعة قد مضت على مغادرته. كان يأمل أن تكون لوسي ما تزال صاحية: فهو مشتاق إليها حتى أعماقه. بل هي السبب الوحيد لعودته. وسيكون سعيداً بعدم رؤية بيتي ونظراتها المتّهِمة، وشكواها الدائمة، وعجزها عن إدارة ميزانية البيت.

سرعان ما اكتشف إن الأنوار مطفأة. إما أن تكون الاثنتان نائمتين أو أن بيتي تقتصد في الكهرباء. خامره شعور بالذنب: فقد بقي قليل من المال من راتبه هذا الأسبوع. أو ربما قُطعت عنهم الكهرباء.

جعله السُكْر يُخفق غير مرةٍ في إدخال المفتاح في قفل الباب. وأخيراً نجح ودخل، وضغط زر النور. فأضاء المصباح فوق رأسه. نادى:

- بيتي؟

هو يعرف أنه يجب عليه ألا يصرخ خشية أن يوقظ لوسي، ولكنها رائعة عندما تستيقظ، حارّة ونعسانة. ذهب إلى الغرفة الرئيسة فوجد الباب مفتوحاً. سمح له النور الذي في الممر بأن يرى أن السرير فارغ. ذهب بفضول إلى المطبخ، فلم يجد أية علامة لبيتي.

لا بدّ أنها نامت إلى جانب لوسي. ذهب إلى غرفة ابنته وفتح بابها فوجدها خالية. صرخ:

– لوسي!

الخوف الذي شاب صوته أرعبه أكثر. أين هي؟ هل خطفها أحد ما؟ لماذا لم تكن بيتي هنا لتحميها؟ أخذ يتنقل من غرفة إلى أخرى تاركاً الأنوار مضاءة. ما من أثر لزوجته ولا لابنته. أسرع إلى الحديقة، وتجاوز حبل الغسيل. ما تزال قمصانه معلقة كظلال شبحية في الظلام.

– لوسي؟ بيتي؟

– لقد ذهبتا.

التفت إلى جهة الصوت، فرأى المرأة العجوز التي تسكن بجواره تقف خلف البيت، أمام بابها. لا بدّ أن صراخه قد أيقظها. إنها لا تعرف اسمه. سألها:

– كيف هذا؟

– لقد تركتك وأخذت الطفلة معها.

كانت أصابعها معلّقة بقوة بإطار بابها، فقد كانت خائفة منه.

تعاظم غضبه حتى كاد أن يتقيأ. كبت غثيانه. شعر بيديه تصبحان ثقيلتين، وأصاب أذنيه طنين، فسأل:

– إلى أين ذهبت؟

– لو كانت تريدك أن تعرف لتركت لك كلمة.

في الظلام بدت المرأة قاسية الملامح، طائراً جارحاً. ومع ذلك فقد أشفقت قليلا عليه عندما سمعت صوته الشاكي وقالت:

– لقد رأيتها عند موقف الحافلات هذا الصباح. وقد قالت لي كل شيء عنك.

– إنها لا تعرف شيئاً عني، تمتم وهو يبتعد بهيئة متغطرسة.

صرخت في ظهره وقد غضبت لرحيله:

– الرب يعطيك فرصة، إنه يقول لك إنك لا تستطيع الاستمرار في الشرب والمقامرة بهذا الشكل.

صفق هنري الباب خلفه، وانهار على كرسيٍّ قرب طاولة المطبخ الخاوي والغارق في الصمت. فرّ أنين خفيف من بين شفتيه. وضع رأسه على الطاولة واستمع إلى ضربات قلبه الصماء.

الفصل الحادي عشر

حملت بيتي لوسي بين ذراعيها وأسندتها على فخذها بذراعها، والكرتونة المبلّلة ما تزال محشورة تحت ذراعها الأخرى. أخذت تمشي على الطريق الترابي المليء بالحفر، مرت من أمام مقهى سقفه من الحديد الأحمر والقرميد الضخم المرقق، ومن أمام سمّان وغرفة بريد وباب له قوس من القرميد وخبّاز ومصرف ومحل قطع أثاث وصف من البيوت: بعضها من الخشب وبعضها الآخر من الحجارة وأسطحها كلّها من الصفيح المائل. مشت في الشارع الأول إلى اليسار كما قال لها تشارلي، وسرعان ما تعرفت إلى بيت مرغريت: فهو مغطّى بألواح صفراء شاحبة وله ممر مبلط ومزين بكثير من الورود. عاشت لحظة من الحيرة. وإذا لم تقبل مرغريت أن تُسكنها؟ عاد الرذاذ يتساقط فتقدمت حتى مدخل البيت والتجأت إلى تحت الفيراندا وطرقت الباب بقوة عدة طرقات.

بعد بضع لحظات فتحت امرأة الباب. إنها أقل سناً بكثير مما تخيلت بيتي. لا بدَّ أنها لا تتجاوز الأربعين سنة. وجهها جميل ينبعث عنه شيء ما ناعم وفرِح.

قالت مرغريت وهي تفتح الباب واسعاً:

– أوه! أنت مبللة حتى العظم! هل أستطيع أن أساعدك؟

– أنا قادمة من هوبارت. أنا جارة دوريس بيتي. وقد قالت لي...

– ادخلي، ادخلي. هل معك ملابس جافة؟ قد يكون عندي ملابس أعيرك إياها. هل يجب أن أجري المياه الحارة لتحميم الصغيرة؟ ماذا حصل لكما؟

غاب صوت بيتي. فقد غمرها لطف مرغريت بالانفعال. لحظة عبرت عتبة الباب، انهار أسفل الكرتونة أخيراً، وسقطت كومة من الملابس المبللة على الأرض. ابتلعت دموعها وقالت:

– أنا آسفة، لقد عشت نهاراً قاسياً.

– إذن ادخلي وخذي قسطاً من الراحة.

ثم انحنت لكي تساعدها على جمع الملابس.

بيت مرغريت مرتّب ومزيّن، على غرار بيت دوريس. يوجد قماش على قطع الأثاث، وأدوات زينة ولوحات وحتى آلة خياطة. وهناك صليب على الجدار ولوحات ليسوع ومريم وآيات من الكتاب المقدس مطرزة على شكل صلبان بين زوايا الوسائد. بينما كانت مرغريت تتحرك أخذت بيتي تتبعها من غرفة إلى أخرى وهي تروي لها رحلتها والعاصفة بصوت لاهث. ظلّت لوسي صامتة فقد أخذ التعب منها كل مأخذ. أخذتهما مرغريت إلى الحمّام وأجرت الماء الساخن. سألتها بيتي:

– أتخيل أنك تحبين أن تستحمي أنت أيضاً؟

– يجب أن نتكلم عن...

– قبل كل شيء يجب أن تستحمّي وتجفّفي جسمك وتأكلي. وسوف نتكلم بعد أن تنام الطفلة. فلن تذهبي من هنا هذا المساء، فلديّ غرفة شاغرة.

تركتهما مرغريت، فدلفت بيتي بفرحٍ غامر إلى الحمّام الحار، مع لوسي. استسلمت للحرارة التي فكّت عُقد عضلاتها. سحبت لوسي نحوها وألصقت ظهر طفلتها بصدرها. كان العمود الفقري للوسي ناتئ الفقرات. ألم تلاحظ أن ابنتها قد نحلت كثيراً؟ تملّكها إحساس لذيذ

بالارتياح الممتزج بالرضا لأنها اتخذت القرار الصحيح. قبّلت شعر لوسي وقالت لها:

- أحبّك يا ابنتي.

- متى سوف نرى بابا؟

- سوف نقيم قليلاً هنا. فيجب علياك أن تصبري.

كانت لوسي تعبة جداً بحيث أنها لم تستطع أن تبكي، بل ارتمت على أمها. تساءلت بيتي تُرى كم من الوقت يلزم لوسي لتنسى أباها، أو على الأقل لتنسى أن تحبّه بجنون.

جلست بيتي على كنبةٍ نظيفةٍ وجافة، مرتديةً ملابس واسعة جداً عليها، مستعارة من مرغريت، وبطنُها مليء بوجبة ساخنة مكوّنة من يخنة خروف، وعلى مقعد وثير وواسع جلست مرغريت مقابلها. كانت لوسي ممدّدة على ركبتيها، وأخذت تداعب لها شعرها وتُظهر جبينها الناصع بينما استسلمت الطفلة للنوم. كانت بيتي مرهقة هي الأخرى، وتجد عناء في ترك عينيها مفتوحتين. فمرغريت لم تدلهما بعد إلى غرفتهما، بالإضافة إلى أن عليها أن تناقشها بأمور هامة.

بدأت مرغريت حديثها سائلةً، بعد أن تناولت قطعة للتطريز بالإبرة:

- إذن كيف حال دوريس؟ هل كانت تبدو لكِ بصحة جيدة؟

- نعم.

أخذت أصابعها تحكّها، فهي متلهّفة للخياطة أيضاً، فهي تهدّئها دائماً. سألتها:

- هل لديك قطعة أخرى؟

ابتسمت مرغريت، ودفعت بضربة من قدمها سلة مليئة بالأقمشة والخيوط اختارت بيتي قطعة قماش، وخيطاً أحمر وإبرة وبدأت العمل.

كانت لوسي تتنفس بهدوء على ركبتيها. بدأت بيتي الحديث قائلة:

- قالت لي دوريس إن من الممكن أن يكون لديك عمل لي، وربما يكون من الممكن لي أن أعوّض بذلك أجر سكني.

- لدي دائماً عمل لأقدّمه. فأنا أصنع الملابس، وأصلحها، ولا أتوقّف عن ذلك. ويمكنك أن تدفعي أجر سكنك بمساعدتي، هذا مؤكد. ولكن عليك أن تُسهمي في أعباء الطعام، وبصورة خاصة مع الطفلة. يمكنك أن تطلبي مساعدة اجتماعية من الحكومة، ولكن يجب أن تكملي طريقك لمسافة عشرين كيلومتراً للقيام بذلك.

انقبض قلب بيتي، فسألت:

- ألا يوجد عمل آخر في هذه القرية؟

- هذا ممكن. سوف أمنحك بعض الوقت لكي تستقرّي.

ابتسمت ثم أضافت:

- لا مجال للقلق، فأنت في أمان هنا.

خفضت بيتي عينيها، ونظرت إلى لوسي، وبكت دون أن تدري.

- شكراً!

همست هذه الكلمة دون أن تكون متأكّدة ما إذا كانت مرغريت قد سمعتها. ثم تمالكت نفسها ورفعت رأسها، وقالت:

- الرجل الذي ساعدنا، الذي أنقذ لوسي، قال لنا إنه لم يعد مرحّباً به في ليوينفورد، وقد غادرها.

قطّبت مرغريت حاجبيها وسألت:

- وما اسم هذا الرجل؟

- تشارلي.

- تشارلي هاريس؟

- لم أسأله عن اسم شهرته.

- إنه يبحث عن المتاعب. فهؤلاء المهجّنون لديهم قَدَم في عالمنا وقدم في عالمهم. إنهم يعيشون الارتباك. ومكانهم هو أن يكونوا معاً في مكان ما، بعيداً عن البيض.

- أي نوع من المتاعب؟

فكّرت بيتي باللطف الذي أبداه ذلك الرجل مع لوسي. وهي لا تريد أن تحكم على مرغريت التي كانت طيّبة جداً معها، ولكن تشارلي الذي التقت به لا يستحقّ انتقادات كهذه.

– إنه يدير استثمار وايلدفلاور هيل، وهي مزرعة لتربية الخراف تقع في الجهة الأخرى من القرية. ولكنه كان يسرق ربّ عمله طوال الوقت. حسنُ من الممكن أن يكون راف بلانشارد أفّاقاً، هو الآخر، ولكن لا يجوز أن يسرق رجلٌ أسود مزرعة رجل أبيض، هذا كل ما في الأمر.

ردّت بيتي مغامِرة:

– يجب أن أعترف أن تشارلي بدا لي في غاية اللطف.

كشّرت مرغريت وقالت مُقفلةً الموضوع:

– حتى الساعة الجدارية المعطّلة، تشير إلى الوقت الصحيح مرتين في اليوم.

وضعت القطعة التي تطرّزها جانباً، نظرت إلى عيني بيتي مباشرة وسألتها:

– هل من الممكن أن يجد زوجك الطريق الصحيح ويطلب منك أن تعودي؟».

قرّرت بيتي أن تكون صريحة، فقالت:

– إنه ليس زوجي، بل هو زوج امرأة أخرى.

انقبضت شفتا مرغريت بقسوة، وانتحرت طيبةُ وجهها فجأة وهي تسأل:

– وهل ولدت هذه الطفلة خارج الزواج؟

– نعم، فقد كنتُ صغيرة جداً وحمقاء جداً.

– وهل عُمّدت؟

هزّت بيتي رأسها.

– يجب إصلاح هذا الأمر. يوجد هنا كنيسة في مود ستريت، أعلّم فيها الديانة المسيحية يوم الأحد، ويمكنها أن ترافقني.

لم تدر بيتي بماذا تجيب. فقالت مرغريت:
- حسنٌ، لقد قرّرت ذلك.
احتارت بيتي في أمرها، فما الذي تَقَرّرَ بالضبط؟ ثم قالت لنفسها إن التعاليم المسيحية والتعميد الصحيح لا يمكن أن يؤذياهما. بقيتا صامتتين لزمن لا بأس به، ثم قالت بيتي:
- أنا آسفة يا مرغريت، ولكني لم أعد أستطيع أن أفتح عينيّ.
ابتسمت مرغريت واستردّت طيبتها كلّها وهي تقول:
- مسكينة! لا بدّ أنك مرهقة جداً. دعي الصغيرة هنا لبضع لحظات، وسوف أريك غرفتك.
سارتا في الممر الصغير حتى غرفة الغسيل، حيث يوجد درج يؤدي إلى غرفة على السقيفة، تسود فيها رائحة الغبار ورطوبةٌ خفيفة. أنارت مرغريت المصباح، فرأت بيتي سقفاً منخفضاً ومدبّباً، وخيوط عنكبوت متجمّعة في الزوايا، والأرض مغطاة بجرائد قديمة. وكان هناك خوان وسرير بسيط عليه فراشٍ رقيق جداً وسط الغرفة. علقّت مرغريت:
- ليست جيدة جداً، ولكنها سقف يحمي الرأس.
قسرت بيتي نفسها على الابتسام وهي تقول:
- أقبلها بامتنان.
- سأجلب لكما شراشف.
رفعت بيتي معنوياتها متخيلة أنها ستكنس خيوط العنكبوت، وتقتصد قليلاً من المال لكي تضع سجادة على الأرض. كانت شراشف مرغريت جميلة وناعمة. فسُرّت بتمديد لوسي عليها، وبالانحشار بها والنوم، أخيراً.
في الأسابيع الأولى اهتمّتا وأكلتا حتى الشبع. وعلّمت مرغريت بيتي كيفية استخدام آلة الخياطة، وتولّت هذه أمور الترقيع كلّها. وكان منها سلتان مليئتان، وثمة قطع للإصلاح تأتي كل يوم. لا أحد يملك مالاً لشراء ملابس جديدة، والملابس القديمة يجب أن تدوم أطول وقت ممكن.

وهكذا كانت تُمضي صباحاتها في الخياطة، وأوقات الظهيرة تتفرّغ للوسي. أزالتا الجرائد القديمة، ونظفتا أرض غرفتهما بالفرشاة، وتخلّصتا من خيوط العنكبوت. بل نجحت بيتي في إقناع مرغريت بأن تعيرهما لوحة صغيرة لتعليقها في الغرفة. هي لوحة تمثّل قارباً في نهر، وقد هامت لوسي بهذا المنظر. وأخذت مرغريت تصحبها إلى التعليم المسيحي مرة في الأسبوع، فكانت بيتي تستفيد من غيابها لترقيع ثيابهما على الآلة. إنها ستكون ممتنّة جداً لو أنها حصلت على قطعة قماش طويلة لتصنع منها فستاناً جديداً، ولكنها لا تملك بنساً واحداً في جيبها. أصرّت مرغريت على أن تستقلّ الحافلة إلى القرية المجاورة وتسجّل اسمها من أجل الحصول على معونة من الحكومة. لكن بيتي رفضت. فقد قرّرت أن تعمل لكي تكسب المال، وقد كفاها اعتماداً على الآخرين. لذا فقد ذهبت إلى محلات القرية، وأعلمت أصحابها بأنها تبحث عن عمل، آملة أن تأتيها فرصة مناسبة.

وكان لها ذلك في بداية الأسبوع الرابع.

فقد كانت بيتي جالسة على كنبة ترقع جوارب، ولوسي عند قدميها تلعب بملاقط الغسيل. وهذه هي المرة الأولى التي لم تشك فيها من أنها لم تر والدها. وكانت مرغريت قد حملت لها مساعدتها المناسبة على الرغم من أن بيتي لم تطلبها. فعندما كانت لوسي تطرح أسئلة عن والدها، كانت تجيبها بصوت قاس: «عندما يساعد الله أباك على الشفاء، سيساعده على الالتقاء بك أيضاً». فغدت لوسي متحمّسة وخائفة في آن واحد من فكرة الله. أما بيتي فقد أرعبتها فكرة أن يتمكن هنري من العثور عليهما.

كانت مرغريت تدوس على دواسة آلة خياطتها فلم تسمع الطرق على الباب. نهضت بيتي لتفتح.

فإذا بامرأة متوسطة السن وعارمة الصدر تقف بالباب، تضع نظارة، وشعرها مرفوع إلى أعلى رأسها. قالت:

- أنا أريد بيتي بلاكسلاند.
- هي أنا.
قالت بيتي ذلك وقلبها يخفق في حلقها. تُرى ماذا حدث؟ هل هنري هو من أرسلها؟
قالت المرأة:
- اسمي أليس، وأنا خادمة وايلدفلاور هيل. لقد فقدنا خادماً اليوم، وسمعتُ أنك تبحثين عن عمل.
- صحيح.
ردّت بيتي مجتهدةً في إخفاء فرحها - فهي لم تحصل على العمل بعد. تفضّلي بالدخول.
زمّت أليس أنفها وقالت:
- لا أستطيع. متى يمكنك أن تبدئي؟
- غداً بعد الظهر، فأنا أعمل عند مرغريت صباحاً.
- هل يمكنك أن تحضّري نفسك لعشر ساعات. أريد أن تساعديني على الغداء.
تردّدت بيتي، ثم قررت أن بوسعها أن تستيقظ في وقت أبكر لكي تنجز عملها هنا.
- نعم بالتأكيد. سأكون هناك عند الساعة العاشرة.
- لا، لا. سأرسل إليك سيارة. فهناك مسافة طويلة لتمشيها وسوف تصابين بالإرهاق حتى قبل أن تبدئي العمل.
استدارت أليس ونزلت الدرجات بخطوات سريعة وصعدت إلى العربة التي كانت تنتظرها.
عادت بيتي إلى داخل البيت وشرحت الموقف لمرغريت التي أبدت هيئة حذرة منذ بداية الخبر حتى نهايته، ثم قالت:
- أنا لا أستمع غالباً إلى الأقاويل، ولكن يجب عليَّ أن أحذرك من وايلدفلاور هيل.

– تحذّرينني؟

– إنه مكان مليء بالخاطئين.

بذلت بيتي جهدها كله لئلا تصدر عنها تنهيدة استياء. فمواعظ مرغريت الدائمة حول الله والخطيئة تُوتِّر أعصابها. هي ليست واثقة من الإيمان بالله: فإلحاد والدها جعلها شكاكة. وإذا كان الله موجوداً فإن بيتي تعرف أنه سيكون أكثر تسامحاً من الله الذي تؤمن به مرغريت.

– إذن، أليس خاطئة؟

سألت بيتي وهي تأمل ألاّ تكون قد استخدمت نبرة فيها كثير من نفاد الصبر.

– إن الذين يغمضون أعينهم عما يجري خاطئون، هذا مؤكد. ومن الأفضل لك أن تتذكريه.

ابتسمت مرغريت ووضعت يدها على يد بيتي وقالت:

– لا أريد أن أخيفك، يا عزيزتي لكنْ رافاييل بلانشارد، مالك وايلدفلاور هيل، رجل سيئ ويجب أن تتجنَّبيه قدر الإمكان.

– شكراً على نصائحك.

أجابت بيتي التي لم تنس أن تبدو ممتنّة. ثم سألت:

– هل أستطيع أن أترك عندك لوسي في أثناء عملي هناك؟

بكل تأكيد. فسوف نتسلّى نحن الاثنتين، أليس كذلك يا لوسي؟».

قفزت الفتاة وأصدرت غمزة لمرغريت بمثابة الجواب. شعرت بيتي بالارتياح والاسترخاء في آن واحد، إذ لا يحقّ لها الآن أن تتذمّر: فلديها سقف، ولديها ما تأكله، ولديها أحد ما يعتني بابنتها، وسيكون لديها عمل من الآن فصاعداً. وبقليل من المال، ستتمكن من شراء سجادة تفرشها على أرض غرفتها على السقيفة، أو حذاء جديداً للوسي. لم تصدق في أية لحظة أن وايلدفلاور هيل مليء بالخاطئين. فهناك أشياء أخرى، أهمّ منذ ذلك، تقلقها أكثر.

وصلت العربة إلى شارعهما عند العاشرة تماماً. انتظرت بيتي في الخارج، أمام باب الحديقة، بينما كانت لوسي تراقبها على الشرفة.

صرخت:

– ها هي، يا ماما!

– عودي إلى البيت، وكوني مهذبة مع مرغريت.

– ردت لوسي بنبرة هادئة:

– ساكون مهذبة من أجل يسوع.

أرسلت إليها بيتي قبلة ثم صعدت إلى السيارة التي تفوح منها رائحة الزيت والجلد. قالت: «طاب نهارك» للسائق، وهو رجل ضخم الجثة ورأسه يبدو منحوتاً من الصخر. فلم يجب. شعرت بالخجل ثم جلست على مقعدها ونظرت إلى الخارج عبر الزجاج. القرية تنسرب أمام عينيها. ثم أخذ الطريق الترابي الضيق يتلوى على هضبة قدّمت لها منظراً من كل جانب يُطل على أراض مزروعة تسطع عليها الشمس. مرا مع صوت فرقعة في برك من الوحل بسرعة مخيفة. وبعد عشرين دقيقة انعطفا بين مصراعَي بوابة من الحجر وسارا في ممر طويل. إلى الغرب يوجد جدار مكون من ملاجئ وحظائر وبيت ريفي صغير مبني من خشب الأوكاليبتوس. وأمامها، رأت بيتي المزرعة: ظهرت بكل ارتفاعها مع جدرانها المصنوعة من الطوب ونوافذها الواسعة العالية وكأنها نوافذ كاتدرائية ومداخنها التي تعلو سقفاً من القرميد. وعلى بعد كيلو متر تمتد غابة من الأوكاليبتوس تتماوج أوراقها الرمادية ـ الخضراء مع نور النهار. ولكن إلى جانبها، كان البيت محاطاً بحديقة إنكليزية وبالورود وأشجار الحور. وقفت السيارة قرب المدخل فأسرعت أليس، المدبرة، لاستقبالهما.

– شكراً!

قالت بيتي للسائق وهي تنزل من السيارة.

- لا تتعبي نفسك بالكلام مع ميكائيل، فهو لا يعرف أكثر من عشر كلمات باللغة الإنكليزية. تعالي، فلدينا الكثير لنفعله. إن بلانشارد لديه ضيوفٌ على الغذاء.

تبعتها بيتي حتى بهو المدخل. وهناك أشارت أليس إلى ثلاثة اتجاهات مختلفة، وقالت:

- إن الذهاب إلى هناك وهناك وهناك... ممنوع.

ثم أومأت برأسها نحو اليسار وأضافت:

- ستدخلين وستبدئين الطبخ مباشرة. ستكونين مسؤولة عن الطبخ وعن الغسيل. وأنا سأهتم ببقية الأمور.

- حسنٌ يا أليس.

- سوف تعملين من الساعة العاشرة وحتى الثامنة عشرة كل يوم ما عدا يوم الأحد. وسيأتي ميكائيل إليك ليُعيدك إلى بيتك. وفي أثناء فترات الجزّ ستعملين ساعات إضافية، ولكن سيكون هذا قبل فصل الربيع. أما الآن فلا يوجد إلا السيد بلانشاد وثلاثة من الموظفين: مايكل وتيري، مدير المزرعة، وأنا. ومع ذلك فإن لدى السيد بلانشارد ضيوف كلَّ ظهر وكلَّ مساء.

كشّرت وأضافت:

- لن تريهم. احتفظي برأسك مطأطئاً وابقي هنا.

«هنا» تعني مطبخاً طويلاً جدرانه مغطاة بورق الجدران المزهّرة وبمساحات من الخشب. وهو مجهّز بخزن مرصّعة ومطلية باللون الأزرق الشاحب وببراد كبير يعمل على البترول، اهتزازته رتيبة. وفي الطرف هناك نافذة تسمح بمرور ضوء الشمس الأبيض. اقتربت بيتي من الزجاج لكي تتأمل الممر المحاط بأشجار الحور والمؤدي إلى البوابة، وخضرة الحقول والهضاب التي تمتد إلى البعيد تنتثر عليها الخراف البيض.

فتحت أليس باباً وأرتها بإصبعها درجاً وقالت:

– غرفة الغسيل في الأسفل. وسأترك المفتاح من أجل الغسالة في موقد الغاز لئلا تأتي وتبحثي عني في كل مرة. وسأنزل لك كل ما يجب أن يُغسل. هناك شراشف ومناشف من أجل الضيوف، في معظم الوقت. هل تجيدين الخياطة؟».

أجابت بيتي بالإيجاب.

– إذا رأيت أن شيئاً ما بحاجة إلى ترقيع ضعيه جانباً وستهتمي به في ساعات فراغك. عموماً، بين الساعة الثالثة والساعة الخامسة يسود الهدوء. وسيكون أجرك عشرين شلناً في الأسبوع، ولكنْ إشعارك المسبق ليس إلا يوماً واحداً. إذا ما تركتني أسقط، سوف تُطردين ولن تقبضي راتبك الأسبوعي.

عشرون شلناً! إنها لثروة حقيقية بالنسبة إلى بيتي التي لا شيء في جيبها منذ أسابيع. سخّنت الشمس التي تعبر النافذة جلدها، وما لبثت هذه الحرارة أن شقت طريقها إلى قلبها.

لطالما كانت لوسي تحب الصلاة. ففي السابق كانت أمها تحب أن تستمع إليها وهي تصلي مساءً. بيد أن مرغريت علّمتها طريقة جديدة في الصلاة، دون أن تفتح فمها. هي صلاة بين الله وبينها، دون أحدٍ آخر. فأخذت تصعد إلى غرفتها وتركع قرب سريرها، فتضع رأسها على يديها المضمومتين وتصلي بقوةٍ كبيرة لكي يشفى والدُها ويعود، بحيث أنها باتت تشعر بألمٍ في أضلاعها.

ولكنه لم يعد بعد.

ذات يوم، بينما كانت أمها في عملها ـ فاجأتها مرغريت لوسي، وأدركت أنها كانت تبكي. كانت هذه المرأة تعتني بها جيداً، وتوكل إليها أشياء صغيرة لتقوم بها، وتعلّمها قراءة كلمات في بعض الكتب، وتداعبها عندما تجدها حزينة. ولما كانت أمها تظلّ غائبة في أغلب الأحيان، نما لديها انطباعٌ بأن منزلتها في رأس أمها باتت قليلة، وبأن مرغريت تفرض نفسها

أكثر فأكثر. ما يزال والدها يشغل منزلة الشرف، ولكن وجهه آخذ في الامّحاء من ذاكرتها، كلوحة تركيبية ينقصها بعض القطع.

قالت لوسي:

– أنا أصلّي، لكن الله لا يعطيني ما أريد.

– وماذا تريدين؟ أية هدية لعيد الميلاد؟

حين فكّرت لوسي بأنها ستمضي عيد الميلاد دون والدها، أخذت تبكي، وقالت:

– أريد بابا.

حملتها مرغريت بين ذراعيها، وجلست معها على السرير، ويدها تحيط بخصرها. كان وجه مرغريت جميلاً، ويشبه الصورة التي كوّنتها لوسي عن مريم العذراء.

– يزعجني أن أقول ذلك لكِ، ولكن يجب أن تعرفيه. أنت ما تزالين بريئة، وقدّيسة في نظر الله. لكنّ أباك وأمك ارتكبا أفعالاً سيئة. وأنت تضيّعين وقتك إذا صلّيتِ لكي يتغيّرا. يجب أن تهتمي بروحك وليس بروحيهما.

سارعت لوسي إلى التساؤل:

– وما الأفعال السيئة التي ارتكباها؟

بدأ عقلها يُظلم. فكّرت بيسوع على الصليب، الذي مات من أجل خطاياهما. ثم فكّرت بجحودهما. تذكرت فجأةً أنها لم ترَ أمها تصلّي مرة واحدة في حياتها!

– ستفهمين عندما تكبرين، ولكن يجب ألاّ تخبري أمك بهذا، فالله يفضّل أن تحتفظي بهذا لنفسك.

هزّت لوسي رأسها، ثم قالت:

– إذن لا أستطيع أن أصلّي لكي يعود بابا...

– يجب أن تصلّي لكي يمنحك الله القوة للكفّ عن محبّته، ولئلا تتألّمي.

اكفّ عن محبة بابا؟ لوسي تعرف أن هذه ليست إرادة الله. فقرّرت ألاّ تغيّر شيئاً في صلواتها. ولكن من الآن فصاعداً ستبذل جهدها لئلا تبكي وهي تصلي.

في الأسابيع التالية، أصبح جدول مواعيد بيتي روتينياً. فهي تخيط من الساعة الخامسة حتى العاشرة صباحاً. وبعد ذلك تقبّل لوسي، تودّعها ثم تركب سيارة ميكائيل. ويوم الأحد، بعد أن تعود لوسي من دروس تعاليم المسيحية، تصحبها أمها إلى محل البقالة العامة، لتتناول قطعة مثلجات، ثم تنزلان مشياً حتى الجدول الذي لم يعد الآن سوى مجرى ماء وديع، وتبحثان عن السلاحف. لم تلتق بيتي بعد بربّ عملها الجديد رافائيل بلانشارد، ولكنها تعلّمت أن تعرفَه من خلال ثيابه. قمصان فاخرة ومآزر حريرية. بدا لها مستغرباً أن تمسك ملابسه الداخلية، ولكنها أسكتت مشاعرها. أطاعت الأوامر، ولم تذهب إلى غرف أخرى من البيت إلا إلى المطبخ وغرفة الغسيل، وشعرت بالرضا لحصولها على عمل مستقر، ومسكن آمن، ومال لشراء طعام وأحذية. لم تكن هذه هي الحياة التي حلمت بها، ومع ذلك فهي حياة جميلة. أخذت الأسابيع تمضي، دون أن تسمع كلاماً عن هنري. ظنّت أنها نجحت في الهروب منه تماماً.

ما إن كسبت ما يكفي من المال لشراء طابع وغلاف، حتى أرسلت رسالة إلى أهلها في غلاسكو. الحق يُقال أنها لم تكن تعلم ما إذا كانا يقبلان أن تعود أم لا. ففي آخر مرة رأتها أمها أنكرتها، ولكنها تأمل أن ما يكفي من الزمن قد مر الآن لكي يسامحاها. بعد أن وضعت الرسالة في البريد، تساءلت بصورة غامضة ما إذا كان عليها أن تعود إلى بلادها. ومع ذلك، لم يعد لديها الانطباع بأنها تشعر بنفسها في بيتها في اسكتلندا أو في إنكلترا. فقد ولدت لوسي هنا، في أستراليا. والشمس وشساعة السماء

يجريان في عروقها. وليس من العدل أن تأخذها للعيش في شقة صغيرة في مدينة تثير الغثيان.

كان الرد الذي تلقّته سريعاً بصورة مستغربة. ولكن اسم المرسِل ليس اسم أبويها، بل اسم مدام بيترز، جارتهما على السفرة نفسها.

اقشعرّ بدن بيتي قليلاً. لاحظت أن يديها كانت ترتعشان حين فتحت الغلاف. كانت لوسي تلعب في الحديقة مقلّدة فراشة، ومرغريت تكنس شرفتها وهي تدندن ترنيمة. كانت سيارة ميكائيل ستصل بين دقيقة وأخرى، بينما هي تركز اهتمامها بكل قواها على مضمون هذه الرسالة، أرادت أن يتوقف الزمن، ويتجمّد كل شيء في الصمت. لم تتوصّل إلا إلى فهم بعض المقاطع:

المستأجرون الجدد لشقة والديك نقلوا إليّ رسالتك... أنا آسفة باضطراري إلى أن أعلن لك أخباراً سيئة... لقد أصيبت أمك بحمّى ورحلت بسرعة... بسرعة، ولم تتألّم، بفضل الله... ووالدك تاه كشبح طوال أيام... وسقط على الدرج... ولم يستطيع أحدٌ أن يفعل شيئاً لإنقاذه... أنا واثقة أنهما كانا يفكران بك غالباً بكل خير..

غامت الورقة بسبب دموعها. ابتلعت شهقة كبيرة، مصمّمة على عدم إخافة لوسي، كبتت دموعها بأسرع ما يمكن، وأسرعت إلى السقيفة لتخبّئ الرسالة تحت وسادتها. سمعت سيارة ميكائيل تصلِ في الخارج، وبوقها القوي. الحياة استمرّت. يجب أن تستمر. تذكرت وبطنها مشدود بالحسرات كلام تشارلي هاريس، وما قاله عن فقدان والديه في الماضي: *لم يعد يوجد غيري في العالم، وأنا الوحيد الذي أهتمّ بنفسي*. سارعت إلى الخروج من البيت وهي ما تزال تكبت دموعها، فلديها المساء كلّه لتبكي، بعد عملها، وهي تحشر جسمها بجسم لوسي.

الفصل الثاني عشر

كانت ستةُ أشهرٍ قد مضت على عمل بيتي عند وايلدفلاور هيل عندما التقت برافائيل بلانشارد. كانت قد لمحته مرة، يوم وصولها، وهي تراقب الطابق الأول. ميزت هيئته عبر النافذة، أما هو فلم يرها. بدا لها أن شعره بني، وعينيه شاحبتان، وأنه شاب، لا أكثر من هذا. لقد اعتادت أليس أن تنزل إلى المطبخ كل يوم بعد الغداء لكي تستفيد من حرارة موقد الغاز ولكي تروي لبيتي تفصيلاً أو تفصيلين عن رب عملهما. إنه الابن الخامس لكونت إنكليزي صغير، وهو مكلّف بتطوير الفوائد التجارية في الإمبراطورية الاستعمارية، ولكن رافائيل لم يكن يهتم بالأعمال، فما بالك بتربية الخراف. فقد وظّف مديراً للمزرعة، وتفرّغ من ناحيته لتطوير حياته الاجتماعية. وميكائيل هو الرجل الذي يستخدم للقيام بكل شيء، كناقل وكسائق ثلاث أو أربع مرات في اليوم لكي يجلب الضيوف ويأخذهم.

كان صباحاً خريفياً جميلاً، تأخّرت فيه الشمس في الظهور. ولكن ها هي تُفجّر نورها وتُذهّب الأشجار والحقول. حين وصلت بيتي إلى عملها، وجدت أليس جالسةً في المطبخ، إلى إحدى الطاولات محتوية رأسها بين يديها.

سألتها بيتي وهي تعلّق معطفها وتعقد مريولها:

- ما بك؟

رفعت أليس عينيها، وكان وجهها أحمر تماماً، وبيدها منديل مجعّد.
قالت بصوت مبحوح:

- أنا مريضة.

وكما لو أنها تريد أن تثبت أقوالها، فقد بدأت نوبةَ سعال بدا لبيتي أنها دامت دقائق بطولها. ملأت بيتي كأس ماء ووضعتها قربَ مرفقها.

تغلَبت أليس على سعالها أخيراً، وشربت جرعة صغيرة، وتمخّطت بصوت قوي.

- بيتي عليك أن تقدّمي الغداء اليوم. فأنا لا أستطيع أن أسعل على الطعام.

- بكل تأكيد. قولي لي ماذا يجب أن أفعل.

رمقتها أليس بنظرة حائرة، وقالت:

- هناك قاعدة واحدة يجب أن تراعيها: يجب ألّا تنظري إلى السيد بلانشارد في عينيه.

- هو لا يحب هذا؟

- ليس من أجله هو يا بيتي، بل من أجلك أنت.

هزّت أليس رأسها وأضافت:

- أبقي رأسَك مطأطئاً، هذا كل ما في الأمر. لا يوجد لديه اليوم إلا ضيف واحد، هو محاميه السيد سامبسون. انتظري حتى يبدأا حديثهما، وتوارَي عن ناظريهما. قدمي وجبتهما ثم غادري الغرفة: هناك طبقان فقط: الحساء واللحم المشوي. وقد بدأت تحضير المشوي.

عملنا معاً في المطبخ، ذاك الصباح. لم تكفّ بيتي عن التفكير في تحذير أليس: أبقي رأسك مطأطئاً. لا بد أنه طاغية، أو رجل عنيف رهيب. كيف تمكّنت أليس من تحمّله إذا كان كذلك؟ كلّما مر الوقت، ازداد توتّر بيتي. فبعد هنري، أملت ألّا تتعامل أبداً مع رجل متسلّط.

أخيراً حان وقتُ تقديم الحساء في غرفة الطعام. دلّتها أليس إلى الطريق. وعندما كفّت يداها عن الارتعاش خرجت من المطبخ وذهبت إلى اكتشاف غرف ممنوعة في وايلدفلاور هيل.

أمام المطبخ تماماً هناك مكان كان بابه مغلقاً يُستخدم كفضاء للترتيب. الدرج يصعد إلى غرف النوم. واللوحات الخشبية الغامقة تمتص ضوء النهار. وخلف الدرج هناك صالون وغرفة طعام فسيحة. وصلت إلى أمام باب غرفة الطعام وسمعت أصوات رجلين. إنها اللحظة المناسبة. أسندت الصينية إلى ردفها، فتحت الباب ودلفت إلى الغرفة بصمت.

شعرت، وهي مطأطئة الرأس، بأن رائحة الكولونيا تطغى على رائحة عفونة كريهة. ولاحظت أن الغرفة مجهّزة أيضاً بنوافذ كبيرة كما في الكاتدرائيات وأن الأبواب الكبيرة تُفضي إلى فسحة سماوية رطبة تنتشر فيها الأشنيات. لم تنظر إلى الرجلين، وهما تابعا كلامهما كما لو أنها غير موجودة. ملأت زبدية كل منهما وتأهبت للخروج. ولكن قبل أن تبلغ الباب، توقف حديثهما فجأة ورنّ صوت آمر:

- أنتِ لست أليس!

التفتت بيتي وضمت الصينية تحت ذراعها. هل يجب عليها أن تبقي رأسها مطأطئاً؟ بدا لها ذلك سوقياً وهي لا تريد أن تؤنبَ من أجل مسألة تافهة. رفعت عينيها مبدية ابتسامة لطيفة وقالت:

- اسمي بيتي، يا سيدي.

لو كان رافائيل بلانشارد امرأة لكان جميلاً جداً. فشعره بنّي كثيف يشكّل حلقات على جبينه، وعيناه مستديرتان، بلون أزرق شاحب، تزيّنهما أجفان طويلة، ووجهه أبيض على الرغم من أن لحية عمرها بضعة أيام تسوّده، ويداه طويلتان وناعمتان. بدا في آن واحد نحيلاً - ذراعاه وساقاه مجردة من اللحم تقريباً - بينما لديه كثير من الشحم على مستوى الخصر. لم تستطع بيتي الامتناع عن التفكير بلعبةٍ صنعتها ذات يوم مع لوسي: جورب محشو على شكل جسم وعصيات بمثابة ذراعين

وساقين. ثم ألقت نظرة خاطفة على جليسه، فرأت رجلاً أكبر منه سنّاً، لحيته بلون الفلفل والملح، يبتسم لها بلطف.

لم يبتسم رافائيل أبداً وهو يقول:

- بيتي! من أنت؟ ولماذا تجلبين لي حسائي؟

- أنا خادمتك، وأليس مريضة.

- هل أنت جديدة؟

- لا يا سيدي، أنا أعمل هنا منذ حوالي ستة أشهر.

- ستة أشهر! أنا لم أركِ من قبل!

دوّرت المفاجأة عينيه أكثر وهو يقول:

- لقد خبأتك أليسْ عمداً، أليسَ كذلك؟

- لا يا سيدي. أنا أعمل في المطبخ وغرفة الغسيل. ولم يكن هناك من سبب وجيه لكي أخرج قبل اليوم.

شيئاً فشيئاً أدركت بيتي أن رافائيل ليس غاضباً منها، فاسترخت قليلاً. ابتسمت ثم قالت:

- سأترككما الآن. الطبق الرئيسي هو اليوم لحم عجل مشوي.

- أنا متشوّق لرؤيتك ثانياً.

وافترس وجهها وجسمها بنظره فشعرت بيتي ببعض الاشمئزاز.

وحين عادت إلى المطبخ روت لأليس ما حدث معها ثم أضافت:

- لقد رآني، ولكنه كان لطيفاً جداً.

- أمر بديهي، تمتمت. لا تدعيه يكن مفرط اللطف معك. يجب أن تفهمي ما أقصده. فهكذا فقدنا خادمتنا الأخيرة.

وضعت بيتي ماءً لتغليه على موقد الغاز. فبين طبقين، إنها لحظة مثالية لتناول فنجان شاي. ثم قالت لأليس:

- أكملي. احكي لي كل شيء.

– كانت فتية وحمقاء. وحين بدأ يعلن لها عن حبه، صدّقته. مع أني كنت قد حذرتها من أنه لن يتزوج من خادمة! إنه لا يريد سوى شيء واحد... وبعد أن نال وطره منها، طردها.

نظرت إليها بيتي مرعوبة. تذكّرت تحذير مرغريت: وايلدفلاور هيل مكان خطيئة. فقالت:

– لم يجرؤ!

– بلى. ولكن لا تهتمي. فمنذ الغد، ستعودين من جديد إلى المطبخ وغرفة الغسيل وسوف ينساك سريعاً. فهناك كثير من الجميلات تحت تصرفه. ميكائيل يأتي بهنّ إلى هنا مساءً. لنأخذ هذا الشاي.

أعدّت بيتي الشاي ثم جلست مع أليس. شاي قاتم وساخن. نظرت بيتي عبر النافذة إلى الحقول التي تفصل بينها وديان صغيرة، وإلى السماء البعيدة. فكّرت بهنري وبفتيات موركومب هاوس وبالعلاقات بين الرجال والنساء، وكيف أن هجر هنري تطلب منها كثيراً من القوة، فشعرت بشيء من الزهو بنفسها. ومع ذلك، فإن شعورها بقابلية الانثلام لم يختف من ذهنها نهائياً، وهي ما تزال مقتنعة بأنها ليست سوى ضحية بانتظار من يحتال عليها. تذكرت النظرة المفترسة التي وجهها إليها رافائيل دون أي حياء. ربما كان لديها شيءٌ ما جعله يعتقد أن بوسعه أن يسمح لنفسه بهذا النوع من الأمور. قررت ألاّ تتهاون، وألّا تبتسم حين تعود إلى خدمتهما. سوف ترفع ذقنها وتبيّن له أنها ليست لعبة بلا عقل يستطيع أن يلعب بها.

وبالتالي، فإنها لم تبق رأسها مطأطئاً عندما دخلت من جديد إلى غرفة الطعام، بل وقفت منتصبة القامة، مرفوعة الكتفين.

كان رافائيل ينتظر عودتها، فقطع كلامه في وسط الجملة وقال:

– ها هي من جديد. هل تصدق يا ليو أن أليس خبأتها عني طوال هذا الوقت؟ جمال رائع، ألا ترى ذلك؟

منذ زمن طويل لم يقل أحد عن بيتي إنها جميلة. هي لم تتغير كثيراً، بل ما تزال تلك الفتاة القصيرة والنحيلة، ذات الشعر البني والقاسي. ولكنها تفكر من الآن فصاعداً بأن تُبدي هيئةً غير مبالية وتعبة لتُبعد الرجال عنها.

كان الرجل الآخر يملك أناقة إبداء الارتباك، فقال:

– كل امرأة يمكن أن تكون جميلة إذا أبدت الطيبة والعطف.

– بيتي، هذا محاميَّ: ليو سامبسون.

وجّهت بيتي إلى المحامي انحناءة برأسها علامة احترام وابتسامة لشكره على رهافة ذوقه.

– لماذا لا تجلسين معنا قليلاً، أيتها الصبية؟ فيمكننا أن نستأنف حديثنا المهني بعد الغذاء. حدّثينا عن نفسك، فقد سمعتك تتكلمين بلكنة اسكتلندية.

رفعت بيتي زبديتَي الحساء وقالت دون أن تواجهه بنظرها:

– شكراً على اقتراحك، لكنَّ أليس طلبت مني أن أعود بسرعةٍ إلى المطبخ.

– أليس! إنها موظفة عندي، مثلك تماماً.

اتخذ صوته نبرة باردة وهو يقول:

– لا تنسي من يدفع.

– أنا لا أنسى ذلك يا سيدي، وأنا ممتنة لك.

اجتهدت في استخدام نبرة مصمّمة، وحاولت أن تتخيّل ما كانت مرغريت ستفعله في ظروف كهذه. فقالت:

– ولكن كما تكرّم الله عليّ بمنحي هذا العمل، يجب عليّ أن أُبدي امتناني بإنجاز عملي.

الآن، لا بدّ أنه سيجدها ورعةً جداً فلا يحاول إغواءها.

صمت رافائيل، حتى وإن شعرت بيتي أنه غاضب. خرجت مسرعةً من الغرفة، وقلبها يخفق، ولكنها مسرورة من استعادة عملها في المطبخ، ولأنها لن تراه بعد ذلك أبداً.

في اليوم التالي، وكان يوم سبت، لم تأت سيارة ميكائيل عند الساعة العاشرة، كما هو مقرّر. انتظرت بيتي نصف ساعة، ولوسي تتقافز حولها وهي تسألها ما إذا كانت ستذهب إلى العمل هذا اليوم أم لا.

كان الطقس أبرد من إمكانية الانتظار في الخارج، فقالت لنفسها إنها ستسمع السيارة عندما تأتي، فسحبت لوسي إلى البيت. رفعت مرغريت رأسها وسألتها:

– ألم تأتِ السيارة؟

– لا.

ارتعش قلب بيتي، فلا بدّ أنها فقدت عملها. لا بدّ أن رافائيل بلانشارد قد امتعض لأنها رفضت أن تجالسه. فبدلاً من أن تبدو قويةً ومنيعة، كان يجب عليها أن تكون متساهلة ووقحة. ارتمت على إحدى الكنبات. قالت لها مرغريت مواسية:

لا تحزني، الخير، كل الخير في عدم عودتك إلى هناك.

فكّرت بيتي أن تذهب إلى البريد لتُجري اتصالاً هاتفياً بأليس، ولكنها لا تريد أن تنفق المال: فلديها بعض المدخرات، وليست لديها أية رغبة في المساس بها الآن. ومع ذلك، فإنها لم تفقد الأمل في قدوم السيارة. فقد يكون ميكائيل قد تأخر لسبب ما، أو أن السيارة قد أصابها عطلٌ ما. ولكن دقّت الساعة الثانية عشر ظهراً، ثم بدأت ظهيرةٌ باردة، ثم صبغ غروب الشمس السماء بلون أحمر، عندها أيقنت بيتي بأنها فقدت وظيفتها تماماً. ظلّت جالسة، متوتّرة، على مقعدها، بينما أخذت لوسي تحاول أن تُخرجها من أفكارها المظلمة، ولكنها لم تنجح حتى في رسم ابتسامة لابنتها.

كانت مرغريت تتمتم بأنها ستوقد النار في موعدٍ أبكر من المعتاد حين سمُع صوت بوق سيارة في الخارج، أمام البيت. لقد أتت السيارة، وميكائيل ينتظرها. ولكن الساعة بلغت الخامسة مساء: الساعة التي تُنهي فيها عملها بصورة عامة. بفضول نزلت حتى السيارة وفتحت الباب الأمامي، وسألت ميكائيل:

– ماذا حدث؟

– ستأتين.

– ولم هذا التأخير كلّه؟

هز رأسه، إما لأنه لا يعرف الجواب، أو أنه لم يفهم ما قالته له. نظرت إلى الخلف فرأت مرغريت ولوسي على الفيراندا، فقالت لهما:

– يقول إن عليّ أن أذهب إلى العمل الآن.

قالت لوسي محتجّة:

– ولكنها ساعة العشاء تقريباً يا ماما.

أما مرغريت فقد زمّت فمها وقالت:

– كوني حذرة!

ركضت بيتي حتى الفيراندا لتقبّل لوسي، ثم التفتت إلى مرغريت وقالت لها:

– شكراً على اعتنائك بها.

– ومن سيعتني بك أنت؟

– ربما كان هناك عشاء مقرّر من قبل، وقد احتاجوا إلى مساعدة إضافية.

– أنا أعرف ما يحدث هناك مساءً.

وجدت بيتي عناء في بلع ريقها وهي تسأل:

– ماذا؟

– أعتقد أنك لن تتأخّري في اكتشاف ذلك.

– سوف أبقى في المطبخ.

ولا تغادريه.
شحب وجه لوسي، وفاضت عيناها قلقاً وهي تسأل:
– ماما، ماذا يحدث؟
– لا شيء يا عزيزتي، إنه العمل فقط.
حملت مرغريت لوسي بين ذراعيها، وقالت لها:
– تعالي يا صغيرتي وساعديني على تحضير المربّى.
استدارت بيتي ثم صعدت إلى السيارة، وقالت:
– شكراً يا ميكائيل.
أطلق شخيراً ثم انطلق.
في أثناء الطريق، هاجمت بيتي صورٌ مجنونة ومشاهد انحطاط. ثم أخذت تضحك. فالفكرة التي كوّنتها بيتي عن الخاطئين ليس لها علاقة بصورتها. قرّرت ألاّ تكوّن رأياً قبل أن تتكلّم مع أليس. أما الآن فهي سعيدة لاستعادة عملها. هذا كل ما في الأمر.
أتت أليس إلى استقبالها لدى نزولها من السيارة، بل اعتذرت حتى قبل أن يُفتح الباب:
– عذراً، عذراً! فقد غيّر السيد بلانشارد ساعات دوامك. فقد وظّف خادمة أخرى للقيام بالأعمال الصباحية وأعمال الغسيل، وقد انتهى عمل التنظيف بالفرشاة بالنسبة إليك.
وقدّمت لبيتي ابتسامة صغيرة وهي ترافقها إلى داخل البيت، ثم أضافت:
– ولكني أخشى كثيراً ألاّ تتمكّني من البقاء في المطبخ.
انقبض قلب بيتي، ففي اللحظة نفسها سمعت موسيقى وأصواتاً مخنوقة خلف باب الصالون.
– إنه يريد أن تعملي من الخامسة مساء حتى منتصف الليل، أربعة أيام في الأسبوع، وبالراتب نفسه.
– حقاً؟ ساعات عمل أقل، بالراتب نفسه؟

أومأت إليس بالإيجاب، فاغتبطت بيتي. لا ريب في أن العمل المسائي متعب، ولكن هذا سيمنحها مزيداً من أوقات الفراغ مع لوسي.

- وماذا يجب عليّ أن أفعل؟

- سوف نقدّم العشاء معاً. من الخميس إلى السبت، يُمضي ضيوفُه الليلَ هنا، في معظم الأحيان. وبعد ذلك تبقين وتهتمّين بشرابهم. هناك بار في الصالون. وهم... وهم يلعبون فيه بالورق.

ثم وجّهت إليها أليس نظرة معبّرة كثيراً.

- هل يلعبون مقابل المال؟

إنها خطايا عادية، في هذه الحالة.

هزّت أليس رأسها، ثم سألتها:

- هل ستسير الأمور على ما يُرام؟

فقد كانت أليس على علم بمشكلات هنري، وكره بيتي للكحول والقمار.

كادت بيتي أن تنفجر ضاحكة. فهي ستقدّم كؤوساً للعبة بوكر حرام. فقبل خمس سنوات كانت تقوم بالعمل نفسه. أجابت أخيراً:

- سأفعل ما بوسعي.

***

انتظرت مرغريت شهراً حتى عبّرت لبيتي عن عدم رضاها عن عملها الجديد. في ذلك اليوم، كانت الثلاث ذاهبات مشياً إلى المتاجر. وكانت لوسي تسبقهما. ركضت حتى سور غاريت لأنها كانت تحبّ كثيراً تسلّقه والمشي عليه فاتحة ذراعيها لكي تحافظ على توازنها. كان الصباح جميلاً ولكنه بارد جداً، والبخار يخرج من فم بيتي عندما تزفر.

- كيف هي الأمور هناك في وايلدفلاور هيل؟

- جيدة. شكراً.

ألقت بيتي نظرة على لوسي، على معطفها وحذائها الجديـدين. لقـد اكتشفت أن ضيوف رافائيـل بلانشـارد يعطونهـا بعـض الشـلنات إذا مـا قدّمت لهم الابتسامة التي تناسب توقّعاتهم. كذلك استنتجت أن نظـرات رافائيل الشبقة لا تهمّها كثيراً مادامت تستطيع أن تشتري ثيابـاً جميلـة لابنتها. وهو لم يوجّه إليها بعد ذلـك كلامـاً مباشـراً، إلا عنـدما يأمرهـا ببعض الطلبات. على أية حال، لم يقم بأية محاولة لتأتي وتجلـس معـه ويتبادلان الكلام السرّي، وهذا ما أراحها.

تنحنحت مرغريت. لكن بيتي قالت:

– الأمر ليس رهيباً كما تتصوّرين. فهـم يشـربون قلـيلاً ويلعبـون عـدة أدوار بالورق.

– والنساء؟

– لا يوجد نساء. كما لو أنه نادٍ مخصّص للرجال.

لم يكن كلامها صحيحاً. فقد أوصل ميكائيل فتاتين في الليلة السابقة، ولكن بيتي آثرت ألاّ تعيرهما أي انتباه.

تنحنحت مرغريت من جديد وقالت:

– وما هي طبيعة عملك هناك؟

كانت لوسي تغني لحناً وتقوم بجيئات وذهابات فوق الجدار. وأخذت شمس الصباح تدفئ السياجات وتُذيب الجليد على أوراقها. وكانت مدام غاريـت تعمـل في الحديقـة مرتديـة بنطـالاً مـن التويـد كانـت بـيتي قـد أصلحت حاشيته في الأسبوع الماضي، وصرخت بهمـا عنـدما مرّتـا بهـا: «صباح الخير!».

خفضت بيتي صوتها وهي تقول:

– أنا أقدّم لهم الطعام والشراب، وأنظّف.

– بالثياب التي رأيتك ترتدينها في الآونة الأخيرة؟

كانت أليس قد قالت لبيتي أن ترتدي ثياباً أكثر أناقـة عنـدما تعمـل مساءً. فاضطرّت بيتي إلى إنفاق جـزء مـن مـدخراتها، واشـترت قطعـتي

قماش وخاطتهما فستانين جميلين مزهّرين، أكمامهما خفيفة ومزمومة. قالت:

– لك أن تري ماذا يرتدي الرجال. إنهم يضعون ياقات مكسّرة ويرتدون صدارات، فهم أكثر أناقة مني.

تعبت لوسي من المشي كبهلوان على حبل مشدود، فقفزت عن الجدار وجرت للحاق بهما، وقد انعطفتا الآن إلى الشارع الرئيس.

قالت مرغريت:

سمعت أن وظيفة ستشغر في المخبز. ليزي فلاور حامل، وهي مريضة طوال الوقت، وهم بحاجة إلى من يساعدهم إذا ذهبت. فلماذا لا تمرّين اليوم بالمخبز لتستعلمي حول هذا الموضوع؟ فهذا أفضل لك من أن تعودي إلى البيت وروائح السجائر والجن تفوح منك.

– لا أريد أن أعمل في الفرن، فعملي ممتاز.

نحنحة جديدة، ولكن دون أن تقول مرغريت شيئاً. ومع ذلك، فقد باتت بيتي تعرف أنها أصبحت خاطئة في نظر مرغريت. ترى كم من الوقت بقي قبل أن تطردهما من بيتها؟ فقد كانت أليس قد ذكرت أن بيتي تستطيع أن تسكن في المزرعة إبان عملية الجز في شهر أيلول لكي تتمكن من إنجاز العمل الإضافي المطلوب. وهي تأمل لو تطردهما مرغريت قبل ذلك. وخزت دموعُ غضبٍ عينيها، لكنها طردتها بغمزة من أجفانها. إنها ترفض أن تصدّق أنها لم تقم بالخيار الجيد: فهي تعتني بابنتها قدر إمكانها.

استيقظت لوسي. وكان شيء ما قد نغّص عليها نومها. فقد رأت حلماً، هو أحد تلك الأحلام التي تفرُّ منك عندما تحاول أن تتذكرها. تقلبت في سريرها لترى ما إذا كانت أمها قد عادت من العمل، لكنها وجدت نفسها وحيدة. تمطّت وأغمضت عينيها وصلّت في فكرها دون أن تفتح فمها، كما علّمتها مرغريت:

– من فضلك، أبعِدْ ماما عن الخاطئين. من فضلك، أبعد ماما عن الخاطئين...

عاودها هذا الانزعاج. هو ليس انزعاجاً بالمعنى الحقيقي، بل منغّص في رأسها. فهمت أنها سمعت أصواتاً بدت لها هامة لسبب مجهول. نزلت من سريرها واتجهت نحو باب السقيفة، فتحته وأصاخت بسمعها.

سمعت صوت مرغريت وهي تتمتم. لم تستطع لوسي أن تميز إلا كلمة هنا وكلمة هناك. كلمات من قبيل «زمن طويل» و«مستحيل الفهم»، ثم صوت رجل، ومن هنا أتى منغّصها. لماذا يوجد رجل في البيت؟ هو أيضاً كان يتكلم بصوت خافت، ولكنها سمعته يلفظ اسم أمها. فتحت الباب أكثر قليلاً لكي تستطيع أن تُخرج رأسها وتتنصّت. طقطقت مفصّلة الباب فتوقف الحديث مباشرة. سمعت وقع خطوات.

ركضت لوسي في غرفتها وقفزت إلى سريرها ثم أغمضت عينيها:

– لوسي؟

إنه صوت مرغريت. لم تفتح عينيها.

اقتربت مرغريت وجلست على السرير وقالت:

– أنا أعرف إنك صاحية، فقد تركت الباب مفتوحاً.

فتحت لوسي عينيها وقالت:

– عفواً.

– لا بأس عليك. يحسن بك أن تنزلي إلى الصالون، فهناك شخص أتى لكي يراك.

– ليراني؟ هل تعلم أمي بذلك؟ وهل أمي هنا؟

– لا، أمك في عملها، ومن الأفضل ألاّ تعرف شيئاً. هل تؤمنين أنك تستطيعين أن تحفظي سراً؟ ليس لزمن طويل؟ علينا أن ننظم بعض الأمور ونريد أن يكون هذا مفاجأة سارة حقيقية لأمك، هل أنت موافقة؟

شعرت لوسي بالفضول فقبلت. أمسكت بيد مرغريت، ونزلت من سريرها ثم نزلتا الدرج ووصلتا إلى المدخل. دفعتها مرغريت بلطف إلى الصالون حيث كان يجلس رجل جميل.

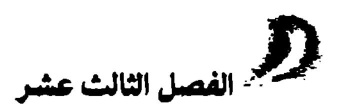
تحوّل المنغّص الذي شعرت به إلى أزيز، فأصبح وجهُ هذا الرجل غائماً ثم تحوّلت ملامحه في آن واحد إلى شكل غريبٍ وأليفٍ بصورة مؤلمة.

صرخ الرجل:

– لوسي!

جرت لوسي نحوه وهي تصرخ:

– بابا!



الفصل الثالث عشر

في الأمسيات التي عملت خلالها بيتي، كان من النادر ألاّ يستقبل رافائيل ضيوفاً، ولكن كان هذا يحصل بين فينة وأخرى. في هذه الحالة، كانت أليس هي مَن تقدّم له عشاءه، بينما تبقى بيتي في المطبخ من أجل التنظيف، أو ترقيع الملابس أو مراجعة طلبيات الطعام من أجل الأسبوع التالي.

ذات خميس، بعد شهرين من تغيُّر مواعيد عملها، اكتشفت عند وصولها أن أليس قد أخذت تلك الأمسية إجازة لكي تزور أختها على بعد عشرة كيلومترات من هناك، شمالاً. تركت لها كلمة تقول إن السيد بلانشارد سيأكل بمفرده، وما يجب عليها أن تطبخ، وفي أية ساعة يجب أن تقدم العشاء. انهمكت بيتي في إعداد الطعام، واشتدّ ضيقها. فهذه هي المرة الأولى التي تجد فيها نفسها وحيدة مع رب عملها، وحتى وإن ترك مسافة حتى ذلك الحين، فقد رأت في عينيه أنه يشتهيها. فكرت أن تذهب إلى كوخ الجزّازين لتطلب من ميكائيل أن يبقى بجانبها ويحميها، ولكن رأت أنه من المحتمل ألا يفهم ما تريد، وأن السيد بلانشارد سوف ينزعج من هذا التصرف بكل تأكيد.

أخرجت صينية ثم جمعت عليها الأصناف المختلفة التي تشكّل عشاءه. إسكالوب فروج محشي بالشحم وبالكريمة، وقطع جزر صغيرة بالعسل وإبريق شاي. أسرعت قدر إمكانها وقررت أن تدخل وتخرج بأقصى سرعة.

عندما يتعشى بمفرده، يجلس في الصالون، إلى الطاولة الخشبية المستديرة التي تُستخدم للّعب عادة. طرقت الباب قبل أن تدخل. فوجدته واقفاً أمام النافذة الطويلة المغلقة، ونظره تائه في ظلمة الخارج. بدا لها الصالون واسعاً في غياب كل أولئك الرجال الصاخبين، ولكنّ الستائر ما تزال تُصدر رائحة الدخان.

وضعت الصينية على الطاولة بصمت متمنية أن تخرج دون أن يلاحظ وجودها. ولكنه شعر بوجودها حتى دون أن يلتفت، فقال:

- البيت قفر هذا المساء يا بيتي.

- نعم يا سيدي، إنه يشي بالهدوء.

التفت وابتسم ثم قال:

- ناديني رافائيل.

بيتي تعلم أنه حتى أليس تناديه السيد بلانشارد، فقالت:

- لن أشعر بالراحة يا سيدي.

- وإذا طلبت منك أن تجلسي إلى طاولتي وأنا أتناول عشائي؟

- لا يا سيدي.

رفع كتفيه وقال:

- أنا أدفع لك أجرك. ولن تموتي إذا شعرت ببعض الانزعاج. اجلسي.

ترددت بيتي، وسرعان ما فهمت أن ليس لديها خيار، فجلست مقابله. جلس على مقعده وأخذ يأكل دون أدنى تحفظ، ورأسه منحن إلى أقرب ما يمكن من طبقه. كنست الغرفة بنظرها، وتخيلت أن تضبط وضع اللوحة المعلقة فوق المدفأة، وركبتاها ترتعشان تحت الطاولة.

سألها وفمه مليء بالطعام:
– إذن، من أي مكان أتيت من اسكتلندا؟
– أنا إنكليزية يا سيدي. أمي إسكتلندية، وقد عشت فترة في غلاسكو.
– لقد قالت لي أليس إن لديك بنتاً صغيرة. أليس لديك زوج؟
– لا يا سيدي.
– فمن هو والدها؟
احتارت بيتي فيما تجيب فصمتت وجمعت قواها لكي تواجه ردة فعله.
رفع رأسه ولحس شفتيه وقال:
– هيا، احكي لي. هل هو رجل سيّئٌ وخسيس، على ما أعتقد؟ هل أغواك لكي يتركك بعد ذلك؟
نهضت بيتي فهي لا تستطيع أن تسمح له بأن يخاطبها هكذا وقالت:
– إذا سمحت أن تعذرني...
– لا، لن أعذرك. عودي إلى مقعدك. لن أطرح عليك بعد الآن أسئلة حول ماضيك المؤلم.
أصرُّ وهو يوجه إليها شوكته قائلاً:
– هيا، اجلسي.
وجلست.
تابع تناول طعامه ثم قال:
– حسنٌ لنجد موضوعَ حديثٍ لا يغضبك. هل تسكنين عند مرغريت داي؟
– بالضبط.
– هل هي صعبة ومُملة كما تبدو؟
خنقت بيتي ضحكة وابتسم رافائيل بحماسة وقال:

- آه، هي كذلك، حتى وإن لم تعترفي بـذلك. ألا تقسـمين إلا بـالله، أنت أيضاً؟
- مرغريت مثال يحتذى يا سيدي.
وكل شيء كان جاهزاً لإبعاده فقالت:
- أنا مسيحية مؤمنة.
- ما عدا أن لديك هذه الطفلة من خارج الزواج؟
- أنا أفعل ما بوسعي.
- بكل تأكيد، هذا غير كافٍ في نظر مرغريت. سأقول لك...
دفع طبقه نصف المليء ومسح فمه بفوطته ثم قال:
- لقد راقبتُكِ في الأشهر الأخيرة. وكنت أحبُّ كـثيراً أن تصـعدي إلى غرفتي وأن نستمتع في سريري. لكني أشعر أنك كنت سترفضين.
تجمّدت بيتي، ومع ذلك فقد أضاف رافائيل:
- لذا فإني لن أطلب منك ذلـك مباشـرة. وقـد نصـحني محـاميَّ ليـو سامبسون بوضوح بألا أقدم لـك مـالاً، وبألّـا أهـددكِ بـالطرد. وأنـا أتبـع نصائحه، بصورة عامة. لذا أشعر أني مُحرَج بعـض الشـيء، كمـا تـرين. كيف العمل لإغوائك؟ فأنا أريد أن تكوني لي.
ردّت بنبرةٍ ثابتة:
- لن تحصل على مرادك، ويجب أن تنسى هذا.
هزَّ رأسه ثم قال:
- مستحيل، فقد حاولت. ولكنكِ لستِ كالأخريات، فهن يستسـلمن عادةً بمجرد أن أرفع إصبعي الصغير.
نهضت بيتي كيفما اتفق واتجهت نحو الباب، لكنه أمسك بهـا مـن خصرها وقال:
- لا تهربي أيتها الحلوة.
ونتأ بؤبؤاه كرأسَي دبوس في عينيه الزرقاوين الشاحبتين.
قالت له:

– أنا لا أهرب، بل أنا ذاهبة. بعشرين شلناً في الأسبوع، أنت لا تدفع لي ما يكفي لكي تمتلك الحق في إهانتي. والآن، دعني أذهب وإلا فسأقول للسيد سامبسون ما قلتَه لي توّاً.

أخذ قلبها يخفق بشدة في صدرها: حقّاً إنها لا تستطيع أن تتمسّك بالمبادئ، فهي بحاجة إلى هذا العمل.

قطّب رافائيل حاجبيه: فاتّخذ هيئة صبيٍ صغير غاضب. لكنه تركها تذهب. أسرعت في العودة إلى المطبخ ولم تتوقف قبل أن تصل إلى حرارة الموقد. احتوت رأسها بين يديها لكنها لم تبكِ. يجب عليها ألّا تكون وحيدة معه بعد الآن، هذا كل ما في الأمر. وسوف ترجو أليس بأن تتصرف بحيث لا يتكرر هذا الموقف.

بعد لحظة تمالكت نفسها. قامت بأشياء صغيرة وهي تصيخ بسمعها لتعرف ما إذا كان سيأتي. لم يأت. عند الساعة الثانية والعشرين عادت إلى الصالون، فتحت الباب بوجل فلم تجده. رفعت المائدة وأسرعت إلى المطبخ. لم يبقَ لها إلا أن تنتظر مُنتصف الليل، حين سيأتي ميكائيل ليقلّها إلى بيتها. أراحت بيتي رأسها على الطاولة. كانت تعِبةً جداً بحيث أنها لم تستطع أن تقوم بأي عمل، وقِلقةً جداً بحيث أنها لم تستطع أن تنام.

بدأت مرغريت باتخاذ موقف غريب حيال بيتي: فهي لم تعد تواجهها بنظرها، ولا تفتح معها حديثاً، ولا ترافقها إلى التسوق. وبالمقابل فقد بقيت لوسي قريبة من مرغريت، حتى صارت بيتي تشعر بالغيرة أحياناً لأنهما متفاهمتان جيداً. لكنْ برودة مرغريت لم تكن مستغربة. فقد قالت لها بوضوح إنها لا تقبل عملها في حين أن بيتي لم تتأثر بذلك طويلاً.

وعلىٍ الرغم من كل شيء، ذات صباح، بدت لها مرغريت أكثر اضطراباً من المعتاد.

كان ذلك يوم أحد، بعد الكنيسة. رفضت مرغريت الجلوس لكي تخيط أو لكي تقرأ قصة للوسي، بل أخذت تذرع المسافة بين الصالون والفيراندا وهي مربدّة.

سألتها بيتي:

- هل تنتظرين أحداً؟

- ربما.

أجابت مرغريت وهي تلقي نظرة على لوسي. رفعت البنت نظرها إليها وابتسمت لها. تأكدت بيتي من أنهما تُخفيان شيئاً ما عنها. تقلّصت عضلاتها، فهي تعبة من عملها المتأخر في الليلة السابقة. أخذت تتسلى. كانت هي ولوسي مستغرقتين في تركيب لوحة على مائدة الطعام، وكانت بيتي تبحث عن قطع زرقاء، حين جعلها صوت سيارة أمام البيت تنهض، ثم تقول:

- إنه ميكائيل. لقد أتى باكراً بصورة مضحكة.

فقالت مرغريت وهي تدعوها إلى الجلوس من جديد:

- لا، لا. أنا واثقة من أنه ليس سائقك. دعيني أهتمّ به.

اختفت مرغريت من جديد في الخارج، فنظرت بيتي إلى لوسي التي كانت تلتهمها بعينها، وسألتها:

- ماذا يحدث؟

- أنا أحبك، يا ماما.

- وأنا أيضاً أحبك.

داعبت شعرها ثم سألتها:

- ولكن لِمَ أنت خائفة؟

- ولكني أحبه أيضاً.

في خلال لحظة، ظنّت بيتي بسذاجةٍ أن المقصود هو الله أو يسوع، ثم سمعت صوته يرن في الخارج فتجمّد دمها.

هنري!

قفزت عن كرسيها واندفعت باتجاه الباب، فعليها أن توقفه قبل أن تراه لوسي. كانت مرغريت تسير إلى جانبه في الممر، وهي تبتسم له. وهي تبتسم! كيف تجرؤ؟ بل كيف جرؤت على تدبير هذا اللقاء دون أن تكلّمها عنه؟ ما كان يجدر بها أبداً أن تثق بها، ما دامت ابنة عمها جارة هنري. وحتى كان يجب عليها أن تغادر بيت مرغريت منذ أشهر. أخذت هذه الأفكار كلها تزدحم في رأسها وهي تسرع في الوصول إلى الممر لتمنعهما من المرور. صرخت به:

- لا! لن تقترب من ابنتي.

وجّه إليها هنري ابتسامة لطيفة، وقال:

- أنها ابنتنا يا بيتي.

التفتت إلى مرغريت، ثم قالت:

- ما كان يجب أن تُدخليه، فأنت تعرفين أيَّ رجل هو.

قالت مرغريت وهي تهز رأسها بهيئةٍ مربيةٍ أخلاقية:

- أعرف أي رجل كان. ولكن دوريس قالت لي أي رجل أصبح في الأشهر الأخيرة، وليس لديك ما تخشينه.

كانت بيتي غاضبة بحيث أنها لم تفهم ما قالته لها مرغريت. فبقيت جامدة وذراعاها متباعدتان، محاولة منع هنري من الدخول إلى البيت.

تكلّم هنري بصوت لطيف إلى أقصى الحدود:

- بيتي، إذا كنتِ قلقة إلى هذا الحد، فلن أرى لوسي اليوم. على أية حال، لقد أتيت لكي أكلّمك أنت. هلّا مشينا قليلاً؟ وسنبقى بعيدين عن البيت. وهلّا أصغيتِ إلى ما أودّ أن أقوله لك؟

كانت لوسي تعرف. فقد اعترفت لها للتو. فسألتها بيتي وهي تسبل ذراعيها استسلاماً:

- لقد رأيته من جديد، أليس كذلك؟

- لقد زرتُها ثلاث مرات.

وجّهت بيتي نظرة باردة إلى مرغريت التي تجاهلتها رافعةً كتفيهـا، ثم قالت:

– سأدخل لأهتم بالطفلة، وأترككما تتكلّمان.

أمسك هنري بذراع بيتي بلطف ومشيا المر وتجـاوزا بـاب الحديقـة. كانت سيارة فورد لامعة جديدة مركونة أمام البـاب. سـرعان مـا فهمـت بيتي أنها لا بدّ أن تكون ملكاً له، فسألته:

– كيف تمكّنت من دفع ثمن سيارة؟

– لقد تغيّرت الأمور بالنسبة إلي. فأنا الآن أعمل عنـد الحكومـة، في النقل، وأقبض راتباً جيداً كل أسبوع، وأنفق بطريقة معقولة.

كان الصـباح بـارداً. والريـاح الغربيـة البـاردة أخـذت تنثـر غيومـاً في السماء. وكانت بيتي قد نسيت سترتها، فاقشعّر جسمها تحت قميصها. لا بدّ أنها أخذت ترتجف من البرد لأن هنري ما لبـث أن خلـع سـترته وألقاها على كتفيها.

صدمتها المفاجأة، وانتابها الخوف.

سألها:

– إلى أين نتّجه؟

أشارت إلى اتجاه الطريق الرئيس، وهي تسأله:

– إذن، لم تعد تعمل عند بيلي؟

– ولم أعد مديناً له بالمال، ولم أعـد مسـتأجراً لبيتـه، ولكـني بقيـت ودوريس صديقين حميمين. كانت المرحلـة الأولى أن أتخلّـص مـن تـأثيره عليّ، وأن أعمل على ألّا تكون تلك الحياة إلا قصة قديمة.

بينما كانا سائرين، ألقت عليه بيتي بضع نظرات خفيّة لتقيّمـه. بـدا أنه يقول الحقيقة: فقد غدت بشرته ونظرته صافيتين، وتغذيتـه جيـدة، وعاد ضخماً. وبدت ملابسـه معتنـى بهـا جيـداً. تنزّهـا صـامتَين لـبعض الوقت، ثم سألها:

– إلى أين نذهب؟

- إلى الجدول. فهناك صخرة كبيرة ملساء نحب، أنا ولوسي، أن نجلس عليها ونحكي قصصاً.

تبعها بوداعة. دوّرت الموقف في رأسها، على وجوهه كلّها: تُرى ماذا يريد؟ فهو يبدو نظيفاً جداً وقنوعاً وغنياً. هل يريد أن تعود هي ولوسي إليه؟ وهل هذه الفكرة سيئة إلى هذا الحد؟

وصلا أخيراً إلى الجدول، وإلى الطريق الذي كادت بيتي أن تفقد لوسي عنده. قادته إلى الصخرة الملساء وجلسا عليها وهما ما يزالان صامتين، والجدول يجري والماء يخرّ والغيوم تسودّ. وأخيراً اعترفت له:

- يومَ غادرتُ، هبّت عاصفة. مشيت كيلومترات مع لوسي تحت المطر وسقطنا على هذا الطريق ولكنه كان مغموراً. حاولنا أن نجتازه ولكن التيار حمل لوسي، ولو لم يمر رجل شهم من هنا لغرقت.

تغيّر لون هنري ثم قال:

- وأنا سأكون المسؤول!

وافقته بيتي قائلة:

- ربما.

- لقد كنتُ نذلاً معك. ومع لوسي بصورة خاصة. فمن ناحية، كنتُ أعلن لها حبي كلّه، ومن ناحية أخرى كنتُ أحرمها من الأمان. كنتُ أسحب الخبز من فمها لكي أقامر وأسكر. وحين هجرتني فهمت. ولكني تغيّرت الآن، وبفضل الله وعونه أصبحت قنوعاً، ولم يعد لدي ديون منذ ستة أشهر. ولا أنوي أن يتغيّر هذا.

- والآن، هل تريد أن نعود؟

رفّ هنري عينيه للحظة، ثم حوّل بصره وقال:

- لا يا بيتي، لا أريد أن تعودا أنتما الاثنتان.

قالت بيتي وهي تبلع ريقها انزعاجها:

- أوه!

- أوه... أقصد لقد عادت زوجتي مولي.

ابتسم ثم أضاف:

– لقد أعادتني مولي إلى الطريق القويم، وتريد أن تتأكّد من أنـي لـن أحيد عنه بعد الآن، فأنا مدين لها بحياتي.

على الرغم من أن حبّها له قد انطفأ منذ زمن طويل، فقد ثقبت الغيرة قلبها. إنها لم تعد تحبّه، ولا تريـده، ولكنهـا أمِلـت أن يشـتاق إليهـا، ويتحسّر على ما كان بينهما. قسا قلب بيتي وهي تقول:

– حسَنٌ، أنت لا تستطيع أن تأخذ لوسي. إنها ابنتي، وقد اعتنيت بها طوال حياتها، حتى عندما لم تكن قادراً على ذلك. ولا يمكنك أن تظهر من جديد في حياتها وتتوقّع أن أتخلّى لك عنها.

– أنا لا أتوقّع أبداً أن تتخلّي لي عنها. بل أتيت لكي أسألك ما إذا كنتِ موافقة على أن نأتي لنأخذها بين فينة وأخرى، ربما أسبوعاً في الشهر.

رأى أنها تتأهّب للرفض فاستبق كلامها قائلاً:

– نأتي لنأخذها، ونعتني بها... وسأمنحها كل الحب، ليس لديك فكرة يا بيتي.

الحب الذي كان بين هنري ولوسي، والذي كان قد عذّبها في السنوات الأولى من حياة ابنتها يبدو أنه ما يزال موجوداً فقرّرت بيتي أن تقبل، فإذا رفضت ستُجَن لوسي، وسوف تغضب ولن تكلّمها طوال أشهر لعن الله هنري ومرغريت اللذين دبّرا هذه الخطة. وبما أن لوسي قد رأت هنري، فإن بيتي لا يمكنها أن ترفض. وهما يعرفان ذلك.

قالت بيتي وهي على شفا البكاء:

– لقد أسأتَ التصرّف. ما كان يجدر بك أن ترى لوسي دون موافقتي.

– أنا آسف، ولكنّ الفكرة أتت من مرغريت. فقد وضعت في ذهنها أنك تعاشرين أناساً سيئين وأن...

– أنا أعمل لأنه ليس لدي خيار آخر. وأنا لا أفعل شيئاً أخجل منه. أعمل لكي يكون بطن ابنتي ممتلئاً ولكي تنتعل حذاءً جديداً. ربما كانت

أعمالهم سيئة ولكن عملي أنا شريف، ولو أني رفضته لكنت أسوأ الأمهات: لديّ أخلاق، ولكن ليس لديّ مال. والأخلاق لا تملأ بطن طفلة.

استبدل هنري الجواب الذي كان قد حضّره بهزة من رأسه ثم قال:

– لقد فهمت.

– هل ستوكّل محامين؟ إذا رفضت، فهل ستستخدم مال زوجتك لتنتزع مني لوسي؟

– آمل ألاّ أصل إلى هذا الحد يا بيتي. فأنت امرأة عاقلة وطلبي معقول. وأنت تتكلمين عن مصلحة لوسي، فمن البدهي أن تكون بحاجة لأب.

كادت بيتي أن تجيب بأن لوسي ليست بحاجة إلى أم ثانية، ولكنها أدركت أن غيرتها تسيطر عليها. إنها غيورة جداً. وفكرة أن مولي تهتم بلوسي لمدة أسبوع في الشهر أعطتها إحساساً بطعنة خنجر في قلبها. شهقت شهقة طويلة حاولت أن تتراجع، فقالت معترفة:

– إني ما أزال تحت تأثير الصدمة.

– أستطيع أن أترك لك وقتاً للتفكير، يوماً أو يومين؟ أسبوعاً؟

– أنا بحاجة لمقابلة مولي.

– سوف تصحبني في المرة الأولى حين نأتي لنأخذ لوسي. وسوف تعجبك.

أجابت بيتي بتكشيرة:

– إنها ستكرهني.

هزّ هنري رأسه وقال:

– تسامحها كبير وبلا ادّعاء. حقاً إنها امرأة مميزة، وهي متلهّفة للقاء ابنتي.

احتوت بيتي رأسها بيديها. الجدول يثرثر، والرياح تهز أغصان الأوكاليبتوس المحاذية له. أطلق غرابٌ نعقةً صماء ووحيدة. قلبها يرغب

في أن تصرخ: «لا»، لكنْ عقلها يروي لها قصة مختلفة تماماً. فأيـة فتـاة صغيرة لا تحبُّ أن تمضيَ وقتاً مع والدها الحبيب، ولاسيما عندما يكون مسيحياً مؤمناً لديه سيارة فارهة وتتقاسم بيته مع امرأة خداها ورديان؟

رفعت رأسها وقالت:

- لست بحاجة إلى وقت لأتّخذ قراري.

ثم قالت والقلق والأسف يقبضان صدرها:

- الجواب نعم.

عندما أتى ميكائيل في ذلك المساء، كان يسعل في منديله.

سألته دون أن تنتظر جواباً:

- هل أنت مريض؟

طوى منديله وانطلق بسيارته. وأخذ يسعل طوال الطريق ويبصق ويعطس: بصورة عامة يبدو بهيئة ليست على ما يرام. تاهت بيتي في أفكارها ـ فهنري لا بدَّ أن يأتي ليأخذ لوسي يوم الأحد القادم لأول مرة ـ، ولكنها مع ذلك شعرت بالحزن على ميكائيل. فالمرض مرعب، ولاسيما إذا أضيفت إليه الوحدة، كما هي حال ميكائيل في كوخ الجزّازين.

أنزلها عند الباب، فانحنت على زجاج السائق وسألته:

- هل أجلب لك شيئاً ما؟

نظر إليها بحيرة. وضعت يدها على ذراعه ثم قالت:

- لا بأس، اذهب واسترح.

وبعد ذلك انهمكت في عملها لفترة طويلة. كان رافائيل يتناول عشاءه في ذلك المساء مع محاميه ليو سامبسون ورجلين آخرين لم ترهما بيتي من قبل. بعد أن حضّرت طبقهم الرئيس، أخذت استراحة بينما تابعت أليس العمل. كالعادة، وجدت لنفسها شيئاً تفكر به. فبينما هي توشك أن تجلس لتأكل فكّرت بميكائيل. كان أمامها حساء لحم العجل وسندويشات زبدة ساخنة. وهذه وجبة مثالية لمريض. فقالت لأليس:

- أليس، سوف آخذ هذه الوجبة لميكائيل، فهو مريض.

- لو كنت في مكانك، لما أزعجت نفسي بهذا الأمر. فهو لن يكون ممتناً لك بما تفعليه.

نهضت بيتي لتجلب صينية ثم قالت:

- ومع ذلك كل الناس يقدّرون الاهتمام عندما يكونون مرضى.

وضعت الطعام على الصينية واتجهت نحو الدرج؛ تجاوزت غرفة الغسيل واجتازت سور الأبنية المختلفة في العشب الرطب حتى وصلت إلى كوخ الجزّازين.

لم يكن ذلك البناء الخشبي يحوي سوى ميكائيل. فأليس لديها غرفة في الطابق الأرضي من المزرعة. ومع ذلك، في خلال ستة أسابيع، سوف يستوعب هذا الكوخ نصف دستة من العمال القادمين من جميع أنحاء تاسمانيا من أجل موسم الجز.

رفعت بيتي الرتاج ودخلت. اجتازت صالوناً كبيراً، ومرت من أمام مساحة ضيقة يوجد فيها المجلى والخبز البيتي، توقفت عند مدخل الممر. هناك ضوء يتسرّب من تحت الباب. مشت في الممر ثم قرعت الباب.

بعد لحظة ظهر ميكائيل ونظره مشوش. فقالت له:

- لقد جلبت لك العشاء: حساء وخبز محمّص.

هدأ وجهه. ثم فتح الباب واسعاً ودخلت. غرفته مكونة من سرير وطاولة وكرسي واحد. وهي واسعة، يمكنها أن تستوعب أمتعة ثلاثة أشخاص أو أربعة. أحدثت قلة الأثاث صدى في فراغ الغرفة عندما راح حذاء بيتي يطرق الأرض. وضعت الصينية على الطاولة؛ واستدارت لكي تخرج حين تكلم ميكائيل قائلاً:

- انتظري لحظة!

نظرت إليه بيتي باستغراب، فهي لم تسمعه ينطق بأكثر من كلمة واحدة كل مرة.

أمسك الكرسي وقدمه لها ثم حمل الصينية وذهب ليأكل على سريره.
جلست تنتظر. فقال أخيراً:
- شكراً، أنت لطيفة جداً.
- كنت أظن أنك لا تتكلم اللغة الإنكليزية.
- أنا لست غبياً، فأنا أعيش هنا منذ خمس سنوات. أسمع كل شيء. ولكن من الأسهل عليّ أن يعتقد السيد بلانشارد أني لا أفهم.
- وهل أليس تعرف ذلك؟
أومأ بالإيجاب. فابتسمت بيتي وقالت:
- لقد خدعتماني.
ردّ لها ابتسامتها. وكانت هذه أول مرة تراه فيها يبتسم. لقد تغيّر وجهه، ولم يعد يشبه مخلوقاً مقدوداً من صخر، ثم قال:
- نعم، لقد خدعتك.
ثم أشار إلى الحساء وقال:
- قلبك طيب.
نظرت بيتي إلى الطعام وتذكرت أنها لم تأكل. وبدا أن ميكائيل خمّن أفكارها فعرض عليها سندويشاً فقبلته بامتنان، ثم سألته:
- لماذا ترى أن من الأفضل أن يعتقد السيد بلانشارد أنك لا تتكلم اللغة الإنكليزية؟
- سوف يفرط في طلباته. وسوف يكلمني ولا يتوقف أبداً. وسيجد وسيلة ليجعلني أخطئ. وهذا ما يفعله مع الموظفين جميعاً.
فكّرت بيتي بمشكلاتها مع رافائيل ثم قالت:
- يبدو أن أليس تدير الوضع جيداً.
- أليس وحيدة. أما الآخرون، فإن السيد بلانشارد يطردهم في مدة أقصاها سنة. أنا لا أكلمه، وهو لا يكلمني، فلدي عمل دائماً. ومن الصعب إيجاد عمل.
- فهمت.

فكّرت بتشارلي الرجل الذي أنقذ لوسي منذ عدة أشهر، والذي غادر المدينة فقالت لميكائيل:

– لقد التقيت برجل اسمه تشارلي يوم وصولي إلى ليوينفورد وكان قد غادر هذه المزرعة.

– تشارلي هاريس، إنه رجل جيد.

– سمعت أنه سرق أشياء لرافائيل.

هزّ ميكائيل رأسه وهو يشرق الحساء من ملعقته، ثم قال:

– تشارلي لم يكن لصاً. لقد قالوا إنه سرق أزرار كم! ما فائدتها بالنسبة إلى تشارلي، أزرار كم؟ لا، لقد طُرد لأنه قال للسيد بلانشارد إن عمله السيئ.

– عفواً؟

فهي لم تفهم عبارة ميكائيل الذي كرر قائلاً:

– تشارلي هو الشخص الوحيد الذي قال للسيد بلانشارد إن عمله سيئ.

– المزرعة؟ هل هي عمل سيئ؟

خنق ميكائيل ضحكة ما لبثت أن تحولت إلى سعال. انتظرت بيتي بصبرٍ حتى يسترد أنفاسه، ثم فسّر لها كلامه قائلاً:

– السيد بلانشارد لا يهتم بالخراف. بل يضيع أمواله كل سنةٍ، ولا يستطيع الاحتفاظ بموظفيه. لديه ألفا خروف. وربما يُصنّع خمس وعشرين بالة من الصوف في السنة، وهذا لا يكفي. فهذه التجارة لا تساوي كثيراً. وأعتقد أن والد السيد بلانشارد سوف يستدعيه قريباً إلى إنكلترا. فلن يعود هناك مال.

رفع كتفيه وأضاف:

– ولا أحد منّا سيكون لديه عمل!

توقف قلب بيتي عن الخفقان. فإذا لم يكن لديها عمل، لن يكون لديها مال، فكيف ستمنع هنري من حضانة لوسي بصورة دائمة؟ سألت ميكائيل:

– حقاً؟ ومتى سيحدث هذا برأيك؟

شرق مزيداً من الحساء، ثم مسح وجهه بالفوطة التي حملتها إليه، ثم قال:

– لا أحد يعرف. ربما بعد الجزّ هذه السنة، وربما في السنة القادمة. لا يمكننا إلا أن نتشبّث بتأمُّل الأفضل.

أدركت بيتي أنها بقيت في غرفة ميكائيل وقتاً طويلاً جداً، ولا بدَّ أن أليس تنتظرها فقالت:

– من الأفضل أن أذهب.

أنهت سندويشها ومسحت أصابعها بمريلتها ثم قالت:

– شكراً يا ميكائيل.

– لن تُخبري للسيد بلانشارد بأني أتكلم.

– بكل تأكيد لا.

أسرعت في الخروج واجتازت من جديد جدار الأبنية وعادت إلى المزرعة. *لا يمكننا إلا أن نتشبث بتأمُّل الأفضل*. ميكائيل على حق، فليس من المفيد تخيل الأسوأ، ليس بعد.

الطقس مكفهر، وهو يهدد بهطول المطر صباح هذا السبت، لكنَّ لوسي تشعُّ كشمس. بينما كانت بيتي تسرّح شعرها الأصهب ذا الالتماع الذهبي إلى ضفيرتين أخذت تثرثر بفرح وتتمايل بكل الاتجاهات لكي تهرب. كانت مرغريت منهمكة في إعداد الشاي للضيوف الذين لن يتأخروا بالوصول وهي تغني بصوت خافت. على الرغم من أن بيتي شمت رائحة الشاي وقطع الخبز الصغيرة بالعنب وسمعت أصوات ارتطام الأواني البورسلانية بالطاولة، والأطباق المزهرة الخضراء، فإنها لم تكن تشعر إلا بشيء واحد: خوف متعاظم.

فاليوم سيأتيان ليأخذا ابنتها.

هي تعرف أن عليها ألّا تقلق: فهنري يعبد لوسي وسيكون لطيفاً معها. ومع ذلك فإن جسمها ينبض قلقاً، فتتكلم بوتيرة سريعة جداً وتصدر حركات خرقاء.

احتجّت لوسي صارخة:

- آي، أنت تشدّين شعري.

- عذراً يا عزيزتي.

عقدت بيتي شريطاً في نهاية الضفيرة الثانية قبل أن تبتعد عنها وتقول:

- هكذا أنت رائعة.

استدارت لوسي بغنج وقالت:

- سوف يعتقد أبي أني فتاة كبيرة.

استيقظ الألم في صدر بيتي وهي تقول:

- أنا متأكدة من أنه سيفعل ذلك.

وسمعت بيتي خفقان قلبها في أذنيها حين توقفت سيارتهما أمام بيت مرغريت التي قالت وهي تضع الزبدية وسطراً من الأطباق البورسلانية:

- لقد أتيا بالتأكيد... لوسي هل تستطيعين...

لم يُتح لها أن تكمل كلامها فقد كانت لوسي تجري في الممر باتجاه الباب وهي تصرخ:

- بابا! بابا!

التقت نظرة بيتي بنظرة مرغريت ووجهت إليها ابتسامة حزينة. فردّت عليها مرغريت التي ربما كانت تشعر بأنها مسؤولة لأنها سببت لها هذا القلق بهزةٍ متعاطفة من رأسها، وقالت:

- كل شيء سيسير على ما يرام.

- ليس بالنسبة إليّ.

فاتخذت مرغريت هيئة ازدراءٍ، وقالت:

- الأطفال لا ينتمون إلينا دائماً. ويجب على الأهل أن يتعلموا الاستغناء عنهم.

لم تنبّه بيتي مرغريت إلى أنها ليس لديها أبناء، وبالتالي ليس لديها أية فكرة عما تقوله، بل اكتفت بأن تبعت لوسي في الممر.

كان الباب مشرّعاً، فرأت لوسي تحشر نفسها بين ذراعي والدها عند مدخل الحديقة. انتابها شعور متناقض من قرصة غيرة وفرح برؤية ابنتها فرحة.

تقاطعت نظرتها مع نظرة هنري، وللحظةٍ رأت هنري القديم، هنري الذي تدلّهت بحبّه.، ولكن هذه الصورة ما لبثت أن اختفت وحلّت الحسرة محلّها.

وقفت مرغريت إلى جانبها لاستقبال الضيفين، وقالت:

- أنتما دقيقان في مواعيدكما. وقد ساعدتني لوسي طوال الصباح.

لم يكن هذا صحيحاً تماماً. فقد رجت لوسي أن تشاركها ولكنها لم تقم إلا بالثرثرة وهي ترقص في المطبخ بينما كانت مرغريت منشغلة في التحضيرات. ومع ذلك، فقد ابتسمت الطفلة بزهو.

كانت امرأةٌ تمشي مطأطئة الرأس على بعد بضع خطوات، خلف هنري، وهي ترتدي معطفاً طويلاً وأنيقاً، رمادي اللون كسماءٍ باردة، وتعتمر قبعة، وتضع قفازين. توقّف هنري على الدرج الأمامي ومررها أمامه قائلاً:

- أود أن أقدم لكنّ مولي، زوجتي.

لم يقل «مولي الكلب السلوقي الإيرلندي»، كما كان يناديها من قبل. كان بوسع بيتي أن تنفجر ضاحكة، ولكن لم يكن هناك من شيء لدى هذه المرأة يدعو إلى السخرية. فنظرتها لطيفة وابتسامتها خجولة.

قالت مولي بصوت موسيقي، وبلكنةٍ أيرلندية:

- طاب نهاركن، أنا سعيدة جداً بلقائكن.

نظرت إليها لوسي نظرة حذرة ولم تقل لها «صباح الخير». حيّتها مرغريت بحرارة، أما بيتي فلم تكن تعرف الأعراف عندما تقابل زوجة رجل كانت قد سرقته. قدمت لمولي مشروع ابتسامة قبل أن تسرع في الدخول إلى البيت.

واصلت بيتي إعداد شاي الصباح بينما أخذت مرغريت معطفيهما ودعتهما إلى الجلوس في غرفة الطعام. انتاب القلق بيتي بشأن لوسي: فهل ستكون مولي لطيفة معها؟ أم هل ستفرّغ شعورها نحوها على ابنتها؟ ثم ما لبث قلقُها أن غيّر هدفه. وماذا لو انتهى الأمر بلوسي بأن تحب مولي؟ وماذا لو فضّلتها عليها؟

حملت صينية الشاي إلى الطاولة وقدّمت مرغريت الخبز بالعنب.

قالت مولي للوسي بصوت خجول:

– لوسي، توجد غرفة صغيرة رائعة بانتظارك في بيتنا.

كانت قد استفادت من الصمت من أجل بدء حديث بينما كان الشاي يُقدم والزبدة تُذاب على قطع الخبز. ثم أضافت:

– مع حيوان متأرجح يمكنك أن تركبيه.

جحظت عينا لوسي فرحاً، وسألتها:

– حيوان متأرجح؟ هل هو كبير؟

أشارت مولي إلى ارتفاعه بيدها وقالت:

– إنه حصان صغير الحجم.

ألقت لوسي نظرة إعجاب نحو بيتي وقالت:

– هل ستحزني يا ماما إذا لم تركبي على هذا الحصان الصغير؟

هزّت بيتي رأسها ضاحكة وقالت:

– لا يا قلبي. ولكن يمكنك أن ترسميه لي عندما تكونين هناك، وستريننى إياه بعد عودتك.

جفَّ حلقها وهي تلفظ هذه الكلمات.

شعر هنري بضيقها فأخذ يتكلم أحاديث متفرقة. ومع ذلك فقد ظلّت بيتي تائهة في أفكارها لبعض الوقت وتركت الحديث يدور من دونها. دفعتها غريزتها إلى أن تضم لوسي إليها، وأن تستعد راحة قدر المستطاع من جسمها فيما بقي لديهما من الوقت معاً، لكنّ لوسي صعدت إلى ركبتي هنري وبدا أنها لا تريد أن تتحرك عنهما. وحين نهضت مرغريت لترفع الأواني، وقلدتها بيتي.

لكنّ مولي وضعت يدها برفق على خصر بيتي وغرست نظرها في عينيها، وقالت لها:

– أتساءل ما إذا كان بوسعي أن أكلّمك على انفراد؟

– ولكن يجب أن أساعد...

قاطعتها مرغريت قائلة:

– أنا سأقوم بهذا، هيا.

ألقت بيتي نظرة حولها ثم قالت:

– يمكننا أن نذهب إلى الصالون.

وافقت مولي فقادتها بيتي إلى الصالون ثم أغلقت بابه خلفهما. عادةً تكون النوافذ الواسعة سابحة في ضوء الشمس، ولكنها لم تكن تقدّم، ذاك الصباح، إلا منظراً للسياج الذي يرتجف أمام ريح ماطرة. انحنت بيتي لإشعال النار، وحين انتهت، وجدت مولي جالسة على كنبة، تنظر إليها.

جلست بيتي مقابلها وسألتها:

– ماذا تريدين أن تقولي لي؟

إنها لا تريد أن تسمعها، فهي تنتظر أن تتلقّى منها سيلاً من الإدانات. ومع ذلك فإن مولي ابتسمت بلطفٍ وقالت:

– أنت عصبية.

– نعم، بكل تأكيد.

– أنا لا أكرهك.

– ولمَ لا تكرهينني؟

– لأن ما حدث يعود إلى ماض بعيد، وعلى أية حال فقد كنتُ مسؤولة عنه جزئياً. فأنا لم أكن زوجة جيدة. ولم أكن ألبّي... حاجات هنري.

حافظت بيتي على صمتها، وأضافت مولي:

– مهما يكن من أمر، فقد سُوّي كل شيء، وهنري وأنا سعيدان جداً. بيتي، أنا لا أنجب أطفالاً لذا عليك أن تفهمي أن لوسي تعني الكثير بالنسبة إليّ وأعدك بأني سأكون لطيفة جداً معها، وسأعاملها كأنها ابنتي.

– ولكنها ليست ابنتك.

غمزت مولي بعينيها حائرة ثم قالت:

– بكل تأكيد، ولكنها ابنة هنري، وأنا زوجته.

ثم تمالكت نفسها وأضافت:

– أنا أحاول أن أطمئنك، وليس أن أهدّدك.

تنهدت بيتي وقالت:

– أعرف. أنا آسفة. فهذا كله صعب بالنسبة إليّ لأني لم أمض ليلة من دون لوسي منذ ولادتها. وأنا بالكاد وعيت أن هنري قد أصبح رجلاً قنوعاً وموثوقا.

– أقسم لك أنه كذلك وأؤكد لك أني سأحرص على أن يبقى كذلك. وإذا كنتُ قد تعلمت شيئاً عندما هجرني فهو أنّ من واجبي أن أفعل كل شيء للحفاظ عليه. كوني مطمئنة.

في هذه اللحظة، دخلت لوسي إلى الغرفة راكضة ودميتها هنرييتا تحت إبطها، وتحمل قميص نوم قطنياً في يدها الأخرى. وقالت:

– أنا جاهزة. لقد حان وقت الذهاب يا ماما.

وقف هنري خلفها وقال لها مبتسماً:

– لا شيء يلح علينا يا ابنتي.

قالت لوسي مصممة:

- أريد أن أرى الحصان الصغير.

قالت مرغريت للطفلة:

- دعيني أعِرْك حقيبة لأشيائك. وسأذهب لإحضارها.

نهضت مولي وقالت للطفلة:

- خذي قبعتك ومعطفك يا لوسي، فسوف نذهب.

عند البوابة أبدت لوسي الإشارة الأولى والوحيدة من القلق لأنها سوف تنفصل عن أمها. قرفصت بيتي لتداعبها فحشرت لوسي جسمها بها وقالت:

- هل ستسير الأمور من دوني يا ماما؟

كبتت بيتي دموعها وقالت:

- بكل تأكيد، هناك مرغريت التي تبقى بصحبتي، ولدي عملي الذي أهتم به.

قبّلتها لوسي على فمها وقالت:

- سأرسم لك رسماً.

- نعم من فضلك.

ساعدها هنري ومولي على الصعود إلى السيارة وقالا لهما إلى اللقاء. وبعد بضع دقائق انطلقت السيارة، وانعطفت في الشارع الرئيس واختفت نهائياً.

ظلّت بيتي واقفة في الصمت. إنها في أشدّ الشوق إلى لوسي، وهي تتحرق في هذه اللحظة لضمّها بين ذراعيها.

لمست مرغريت كتفها وقالت:

- لا تقلقي فسوف تعود.

نعم هذا مؤكد. ولكن هناك دائماً جزء من ابنتها سيعود لهنري. جزء من ابنتها لن يعود إليها أبداً.

الفصل الرابع عشر

كانت بيتي ستقسم بأنها لن تعتاد أبداً على العيش من دون لوسي أسبوعاً في الشهر، ومع ذلك فقد اعتادت بعد فراقين اثنين، ولسببٍ تجهله. في المرتين الأوليين ابتلعت دموعها وشعرت بقلبها يقفز عند عودتها، أما في المرة الثالثة فقد أدركت أن ألمها قد تراجع، وأنها لم تعد تتخيل السيناريوهات الكارثية نفسها، ولم تعد تحاول تذكر وجه لوسي كما لو أن هذه المرة هي الأخيرة التي تراها فيها.

لم تعد بيتي تتبادل كلام مجاملةٍ مع مولي، بل بالعكس، فقد بدأت تشعر باستلطاف لها. فهذه المرأة تتمتّع بعذوبة ولطف حقيقي. ما تزال الغيرة موجودة لأن بيتي قلقة من أن تفضّل لوسي مولي عليها، ولكن من المستحيل الاستمرار في الكراهية تجاه مولي. عملياً، النقطة السلبية الوحيدة لتفاهمهما هي أن لوسي تبكي كلما أخذها هنري. وتسأل ما إذا كانت تستطيع أن تبقى زمناً إضافياً عند أبيها، ولكن بعد بضع ساعات تهدأ، وتتعلق من جديد ببيتي كعَلَقة. ومع ذلك، فإنها لا تكفُّ عن الكلام عن هنري، وعن غرفتها في بيت هوبارت وعن الألعاب التي يقدمها إليها هناك.

حلّ شهر أيلول، وموسم الجزّ يوشك أن يبدأ. ولن تتأخّر وايلدفلاور هيل في أن يغزوها موظفون جدد يأتون كتعزيز، وسيكون هناك عمل إضافي. طلبت أليس من بيتي أن تسكن في المزرعة في أثناء الموسم لكي توفّر على ميكائيل الذهابات والمجيئات إلى المدينة ومنها، وسيكون راتبها مضاعفاً في هذه الأسابيع.

بالنتيجة، يجب على بيتي أن تواجه المعضلة: ماذا ستفعل بلوسي؟ فهي لا تستطيع أن تطلب من مرغريت أن تعتني بابنتها ليل نهار، وبما أنها تنام على فراش قابل للطي، لا يمكنها أن تأتي بلوسي للسكن معها. الحل واضح: يجب أن تسكن لوسي عند هنري الذي سيستفيد من هذه السانحة ليجعل أسبوعَي الحضانة شهراً كاملاً، وبيتي ستجد نفسها مضطرة للقبول.

حتى عشية ذهاب لوسي، امتنعت بيتي عن التفكير في بأنها سوف تفارق ابنتها. وفي تلك الليلة، لم تستطع النوم، وهي نائمة بجوارها على السرير ويدها موضوعة على ظهرها، لكي تشعر بحرارتها وبجسمها وبتنفسها. شهرٍ بدونها. على الأقل بيتي لن ينقصها العمل، ومع ذلك لا يمكنها أن تتخلص من شعور بالظلم: لو لم تكن مضطرة للعمل، لما فارقت ابنتها. ولو أن هنري فعل ما يجب منذ البداية.... ولكن لا، فقد نسيت أنها كفّت عن حب هنري منذ زمن طويل. ولا يهمّها كثيراً الرجل الغني والمستقيم الذي تحوّل إليه هنري، فهي تعيش حياة جيدة بدونه.

صباح اليوم التالي، وصل هنري باكراً لكي يأخذ لوسي. وكانت بيتي منهكة. لم يصحب مولي معه، فشعرت لوسي بالفرح لأنها ستركب في المقعد الأمامي. كانت فرحةً جداً بحيث أنها نسيت أن تودّع أمها. رأت بيتي السيارة تبتعد فعادت إلى البيت لتجهّز كرتونتها للرحيل إلى وايلدفلاور هيل. رأتها مرغريت على باب السقيفة. إنها تبدو مرتبكة هذا الصباح، ولكن بيتي لا تعرف لماذا. فالعلاقة بينهما أصبحت باردة منذ

زمن طويل، وغالباً ما تبذل بيتي جهدها لكي تتجنّبها، ولكنها وصلت إلى حد لم تعد تستطيع عنده أن تتحمّل المزيد، فسألتها:

- ماذا هناك يا مرغريت؟

قاطعت مرغريت يديها على صدرها وسألتها:

- هل ستنامين هناك؟

- نعم، لقد تكلّمنا في هذا من قبل. وسأستمر في دفع الإيجار، ويمكنك أن تستمتعي ببعض الهدوء بدوننا.

- هل تعرفين ماذا ينتظرك؟

- كثير من الطبخ والغسيل، على ما أتخيّل.

ثم رفعت بيتي رأسها وسألت:

- ولماذا؟

تنهّدت مرغريت بعمق، ومنخراها متّسعان، ثم قالت:

- في كل مرة تعودين من ذلك البيت تجلبين معك قليلاً من العار إلى بيتي.

- مرغريت، حقاً أن لا أومن بما...

- حتى وإن كنت لا تفعلين شيئاً، المشكلة هي ما لا تفعلينه، بالضبط. فمن يغمضون أعينهم عن فساد الآخرين هم مذنبون أيضاً في نظر الله.

- سيوافق الله على أن أتمكّن من تأمين الحد الأدنى من الراحة لابنتي. فيجب أن أعمل.

خفضت مرغريت رأسها وقالت بصوت خافت جداً بحيث كادت بيتي ألاّ تسمعه:

- أعتقد أن عليك ألّا تعودي إلى هنا.

- هل تطردينني؟

شعرت بارتياح ورعب ممتزجين. لكنَّ مرغريت قالت:

- إذا أغمضتُ عينيَّ أنا أيضاً فربما لا أكون أفضل منك.

– ومن المهمّ جداً أن تكوني أفضل مني، أليس كذلك؟
ثم أنزلت إلى الأرض كرتونتَها الموضوعة على السرير، وقالت:
– جيد جداً، سوف أحزم أمتعتنا وآخذها.
أخذ قلبها يخفق بسرعة. فهل ستتمكن من البقاء في وايلدفلاور هيل بعد موسم الجز؟ هناك مكان لها وللوسي في كوخ ميكائيل. حتى وإن لم تجدا فيه راحة الأمان التي كانت في بيت مرغريت. يجب على لوسي أن تمضي نهارها كله في المطبخ مع بيتي. وماذا ستفعل بابنتها مساء، عندما تهتم بضيوف رافائيل؟ قد تساعدها أليس... يجب أن تكتب لهنري وتقول له أن يأتي بلوسي إلى المزرعة. تُرى بماذا سيفكر حول هذا الوضع؟
رفعت عينيها نحو مرغريت. مهما تكن مشاعرها نحوها في هذه اللحظة، فقد قدّمت لها مرغريت سقفاً لحظةَ كانت بأمَسّ الحاجة إليه. ومقارنة بالعلاقة الحارة التي أقاماتها مع مرغريت لدى وصولهما، فإن التفكير ببرودة علاقتهما الحالية مؤلم جداً. هذا يذكّرها بالطريقة التي طردتها بها أمها، وبأن كورا لم تسعَ إلى الرد على رسائلها. ففضلت أن تقول:
– أنا آسفة لأني أصبحت عبئاً ثقيلاً لا يمكنك أن تتحمليه. أشكرك لأنك أعطيتني فرصة عند وصولي إلى المدينة.
لم تشأ مرغريت أن تلاقي نظرتها بل هزّت رأسها بجفاء قبل أن تغادر الغرفة دون أن تنبس بكلمة.
شعرت بيتي بالتعب، بتعبٍ شديد. من جديد، عليها أن تكافح. عليهما، هي ولوسي، أن تغوصا في المجهول من جديد.

في الأسبوعين التاليين لم يُتحْ لها الوقت بالتفكير بالوضع الشائك. فكانت تستيقظ من الفجر لتعدّ الفطور، وتعمل طوال النهار، وعندما يأتي المساء تخلع مريلتها وتمشط شعرها لتخدم رافائيل وضيوفه في أثناء أدوار البوكر مع الشراب.

يبدو أن رافائيل لم يكن واعياً كثيراً إلى أن موسم الجزّ وصل إلى أوجه. فقد كان تيري، مدير المزرعة، قد نظّم كل شيء وأداره. إنه رجل نشيط، وجهه أحمر، وتفوح منه رائحة الحصان والتعرق. رافائيل لا يضع أبداً قدمه في الأمكنة المخصصة للجز. وكان تلميحه الوحيد إلى ذلك النشاط المحموم الذي يحدث في مزرعته عندما أمسك ذات مساء بيد بيتي وهي تقدم له كأساً وقال لها:

– بشرتك حمراء ومخرّبة. أنت تفرطين في العمل القاسي لهؤلاء الجزّازين الجاحدين.

سحبت يدها من يده وركزت اهتمامها بعملها. فكلما شغلت نفسها كلما أتيح لها أن تفكر. كل مساء ترتمي على سريرها منهكة، عند منتصف الليل، وتستيقظ بعد ست ساعات ويبدأ كل شيء من جديد.

ثم انتهى الموسم، وحمل الجزازون أشياءهم ليغيروا المزرعة وعاد الهدوء ليخيّم على وايلدفلاور هيل. لم تجد بيتي بعدُ المكانَ الذي ستسكن فيه بطريق دائمة. وعندما ذهبت مع أليس إلى كوخ الجزازين لترتيبه قررت أن الوقت قد حان لجس النبض فقالت:

– أليس، لم يعد لي مكان أعيش فيه، فقد طردتني مرغريت.

مررت أليس المسحة دون انفعال وقالت:

– يمكنك أن تسكني هنا في الكوخ.

– وهل يجب عليّ أن أطلب إذناً من السيد بلانشارد؟

– سأقول له ذلك. وسيكون من الأسهل لنا إذا سكنت هنا. أفضل الغرف موجودة في طرف المر مقابل غرفة ميكائيل.

– لا توجد وسيلة تمكّنني من السكن في المزرعة، مثلك، أليس كذلك؟

– ليس من أجل الطفلة. فالسيد بلانشارد لا يحب الأطفال.

ثم نهضت لتضع المسحة في الماء وأضافت:

– يجب حسم خمسة شلنات من راتبك، وستة مع الطفلة.

– موافقة.

- وعليك أن تشتري قطع أثاث، ومن بينها سرير.

وافقت بيتي. وكان في المدينة محل يبيع أشياء مستعملة وقطع أثاث قديمة. وقد رأت فيه سجادة وسريراً يمكنها أن تشتريهما من مدخراتها. أما بالنسبة إلى الكراسي فعليها أن تكتفي بالسلال المقلوبة. كانت أليس تتناول وجباتها كلها في المطبخ وافترضت بيتي أن بوسعها أن تفعل مثلها مع لوسي. وهكذا ربما لن تكون الأمور سيئة.

فيما بعد، في تلك الظهيرة، هربت من غرفة الغسيل لساعة واجتازت الجدار المكون من أبنية لكي ترتب فضاء حياتها الجديد. بانتظار الحصول على سرير فقد استخدمت فراشاً من القش نسيه أحد الجزّازين في نهاية الموسم. مدّدته على الأرض، وكانت تفوح منه رائحة الرجل الذي كان يملكه حتى بعد أن غسلته. سمحت لها أليس بأن تأخذ مكتبة موجودة في القبو، فملأتها بالكتب التي تفضّلها لوسي. في الخارج غادرت الشمس الحقول وصبغت السماءَ بلون وردي. لم يعد يوجد نار في المدفأة فلم تجرؤ بيتي على فتح النوافذ لإدخال الهواء النقي. كانت رائحةُ تعرّق خفيفة ومعقم تفوحان من غرفتها. فقطفت باقة صغيرة من الأزهار البرية من حول البيت ووضعتها في فنجان بلا أذن ووضعت أزهاراً على حافته. ثم جلست على القش وأخذت تبكي. فمن المستحيل جعل هذه الغرفة حارّة ومرحّبة ومريحة لطفلة صغيرة. فلوسي ستعود من هوبارت حيث يوجد الحصان الصغير المتأرجح والشراشف المطرزة لكي تعيش في هذه الغرفة الفارغة. خلُصت بيتي إلى نتيجة مرعبة: لقد فعلت ما بوسعها، وهذا كل ما يمكنها أن تقدمه لابنتها.

أخرجتْها طرْقاتٌ خفيفة على الباب من ذهولها. مسحت وجهها بمنديل ونهضت وفتحت الباب. رأت ميكائيل فقالت:

- ميكائيل؟

أمعن النظر إليها، هي متأكّدة من أنه رأى دموعها لكنه لم يقل شيئاً حول هذا الموضوع، بل سألها:

– هل تلعبين بالورق؟
– عفواً؟
دسّ يده في جيب سترته وأخرج ورقاً للعب.
قالت متهرّبة:
– أوه، لا. فأنا لم ألعب بالورق أبداً.
قالت ذلك على الرغم من أنها شاهدت مئات الأدوار تُلعب من قبل.
قال ميكائيل:
– إنه سهل، في المساء، عندما يكون هدوء، تلعبين بالورق، وسأعلّمك.
عندها تراجعت لكي تدعه يدخل، فجلسا على سلّتين مقلوبتين واستخدما المكتبة كطاولة للعب. علّمها اللعب بأناةٍ، وراهنا على أعواد كبريت. ثم خيّم الليل، وبدت بيتي ممتنّة لحضوره، وحسّاسة لهذه الحرارة الإنسانية حين بدا لها المستقبل بارداً جداً.

في المساء التالي، بينما كانت ترقّع أحد فساتينها القديمة على ضوء شمعةٍ مترنّح، سمعت من جديد أحدهم يقرع الباب. نهضت لتفتح وهي متأكدة من أنه ميكائيل، وقد أتى حاملاً ورق اللعب بيده. ولكن الطارق لم يكن ميكائيل، بل هو رافائيل، وكان ثملاً.
صاح بها وهو يمد ذراعيه لاحتضانها:
– بيتي!
تراجعت، فتعثّر ثم استعاد توازنه، ثم أخذ يترنّح في الغرفة وهو يقول:
– أنا سعيد جداً لأنكِ قرّرتِ أن تسكني معنا.
أرادت أن تقول له، إنه لم يكن لديها من خيار آخر، وأنها كانت تفضّل أن تبقى ابنتُها على بعد ملايين الكيلومترات منه، ولكنّها صرّفت بأسنانها وقالت:

- أنا ممتنّة لك يا سيد بلانشارد.

جلس على فراش القش، وكاد أن يفقد توازنه للحظة. سحب اللحاف إلى صوبه، ولكن بيتي كانت صغيرة جداً واستندت إلى الجدار قرب النافذة. لم تره يدنو من كوخ الجزّازين أبداً، وهي تأمل ألّا يعود إلى زيارته أبداً. على الأقل، ميكائيل يسكن في الطرف المقابل من الممر، وهي بحاجة إلى مساعدة للتخلّص منه.

قال بتكشيرة طفولية:

- متى ستنادينني «رافائيل»؟

كانت أليس قد روت لها أنه كان يُخضع موظّفي المزرعة جميعاً لهذه الامتحان، وما إن يكفوا عن معاملته دون كلفة أو تحفظ، حتى يقوم بطردهم.

ردّت بيتي:

- هذا غير لائق، يا سيدي.

كنس الغرفة بنظره ثم قال:

- لا يوجد شيء في هذه الغرفة.

أملَتْ ألاّ يتعرّف إلى مكتبته، ثم قالت:

- سأشتري بعض الحاجات هذه الأسبوع.

- إذا نمتِ معي، فسأشتري لك مجموعة كاملة.

اقشعّر بدن بيتي، وقالت:

- لا، شكراً يا سيدي.

تمدّد على وسادتها وأطلق زفرةً طويلة، ثم قال:

- أنتِ عنيدة كبغلة. وأنا مصمّم على أن أنال منك في سريري قبل أن أرحل.

- وهل ستسافر إلى مكان ما يا سيدي؟

- قد أُضطرّ إلى ذلك، فأبي غاضب جداً مني.

للحظةٍ، بدا لها ضعيفاً جداً، كصبي صغير، بحيث أنها كادت أن تعطف عليه. لكنه سألها:

– هل حصل أن غضب والدك منكِ، يا بيتي؟

– والدي توفي، يا سيدي.

سرعان ما فهمت أنه يتكلّم عن تجارته، وأنها سيئة كما أخبرها ميكائيل من قبل. هل هذا يعني أنها ستجد نفسها قريباً بلا عمل؟ وهذا المسكن الجديد؟ لا يوجد من عمل في مكان آخر، فماذا ستفعل إذا فقدت هذا؟

سألته:

– ولماذا والدك غاضب منك؟

استردّ وجه رافائيل قسوته وعنفه، وأخذ الغبش يرسم ظلالاً على جبينه وهو يترافع:

– لأنه شخص متطلّبٌ عجوز. مصنوع من الجليد، وقلبه من حجر. ولقد اشترى لي هذه المزرعة لكي يجنّبني المتاعب، وأنا لم أفعل سوى جذبها. فأنا لم أعتن حقاً بهذه التجارة، وقد خسرتُ كثيراً من المال. خراف! من يهتمّ بخراف؟ ليس أنا، أبداً. وكل العلامات تشير إلى أن محصول الصوف مخيّب هذه السنة.

انقلبت معدة بيتي أمام هذا الجحود كلّه. فهو هنا غني، بينما كثيرٌ من الآخرين فقراء، وهو يملك تجارة وبيتاً جميلاً ـ وسوف يخرّب كل شيء مقابل أن يشرب ويقامر. كم من أشخاص سيكونون مستعدّين لدفع كل شيء للحصول على هذه الفرصة التي يهدرها. إنها مستعدة لفعل كل شيء للحصول على هذه الفرصة.

– وماذا سيحلّ بنا جميعاً عندما تغادر؟

أغمض عينيه، و للحظات رهيبة تساءلت بيتي ما إذا كان نائماً، فكيف ستُخرجه من غرفتها؟ ولكنه فتح من جديد عينيه الزرقاوين، وقعد، وقال لها:

- بيتي بلاكسلاند، سوف أدفع كل ما أملك مقابل أن تمنحيني فرصة.
- ولكنك لم تردّ على سؤالي: ماذا سيحل بنا: أليس وميكائيل وتيري وأنا؟
رفع كتفيه وقال:
- هناك مزارع أخرى، يمكنكم العمل فيها.
قالت بيتي بسرعة:
- هناك رجل من كل أربعة عاطل عن العمل، فكيف ستجد امرأةٌ مثلي عملاً؟
نهض كيفما اتفق وأتى ليقف بجانبها. أمسك بيدها فلم تستطع سحبها، وكانت أصابعه مثلّجة، ثم قال لها:
- سوف أعطيك امتيازاً قبل أن أرحل.
قال ذلك وهو يضع بقوة يده على مقدمة بنطاله.
صرخت:
- ميكائيل!
أفلت رافائيل يده وتراجع ثم قال وهو يرفُّ بعينيه:
- إني أهدّدك بطردك، ولكنْ على أية حال، ستحدث معجزة إذا وجدتِ عملاً في نهاية السنة.
استدار وخرج من الغرفة لحظة وصول ميكائيل إلى الباب.
فقال رافائيل لموظفه الضخم:
- هذا جيد يا ميكائيل. إن شرفها لم يُمس.
ثم ذهب وهو يجرّر أقدامه.
انتظر ميكائيل حتى ابتعد كثيراً ثم سأل بيتي:
- هل أنت بخير؟
- نعم، شكراً.
- ربما كان عليك أن تضعي قفلاً للباب.

- ميكائيل، لقد قال لي إنه سوف يعود بكل تأكيد إلى بلاده قريباً، وإن تجارته قد خسرت.

وافقها قائلاً:

- لقد سمعته يتكلم في السيارة مع السيد سامبسون. وسيعرف ذلك في بداية تشرين الثاني.

شهران. هل يجب عليها أن تبحث عن عمل آخر؟ أم تنتقل إلى هوبارت أملاً في أن تجد فيها عملاً؟ أم أن عليها البقاء هنا مكتوفة اليدين؟ على الأقل الراتب جيد ومنتظم. وهو أعلى من رواتب الحكومة البائسة.

هزّ ميكائيل رأسه وقال:

- أنا أعرف بماذا تفكرين، وأفكر بالشيء نفسه. تيري يتكلم عن الرحيل. ولن يعود هناك مدير للمزرعة. وأليس تستعلم أيضاً عن أماكن أخرى. وأنا سأفعل مثلها. الأمر ليس رهيباً إلى هذا الحد. فما يزال لدينا زمن طويل. وقد لا تكون هناك مشكلة هنا عملياً. وربما بعد سنة.

ميكائيل وأليس وتيري ليس لديهم طفلة يُعيلونها. ويمكنهم بكل سهولة الذهاب إلى حيث يوجد العمل. أما لوسي فهي بحاجة إلى استقرار. قالت:

آمل أن تكون على حق يا ميكائيل. سنة إضافية.

ربت على جيبه وقال:

- هل نلعب بالورق؟

ابتسمت موافقة وقالت:

- هيا لقد قررت أن أربح دوراً، على الأقل هذا المساء.

***

شعرت بيتي بالارتياح لأنها رأت أن الكره الأولي للوسي تجاه هذا البيت الجديد قد استُبدل بفرح. ففي ويلدفلور هيل يوجد كلاب وخيول وأرانب وخراف ووالابيات[1] وكيلومترات من السور ومطبخ كبير تستطيع أن تجلس فيه وترسم بأقلام الرصاص الجديدة التي اشتراها لها هنري. السجادة والسرير استُلما في الأسبوع الأول، ولقد تكيّفت مع الحياة الجديدة مع أمها.

في البداية كانت لوسي تخاف من ميكائيل، ولكنها لم تلبث أن اعتادت عليه. فقد كان يأتي لزيارتهما كل مساء فتنام لوسي في سريرها أما ميكائيل وبيتي فيلعبان البوكر مقابل أعواد الثقاب. اكتشفت بيتي أنها موهوبة جداً في هذه اللعبة: بالتأكيد، فالسنوات التي أمضتها في مراقبة الرجال وهم يلعبون قد أفادتها، ولكن كان لديها أيضاً موهبة تخمين ما في يد خصمها عن طريق ردّات فعله الأكثر دقة. وبأسرع ما يمكن تمكّنت من الانتصار على ميكائيل في كل دور وبكل ثقة. فصار يناديها «قيصرة أعواد الثقاب»، إلى أن نبّهته لوسي أن اسم أمها ليس «كارين» بل هو «بيتي» وأن الوقت قد حان لأن يلفظه بشكل صحيح.

قبل يومين من مجيء هنري ليأخذ لوسي في أسبوع الحضانة، أتت أليس لزيارة بيتي في غرفة الغسيل. كانت لوسي جالسة على سلةٍ مقلوبة، تحاول أن تُدخل ملقط غسيل في ثوب صغير خاطته بنفسها. وكانت بيتي تمرّر شراشف رافائيل في المصقلة لصقلها بينما كانت الغسالة تبرد قربها. أحسّت بألم في ذراعيها، وراح العرق يتفصّد من جبينها. وقالت لها:

– بيتي، لديك اتصال هاتفي.

توقفت بيتي ومسحت يديها بمريلتها وقالت:

– اتصال؟ هل أنت واثقة من أنه لي؟

---

[1] كنغر صغير يعيش في أستراليا.

- إنها مولي ماك كونيل.
رفعت لوسي نظرها وأضاء وجهها وهي تقول:
- ماما مولي! هل أستطيع أن أكلّمها على الهاتف؟
ماما مولي؟ شعرت بيتي بمعدتها تنقلب.
هزّت أليس رأسها وقالت:
- إنها تريد أن تكلم أمك يا عزيزتي، وليس أنت.
أصدرت لوسي تكشيرة. فأبعدت بيتي شعرها عن وجهها وقالت لها:
- سأبلّغها سلامك.
تبعت أليس حتى نهاية الممر الطويل حيث كان الهاتف موضوعاً على طاولة صقيلة. أمسكت السماعة وحاولت ألاّ تظهر عصبيتها وهي تقول:
- آلو؟
- بيتي، أنا مولي.
وكان صوتها بعيداً وخافتاً.
لفت بيتي السلك حول أصابعها واستندت إلى الجدار. كان ضوء الصباح يمر عبر زجاج النافذة الصغيرة ويرسم أشكالاً على الأرض. وبقية البيت مظلمة وهادئة. سألتها:
- هل أستطيع أن أساعدك؟
- آمل ألا يكون اتصالي قد أزعجك، ولكنني استفدت من غياب هنري لكي أتناقش معك.
- حول ماذا؟
- بخصوص لوسي.
ماما مولي. منذ كم من الوقت ولوسي تناديها هكذا؟
- بيتي، أنا أعرف كم تحبين ابنتك، وأعرف أنك تفعلين كل ما بوسعك لكي تلبّي حاجاتها، ولكن... لكي أكون صريحة معك، لقد صُدمتُ عندما أوصلناها إلى عندك، في المرة الأخيرة. غرفة فارغة، حتى من دون سرير...

– صار لدينا سرير الآن. وسجادات. وصارت لوسي تحب المزرعة كثيراً.

– مهما يكن من أمر، فهي ستكمل الخمس سنوات قريباً. وفي السنة القادمة ستذهب إلى المدرسة. هنا، في هوبارت، يوجد مدارس كثيرة. وتوجد كنيستها أيضاً.

وأصبح صوت مولي قوياً وهي تضيف:

– يوجد بيتٌ حقيقي وغرفة بسرير لها وحدها، وألعاب وكتب، وكل ما هي بحاجة إليه.

أدركت بيتي إلى أين تريد أن تصل فقالت:

– لقد فهمت. إذن، أنت ترين أنها ستكون بحالة أفضل عندك؟ مع ماما مولي أكثر من ماما بيتي؟

صمتت مولي فأردفت بيتي:

– أنا أمها.

– وهنري والدها. ولديه حقوق عليها مثلما لديك.

ولكن ما لبثت مولي أن استردّت هدوءها، وأضافت:

بيتي، أنا لا أريد أن أتعارك معك. ولكن ألا تستطيعين أن تستعيدي حسّك السليم؟ ليتنا نقلب حضانتينا فتُمضي أسبوعاً في الشهر عندك وبذلك تستطيع أن تستفيد من المزرعة بين وقت وآخر.

كبتت بيتي دموعها، فهي تعرف في قرارة نفسها أن حديث مولي منطقي ولكنَّ قبوله مستحيل بالنسبة إليها. سألتها:

– ولماذا تتصلين بي بغياب هنري؟ ألا يريد أن يأخذها؟

– بالعكس يريد أن يأخذها طوال الوقت. وقد أراد أن يوكّل محامياً ويذهب إلى المحكمة، ففكرت أن أكلّمك، ويمكننا أن نجد تسوية وديّة واتفاقاً تكونين مسرورة منه، أنت أيضاً.

مسرورة؟ كيف ستُسرّ لانتزاعهم ابنتها منها؟ ومع ذلك فكيف يمكنها أن تحتفظ بلوسي في هذه الظروف؟ فعملها غير مضمون، ومكان عيشها لا يناسب لوسي التي تُمضي ساعات بلا مراقبة كل يوم.

نادتها مولي بصوت ناعم:

– بيتي؟

سألتها بيتي بين شهقتين:

– لماذا أنت لطيفة جداً معي؟ لماذا لا تكونين قاسية وعنيفة بحيث أستطيع أن أكرهك؟

– اللطف هو كل ما نستطيع أن نمنحه للآخرين. أنت أم لوسي وستظلّين هكذا دائماً. أليس من الأفضل ألّا يكره أحدٌ أحداً؟

شعرت بيتي بأنها حمقاء وفتيّة وامرأة سيئة، فأجابت:

– أفترض أني لا أملك خياراً. فإذا قلتُ لا قد يلجأ هنري إلى الاستعانة بمحام، وليس أنا.

ظلّت مولي صامتة لكنّ بيتي تعرف بماذا تفكر: *أنت لا ترفضين.*

مرت ثوانٍ في ظلام المر وبرده، ثم قالت بيتي:

– جيد جدًا. لقد ربحتِ.

– هذه ليست مباراة. الأمر الجوهري هنا هو ما تحتاج إليه لوسي.

تردّدت بيتي لحظةً: فلوسي تحتاج إلى أمها الحقيقية أكثر من أي شيء آخر، أليس كذلك؟ ولكنها لا تعيش من الأوهام، فقالت أخيراً:

– أنتِ على حق، بكل تأكيد. وسأخبرها بما اتفقنا عليه.

انتظرت بيتي يوم ذهاب لوسي لتخبرها، فهي لا تريد أن يُفسد شيءٌ ليلتهما الأخيرة معاً، وهما متلاصقتان في سريرهما الضيق. وفي صباح اليوم التالي فرحت لوسي لفكرة ملاقاة والدها. وطلبت من بيتي أن تصنع لها ضفائر، وراحت بشرتها الشاحبة تشعّ سعادة.

على السرير جلست بيتي بين ساقيها، وضفرت شعرها االحريري الأصهب ضفيرتين، ثم أعلنت لها الخبر:

- عزيزتي، يجب أن أخبرك بشيء هام.
أجابت لوسي بهيئة شاردة:
- هممم؟
- لقد تناقشت مع مولي، ونحن نعتقد أن من الأفضل لك أن تسكني عند بابا وعندها معظم الوقت وأن تأتي لزيارتي مرة في الشهر.
لم تشأ أن تبكي لكن صوتها انكسر وذاب في الدموع.
سحبت لوسي شعرها من يدي بيتي والتفتت إليها مواجهة، وسألتها:
- ماما؟ لماذا من الأفضل أن أسكن عند بابا ومولي؟
- لأن هناك لديك غرفتك النظيفة، ويمكنك أن تذهبي إلى المدرسة وإلى الكنيسة. وأنا أعرف إنك تحبين بابا كثيراً.
- وأنا أحبك كثيراً، أنت أيضاً.
من خلال دموعها رأت بيتي أن فم لوسي الصغير يرتجف. لم تتوقّع ردّة فعلها، بل قالت لنفسها إن لوسي ستفرح لهذا الترتيب الجديد. وضعت يديها برفق على خدّيْ لوسي الأبيضين وقالت:
- لا تبكي.
- ألا تريدين أن أسكن عندك؟
- بلى، بكل تأكيد. وأريد أن تبقي معي طوال الوقت.
ضمّت بيتي لوسي بقوة وأضافت:
- ولكن حياتي غير مستقرة، وبابا ومولي يستطيعان أن يجلبا لك أشياء أنا لا أستطيع جلبها.
قالت لوسي بصوت مخنوق على كتف أمها:
- سوف أشتاق إليك.
- وأنا أيضاً سأشتاق إليك. ولكن ستأتين لرؤيتي مرة في الشهر، لمدة أسبوع.

بينما كانت بيتي تلفظ هذه الكلمات أدركت أن هذه التسوية لن تصمد إلى ما لا نهاية. ليس السنة التالية على أية حال، عندما تبدأ لوسي المدرسة.

وهي هل سيكون لديها عمل في السنة القادمة؟

فيما كانت لوسي تبكي مُسنِدة رأسها إلى صدرها شعرت بيتي بثقل حياتها الحائرة، وأدركت أنها غاضبة أيضاً. فعندما هجرت هنري كانت مقتنعة بأنها ستخطط حياتها بنفسها، وبأنها ستكون من تلك النسوة اللواتي لا يخضعن للأشياء. ومع ذلك، ها هي هنا، مضطرة لترك ابنتها خوفاً مما يمكن أن يحصل لها، مرة أخرى. لقد سئمت، سئمت كثيراً بحيث أنها شعرت بألم في نقي عظامها. كل ما تريده هو عمل لائق ومضمون وأجره جيد، ولكن هناك آلافٌ يريدون الشيء نفسه. هي جزء من جمهور عريض بالنسبة إليه من المستحيل الصعود درجة أخرى. وهي لا تستطيع أبداً أن تثبت لهنري ومولي بأنها قادرة على الاهتمام بابنتها كما يجب.

ألا يوجد شيء يمكنها أن تفعله لكي تنفصل عن هذا الجمهور؟ ألا يوجد طريق لم تستكشفه بعد؟ ألا توجد كفاءة خاصة أو موهبة يمكنها أن تستغلّها؟ إن خبرتها في الخياطة لا تساوي شيئاً، ولكنها أمضت سنوات تعمل مع رجال محتالين كالثعالب، ألم تتعلم شيئاً من هذه التجربة؟

تكوّنت فكرة. الخوف سبّب لها الدوار، ولكنها صممت على ما يجب أن تفعله.

***

كان الوقت متأخراً، فقد تناول رافائيل ومحاميه ليو سامبسون عشاءهما، ولم يبقَ لبيتي إلا أن تقدم لهما البراندي. كانت واقفة في الممر عاجزة عن فتح الباب والدخول، فقد خانتها رباطةُ جأشها، فهي ترغب كثيراً في أن تفتح زجاجة البراندي وتجرع منها جرعة طويلة لكي تمنحها الشجاعة.

افعلي ذلك يا بيتي، افعلي ذلك. إما هذه اللحظة أو لن تفعليها إلى الأبد. أرادت أن يكون السيد سامبسون حاضراً، وبعد شهر من الممكن أن يكون رافائيل قد رحل. مشت بخطوات سريعة في الصالون.

هذه المرة لم تكن صغيرة في الأمل بحيث أنها لا تُرى. مشت حتى مائدة الطعام، وضعت الصينية وبقيت واقفة، منتصبة كوتد، منتظرة أن يلاحظا وجودها.

قال رافائيل وعيناه تجوسان كعادته:

– بيتي؟ إنك تزعجيننا. نحن مشغولان، إننا نتكلم.

ابتسم سامبسون ابتسامة صغيرة وقد أزعجه تصرف رافائيل فسألها:

– هل ثمة شيء ليس على ما يرام؟

– هل أستطيع أن أجالسكما لحظة؟

رفع حاجبيه ويده بطريقة غير مكترثة وقال:

– ويمكنك أن تشربي كأساً أيضاً، إذا شئتِ.

جلست بيتي. سكبت كأساً لكل منهما ثم أسرعت إلى وضع زجاجة البراندي، وقسرت نفسها على الهدوء. فيجب ألا يلاحظ رافائيل عصبيتها. ولكنه سألها:

– وما المطلوب؟

سأل ليو:

– هل تريدان أن أترككما؟

ردّت بسرعة:

– لا، لا، يا سيد سامبسون بل أريد أن تبقى.

وابتسمت له ثم ركزت اهتمامها إلى رافائيل وقالت:

– سيد بلانشارد، منذ بضعة أسابيع عندما أتيت لزيارتي في كوخ الجزّارين، قلتَ لي أنك ستكون مستعدًا لكل شيء مقابل الحصول على فرصة للنوم معي.

قطّب ليو حاجبيه الأشيبين وقال لها:

- لنهدأ قليلاً!
لم تعرف بيتي ما إذا كان تحذيره موجهاً إليها أم إلى رافائيل.
انحنى رافائيل إلى الأمام ثم ضحك وقال:
- هل قررت أخيراً أن تستسلمي لـي. هـل الوعـد بأثـاثٍ جديـد هـو الذي...؟.
- أنا لا أريد أثاثاً جديداً. بل أريد فقط أن أعطيك فرصة النوم معـي. إذا أعطيتني فرصة الحصول على شيء أريده حقاً أنا أيضاً.
قطّب حاجبيه من جديد وزمَّ شفته السفلى الرطبة. وطقطقت في المدفأة قطعةُ حطب وسقطت رماداً.
تدّخل ليو وفمه أحمر من الارتباك والغضب وقال:
- أعتقد أنه ليس من الحكمة أن يتحدّث رب عمـل وموظفـة حـديثاً كهذا. هذا معيب، هذا...
- لقد تطرّق السيد بلانشارد إلى هذا الموضوع أكثر من مرة. وأنا أحاول فقط أن أحلَّ المشكلة مرة واحدة وإلى الأبد.
سألها رافائيل:
- وماذا تريدين؟
- هذا البيت والمواشي والأراضي أيضاً.
- أنت مجنونة. أنا لن أعطيك...
- ليس عطاءً بل مراهنة، وأنا سأراهن بجسدي.
انفجر بضحكة فرحة وشرسة فعرفت بيتي أنها كسبت الجولة الأولى، وهو سيقول نعم.
- أوه يا عزيزتي، لقد كشفتني. إننا نتكلم عن البوكر، أليس كذلك؟
وافقت بيتي، فقال:
- أنت تراهنين على ليلة معي، وإذا راهنت على البيت؟ يـا إلهـي هـل تتخيلين إذا خسرت؟ إن أبي سيُصاب بسُعارٍ سيقتله. بقليل من الحظ.
ضحك من جديد وانحنى أكثر وقال:

- هذا رائع.
- إذن؟ هل قبلت؟
- بكل تأكيد قبلت!
التفتت بيتي إلى المحامي وسألته:
- هل تريد أن تكون شاهداً على اللعبة وأن تضمن لي أن يتم نقل الملكية إذا ربحت؟
ظلّ ليو مذهولاً على مقعده. ثم سألته من جديد:
- هل أنت موافق؟
أجاب بنبرة فظّة:
- سأفعل ما يطلبه مني موكّلي.
فبادره رافائيل:
- أنا أطلب منك دون أدنى تحفّظ أن تجهّز الأوراق التي تؤكّد لبيتي أني آخذُ رهانها على محمل الجد.
ثم نظر إلى بيتي وأضاف:
- حتى وإن كنتُ أشكّ في أنك تستطيع حضور تنفيذ وعدها، يجب أن تصدّق كلامها عندما تقول إنها تفي به.
كبتت بيتي ارتعاشة وقالت:
- أنا أفي بوعدي.
- دعيني أكن واضحاً: عليك أن تفعلي كل ما أطلبه منك.
هزّت رأسها، فصفق بيديه فرحاً كطفل، ثم قال:
- لنفكّر، لنفكّر...كيف سنفعل؟ في ثلاثة أدوار؟ أعرف، سوف نلعب بالأزرار. هذا كل ما يمكنك أن تسمحي لنفسك باللعب به، يا بيتي، اليس كذلك؟ أزرار من غرفة الغسيل؟ وبعد ثلاثة أدوار، من يمتلك أزراراً أكثر يكسب.
- كما تريد.
- هل لعبتِ بالبوكر مرة واحدة في حياتك، أيتها المرأة؟

هزّت رأسها وقالت كاذبة:
- لا، ولكني راقبت أدواراً عديدة.
قهقه حتى السعال، ثم استردّ هدوءه وقال مخاطباً محاميه:
- بعد أسبوع تماماً، يوماً بيوم، اهتم بالأوراق هذا الأسبوع. أريد أن تحضر اللعب. سوف يتم ذلك بسرعة، وبعدها يمكنك أن تتناول العشاء.
ثم التفت إلى بيتي وقال:
- اذهبي الآن، ولا تقبّحي نفسك منذ الآن وحتى الأسبوع القادم، وشكراً لأنك سلّيتِني بهذا القدر.
نهضت بيتي، ومتّنت ركبتيها لئلا ترتعشان وهي ذاهبة إلى الباب. أمسك ليو سامبسون معصمها برفق وقال بصوت خافت:
- أنتِ لستِ مضطرة لفعل هذا.
- دعها يا ليو.
نظرت إلى المحامي، ابتسمت له بحزن وقالت:
- بلى، أنا مضطرّة.
- وهل تعتقدين حقاً أن بوسعك أن تكسبي؟
رفعت كتفيها، فأفلتت يدها، ثم أجابت:
- لقد تعبت من العراك.
- أنا أتأكّد من أن يكون كل شيء ضمن الأصول، بقدر ما يسمح بأن يكون كذلك هذا النوع من المعاملات.
- شكرا. هذا مطمئِن جداً.
ثم خرجت إلى الممر، وانغلق الباب خلفها، خارت ركبتاها وشعرت بالاختناق. منحت نفسها لحظة من الضعف قبل أن تنتصب من جديد كعمود من الفولاذ. لم تلعب وميكائيل إلا بأعواد الثقاب. فتجربتها مع هنري جعلتها تمقت القمار. ولكن كان يجب عليها أن تلعب مرة واحدة في حياتها، وستقامر بشيء عظيم، عظيم، عظيم جداً.

الفصل الخامس عشر

في خلال يومٍ واحد، علم سكّان المزرعة جميعاً برهان وايلدفلاور هيل. قالت لها أليس إنها أغبى امرأة صادفتْها في حياتها، ورفضت أن تكلّمها. وضحك تيري في وجهها حين قدمت له الصينية وعليها عشاؤه، ثم قال وخدّاه أحمران من الشمس ومن الشراب:

– لا أعرف ما إذا كنتِ غبية أم أنك امرأة سيئة حقاً. ولكن أرجو أن تمنحيني عملاً إذا ربحتِ.

في المساء الأول، ذهب ميكائيل إلى غرفتها وقال:

– هيا، سنتدرّب، فأنت تربحين.

– شكراً، ألف مرة.

ما كان في الأصل تسليةً تحوّل إلى أمر في غاية الجدّية. جلسا على سلّتي فواكه مقلوبتين ولعبا. ووزّع ميكائيل الورق، مرةً بعد مرة. في ذلك الأسبوع تدرّبا في كل لحظة فراغ، وتبادلا أعواد الثقاب مرة بعد مرة. لم تكن هذه الأعواد الخشبية تساوي شيئاً، أما مساء الأحد، فكل زرّ سيساوي وزنه ذهباً.

حتى وإن كانت بيتي موهوبة في هذه اللعبة، فقد بدأت تدرك إلى أية درجة هي متعلّقة بالحظ. هي تعرف متى تضاعف الرهان، وكيف تعوّض

الخسائر، ولكن ليس لديها أية سيطرة على الأوراق التي بين يديها. فأحياناً تخسر الدور دون أن تستطيع فعل شيء لتجنّب الخسارة.

عشية الرهان، وفي أثناء آخر سهرة تدريبية بينهما، سألها ميكائيل دون مواربة:

- إذا ربحت، هل ستحتفظين بي؟

شعرت بيتي بالحيرة، فهي لم تفكر بما ستفعله بالموظفين. إنها لا تملك المال لتدفع لهم، والسيارة التي يقودها ميكائيل ليست جزءاً من المكاسب المحتملة.

أجابت بقلب منقبض بسبب شعور بالذنب:

- لا أعرف. لا أعتقد أن هذا ممكن.

قال بنبرة فظة وهو يوزّع الورق من جديد:

- آه، لا باس.

- يمكنك أن تبقى الوقت الكافي حتى تجد عملاً آخر. وأليس أيضاً، حتى وإن كنت أشك في أنها تريد أن تبقى.

- كل شيء سينتهي على أية حال. وقد ترثين تجارة سيئة جداً.

مكثت بيتي ممزّقة بين شعورين سلبيين: الخوف وقلة الأمان. إنه ضرب من الجنون. إذا بقي لها قليل من الحس السليم، فستهرب إلى هوبارت، وتبحث عن عمل أو تنضم إلى طابور انتظار طالبي المعونات.

في تلك المرحلة، كانت بيتي مقتنعة بأن عليها أن تخضع، كأية مومس، لرغبات رافائيل الدنيئة في خلال ليلة كاملة، وستجد نفسها بلا عمل منذ صبيحة اليوم التالي. إذا سارت الأمور هكذا، فإنها غير جديرة بالاحتفاظ بلوسي. وستكون ابنتُها في حال أفضل مع أمٍ مثل مولي.

مد ميكائيل يده من فوق الطاولة ومسح بإصبعه دمعة انحدرت على خدّ بيتي، فهي لم تدرك حتى أنها تبكي.

وقال لها:

- نحن نربح أحياناً، ونخسر أحياناً. لا يهم. فنحن مستمرّون.

شرعت في ابتسامة وقالت:
– شكراً يا ميكائيل.
– هل نلعب دوراً آخر؟
– لنلعب دوراً آخر.

هناك نوعان من النساء على الأرض يا بيتي: أولئك اللواتي يفعلن الأشياء واللواتي يتركن الأشياء تُفعل.
نما انطباعٌ لدى بيتي بأن جسدها سوف يتفكّك من الداخل. جفّ فمها، وأخذت ضربات قلبها تخِزُ أضلاعها.
نوعان من النساء...
حاولت أن تسيطر على ارتعاش يديها وهي تفتح باب الصالون. كان رافائيل جالساً إلى طاولة اللعب اللامعة، يخلط الأوراق. لم يكن قد رآها بعد. بيد أن ليو سامبسون الذي كان جالساً على الكنبة رفع عينيه ووجّه إليها ابتسامة تشجيع.
أولئك اللواتي يفعلن الأشياء واللواتي يتركن الأشياء تُفعل...
أخذت شهيقاً عميقاً، ثم مشت بخطا متصلّبة حتى الطاولة وجلست مقابل رافائيل.
كان رافائيل ما يزال خافضاً رأسه، حين قال:
– يجب أن تعلمي، يا بيتي، أن ليو قد تفقّد الأوراق وكذلك أكمامي قبل بدء اللعبة لكي يتحقق من أني لا أخفي الآس.
رفع عينيه وانفجر ضاحكاً كمجنون، ولاقى نظرُه نظرها. رأت بؤبؤيه متسعين من الرغبة قبل أن يقول:
– أوه، أنت رائعة هذا المساء. فسوف أستمتع كثيراً. هل جلبت الأزرار؟
– لا، فأنا...
وهمّت بالنهوض، لكنّ رافائيل قفز عن كرسيه وهو يقول:

- أنا سأجلبها. فأنا أخشى كثيراً أن تهربي إذا تركتك تبتعدين الآن، فهيئتك متحجِّرة.

وأسرع في الخروج من الغرفة تاركاً بيتي وحيدة مع ليو سامبسون وخفقان قلبها.

قال ليو بصوت خافت عندما تأكد من أن رافائيل لا يستطيع أن يسمعه:

- بيتي... العقود معي وقد وقعها. وسوف أمزقّها إذا خسرتِ، أما إذا ربحت فإن المزرعة ستصبح لك، ملكية شرعية تماماً.

حاولت بيتي أن تركز على ما يقوله، وقالت:

- لقد فهمت.

- هو لم يعطِ موافقته إلا على البيت والأراضي والمواشي وسيأخذ قطع الأثاث والسيارة والباقي كله.

ثم عبس وأضاف:

- بيتي، إذا ربحت، ربما يكون من الأفضل لك أن تبيعي كل شيء وتستخدمي هذا المال بحكمة أكبر. اشتري به بيتاً صغيراً في المدينة.

لن يكون لديها مال لكي تأكل فقالت:

- هل هي مزرعة جيدة؟

- إنها تجارة خاسرة، ولكن هذا لأنها أديرت بشكل سيء. إن قدرة استيعاب هذه الأرض كبيرة. إذ يمكنك أن تربي فيها سبعة أو ثمانية آلاف خروف. وإذا اعتنيت بها جيداً يمكنها أن تجعلك غنية.

وافقته بيتي. فسوف تأخذ قليلاً من الوقت لكي تقنع هنري بأن يعيد إليها لوسي. سيكون هناك ربح من هذه المزرعة.

قالت مصمّمة:

- إذا ربحت فسأحتفظ بها.

سمعا وقع خطوات، فقد عاد رافائيل، وقال لها:

– أتمنى لك حظاً جيداً يا عزيزتي. وإذا لم تَسِر الأمور كما تعنيت فأرجو أن تكوني شجاعة.

وخزت دموعُها عينيها. تنفست جيداً ويداها ثابتتان: فهي على وشك أن تكتشف إلى أية فئة من النساء ستنتمي، في نهاية المطاف.

العالم تباطأ. رمى رافائيل الأزرار التي لمعت على الطاولة، وقسّمها إلى قسمين متساويين. فجعل كومةً لبيتي والأخرى له. وكانت بأحجام وأشكال مختلفة. ولاحظت أن بينها زراً أحمر على شكل عقدة. إنه زر أحد فساتين لوسي. دفعت ثلاثة أزرار إلى الأمام، ففعل مثلها.

ثم وزع الأوراق الأولى. أخذتها وأغمضت عينيها قبل أن تنظر إليها. قالت لنفسها إن عليها أن تتخيل نفسها في غرفتها، تلعب لتزجية الوقت، مساء، مع ميكائيل.

ثم فتحت عينيها:

بنتان وأربعة وستة واثنان.

بثقة مترفة رمى رافائيل إحدى أوراقه ثم أخذ ورقة أخرى. أضاف زراً إلى الكومة. ثم استند إلى مسند كرسيه ونظر إليها.

إن لديه أربع أوراق تحوي شيئاً ما. هل لديه أربع أوراق آس؟ أم أربع أوراق من اللون نفسه أم إنه يسعى إلى الفول؟

تخلصت من أوراقها غير المفيدة ثم أخذت ثلاثاً أخرى: دون أية قيمة. قررت أن من الأفضل لها ألا تفقد كثيراً من الأزرار باكراً جداً في هذا الدور، وراهنت فقط لكي ترى لعبه.

لديها بنتان. ولديه أربعة ملوك.

خسرت الدور الأول وبات الآن يملك ثمانية أزرار أكثر منها.

أخذ رافائيل يضحك وهو يجمع كومته. ظلّت نظرتُه الزرقاء الشاحبة مثبَّتة على بيتي. اجتهدت في ألا تريه خيبتها، ولكنها تعرف أنها مرتسمة على وجهها. فلأول مرة تتخيله وهو يمارس الحب معها. أصابعه باردة وشفتاه رطبتان، وبطنه رخو...

سألها بصوت فرح:

- هل نلعب دورا آخر، يا بيتي؟

هزت رأسها موافقة وبلعت ريقها لكي ترطب حلقها. أية غبية هي! قالت:

- دور آخر.

وراهنت بثلاثة أزرار وهي وتقول لنفسها إن هذه هي الطريقة الوحيدة لتعوض خسارتها.

وزع الأوراق من جديد. سارعت إلى جمعها لكي تنتهي بأسرع ما يمكن: هذه المرة كان معها آس واثنان وأربع وستة. أخذ حلقها يصرخ. لو كانت تلعب مع ميكائيل، لكانت الأمور أسهل. كانت سترمي الستة وتأمل أن تحصل على أربعة أخرى أو آس. راهنت مراهنة ضخمة.

وكانت هذه هي الحالة. أربعة. فلديها فول. تسلّحت بشجاعة وقدمت سبعة أزرار أخرى.

رآها تفعل ذلك فزاد عليها بسبعة أزرار. تراجعت ونظرت إليه لترى وأرته أوراقها. نظر إليها وشخر ورمى أوراقه.

غمرها الارتياح. جمعت الرهان. فالآن ستلعب بستة وعشرين زراً.

كل شيء سيُلعب في الدور الأخير.

لم تشعر بيتي بهذه العصبية في حياتها. أحسّت بألم في بطنها، وانتباها شعور بأن دمها يغلي في عروقها. الأمل في الممكن: ليس الهرب من يدي رافائيل فحسب، بل كسب البيت. يجب عليها أن تتعامل بعنف لكي تبقى مركزة.

من جديد، لم يغادرها رافائيل بعينيه الغاضبتين والراغبتين في آن معاً. دفع بثلاثة أزرار، وراهنت بثلاثة من أزرارها. وسقطت الأوراق أمامها فجمعتها.

أسوأ يد ممكنة. اثنان واثنان وأربعة وخمسة البستوني وملك. هي لا تدري أبداً ماذا تفعل. ولم يتأخر رافائيل في رفع الرهان إلى عشرة أزرار.

رمى ورقتين. هل حصل على الأوراق الثلاث؟ إذا كان الأمر كذلك فقد خسرت. ترددت، فهي لا تعرف الخطوة التالية. ثم تبعت رهانها وقررت أن تتخلص من أوراق البستوني، من أجل الحصول على ملك آخر أو ورقة اثنان أخرى.

نعم، إنه ملك آخر، غلى دمها بأجمل ما يكون. راهن رافائيل بعشرة أزرار أخرى، فهو واثق من نفسه. أجرت حساباً سريعاً في رأسها. إذا ربح فسيملك عشرين زراً أكثر منها. وإذا نامت سيكون هناك تعادل، ولن يربح أحد. فيجب أن يلعبا دوراً حاسماً.

ثم أخذ ورقة أخرى وأطلق صوتاً يدل على ارتياح. انقبض قلب بيتي. رفع إليها نظره وعلى شفتيه ابتسامة.

عندها رأتها: حركة خسيسة في بؤبؤية المتصاغرين. فكرت في كل المرات التي راقبت فيها هنري يلعب في غلاسكو، وبتصاغر بؤبؤيه الأسودين في وسط قزحيته. رافائيل يغش. فهو يريدها أن تنام لكي يلعب دوراً رابعاً.

قدّمت عشرة أزرار ثم خمسة أخرى. سقط قلبها وغزاها الشك.

تفكك وجه رافائيل، وهو يقول:

- هيا، أريني.

وضع أوراقه. ليس لديه شيء. من الواضح أنه كان يأمل في ورقة ملونة. وعرضت أوراقها.

صاح:

- لا!!!

وقفز عن كرسيه كطفل مدلّل، ورمى الأوراق عن الطاولة فطارت حتى بيتي، واستقرت على ركبتيها.

- لا! لا! لا!

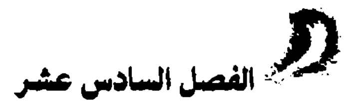
وكانت كل لا من لاءاته مصحوبة بضربة من قبضته على الطاولة. نهض ليو وحاول أن يهدّئه. ولكن الضوضاء التي أحدثها والاضطراب

الذي أخذ بهزّه كانا آتيين من بعيدٍ جداً. ظلّت بيتي جالسة بصمت، تحت الصدمة. لقد فعلته. لقد فعلت شيئاً ما.

ولن تدع نفسها بعد الآن يُفعل بها من أي شخص.

وقفت بيتي على رأس هضبة على بعد عشر دقائق مشياً من المُلكية. حقول عشب تتماوج أمامها، والغابة المخضرّة بأشجار الأوكاليبتوس ترسم حدود المزرعة. هضاب خضر إما تنيرها الشمس أو تختفي في الظل. والصمت، والصمت يرين في كل مكان.

كيلومترات وكيلومترات من الصمت، وكلها تعود ملكيتها إليها.



الفصل السادس عشر

إيمّا، تسمانيا، 2009

سائق سيارتي المستأجَرة لا يكفّ عن الكلام. وأنا مستعجلة للتخلّص منه، وبحاجةٍ لمدّ ساقي. فقد بقيت ركبتي المتألمة مطوية طوال ساعتين في الطائرة، ومنذ أكثر من ساعة بعد وصولي إلى المطار. حاولت أن أمدّ ساقي في المقعد الخلفي للسيارة، ولكن هذه الوضعية سبّبت ألماً واخزاً في ظهري وفي ردفيّ.

كنتُ أهزّ رأسي وأوافقه عندما كان يجب ذلك في أثناء مونولوج السائق، وأنا أتحرّق للوصول إلى مقصدي، وللتمكّن من الاستراحة في مكان ما. وصلنا إلى طريق ترابي، ثم اجتازت السيارة بوابة حجرية، وسارت في الممر. تأمّلت واجهة الملكية، فأنا لم أرَها من قبل إلا في الصورة. الحجارة الرملية القديمة، والنوافذ ذات الألواح الزجاجية الملونة، والحديقة التي تغزوها الأعشاب. ما إن توقّف السائق لكي يسترد أنفاسه، حتى ناولتُه إكرامية وأسرعتُ في النزول من السيارة لكي آخذ شهيقاً عميقاً من الهواء النقي والمنعش. المكان في غاية الهدوء. توجّه السائق نحو صندوق سيارته لإنزال حقائبي. وضعها أمام المدخل. كانت الأوبوسومات تغطّي الأرض الرمادية.

توقف، رفع كتفيه باتجاه شجرة موجودة إلى الجهة الجنوبية من البيت ثم قال:

- الأوبوسوم!

- الأوبوسوم؟

- إنها تتلفها.

نظرت إلى الشجرة المقصودة، وعند أسفل جذعها توجد كومة من الأغصان الرمادية والبيضاء نمَتْ عليها أعشاب خضراء وشائكة. سألته:

- هل الأوبوسوم تتلف الشجرة؟

- إنها تأكل النباتات الجديدة. انظري، هذه الجهة من الشجرة تموت. عليك أن تأتي ببستاني لكي يضع عقداً.

- على الأوبوسوم؟

- بل على الشجرة.

- أوه، لقد فهمت.

لم أفهم نهائياً، فأنا لا أعبأ كثيراً بهذا. فتشت في حقيبة يدي لأجد حزمة المفاتيح التي أعطاني إياها السيد هيبيرد. وصلت التيار الكهربائي والغاز والهاتف. ولكن آخر مرة وضع فيها أحدٌ قدمه هنا تعود إلى ما قبل وفاة بيتي، قال. وأتخيل أنها مغبرّة كثيراً. هل أنت بحاجة إلى مساعدة من أجل ترتيب المزرعة؟

رفضت. فأنا لا أرغب في رؤية أناس هنا ولا في اتخاذ أصدقاء: أنا معقدة جداً. لقد نويت أن أشغل وقتي بالتنظيف بمفردي، وقد حجزت في طائرة العودة بعد ثلاثة أسابيع.

ذهبت سيارة الأجرة بسرعة وتركتني للصمت وللرياح. فتحت الباب الرئيس بهدوء.

كانت الشمس تنير أرضية ممر طويل. الغبار يتراقص في الهواء. وداخل البيت مظلم وتفوح منه رائحة الانغلاق. تقلّصت رئتاي. تركت

الباب مفتوحاً خلفي والحقائب على الدرج الأمامي ودخلت وحزمة المفاتيح تخشخش في يدي.

رأيت أمامي درجاً كبيراً، فقررت أن أعتني به فيما بعد، وأن أقوم أولاً بجولة في الطابق الأرضي. بدأت بفتح الأبواب، الواحد تلو الآخر. وجدت في البداية غرفة صغيرة مليئة بالكراتين، ثم غرفة الطعام، وكان فيها غطاء أبيض يُفترض أنه كان يحمي من الغبار، كان قد انزلق إلى الأرض منذ زمن طويل. مررت إصبعي على الطاولة فاكتشفت طبقة سميكة من الغبار. فأخذ أنفي يحكني. ووجدت كراتين أخرى في غرفة الطعام مصفوفة بشكل جيد بمحاذاة الجدار، قرب المدفأة. فتحت الستائر لأجد منظراً يطلُّ على المر وعلى المدخل. وبما أن النافذة قد ظلّت مغلقة لزمن طويل فقد طقطقت بقوة عندما فتحتها. دخلت الريح وأخذ الغبار يتطاير من حولي. عطست بطريقة فقدت فيها السيطرة على نفسي ولبضع دقائق قبل أن أذهب إلى الغرفة الموجودة في الجهة الأخرى من المر.

ربما كانت صالوناً قديماً، ولكن باستثناء كنبة وبيانو فقد كانت الغرفة مليئة بالكراتين. كراتين مستعدة للاحتضار تحت وطأة الزمن ومتهالكة ومشقّقة. وكان يوجد أيضاً علب بلاستيكية تحوي أشياء أحدث: أوراق وكتب وبطاقات عيد ميلاد... انفطر قلبي. فقد وقعتُ على بطاقة كنت قد أرسلتها إلى جدتي عندما كنت طفلة. صورة سوسنة على وجه الورقة، وبخط يد طفلة عمرها تسع سنوات كتبتُ على قفا البطاقة: *جدتي العزيزة بيتي، عيد ميلاد سعيد وأحبك، إيمّا.*

دموع. من أين أتت؟ وضعت البطاقة في العلبة ثم مسحت دموعي. وحين اتصلت بي أمي لتخبرني بوفاة جدتي شعرت بصدمة كهذه. كان عمرها أكثر من تسعين سنة، ولكني لطالما تخيلتها قوية وخالدة. كانت تبدو قوية جداً، ولطالما فكّرت أني سأراها.

الدموع والغبار جعلاني أعطس من جديد. فتحت نوافذ أخرى، ثم الأبواب التي تؤدي إلى الفناء. ذهبت إلى المطبخ وتركت النور والهواء النقي يدخلان.

ثم استجمعت شجاعتي: سيطرتُ بصورة أفضل على الدرج ولكنه ما يزال يثير أعصابي. قدم أمام الأخرى، أمسكت بقوة بالدرابزين المغبّر. وحين وصلت إلى الأعلى استرحت دقيقة لكي أريح مفصلي، فهو يخزني قليلاً. الموكيت الموضوعة في الطابق الأول تجعل الجو خانقاً أكثر. تنقلت من غرفة إلى غرفة وفتحت الستائر والنوافذ وتركت النسيم يدخل. استغربت عدد الكراتين المليئة بأشياء بيتي. فهي لم تعد تسكن في وايلدفلاور هيل منذ عشرات السنين قبل وفاتها، ولكن من البدهي أن هذا البيت كان بمثابة مستودع بالنسبة إليها. ولربما كانت تنوي أن تعود إليه ذات يوم لكي ترتبه. أو أنها نسيت كل ما يوجد هنا.

خلف الغرفة كانت الغرفة الرئيسة. وعلى الرغم من الموكيت المتآكلة وورق الجدران المصّفر ذي الرسوم والأشكال، فإنها تبدو واسعة ومشمسة ونافذتها تطلُّ على أغصان شجرة الأوكاليبتوس الكبيرة التي أبدى سائق سيارة الأجرة أسفه عليها. في الطرف الآخر من السياج كان يوجد ساتر من الخشب وملجأ قديم مفتوح وأنقاض ما كان يجب أن يكون في الماضي اسطبلات. وحوله تمتد حقول تتماوج على مد النظر. الصمت المطلق يخيم، باستثناء هبات الرياح على الأشجار. ثم هدأت الريح وبات الصوت الوحيد الذي أسمعه هو ضربات قلبي. لم تبقِ بيتي سوى ثلاثة هكتارات من الأرض، وباعت الباقي، بما فيه المواشي، منذ زمن طويل. في البداية كانت تملك ألف هكتار، وتجارة مزدهرة. لا أستطيع حتى أن أتخيل ما كانت تمثله الألف هكتار، ناهيك عن العمل الذي كانت تتطلبه. كانت جدتي تبدو سيدة مميزة جداً في شيخوختها، تهتم بالموضة والأقمشة أكثر من اهتمامها بالحياة في المزرعة.

رفعت أغطية حماية قطع الأثاث، سرير إطاره حديدي وخوان من خشب السنديان مع مرآة منقطة وطاولات ورف مليء بالكتب المتآكلة وصندوق من خشب الكافور من أجل غسيل البيت.

أغلقت باب الغرفة الرئيسة وقررت ألّا أنام فيها في أثناء إقامتي فقد كانت ستعطينني الانطباع بالاستقرار هنا لزمن طويل. بل اخترت إحدى الغرف الصغيرة التي تقع في الجانب الغربي من البيت من أجل الاستفادة من ظلمتها صباحاً. فتحت النوافذ، ورفعت الأغطية الواقية وشعرت بالإرهاق بسبب العمل الكثير الذي ينتظرني. ترتيب البيت، والفرز. أنا لم أتخيل الأمور بهذا الشكل. فقد كنت أعتقد أني سأهتم بكرتونتين أو ثلاثاً وأرسل معظمها إلى المكبّ، وأمنح المكان بعض البريق، وأترك الباقي لأصحاب الوكالات العقارية. لكني أدركت الآن أن أياً من هذه المهام لن تكون سهلة ولا سريعة. ربما كان هذا ممكناً لو أني أمتلك قواي البدنية بشكل كامل... ولكني لو كنت سليمة الجسم لما وُجدتُ هنا.

نقرة على باب المدخل ومناداة ودّية منعاني من أن أتحسر طويلاً على مصيري. زيارة؟ الآن؟ لقد رُويت لي قصص عن أهل الريف ولكني كنت أتمنى ألا تكون صحيحة. فأنَا لا أودُّ أن أستقبل الضيوف طوال الوقت. فأنا لست موهوبة في استقبال الناس، وأنا عاجزة عن الكلام حول المطر والطقس الجميل. كنت أقول دائماً ما لا يلزم، وفهمت بعد ذلك أو انتهى بي الأمر بأن أكون شخصاً متصلّفاً.

غادرت الغرفة وذهبت إلى أعلى الدرج ثم توقفت. فأنا لا أرغب حقاً في النزول إذا لم يكن الأمر ضرورياً.

صرخت:

– من هناك؟

ردٌ صوت امرأة:

– إن السيد هيبيرد قد أرسلني. الباب مفتوح، فهل أستطيع الدخول؟ أنا أعلم أن ركبتك مصابة.

السيد هيبيرد! لقد كنت واضحة معه حول مسألة أني لست بحاجة إلى مساعدة. وقبل أن يُتاح لي أن أجيب، كانت قد دخلت وإحدى حقائبي في كل يد، وقد وصلت إلى أسفل الدرج. إنها شابة، ربما في العشرين من عمرها، وشعرها الأشقر مجموع كذيل حصان وهي تلبس بنطال جينز وتيشيرت أزرق.

بادرتني قائلة:

- طاب نهارك، أنا أدعى مونيكا تايلور.

- إيمّا.

أجابت بابتسامة:

- أنا أعرف من تكونين. والناس جميعاً في المدينة يعرفون من أنت.

- وهل سيأتون جميعاً لزيارتي دون سابق إنذار؟

أسفتُ على قلة ذوقي بمجرّد أن خرجت هذه الكلمات من فمي. منذ متى أصبحتُ هذه المرأة العجوز الشّكِسة؟

هزّت مونيكا رأسها، ثم قالت:

- حسنٌ، اسمعيني، لقد دفع لي السيد هيبيرد أجراً لكي آتي إلى هنا بعد الظهر. ولقد كان أبي يعتني بالحديقة منذ أن كان فتى، فتقديم المساعدة تقليد في أسرتنا. لدي كثير من الأشياء لك في سيارتي. غسيل نظيف ومشتريات، وحتى أزهار. وأنا هنا لا لكي أزعجك ولا لكي أصبح صديقتك، بل أتيت لكي أضع الأشياء التي جلبتُها لك وأذهب.

تنهّدتُ وقلت:

- أنا آسفة. إن الدرج هو الذي يقلقني. أعرف أن عليّ أن أعتاد عليه، وأنا أتدبّر أمري بصورة أفضل من ذي قبل.

شرعتُ في ابتسامة ثوم أضفت:

- أنا ممتنّة لك. دقيقة واحدة وأنزل.

- لا داعي لذلك. فأنا سأضع الأشياء في المطبخ فقط.

وخرجت. نزلت الدرج ـ الأمر الذي كان بالنسبة إليّ أصعب من الصعود ـ، ثم وصلتُ إلى المطبخ. أصرّت على أن أجلس، وهي تقول:

– لقد أخذتُ أجراً، دعيني أستحقّ هذا المال.

شغّلت البرّاد، وأزالت غلاف أبريق كهربائي جديد، وجلت بعض الأطباق والفناجين ووضعت المشتريات في أماكنها دون أن تكفّ عن الكلام لحظة واحدة. هي لم تقابل بيتي من قبل، ولكن المدينة كلّها كانت فخورة بها، وباستقلالها وبروحها وبالطريقة التي أصرّت بها لكي يُصنَع خط ملابسها من صوف تاسمانيا، ويُباع عالمياً. كنتُ أصغي إليها وعيني على الإبريق وأنا أتحرّق شوقاً لشرب فنجان من الشاي.

لا بدّ أن مونيكا قرأت أفكاري فقالت:

– وإذا حضّرت لك الشاي، قبل أن أختفي عن نظرك؟

اقترحت عليها محاولة من جديد أن أتدارك قلة الحياء الذي أبديته لها سابقاً فقلت:

– لنشربه معاً!

ابتسمت مونيكا وأجابت:

– بكل سرور.

شربنا الشاي معاً. وروت لي أنها عملت في هوبارت ولكنها كرهت الحياة في المدينة في هذه الآونة. حاولت أن أنفجر ضاحكة: فهوبارت مدينة صغيرة جداً. ثم عادت إلي ليوينفورد مع أخيها الذي يعلّم اللغة الإنكليزية في ثانوية المنطقة. بدأتْ بالقيام بأشغال صغيرة والعمل لبضع ساعات في الأسبوع في صيدلية مجاورة. بينما كانتَ تتكلم أخذتُ أفكر بالأعباء الثقيلة التي تنتظرني هنا. فإذا كنت أريد أن أسافر بعد ثلاثة أسابيع، سوف أحتاج إلى مساعدة. فقلت لها:

– مونيكا، إذا كنت تبحثين عن عمل، ربما أستطيع أن أدفع لك أجراً لكي تأتي إلى هنا يومين أو ثلاثة في الأسبوع وتساعديني في

الترتيب. سوف أبيع الملكية ولكن يجب أن أفرّغها أولاً. هناك مئات الكراتين، وهذا البيت يحتاج حقاً إلى عملية تنظيف هائلة.

- أنا أعشق هذا. وسيكون عظيماً ورائعاً. وكنت أتساءل كيف ستتدبرين أمرك وركبتك في هذه الحالة. ستكونين بحاجة إلى المساعدة بكل تأكيد. متى تريدين أن أبدأ؟ الآن؟ أستطيع أن أنظّف المطبخ بينما تأخذين قسطاً من الراحة.

حتى وإن نما لدي انطباع بأني أصبحت جدة، يجب علي أن أقبل أنّ فكرة أن أقيل في شراشف نظيفة بينما يُعتنى بمطبخي تسرّني كثيراً، فقلت:

- لقد وقعنا الصفقة. هيا ابدئي!

نحو الساعة الثالثة صباحاً، أيقظني صوت المطر وتذكّرت أني تركت النوافذ كلها مفتوحة لتهوية البيت. في البداية بقيت في السرير، أستمع. اشتد المطر وامتزج مع الرياح فأدركت أن علي أن أنهض وأن أواجه محنة الدرج.

أضأت الأنوار كلها. فقد عاودتني ذكريات الليلة التي سقطت فيها. نجحت في النزول وانتابني شعور غامض وغبي بالفخر. مررت إلى الغرف كلها وأغلقت نوافذها. انحصر الغبار من جديد في الداخل. ثم صعدت الدرج من جديد وأويت إلى فراشي.

الآن، أنا متيقّظةٌ تماماً، وبات من المستحيل أن أعود إلى النوم.

أمعنت النظر في السقف واستمعت إلى صوت المطر وحسبت الساعة التي تكونها الآن في لندن، وتساءلت حول ما يمكن أن يقوم به جوش الآن، ومن يمكن أن يوجد في استديو الرقص، وما إذا كانت أوراق السنديان الكبيرة المقابلة لشقتنا قد سقطت كلها أم لا. وبما أن الأمر كان صعباً جداً، فقد قسرت نفسي على ألاّ أفكر في شيء خلال لحظة.

أدركت أن درجة الحرارة قد انخفضت، وفجأة لم أعد مرتاحة في هذا السرير فأنا بحاجة إلى لحاف.

من جديد نهضت وذهبت إلى الغرفة الرئيسة حيث يوجد صندوق مليء بالغسيل. عندما فتحته أحاطت بي رائحة نفتلين قوية. سحبت الأغطية المطوية في الأعلى وهززتها. كانت حائلة اللون وقديمة ومن العبث الاحتفاظ بها، عملياً. الصندوق ومحتوياته سينتهيان إلى المكبّ في نهاية الأسبوع. وكانت مونيكا قد قالت لي أن أخاها باتريك يمكنه أن يأتي ليساعدني في حمل الأشياء الثقيلة.

في الأسفل تماماً اكتشفت لحافاً رمادياً وخشناً تفوح منه رائحة النفتلين إلى درجة جعلتني أوشك أن أبكي. قلت لنفسي إني أستطيع ببساطة أن أرتدي طبقة إضافية من الملابس بالنسبة لهذه الليلة. كنت على وشك أن أرتب الأشياء كلها، حين لاحظت وجود دفتر حسابات قديم في أسفل الصندوق. قلبت صفحاته، فكانت بيضاء. ومع ذلك، تماماً لحظة تأهبت لرميه في الصندوق انزلقت منه صورة لتحط على سطر الشراشف.

تناولت الصورة. كانت بالأبيض والأسود. وقد أتلفت الرطوبة زاويتها اليسرى. إنها صورة زوجين يرتديان ثياباً متواضعة ولكنها معتنى بها: كان الرجل يرتدي بدلة والمرأة فستاناً لائقاً وقبعة وقفازين. كانا يقفان في الشارع والمرأة تحمل طفلاً يعتمر قبعة منتفخة.

أخذتُ ثانية حتى فهمت أن هذه المرأة هي جدتي، دون أدنى شك. فقد تعرفت إلى عينيها المستديرتين وخديها الواسعين وابتسامتها التي ورثتها، التي كانت تناسبها كثيراً بينما تمنحني هيئة حمقاء.

ولكن من هو هذا الرجل الذي معها؟ إنه ليس جدي، فهو أطول منه وأنعم. وهذا الطفل؟ فأمي وخالي مايك ولدا هما الاثنان في الخمسينيات وهذه الصورة يبدو أنها التقطت قبل ذلك بكثير.

رائحة الرطوبة سببت لي ألماً في جيوبي. وضعت الصورة على الأرض وأعدت الغسيل إلى الصندوق ثم أغلقته. ذهبت إلى الحمام لأغسل يدي، ثم عدت وأمسكت بالصورة وحملتها إلى سريري. تحت نور المصباح، درست عن كثب الرجل الذي كان يطوق بيده خصر جدتي: كأنهما زوجان. زوجان مع طفل. ولكن لا بدَّ أني مخطئة. فقد يكون هذا الرجل ابن عم أو صديق قريب من العائلة. فنحن لا نعرف أشياء مهمة عن عائلة جدتي التي بقيت في المملكة المتحدة. قلّبت هذه الفكرة أكثر من مرة في رأسي ثم وضعت الصورة في درج طاولة سريري وأطفأت النور بانتظار أن يطلع الصباح.

لا بدَّ أني غفوت ما يكفي لكي أحلم. كنت عائدة إلى لندن وكانت غرفتي مليئة بطيور تصدر أصواتاً مُصمّة. استيقظت فزعة لأدرك أن هذه الضوضاء واقعية ـ فأنا لم أسمع في حياتي طيوراً تغرد في الوقت نفسه. نهضت، وفتحت النافذة، وبذهول استمعت إلى تغريدها الصباحي الذي يأتي من الأشجار الواقعة خلف البيت والذي تحمله الريح. بحق الشيطان لماذا يتكلمون عن الطابع الهادئ للريف؟ كانت هذه الطيور أكثر صخباً من السيارات اللندنية.

الحلم بلندن جعلني مكتئبة. عدت إلى سريري، أغمضت عيني بقوة وقاومت الرغبة في تخيل ما يمكن أن يفعله جوش في هذه اللحظة. بل تساءلت ما إذا كان قد علم أني غادرت إنكلترا وأن عملي قد خرب.

جلست. بكل تأكيد، هو لا يعرف شيئاً عن هذا. خبر جرحي نُشر في الصحف، ولكنه لا يقرأ أبداً سوى زوايا الأعمال أو المال. جوش لا يعرف *شيئاً عن هذا*. ولكنه إذا عرف، فربما سيشفق عليّ و...

آي. هل أنا يائسة إلى درجة أن أكتفي بالشفقة؟

نظرت إلى ساعة يدي، قرب السرير. إنها الساعة العاشرة في لندن. لا يمكنني أن أتّصل بجوش، بل يمكنني أن أتصل بأديلاييد. صحيح أنها لم تعد موظفة عندي، ولكنها ستوافق على مساعدتي، بكل تأكيد.

أولاً، يجب عليّ أن أصارع الدرج من جديد. في الدرجات العليا، أخذ قلبي يخفق. متى سأتخلص من هذا الشعور؟ قلتُ لنفسي، إن أحداً ليس هنا ليراني، فجلست على أول درجة، وساقي المريضة ممدودة أمامي ونزلت الدرج على إلْيتَيٌ، كطفلٍ، حتى الأسفل. على الأقل هذا يجنّبني الشعور بالدوار.

لم يكن يوجد سوى هاتف واحد معلّق على الجدار في الممر السفلي. حقاً أنا بحاجة إلى هاتف لاسلكي مع قاعدة له في الطابق الأعلى أو إلى هاتفي المحمول، ولكنني لن أبقى هنا الوقت الكافي لكي أشغل نفسي بذلك. سوف أتصرّف بالوسائل الموجودة هنا. ركّبت نداء لندن ثم رقم أديلاييد وانتظرت أن ترفع السماعة.

– آلو؟

بدت لاهثة كما لو أنها كانت تركض.

– مرحباً أديلاييد، أنا إيمّا.

جعلتها المفاجأة تصيح:

– أوه، إيمّا! ظننت أن المتصل هو رب عملي الجديد.

– من أجل من تعملين الآن؟

تنهّدت وأجابت:

– ألبرتو موريتي.

– لا! الفاشي الطائر؟ وكيف حصلت على هذا العمل؟

– لقد استقالت مساعدتُه الأخيرة في الأسبوع الذي سافرتِ فيه إلى أستراليا. ونعم، إن العمل معه فظيع جداً. فهو يتصل بي في أية ساعة من النهار أو من الليل، ويطلب مني دائماً أن أعمل أسرع من الموسيقى.

ثم ضحكت وأضافت:

– أنا مسرورة جداً لسماع صوتك، فهو يذكّرني بالزمن القديم، يوم كنتُ أعمل عند شخص طبيعي.

– كنتُ طبيعية؟ كنتُ أظن أني كنتُ أنانية جداً.

- نعم، ولكن، أنانية لطيفة. وكيف هي سيدني؟
- أنا لستُ في سيدني، بل في تاسمانيا، على بعد ستة كيلومترات من مدينة صغيرة تدعى ليوينفورد، ووصلت إليها عبر طريق ترابي يهزّ الإليتين هزّاً. فقد تركت لي جدتي بيتاً عليّ أن أنظّفه لكي أبيعه..
رويت لها القصة كلّها، حتى قصة الصورة الغامضة التي وجدتها للتو. أعرف أني أدور حول الموضوع، وأنا مُتعيّبة جداً في أن أقول لها سبب اتصالي.
قالت لي بعد بضع دقائق:
- أنا آسفة يا إيمّا. فعليّ أن أغلق الخط. أنا واثقة من أن أالبرتو يحاول أن يتصل الآن، وسوف يغضب لعدم تمكّنه من التكلّم معي.
- انتظري، أنا أريد فقط...هل لديك... أخبار عن جوش؟
صمتت أديلاييد للحظات ثم قالت:
- جوش؟ لا.
- أديلاييد، أنا أعرف أنك ستعدّينني حمقاء... ولكني أتساءل ما إذا كان جوش على علم بحادثي و...
لقد علم بذلك، فقد اتصل بي حين كنتِ تُجرين إحدى العمليات الجراحية، وكان قد علم بذلك من الصحف.
أحسست بضعف وسألتها:
- ولماذا لم تخبريني بذلك.
- هو من طلب مني ذلك، فهو لا يريد ...لا أعرف...
- أن يعطيني آمالاً زائفة؟
- نعم، هذا ما قاله.
أحسست بالألم واحتجت للحظات لأستردّ أنفاسي.
لكنّها كررت قائلة:
- حقاً يجب علي أن أذهب.

- إذا رأيته قولي له إني أسكن في أستراليا وأعطيه رقم هاتف أمي، وأنا ساعود إلى سيدني بعد بضعة أسابيع.

سألتني بصوت هادئ:

- ولماذا لا تتصلين به مباشرة، فقد بقيتما معاً زمناً طويلاً. وأنا متأكدة من أنه سيُسرّ لمعرفة أخبارك.

كبحت ضحكة مريرة، وقلت:

- لا أحبّ أن يعتقد أن لديّ آمالاً زائفة.

أعطيتُ أديلاييد المعلومات المتعلّقة بي كلّها وأغلقت الخط ثم ذهبت إلى المدخل الرئيس وخرجت لاستنشاق هواء الصباح النقي. العصافير ما تزال تغرد، والشمس التي ما تزال منخفضة ترسل أشعتها على الحقول لتوقظها، والسماء تكتسي ثوب الأحلام الأزرق. إن هذه المناظر جديرة بأجمل ألبومات الصور. أنا أعرف أن عليّ أن أُغمَر بهذا السلام كله وهذا الجمال كلّه. ولكنني أشعر أني فارغة وتائهة.

بعد الفطور، أتت مونيكا. بينما تجاوزتني نهائياً فكرةُ التنظيف الكبير للبيت، فقد ظهرت فعالة ومنظّمة.

- هل تريدين أن أبدأ بتنظيف الغرفة الرئيسة؟

سألتني ذلك وهي تضع في البرّاد دستة بيض وقطعة من صدر الخنزير المدخّن بادرت هي إلى شرائها.

- لا، أنا أريد أن أنام في الغرفة الأقرب إلى الحمّام.

- ومع ذلك، فإن الغرفة الرئيسة واسعة ومشمسة.

- هل تعرفين ما يكون جيداً؟ هو أن تقولي لي ما إذا كان أحد هذه المفاتيح يفتح البيت الصغير في الطرف الآخر من السياج.

أوضحت وهي تأخذ حزمة المفاتيح:

- غرفة الجزّازين السابقة؟ سوف أرى. وسوف أحضّر غرفتك وحمّامك. فعلى الأقل يجب أن تكون الغرف التي تستخدمينها نظيفة.

تركتها تعمل، وذهبت إلى الصالون لكي أسحب الكراتين.

عندها أدركتُ أن جدتي لم تكن ترمي شيئاً، وأن رميها بات أكثر فأكثر صعوبة عليّ. فقد احتفظت بالرسائل كلّها وبالبطاقات التي تلقّتها كلّها، وكانت بعض الأوراق مصنّفة جيداً في مصنفات: فواتير الكهرباء العائدة إلى سنوات والتي لم تعد تخصّ هذا العنوان. سهلة الرمي. ولكن من الصعب علي أن أرمي هذا السطر من الرسائل تبادلها جدّاي بينما كان جدي غائباً، وبقيت جدتي مع الأولاد. جعلت أتسلّى باستمرار. توقّفت للقراءة ثم أدركت أن الزمن محسوب عليّ. خلقت سطراً من «ربما تُحفظ» على البيانو. وكلّما مرت الأيام كلّما تغالطت.

جرّبنا مفاتيح الحزمة كلّها، ولكنّ أياً منها لم يفتح باب كوخ الجزّازين. أردت أن ألقي نظرة إلى الداخل عبر النوافذ المغبرّة، ولكن الستائر القديمة المصنوعة من الفيشي سدّت علي النظر. اتصلتُ بالسيد هيبيرد فلم يستطع أن يساعدني، بل قال:

– لقد أعطيتك المفاتيح كلّها. يجب أن تستعيني بنجّار.

لم أكلّف نفسي عناء ذلك، فقد رأيتُ أن الكوخ فارغ.

في نهاية الأسبوع كدّسنا اثنتي عشرة كرتونة علينا أن نرميها قرب الباب ثم نستعين بأحدٍ ما لينقلها إلى المكبّ. طلبت مونيكا من أخيها أن يأتي يوم السبت. وبالتالي، حين فتحت نوافذ الغرفة الرئيسة لتهويتها، لم أفاجأ برؤية رجل عند جذع الشجرة المريضة، ورأسه في الهواء. لم يرني، فنزلت للتسليم عليه.

بادرتُه:

– صباح الخير. لا بد أنك باتريك.

التفت إليّ وقال:

– صباح الخير. صحيح. وقد كنتُ أنظر إلى شجرتك.

لا أعرف كيف تخيّلتُ أخا مونيكا. ربما تخيلته يشبه نمط الريف الملحم، ويرتدي أفرول أزرق، وقد لوّحته الشمس. بيد أن باتريك كان رجلاً طويل القامة، شعره قاس وأشقر، ينزل حتى ياقته، وبشرته شاحبة، وعيناه خضراوان وأهدابه ثقيلة. وكان أيضاً أكبر سناً مما تخيّلته. أعرف أن عمر مونيكا إحدى وعشرين سنة وقدّرت سن أخيها بالثلاثين، مثلي. ووجهه مثير للاهتمام أكثر من كونه وسيماً. من النظرة الأولى بدا أن في هيئته شيءٌ ما لمؤلفٍ موسيقي عظيم من أوربا الشرقية. شدة ممتزجة باللامبالاة. لم أستطع أن أمنع نفسي من مقارنته بجوش، بأسلوبه المهذّب وطبعه الأملس.

أضفت:

– آه، الشجرة، أوبوسومات، بحسب ما يقال. لا أعرف حقاً الشجرة المقصودة.

لماذا يهتم الجميع كثيراً بهذه الشجرة؟ فثمة عدد لا يُحصى من الأشجار في الغابة.

فسّر لي قائلاً:

– شجرة الأوكاليبتوس أمبليفوليا شجرة صمغية، يجب عدم الوقوف تحتها عندما تبدأ بفقدان أغصانها.

– أين مونيكا؟

– إنها تحضّر لي فنجان قهوة. وآمل ألا يزعجك هذا.

– بكل تأكيد لا.

– هل أتيت لتساعدنا في رمي هذه الأشياء؟

– نعم، وقد استعرتُ سيارة أحد أصدقائي.

وأشار إلى عربة مركونة في الممر. عاد بصري ليحطّ على وجهه فحوّل عينيه.

قلت له:

- عظيم. هيا لنشرب القهوة.

سبقته إلى المطبخ. بدا أن حديث مونيكا أراحه فتمكّنتْ من رؤية ابتسامته. لم تعد هيئته جادة واستطعت أن أميز التشابه بينه وبين أخته. تركتهما ينظمان مسألة النقل إلى المكبّ وعدت إلى الصالون، مصممة على فرز سطر «ربما يُحتفظ بها» دون أدنى شفقة. جلست على كرسي البيانو وعرضت علبة كاملة على ركبتيّ.

مضى الصباح بصمت وأنا أقرأ الرسائل وأعيد قراءتها، وأنا أعلم أنني إذا لم أكن بلا شفقة في خياراتي، فلن أتمكن من إنهاء هذا الفرز في ثلاثة أسابيع. حاولت أن أقول لنفسي إن كل هذه الأشياء قد بقيت هنا طوال سنوات دون أن ينظر إليها أحد ودون أن تسبّب أية مشكلة. وبالتالي لن يزعجني رميها الآن.

ولكنها كانت قصة جميلة عن حياة جدي وجدتي. لم تكن رسائلهما مرتبة بحسب التسلسل الزمني، ففصت في تاريخهما لا على التعيين. كان جدي عضواً في البرلمان، وكان يسافر باستمرار إلى كامبيرًا بينما بقيت جدتي تهتم بأعمالها وأطفالها في سيدني. وكان ذلك قبل البريد الإلكتروني أو الاتصالات الهاتفية ذات الأسعار المقبولة بالنسبة للمسافات الطويلة، فكانا يتبادلان الرسائل. رسائل قديمة على الطريقة القديمة، مليئة بالتفاصيل والعاطفة.

سمعت مونيكا وباتريك وقد عادا فنظرت إلى ساعتي. إنها تُقارب ساعة الغذاء. أعرف أنه يجب عليّ أن أدعوهما إلى الطعام، ولاسيما باتريك الذي أتى لمساعدتي مجاناً، ولكن لم يبقَ شيء تقريباً من المواد التي اشترتها مونيكا في بداية الأسبوع. افترضت أنني إذا أبقيت رأسي مطأطئاً وبقيت في داخل البيت، فإنهما سيعودان إلى بيتهما.

للأسف، بعد بضع دقائق، قُرع بابي بلطف. رفعت عيني فرأيت باتريك. قال لي:

- سوف نذهب الآن.

– شكراً جزيلاً. آمل أن لا تؤاخذني إذا لم أنهض، فركبتي...

نظر إلي بإمعان وقال:

– يجب أن أطلب منكِ أمراً ما، إذا سمحت.

توترت. سوف يدعونني إلى العشاء. أمر لا يطاق. حاولت أن أصمت لنعه، ولكن على الرغم من كل شيء فقد قال:

– أنا أعزف على البيانو كمتطوع في فرقة صغيرة للرقص للأطفال، في هوبارت، يديرها أحد أصدقائي. وهؤلاء الأطفال رائعون حقاً. فهل ترغبين أن تأتي لتعلميهم حركتين أو ثلاثاً... وسيكونون مسرورين جداً للالتقاء براقصة باليه حقيقية.

شعرت بالارتياح وربما بقليل من الخيبة لأنه لم يدْعُني إلى الخروج، لم أتمكن من فهم سؤاله جيداً فسألته:

– انتظر، هل تعزف البيانو لهم؟ كنت أظن أنك مدرس لغة إنكليزية.

– وأنا كذلك. أقصد أنا مضطر لذلك. إذ تُعرض وظائف مدرس لغة إنكليزية أكثر من وظائف مدرس موسيقى، وخاصة أني مصرٌّ على العمل هناك.

تنحنح ثم أضاف:

– إذن هل تقبلين أن تأتي إلى هوبارت للالتقاء بهم؟

لا أعرف بماذا أجيبه، بل أعرف أني لا أريد أن أعلّم الرقص للأطفال، هذا مؤكد. فقررت أن أستدرّ عطفه فقلت:

– إنها مسافة طويلة بالسيارة وركبتي تؤلمني كثيراً...

– ربما عندما يخفُّ ألم ركبتك سوف تستطيعين...

– آسفة، فأنا لن أبقى هنا سوى ثلاثة أسابيع.

هزَّ رأسه. ابتسم ثم قال:

– لقد فهمت تماماً. على أية حال، إذا غيرت رأيك أخبريني.

ثم ذهب فشعرت بأني مذنبة، مذنبة إلى درجة... لماذا لا أستطيع بكل بساطة أن أذهب وأساعد أطفالاً على تعلم رقص الباليه؟

ولكني قلت لنفسي إني لم أصع في حسباني البقاء طويلاً لكي أتخذ أصدقاء أو أساعد الناس أو أقوم بشيء آخر سوى تجهيز هذا البيت للبيع. بالإضافة إلى ذلك، ليس من العدل إعطاء الناس آمالاً مزيفة، وجعلهم يعتقدون أن الأمور قد تجري بصورة مختلفة.

الفصل السابع عشر

لم أنسَ الصورة، حتى وإن لم أنظر إليها منذ الليلة التي وجدتُها فيها. لقد تغيرت المعطيات في عقلي: فهناك مسافة بين هذا الرجل وجدتي، وهي تحمل الطفل بطريقة تقترب من عدم الاكتراث، فيتبين منها حبٌ أمومي أقل. ولكن عندما أخرجتُها من جديد، أدركت أن هذه العناصر الجديدة كلها خاطئة.

الرجل يطوق خصر جدتي بذراع قوية ويدا الطفل حول رقبة أمه تعبر عن الشيء نفسه. ومن يلق نظرة على هذه الصورة يقل إنها صورة عائلة.

درستُها طويلاً ثم قررتَ أن هذه الصورة يجب ألا تكون صورة جدتي. قد تكون لابنة عمها أو لإحدى نساء العائلة وتشبهها كثيراً. نجحت تقريباً في إقناع نفسي. تقريباً

إلا إذا كانت هي جدتي، فبكل تأكيد كان لجدتي عائلة أخرى.

تساءلت عما قد تقوله أمي إذا رأت الصورة. ورأيت ألّا أكلّمها عنها في الوقت الحاضر. سآخذها معي وأُريها إياها شخصياً. فقد أكتشف في هذه الأثناء صورة أخرى تثبت لي أني مخطئة.

هذه المرة أنزلت الصورة ووضعتها على الطاولة في الممر، قرب الهاتف.

مونيكا لا تستطيع أن تأتي، فقد اتصلت بُعيد الساعة الحادية عشرة لتقول إنها مريضة.

قررت أن أغير على الغرفة الصغيرة في الطابق الأرضي اليوم، تلك التي كانت مليئة بالكراتين حتى سقفها. ليس التصدّي لهذه المهمة أمراً سهلاً من دون مونيكا. فقد غزاني اليأسُ بمجرد أن فتحت باب الغرفة وألقيت نظرة إلى داخلها.

بكل تأكيد يمكنني أن أرسل هذه الكراتين مباشرة إلى المكبّ. فقد بطُل محتواها منذ عشرات السنين: هل من المهم ألّا يرى نور النهار أبداً؟ ثم فكرت في الصورة وتساءلت أية أسرار قد تكون مخبأة في داخلها.

الغرفة ضيقة ومظلمة. سحبت العلبتين الأولى والثانية إلى الممر وجلست مادةً ساقي، رفعت غطاءيهما وبدأت العمل.

بينما كانت الساعات تمضي أخذت أتساءل ما إذا كانت جدتي تنوي أن تعود ذات يوم إلى هنا لتفرز هذه الأشياء بنفسها. لا يوجد أي منطق في محتوى هذه الكراتين: فالأولى مليئة بالاسطوانات وكتب الطبخ وبطاقات معايدة؛ والثانية تحوي نصف دستة من كتب الجيب ورزمة من الأوراق الاحترافية لعقد الخمسينيات وعدد كبير من الجيوب تحوي صوراً لم تكن ناجحة لتشكّل جزءاً من ألبوم. صورة رجراجة لأمي عندما كانت مراهقة، وخالي مايك ليس ضمن الإطار وذراعه النحيلة ممدودة نحو سلة كرة السلة. تركني تخيلُ خالي مايك نحيلاً مذهولة، ونظرت مليّاً إلى هذه الصورة. وفي الصور الأخرى كانت هناك أمي وأخوها في مراهقتهما، مرور الزمن، فكّرت بمراهقتي، فبدت لي قريبة العهد. لقد مرّت كالبرق تلك الفترة، من سن السابعة عشرة وحتى الثانية والثلاثين، بين بداية عملي ونهايته.

والآن ماذا ستفعلين يا إيمّا؟

ملعونة هي مونيكا. هل كان يجب أن تمرض اليوم؟ فأنا لا أصلح لشيء بمفردي. جمعت أفكاري. أردت أن أشتري مذياعاً، وندمت لأنني

لم أجلب معي آي بودي، أو شيئاً ما يسلّيني. ولكني تعمّدت الا أحمل شيئاً. ثلاثة أسابيع، لن أبقَ هنا سوى ثلاثة أسابيع.

ألقيت نظرة على الغرفة المليئة بالكراتين خلفي. في النهاية، حتى وإن لم أبقَ هنا إلا زمناً قليلاً جداً فلا شيء يمنعني من أن أجعل إقامتي مريحة، ومن شراء مذياع وهاتف جوال ومكنسة كهربائية بدلاً من هذه المكنسة الميكانيكية العائدة إلى ما قبل التاريخ التي تدفعها مونيكا بكل شجاعة.

ولكنّ هذا، ألا يعني الاستقرار؟ شعرت أني مفخّخة بهذه الفكرة. فأنا لست في لندن، وهذه ليست حياتي. بما أني مسحت دموعي أدركت أني لم أدعها تسيل منذ زمن طويل. هل أنا أتقبل هذا الوضع شيئاً فشيئا؟ إني لا أطيق هذه الفكرة.

ومع ذلك، إن التمتع ببعض الراحة أمر عملي. نهضت كيفما اتفق وقررت أن أذهب إلى المدينة مشياً وأشتري ما أحتاجه. فالرياضة البدنية تفيدنا: أنا وركبتي.

كان النهار مشمساً أكثر مما تخيلت، فبحثت عن زوايا ظلٍّ على طول الطريق. أحسست بألم في ركبتي لكني تابعت المشي مركزة على العضلات حول المفصل.

السائق الذي أوصلني من المطار إلى وايلدفلاور هيل مرّ في ليونيفور، ولكني لم أضع قدمي في هذه المدينة بعد. الشارع الرئيس محاط بأبنية قديمة من الحجر، ولكن في زاوية الشارع يوجد مخزن كبير للمواد الغذائية مزود بمرآب ومجموعة محلات. بعض الأماكن كانت خالية وأحدها مخصص لعضو في البرلمان. ثم هناك محل للأعمال الحرفية وللأزهار ومخزن للأدوات الإلكترونية وطبيب بيطري ومقهى وبائع صحف وصيدلية.

من مخزن الأدوات الإلكترونية اشتريت مكنسة وقارئ أقراص مدمجة وهاتفاً جوالاً (وهو الوحيد المخزّن لديهم وكانت علبته مغطاة بالغبار)،

طلبت أن يوصلوها إلى البيت، ثم مررت إلى محل الأزهار. لطالما عشقت الأزهار المقطوفة حديثاً، والأزهار التي جلبتها إليّ مونيكا قد ذبلت.

كانت الزّهارة امرأة عجوزاً يداها مليئتان بالعقد. إنها صورة لزمن آخر. طلبتُ منها باقتين: الأولى مكونة من الزنبق الأبيض لأني أحبُّ رائحته والثانية مشكّلة من ألوان مختلفة من أجل المطبخ. حاولت أن أستمتع هكذا ببناء عشّي، حتى وإن كان ذلك لوقت قصير.

سألتني الزهارة:

- هل من شيء آخر، يا عزيزتي.

هززت رأسي بالنفي ومددتُ إليها بطاقة اعتمادي وراقبتها وهي تُجري العملية. ثم قلت لنفسي إنها قد تكون عاشت طوال حياتها في ليوينفورد وقد تكون قد عرفت جدتي. ويمكنها أن تُعطيني بعض المعلومات عن الصورة. فقلت لها:

- في الواقع هناك شيء ما. كانت جدتي تعيش في وايلدفلاور هيل في الثلاثينيات، ولا أعرف ما إذا كنت تعرفينها.

- بيتي بلاكسلاند؟ هل أنت حفيدتها؟

ثم ألقت نظرة على اسمي المكتوب على البطاقة المصرفية قبل أن تبتسم لي ابتسامة عريضة ثم تقول:

- أنا في غاية السعادة للالتقاء بك. هل أنت راقصة الباليه؟

- نعم أنا هي.

انقبض صدري وأنا أقول:

- لقد جُرحت ركبتي ولم أعد أستطيع الرقص.

طقت لسانها وقالت:

- هذا مؤسف جداً! إن ليونيفورد فخورة بك، وقد كنا فخورين بجدتك أيضاً. لكنّ أحداً لم يرها من قبل، أعتقد أنها نزلت إلى المدينة مرة أو مرتين في السنوات الستين الأخيرة.

- إذن أنت لا تعرفينها؟

– لا يا جميلتي، فأنا نشأتُ بعيداً جداً من هنا، في الشمال، ولم أسكن هنا إلا عندما تزوجت، هذا كل شيء.

– وهل كان زوجك يعرف بيتي؟

هزت رأسها بحزن وقالت:

– لقد مات منذ زمن طويل ولم أفكر أن أسأله عنها أبداً.

– وهل تعتقدين أنه ما يزال يوجد أحدٌ ما يمكن أن يكون قد عرفها في الفترة التي عاشتها هنا؟

– هناك شخص أو شخصان، على ما أعتقد. يجب أن تسألي بينيلوب سايكس، فهي تدير الجمعية التاريخية الموجودة على ناصية الشارع، وقد سجّلت قصصاً عديدة على أشرطة وهي تهتم بإعادة كتابتها الواحدة تلو الأخرى. انتظري فسوف أعطيك رقمها.

خرجتُ ورقم بينيلوب سايكس في يدي وباقتا زهر تحت إبطي، قمت باستراحة أمام المقهى، وكانت رائحة تحميص طيبة تفوح منها.

بينما كنت أقوم بالاختيار سمعت اسمي. نظّرت حولي فرأيت باتريك قادماً من المرآب.

قلت له مبتسمة:

– صباح الخير.

سألني مباشرة:

– كيف نزلت إلى المدينة؟

كان يرتدي بنطال جينز وتيشيرت أبيض. بحسب الساعة، افترضت أنه خرج للتو من عمله. أنا لم أتذكر أني رأيت في الثانوية مدرساً يرتدي لباساً بهذه الأريحية، ولكن في الوقت نفسه فقد أصرّت أمي على أن تسجلني في مدارس خاصة خارج الأسعار.

– لقد مشيت، وكان يجب علي أن أشتري بعض الأشياء.

أشار إلى باب المقهى المفتوح وقال:

– هل تتناولين فنجاناً من القهوة؟ قهوتهم لذيذة. وأنا أتوقف لأشربها هنا كل ظهيرة.

لا أعرف ما إذا كان بوسعي أن أثق به، وقد خمّن ذلك. ولكن لم يبدُ عليه أنه شعر بالانزعاج بل قال:

– هيا! سوف أقدّم لك فنجاناً من القهوة. وبعد ذلك أستطيع أن أوصلك إذا شئت.

– حقاً؟ هذا لطفٌ منك أن ترافقني، أقصد والقهوة أيضاً. العرضان يسرانني.

أدركت أني أقول أي كلام فصمتُّ وتبعتُه إلى الداخل.

طلب فنجانين قابلين للحمل. إنه على حق فالقهوة لذيذة. ثم فتح باب سيارة المازدا الصغيرة، وطلب مني أن أرتاح فيها بينما ذهب ليجلب مشترياتي ويُلغي عملية الإيصال إلى البيت.

بامتنان جلست في السيارة. تركت الباب مفتوحاً ومددت ساقي بانتظاره. على أرض السيارة رأيت نشرات دعائية بالأسود والأبيض محزومة بمطاط. لفتت انتباهي كلمة «رقص» فأخذت الرزمة وأخرجت منها ورقة مطوية.

سرعان ما فهمت أن المقصود هو فرقة الرقص التي يعزف فيها باتريك على البيانو «الخطميات البرية». كفتْني نظرةٌ واحدة إلى الصورة لأكتشف أنه لم يقل لي كل شيء عن هؤلاء الأطفال «المتازين حقاً»، فمعظمهم منغوليون. أحسستُ أني صغيرة جداً. وغزاني شعور عظيم بالذنب ولمتُه لأنه وضعني في هذا الموقف.

عاد ووضع أشيائي في صندوق سيارته. أدخلت ساقي وهو يتخذ مكانه خلف المقود. سألته مباشرة:

– لماذا لم تقل لي إن أطفال الفرقة معاقون؟

نظر إليَّ قبل أن يركّز انتباهه على الطريق وقال:

– هل أنت غاضبة؟

- لدي انطباع بأنك خدعتني.

- اسمعي يا إيمّا، أنا أعرف أنك جريحة، ولم أشأ أن أؤلمك. وقد فكرتُ أني إذا قلت لك الحقيقة كلها حول «الخطميات البرية» فستشعرين بأنك مضطرة إلى المجيء إليهم. المسافة طويلة حتى هوبارت، ولاسيما بالنسبة إلى شخص يتألم من ركبته وهو غير معتاد على هذه المسافات.

ثم وجه إليّ ابتسامة وأضاف:

- لا تحزني لأنك رفضت.

لكني حزنت، فقد نما لدي انطباع بأني أكثر الأنانيات سوءاً، إذ يتلخّص الثمن الذي يجب أن أدفعه للذهاب إلى هوبارت ولقاء هؤلاء الأطفال والتكلم معهم عن الرقص بألمٍ خفيف في ركبتي.

فأعلنت له:

- سوف أذهب إليهم.

هزّ رأسه وقال:

- لا، بكل تأكيد لا. فقد سبق أن قلتِ لي إنك لا تتحملين السفر.

- ستسير الأمور إذا قمت ببعض التوقّفات لكي أستريح على الطريق.

- هذا غير ممكن يا إيمّا. فسيولد لدي انطباعٌ بأني أطلب منك أكثر من طاقتك. وأنت لن تبقي طويلاً هنا، ومونيكا سيطول مرضها لعدة أيام، ولديك أشياء كثيرة عليك القيام بها.

- بلى سآتي. متى حدّدتَ جلسة تدريبهم القادمة؟

- كل يوم سبت من الساعة العاشرة وحتى الثانية عشرة. وهذه منشورات دعائية لعرضهم بعد بضعة أشهر.

- في أية ساعة ستمرُّ لأخذي؟

من الواضح أنه شخص عنيد. ولكنه بالمقابل يرغب كثيراً في أن آتي، فقال:

- إذا كنت مصرّة...

– أنا مصرّة.

– إذن حوالي الساعة الثامنة. وسيكون لدينا الوقت الكافي لكي نتوقف على الطريق ونأخذ قسطاً من الراحة وحتى لكي نشرب القهوة بعد أن نصل إلى هوبارت.

– عظيم، لقد اتفقنا.

انتظر بضع دقائق ثم سألني:

– هل أنت متأكدة؟

سارعت إلى الإجابة وأنا أتساءل إلى أي شيء استندت:

– نعم، أنا متأكدة.

ليس لديّ أقراص مدمجة لأستمع إليها فشغلّت المذياع. وجدت محطة موسيقى كلاسيكية تبث الجاز مساءً. صببت لنفسي كأساً من النبيذ وجلست أمام كرتونة لأفرزها. إنها قديمة جداً وسرعان ما تفتّتت قطعاً. رأيتُ في داخلها دفاتر محاسبة قديمة جداً جداً عن وايلدفلاور هيل، ودفاتر صغيرة مصفرّة الصفحات مكتوب عليها بالحبر بخط أنيق. حاولت قدر الإمكان أن أفهم مختلف العمليات المصنفة، ومع ذلك لست متأكدة من أني أعرف ما تعنيه. تعرفت إلى خط بيتي في الهوامش، ولكن كان هناك خط آخر، وهو ليس جميلاً كخط جدتي. إنه خط رجل برأيي. ولكن من هو هذا الرجل؟

استعدت هدوئي. خيالي ما يزال يحاول أن يشوش أفكاري. فجدتي لم تكن تدير هذه المزرعة بمفردها. ولا بدّ أنه كان لديها موظفون.

أخرجت الدفاتر كلها وأنا أفكر بالمرأة التي تدير الجمعية التاريخية. فقد تكون بحاجتها. وقد تفهم منها شيئاً ما. فبدا لي أن رميها أمرٌ مؤسف. ومع ذلك أنا لست واثقة من أني أريد أن أتصل بجمعية في الحي، فأنا لا أريد أن أقيم علاقات هنا.

ثم عثرت على ملف مربوط بشريط أحمر. وجدت بداخله عشرات عقود الشراء والبيع تخص مواد مختلفة: قطع أثاث وخراف وحتى تنازل عن قطعة أرض باعتها جدتي عام 1934. وفي أخر الملف وجدت عقد وايلدفلاور هيل.

تشرين الثاني 1934: رافائيل وليم جيمس بلانشارد يبيع المزرعةَ لبيتي أليسون بلاكسلاند مقابل مبلغ قدرُهُ صفر جنيه.

حملقتُ زمناً طويلاً بهذا الرقم. رجل اسمه رافائيل وليم جيمس بلانشارد أعطى جدتي مزرعة وايلدفلاور هيل. لا بدّ أن هناك خطأً، لأن أمي كانت قد روت لي قصة مختلفة تماماً وهي أن وايلدفلاور هيل كانت تجارة خاسرة فقدت كثيراً من المال في أثناء الانهيار المالي الكبير. وأن بيتي كانت قد ورثت مبلغاً صغيراً من أحد أعمامها، وأنها استدانت بقية المال من المصرف وناضلت كنمِرَةٍ لكي تسدّد قرضها في السنوات الأولى.

راودتني رغبة في أن أتصل بامي لأسألها ما إذا كانت تعرف من هو رافائيل بلانشارد. لكنني فكرت بالصورة؛ أنا أعرف أن علي أن أتّخذ جانب الحذر. فأمي لديها ميل نحو المآسي كما لدى النمل نحو العسل. بالإضافة إلى ذلك، ثمة وسائل أخرى لأجلو الأمر.

بانتظار أن تستيقظ لندن وتحلّ الساعةُ المناسبة للاتصال، اقتنعت بأن الرجل الموجود في الصورة مع جدتي هو رافائيل بلانشارد، وأن طفلاً مخبّأً قد وُلد من حبهما، وأنه أعطى المزرعة لبيتي لكي تحتفظ بالصمت... بكل تأكيد، لا شيء من هذا كله يوافق ما أعرفه عن جدتي، ولكن بمساعدة الكحول بدت لي هذه القصة معقولة تماماً.

اتصلت بأديلاييد وسألتُها:

– هل أيقظتك؟

فأجابت بصوت متثائب:

– لا، أقصد نعم، فأنا لست مضطرة لكي أكذب عليك إذا كنت تزعجينني، الآن بما أنك لم تعودي ربة عملي، إيه؟

– آسفة. فأنا بحاجة إلى مساعدة. إني أبحث عن معلومات عن شخص يدعى رافائيل بلانشارد. وليس لدي اتصال مع الإنترنت هنا. هل تستطيعين أن تبحثي عنه على غوغل من أجلي؟

– هل هو راقص؟

وتثاءبت من جديد، فسألتُها:

– لا. لماذا أنت تعبة إلى هذا الحد؟

– لقد نظّم الفاشيّ الطائر احتفالاً مساء أمس.

– وهل دعاك إليه؟

– قدّمت فيه البيتيفور. انتظري لحظة سأجلس أمام حاسوبي... ما اسمه؟

كررت اسمه وسمعت أديلاييد تضرب على الملامس، وبعد ذلك سألتني:

– أيٌّ منهم؟

– أيٌّ منهم؟

– هناك رافائيل بلانشارد الأول والثاني والثالث. وله لقب نبالة.

– نبالة؟ في إنكلترا؟

– نعم.

– ذلك الذي كان موجوداً في أستراليا في الثلاثينيات.

ضربت من جديد على لوحة مفاتيحها وتثاءبت، ثم قالت:

– إنه الأول، وقد عاش في أستراليا من عام 1930 حتى 1934، في تاسمانيا على ما يبدو. أنا في لندن وأنا أقوم بالبحث من أجلك عن معلومات حول التاريخ المحلي، أليس كذلك؟ ألا تلاحظين سخرية الأمور؟

– وهل هناك صورة له؟

– بكل تأكيد نعم. إنها صغيرة... لا، انتظري. هناك صورة أكبر.

ذهبت إلى طاولة الممر وأمسكت صورة جدتي مع هذا الرجل الغريب، وقلت لها:

– صِفِيه لي. هل هو رجل قصير وفكّه مربع؟
– لا، أبدا. بل هو ملحم وشعره بني مموج وله عينا فتاة.
نظرت إلى الرجل على الصورة: لا يمكن وصفه بأية حال من الأحوال بأنه ملحم أو شعره بني أو له عينا فتاة. وعلى الرغم من كل شيء فقد عانيت في ترك روايتي. سألتني:
– هل تريدين أن أرسله إليك بالفاكس؟
– ليس لدي فاكس.
– هل أرسله إليك بالبريد؟
هذا سيأخذ وقتاً طويلاً.
– سأعطيك رقم فاكس المدرسة المجاورة فترسلينه إليها؟ ثانوية ليونيفورد. إلى السيد باتريك تايلور وأوضحي أنها تخصّني أنا.
سمعت النبرة التي استخدمتُها للتو فشعرتٍ بالضيق وقلت:
– اعذريني يا أديلاييد، أنا أعرف جيداً أنك لم تعودي موظفة عندي ولكن...
– لا بأس، يا إيم. سوف أرسل هذا في وقت متأخّر من النهار. ومع ذلك، يجب عليك أن تركبي خدمة إنترنت.
– لن أبقى طويلاً هنا لكي أفعل هذا. وسأرحل قريباً.
لقد مللتُ من تكرار هذه الجملة.
بعد أن شُفيت مونيكا عادت للعمل يوم الخميس حاملة إليّ الفاكس الذي أعطاها إياه أخوها.
سألتني وهي تناولني الصورة المطوية:
– إذن من هذا؟
فتحت الصورة بعناية أصبت بخيبة وأجبت:
– هذا ليس الرجل الذي كنت أظن. إنه سرٌّ آخر. على ما يبدو، هذا الرجل أعطى المزرعة لجدتي عام 1934 ولكني لا أعرف لماذا.
– يجب أن تتصلي ببنيلوب سايكس.

- نعم، وهذا ما نصحتني به الزّهارة.

ولكني تردّدتُ في السير في هذا الطريق والالتقاء بأشخاص جدد، والارتباط أكثر بهذه القرية. فأنا ما أزال آمل أن أجد هنا، في هذا البيت، الأجوبةَ التي أبحث عنها كلها.

صباح الجمعة، كنت أتناول الغذاء على طاولة المطبخ عندما سمعت الباب يُقرع. مونيكا لديها مفاتيحها، إذن أعرف أنها ليست هي. نهضت على مضض. فأنا لا أحب أن يزعجني أحد وأنا أتناول طعامي، ولا أن أستقبل زائراً مفاجئاً. رأيت امرأة قصيرة شعرها أسود ومجعد كثيراً تقف أمام الباب. يبدو أنها في الخمسين من عمرها، ولكنها آثرت أن تصبغ شعراتها البيضاء كلها.

سألتُها وأنا أفكر بقهوتي التي بردت على الطاولة:

- هل أستطيع أن أساعدك؟

مدّت إليّ يداً جريئة لتصافحني وقالت:

- أنا أدعى بينيلوب سايكس. وقد سمعت أنك تبحثين عني.

- ليس بالضبط فقد كلّموني عنك ولست أنتظرك.

- كنت مارة من هنا. وسأزور أختي في لونسيستون في عطلة نهاية الأسبوع. أليس لديك الوقت للكلام الآن؟

أجبت بهيئة منزعجة:

- بلى، كنت أتناول غدائي.

درست بينيلوب تفاصيل البيت كلها بعين متفحّصة حتى وصلنا إلى المطبخ.

سألتها:

- هل هذه هي المرة الأولى التي تأتين فيها إلى وايلدفلاور هيل؟

تساءلت ما إذا كنت سأبدو قليلة الذوق بأن أشرب قهوتي دون أن أعرض عليها فنجاناً، ولكني أعرف ردها مسبقاً.

– نعم، فقد بقيت هذه المزرعة مغلقة عشرات السنين. إنها مكان مليء بالقصص.

– فنجان قهوة؟

هزّت رأسها بالنفي فبدأت أحترمها. وقلت:

– نعم، مليء بالقصص. فقد وجدت كتباً يمكنها أن تهمك ودفاتر حسابات للمزرعة.

جحظت عيناها وهي تقول:

– بكل سرور.

رفعت كتفيّ وقلت:

– وإلا فإنها ستنتهي إلى المكب.

– لا ترمي هذه الأشياء. سوف آخذها. ذات يوم سأكتب كتاباً عن تاسمانيا في أثناء الانهيار المالي الكبير.

جلست مقابلي ثم قالت:

– أمي تعرف جدتك.

– صحيح؟

– ليس كثيراً. ولكنها كانت تأتي لتلعب في وايلدفلاور هيل في أثناء العطلة المدرسية. وقد عاشت في المزرعة المجاورة لمدة سنتين. وقالت لي إنه كان هناك فتاة صغيرة تأتي دائماً إلى هنا في أثناء العطلة المدرسية، وكانتا تلعبان معاً طوال النهار. ولكني لا أعرف اسمها، للأسف.

– وهل أمك تعرف اسمها؟

– لقد توفيت منذ أربع سنوات.

– أنا آسفة. هل لديك معلومات أخرى عن هذه الفتاة الصغيرة؟ لأني أريد أن أحلَّ لغزاً، كما ترين.

ثم كلمتُها عن الصورة فطلبت مني أن أريها إياها وأنا ذاهبة لإحضارها.

– لقد التُقطت عام 1929 أو 1930. وقد عرفت هذا من ملابسها، ومن الشارع أيضاً. إنها التُقطت في هوبارت. في تلك الآونة كان يوجد

مصورون فوتوغرافيون في الشارع يلتقطون صوراً للمارة ويبيعونها بسعر مقبول جداً في نهاية الأسبوع. ولكن هذا المحل...

وأشارت بإصبعها إلى عنوان محل لم أتنبه إليه وأضافت:

– ماك ويليام، أدوات زراعية. لقد أفلسوا عام 1931، في أثناء الانهيار الكبير.

– والفتاة الصغيرة...؟ عمرها حوالي سنة في هذه الصورة، وهي سن أمي في تلك الآونة. وأنا أتساءل ما إذا كانت الطفلة نفسها التي كانت أمي تلعب معها عادة. كان شعرها أصهب، وتركض في كل مكان كالمجنونات، دون أية مراقبة، قالت لي أمي.

– وهل تعتقدين أنها ابنة بيتي؟

هزّت بينلوب رأسها بالنفي وقالت:

– لا، فقد قالت لي أمي إن سيارة كانت تأتي لأخذها في نهاية العطلة فيها رجل وامرأة. ولطالما ظنت أمي أنهما والداها.

شعرت بالانزعاج دون أن أعرف السبب ثم قلت:

– أوه، لقد فهمت.

أتخيل أن بيتي يجب أن تكون عمّتها أو شيئاً من هذا القبيل.

لم يكن لبيتي أخوة ولا أخوات.

إذن لا بدّ أنهم أصدقاء مقربون للعائلة... هل أنهيت غداءك؟ فأنا أتوق لرؤية هذه الكتب.

أفرغت بقية فنجاني، وصحبت بينيلوب إلى الصالون وعهدت إليها بامتنان مسؤولية السجلات المكدسة على البيانو. نظرت بنهم إلى بعض الرسائل، ولكنها كانت شخصية جداً فلم أعطها إياها. وعدتني أن تبحث في الوثائق التي لديها لترى ما إذا كان اسم بيتي وارداً في مكان ما، ثم غادرت لحظة وصول مونيكا تماماً.

وضعت الصورة على طاولة الممر وأنا مغمورة بشعور غريب: الخيبة.

الفصل الثامن عشر

صباح السبت، كان الطقس ملبداً، واستيقظت على جفاف في حلقي وألم في رأسي. فكّرتُ أن ألغي ذهابي إلى هوبارت مع باتريك، وأن أبقى في السرير طوال النهار. ولكني لم أشأ أن أفعل هذا. فقد أراحني حمامٌ ساخنٌ من ألم رأسي. واخترتُ أن أرتدي الفستان الوحيد الذي جلبتُه معي بدلاً من بنطالي الجينز المعتاد، وسرّحت شعري وتركته حراً. أملتُ أن تكون هيئتي جميلة دون أن أعرف لماذا. في البداية ظننتُ أن باتريك يميل إليّ، ولكني لا أمتلك أي دليل على هذا الآن. إنه لا يشبه الرجال الذين أعرفهم، فهو ليس مترفاً ومليئاً بالثقة مثل جوش، ولا يمتلك الجانب الفظ والرجولي مثل أبي. هو هادئ دون أن يكون خجولاً، وناعم وليس ضعيفاً. أنا لا أحبّه لأني ما أزال عاشقة لجوش، ولكنه يربكني، فهو مختلف.

وصل في الوقت المحدَّد. لم يُبدِ أية ملاحظة على فستاني وتسريحتي. انطلقنا من وايلدفلاور هيل لحظة بدأ المطرُ يهطل تماماً. بدا لي أن الصمت يناسبه، فأخذت أنظر إلى المناظر عبر الزجاج، بينما كانت ماسحات الزجاج تتحرّك بإيقاع على الزجاج الأمامي. لمحتُ خرافاً مسكينة تقف جامدة تحت أشجار يابسة وعارية تماماً اتقاءً لمطرٍ غزير.

قال أخيراً:

– طقس سيئ.

– أنا أحب المطرِ كثيراً.

– إنه ليس عملياً في أثناء القيادة.

قال ذلك ثم عاد إلى صمته.

أصلحت جلستي على مقعدي لكي أتمكن من النظر إليه جيداً. كان وجهه جديّاً جداً: فحاجباه قاسيان وخط أنفه مستقيم تماماً. ثم ركزت انتباهي على الزجاج الأمامي. جعل المطرُ يهطل مدراراً فبطّأ باتريك من سرعته، ثم قال:

– أنا آسف، أريد أن أتوقف في قرية صغيرة ليست بعيدة عن الطريق لكي أتناول فنجان من القهوة، ولكن قد يستغرق هذا وقتاً قليلاً أكثر من المتوقع للوصول في الوقت المناسب

في تلك اللحظة فهمت أنه إذا بقي صامتاً فذلك لأنه عصبي. فيداه تضغطان بقوة على المقود وجسمه كله متوتر. ألفيتُني أسأله محاوِلةً أن أتّخذ نبرة هادئة وودّية:

– هل كلّ شيء على ما يرام؟ ليس من عادتك القيادة في الطقس الماطر، أليس كذلك؟

ابتسم لي وقال:

– آه، ليس بالضبط، لا.

ثم صمت قليلاً وأضاف:

– أبوانا... حصل لهما حادث... كانت مونيكا في السابعة، وأنا في السابعة عشرة. وكنا في السيارة. وقد فَقَد أبي السيطرة على السيارة بسبب المطر. وأبي وأمي توفيا في الحادث.

التزمت الصمت ارتباكاً للحظةٍ ثم بدأت أتخيل ما عاشه باتريك، فترك الانزعاج مكانه عندي للتعاطف، فقلت:

– حقاً أنا آسفة. لم أكن أعرف قصة أبويك.

ومع ذلك قادني التفكير إلى أن أتساءل لماذا لم تلمّح مونيكا إلى أبويها أبداً. قلت له:

– خذ وقتك، فركبتي لا تؤلمني الآن.

ثم إن قصته أثارت فضولي فسألتُه:

– وماذا جرى بعد ذلك؟ من الذي اعتنى بكما أنت ومونيكا؟

– لا أحد، أقصد أنا. لقد وقع الحادث في سنتي الأخيرة في المدرسة الثانوية. للحظةٍ فكّرت بإرسال مونيكا لتعيش عند عمنا في ملبورون، ولكن لم نشأ أن ننفصل أحدُنا عن الآخر. ورثنا بيت العائلة، فكان لنا سقف. وحصلت على عمل بنصف دوام وتدبّرنا أمورنا. لم يكن ذلك سهلاً، فكنت أعمل كلّما كان لديّ وقت فراغ، وأطلب من الجيران أن يذهبوا ليأتوا بها إلى البيت بعد خروجها من المدرسة عندما أكون في الجامعة. لطالما شعرتُ بالذنب لأنها نشأت في هذه الظروف، لكنها فقدت أبويها، فقلت لنفسي إن شيئاً مما أستطيع القيام به لن يزيد الموقف سوءاً.

– بكل تأكيد لقد قمتَ بعمل رائع، ومونيكا فتاة رائعة.

– بدأت العمل في ثانوية ليوينفورد وكانت مونيكا ما تزال طالبة فيها. وبعد ذلك أصبحت الحياة أسهل في خلال بضع سنوات.

هزّ كتفيه وأضاف:

– لقد فعلت كل ما بوسعي.

حاولت أن أتخيل ما قاساه، دون حماقات مراهق ولا حفلات سكر مع الأصحاب، بل عمل واعتناء بأخته الصغيرة. وهذا يقول الكثير عن طبيعته.

حاولت أن أتذكر نهاية سنتي الأخيرة في الثانوية. لقد رسبت في الامتحان لأني لم أعرْه أية أهمية. واعتقدت أني أرفع من هذا بكثير. فقد كنت قد قُبلت في مدرستين للرقص في الولايات المتحدة، وكنت أنتظر ردّ مدرسةٍ في لندن. كانت أمي تريد أن أدرس في أستراليا. إننا لم نتفاهم

تفاهماً حقيقياً أبداً، أمي وأنا. كانت تفرط في رقابتها وكنت عنيدة جداً وظلّ خصامُنا كبيراً، ربما كان أسوأ شيء في حياتي. فقد قلت لها إنِي أكرهها، إذ كنت طفلة تحسب نفسها بالغة. أما باتريك فقد تنكب مسؤولياتِ بالغٍ في مراهقته. عادة، أجتهد في عدم الخجل من الأشياء التي قمت بها في الماضي، لكنَّ ذكرى الفتاة الصغيرة المدللة التي كنتُها ترعبني.

سألته فجأة:

– إذن، كيف تعرّفت إلى فرقة «الخطميات البرية»؟

– عن طريق مارلون. سوف تلتقين به هذا الصباح. كان أستاذاً للمسرح لفترة قصيرة في المدرسة. هذا مشروعه، والحق يقال. في السابق كان هناك امرأة، وكانت تنّيناً عجوزاً، تعزف البيانو للفرقة.

ابتسم ابتسامة شاردة ثم أضاف:

عفواً، فتلك المرأة كانت حقاً تنيناً عجوزاً، إذ كانت تصرخ بالأطفال. فسُئلتُ ما إذا كنت أستطيع أن أستبدلها في أثناء بضعة أشهر، ريثما أجد بديلاً، ولكنّ هذا استمرّ سنتين ونصفاً.

وتكلم باتريك عن الأطفال لبعضِ الوقت. في البداية كان هذا مشروع أربع نساء أولادهنّ منغوليون، ثم تطوّر. فبعض الأطفال كانوا متوحّدين، وبعضهم الآخر عمياناً، بل إن أحدهم كان أصمّ لكنه كان يستطيع أن يشعر باهتزازات الموسيقى على الأرض. وقد أتوا من جميع مناطق جنوب تاسمانيا... ثم حدثني عن العرض الذي قدموه في السنة الماضية. وأن رئيس الوزراء حضرِ إلى هوبارت لكي يشهد العرض في اللحظة الأخيرة. كما حدّثني كم يوفر الرقص من الثقة للأطفال، وحسّ التعاون وأنه مناسبة لخلق علاقاتِ صداقةٍ قوية. بدأت أشعر بالخوف: فبدا أنه يقبل اختلافهم بصورة طبيعية جداً. ومن ناحيتي، كنت أعرف مسبقاً أني سأشعر بعدم الارتياح في أن أقول بالضبط ما لا يلزم.

هدأ المطر فنفذنا توقّفنا الأول وأخذنا معنا فنجاني قهوة. مشيت لبضع دقائق ولاحظت أن ألي محمول جداً وحثثت باتريك على القيادة من جديد قبل أن يلعب معنا الطقس لعبة سيئة. وصلنا إلى هوبارت عند الساعة العاشرة إلا ربعاً.

كانت فرقة «الخطميات البرية» تتدرب في صالة المسرح لمدرسة خاصة تشرف على دِرونت. قادني باتريك إلى باب كان مصراعاه مفتوحتين ويفضي إلى مكانٍ واسع. في البعيد هناك مسرحٌ صغير جاهزٌ على الأرض. المقاعد وضعت كمدرج. وأتى لاستقبالنا رجل طويل أسمر يرتدي بنطالاً لاصقاً مشدوداً جداً. بادرنا قائلاً بحماسة:

– أوه، أنا مسرور بلقائك!

ومدّ إلي يده وضغط عليها بقوةٍ، ثم أضاف:

– أنت رائعة! هذا الفستان يناسبك إلى حد الإدهاش! أنا لم أركِ إلا في الصورة. ولكنّك في الواقع أجمل بضعفين.

أجبته وأنا أحاول أن أتكيف مع لباقته المفرطة:

– شكراً. وشكراً على استقبالي اليوم.

تكلّم بعبارات مشبعة بنبرة درامية:

– لا، لا، شكراً لك. فالأطفال لا يعرفون بعد أنك هنا، ولكنهم سيطيرون فرحاً للقاء راقصة بالية بشحمها ولحمها. يا إلهي! إنهم لن يصدّقوا أعينهم، وبصورة خاصة، مينا. أليس كذلك يا باتريك؟

تناقض صوتُ باتريك الناعم بشدةٍ مع صوت مارلون حين قال:

– مينا، راقصة الباليه، إنها تعشق الباليه.

تدّخل مارلون قائلاً:

– إنها نجمة! وسوف تحبّينها كثيراً.

اتخذتُ مكاني في الصف الأول بينما كانوا يجهّزون القاعة. أخرج باتريك بيانو كهربائياً من الكواليس وعزف عدة قطع. وراح مارلون يقفز في كل مكان موزّعاً دعاباته، وعندما وصل أوائل الأطفال مع ذويهم أصبح

جاداً ومتحفظاً جداً بحيث أني تساءلت ما إذا كنت أحلم مع الانطباع الأول الذي وُلد لديّ. شيئاً فشيئاً امتلأت المقاعد الأولى بذوي الأطفال بينما اجتمع هؤلاء، من الأصغر إلى الأكبر، حول مارلون لكي يربط لهم أشرطة في معاصمهم: زهري في اليسار وأزرق في اليمين. عشرة من الأطفال الثماني عشرة عيونهم على شكل لوزة، ووجوههم مربعة، ولكن إذا ما استثنينا هذه التفاصيل المشتركة فإنهم مختلفون جداً بعضهم عن بعض. راقبتهم وهم يتحضرون. بدا بعضهم أكثر ذكاء ونباهة بطريقة أو بأخرى. بينما بقي بعضهم الآخر منغلقين في عالمهم الخاص. أما الآخرون فقد كانوا مستغرقين أو صاخبين أو قلقين، أو ملتصقين بأهاليهم. ولكن عندما بدأ باتريك بعزف العلامات الأولى من أغنية حب قديمة مأخوذة من كوميديا موسيقية لا أذكر اسمها، ركزوا اهتمامهم جميعاً بلحظة وأخذوا أمكانهم.

صرخ مارلون بتعليماته:

– نُحرّك الزهري! نحرّك الأزرق! ندور! نرفع الذراعين و... بهدوء.

لم أتخيل أني سأشهد عرضاً بهذا الجمال. فقد توقّعت أن يكونوا غير متقنين لحركاتهم وعاجزين عن اتّباع التعليمات كما يجب. ولكن كان هناك جمال طفولي لدى هؤلاء الراقصين، وحماسة عميقة في حركاتهم ووجوههم المشعّة. شيء جميل. لم أشعر من قبل بعاطفتي الإنسانية إلى هذا الحد. كبتُّ دموعي. فأنا لا أريد أن يظن الناس أني حزينة أو أني أعطف عليهم ولكني تركت الموسيقى البطيئة والحزينة تغمرني.

في النهاية، صفّقتُ والأهالي بقوة. التفت مارلون نحونا وانحنى انحناءة مسرحية وقال:

– والآن أيها الأصدقاء، أقدّم لكم ضيفة الشرف، هذه النجمة الرائعة الجالسة في الصف الأول هي راقصة الباليه الشهيرة إيمّا بلاكسلاند - هنتر.

لم أكن واثقة من الخطوة التي يجب أن أتبعها فابتسمت وأطلقتُ إشارة بيدي. وإن هي إلا بضع ثوان حتّى تجمع الأطفال أمامي ليطلبوا مني توقيع أوتوغرافات، وليطرحوا عليّ أسئلة في ضوضاء فرحة. لا أعرف إلى من أنظر ولا من أجيب أولاً. ثم انزلقت إلى جانبي فتاة أكبر سناً، منغولية، شعرها بني، أمسكت بيدي. التفتُ إليها فقالت:

– أنا أُدعى مينا.

قلت مبتسمة:

– تشرفت.

– مينا، راقصة الباليه.

– نعم، لقد كلّموني عنك.

– هل يمكنك أن تعلّميني الباليه؟

كان كلامها مغمغماً، ولكني تمكنت من فهمها دون مشكلة، الأمر الذي لم يحدث مع الآخرين. قلت لها:

– أنا... أستطيع أن أريك بعض الحركات، على ما أعتقد.

– أنا أعرف كل الأوضاع. وسوف أريك.

ثم أمسكت بي من يدي وأخرجتني من مقعدي.

وجدت نفسي في وسط المسرح، محاطة بمجموعة من الأطفال. وقفت مينا أمامي وأخذت تنفذ مختلف الأوضاع. ساعدتها على وضع ذراعيها في الحركة الرابعة وحاولت أن أصحّح وضع قدميها في الخامسة، ولكن كان من المستحيل عليها بدنياً أن تنفذ الوضع الخامس.

سألتني:

– هل تُرينني شيئاً آخر؟

ألقيت نظرة على مارلون الذي ابتسم لي وهو يرفع كتفيه. أنا لا أعرف أبداً ما تستطيع مينا أن تفعله. فسألتها:

– أرابيسك في البداية؟

– يجب أن أبقى واقفة دون حراك؟ لأني أفضل الرقص. أنا أحب *بحيرة البجع*.

– حركات *بحيرة البجع* صعبة جداً. ويجب أن أفكر فيها. أنا لست...

– هل تستطيعين أن ترقصي لنا؟

– أنا... لا، لا أستطيع، فركبتي مجروحة وهي لا تستجيب كما يجب.

وافقت مينا باحترام وقالت:

– الشيء نفسه حدث لصديقتي. فقد حدث لها حادث سيارة وهي الآن على كرسي متحرك.

تدّخل مارلون قائلاً:

– حسنٌ يا مينا، دعي الآخرين يتكلمون قليلاً مع إيمّا. من يريد أن يوقّع أوتوغرافاً؟

مجموعة من «أنا» دوّت. وبينما أخذتِ أوقع الأوتوغرافات، حاولت التفكير بخطوات الرقص التي يمكن أن أعلّمها لمينا. وُلِد لدي انطباع بأني خيّبتُ أملها. إنها لا تملك القدرات البدنية لتنفيذ أشكال الكوريغرافيين العظام: يمكنها أن تحرك ذراعيها بصورة جيدة جداً، لكنَّ المرونة الضرورية للجزء السفلي من جسمها ما تزال تنقصها. ومع ذلك فهي متحمسة ومن البديهي أن تكون عاشقةً للباليه. وبالإضافة إلى ذلك، فقد لاحظتُ، بحسب ما رأيته في هذه الرقصة الأولى، أنها تتميز عن الأخريات من حيث القدرة.

نظرت إلى بقية التدريب وأنا تائهة في أفكاري. بدا مارلون رائعاً مع الأطفال، حازماً ولكنه محبٌ. وكان يحرّضهم على الضحك بين وقت وآخر. وباتريك يعزف عزفاً رائعاً، بأناةٍ وهدوء.

بعد أن انتهى التدريب وأخذ الأطفال يخرجون في طابور هندي وهم يثرثرون بفرح، دنت مني مينا وسألتني:

- هل ستأتين في الأسبوع القادم؟
- لا أعرف. يجب أن ينقلني باتريك بالسيارة، فيجب أن أسأله.
- هل ستعلّمينني الباليه؟
- مينا، أنا لن أبقى في تاسمانيا إلا لوقت قصير جداً.
سمع باتريك اسمه ثم انضم إلينا وقال:
- تعالي يا مينا لا بدَّ أنّ أباك ينتظرك في الخارج.
ثم قادها إلى الخارج.
وبعد أن عاد فسرَّ لي قائلاً:
- إنها تعيش وحيدة مع والدها.
- لا بدَّ أنه فخور بها.
- إنه لا يدخل أبداً إلى القاعة.
- حقاً؟
- إنه يوصلها ويعود ليأخذها. وأنا لم أرَ وجهه إلا عبر الزجاج الأمامي لسيارته. مينا هي الأكبر في الفرقة، وقد بلغت السابعة عشرة.
- تبدو متحمِّسة جدا.
- إنها لا تُصدّق. ولكني أعتقد أنها تحزن أحياناً. فلا يُرقص إلا على ألحان موسيقية قديمة أو على قصائد بوب. وأعتقد أنها تفضّل حقاً أن تقوم بأشياء تشبه الباليه أكثر.
تأهبت لأقترح عليه مساعدتي ثم تراجعت. فأنا سأرحل قريباً، ومن الأفضل ألاّ أعطي آمالاً زائفة لأحد.

بتنا، مونيكا وأنا نتقدم جيداً في عملنا. وصرت أرمي أشياء بسهولةٍ متزايدة. فلا حاجة للاحتفاظ ببطاقات المعايدة هذه التي كانت جدتي قد تلقّتها، ولا بهذه الرسوم التي رسمها خالي مايك في الروضة. لم يعد لدي سوى أسبوع قبل رحلة العودة. فإذا عملت بلا توقف يمكنني أن أنتهي. وأخذت مونيكا تُطيل مكوثها زمناً أطول. وأخذت أفرز الكراتين

حتى وقت متأخر من الليل ثم أنام وأحلم بكل هذه العلب المليئة بأشياء مختلفة.

ثم وجدت مونيكا المفتاح. فقد كانت تنظّف غرفة الطعام وتسحب أدراج الخوان المصنوع من خشب السنديان الواحد تلو الآخر. لم يكن المفتاح مخبأً بل انزلق ببساطة إلى آخر الدرج وبقي محصوراً هناك.

سألت مونيكا مباشرة ما إذا كان بوسعها أن تلقي نظرة على كوخ الجزّازين. هزت برأسها قبل أن تنزل الدرج وتجتاز غرفة الغسيل. تصفحت الرسالة القديمة للاختصاصين في الصوف الموجّهة إلى جدتي. لم أفهم كثيراً المقصود منها. ولا أعرف ما إذا كانت هذه الرسالة مهمة أم لا. إنها تعود إلى عام 1938، إذن من المحتمل أن تحتفظ بها بينلوب سايكس. تنهّدتُ وبدأت بتفحّص سطر آخر. انتقلت إلى الرسالة التالية وإذا بمونيكا تصعد الدرج بصخب ثم تصيح:

– إيمّا!

التفت فرأيتها لاهثة تقف في أعلى الدرج ثم قالت بسرعة:

– أوه، يا إلهي! إنه مليء.

– مليء؟

– تعالي لتري بنفسك.

سحبت نفسي عن كرسيي، فقد كان من الصعب عليَّ كثيراً أن أقف بعد جلوس طويل. تبعت مونيكا بحذر على الدرج، ثم عبر غرفة الغسيل، ثم في الخارج.

الشمس ساطعة جداً، ولكن ما يزال الطقس بارد. نسيم الصباح يهب بلطف ويهز أغصان أشجار السَنْط التي تحيط بالمزرعة. فرّ منا زوجٌ من الأرانب قفزاً. اجتزنا الباب ثم الأرض التي تغزوها نباتات كثيفة ووصلنا إلى أمام بيت الجزّازين. إنه كوخ قديم مصنوع من الخشب. كان بابه مفتوحاً فرأيتُ خيوط العنكبوت في كل مكان وكراتين، مزيداً من الكراتين.

كراتين في كل غرفة.

صرخت:

- يا إلهي!

- متى ستقلع طائرتك؟

- يوم الأحد الساعة الثالثة عشرة.

التفتُّ إلى مونيكا التي كانت تبتسم لي. حتى وإن كانت فكرة فرز كراتين أخرى، كثير من الكراتين الأخرى تسبب لي الدوار، فإني لم أستطع أن أمتنع عن الضحك فسألتها مازحة:

- لن أستقلّ هذه الطائرة، أليس كذلك؟

رفعت كتفيها وقالت:

- أعتقد أن بوسعك أن ترسلي كل هذا إلى المكب.

ولكن هذا مستحيل. فقد فهمت للتو أني أبحث عن شيء ما في هذه الكراتين كلها. أريد أن أعرف السبب الذي من أجله ورثت جدتي هذه المزرعة مجاناً وهوية هذه الفتاة الصغيرة التي في الصورة وماضي جدتي قبل ولادة أمي وخالي مايك، قبل أن تصبح سيدة الأعمال الشهيرة وزوجة عضو في البرلمان. أريد أن أعرف كل شيء.

رفعت غطاء الكرتونة الأقرب إليّ وألقيت نظرة على محتواها. كتب، في معظمها. ربما أكون بحاجة إلى وقت أكثر من المتوقع، فقلت:

- سوف أتصل بشركة الطيران وألغي سفري. وسوف أحجز تذكرة في ما بعد، عندما أنهي بحثي حقاً.

شعرت بانفراج، فأنا لم أعد مضغوطة بسبب الوقت. وسوف أتمكن من تجهيز البيت للبيع كما يجب، حتى وإن كان هذا سيستغرق شهراً إضافياً.

سألتني مونيكا:

- هل تريدين أن أواصل مساعدتك؟

- بكل تأكيد، فأنا لن أتمكن من ذلك بدونك.

- وهل تريدين أن أحضّر لك الغرفة الرئيسة، بهذه المناسبة؟
- لا.
سارعت إلى الرد. أنا لست متطيرة: فالانتقال إلى غرفة الجدة يعادل الاستقرار هنا نهائياً. ثم أضفت:
- أنا بخير حيث أنا.
غرفتاي المفضلتان في البيت هما المطبخ والصالون. وغرفتي تخدمني كمهجع فقط، وفي معظم الأحيان لا أصعد إليها إلا عندما أكون في غاية التعب فلا أستطيع أن أبقي عيني مفتوحتين. فالشمس التي تدخل إلى المطبخ تدفعني إلى البقاء فيه طوال النهار، ومدفأة الصالون ترضيني عندما يأتي المساء. الطقس ليس بارداً جداً من أجل إشعال النار، لكنني أعشق صوت الحطب وهو يلتهب، وضوء اللهب. ففي لندن لم أعرف سوى التدفئة المركزية. أما هنا، فإن أمسياتي تتلخص بالاستماع إلى المذياع وشرب كأس أو كأسين من النبيذ وقراءة رسائل قديمة.
جلست على الكنبة وكأسي من النبيذ الأحمر ما تزال مترعة. كنتُ أقرأ إحدى الرسائل التي أرسلها جدي إلى جدتي في أثناء زيارة رسمية قام بها إلى هونغ كونغ حين أذيع في المذياع "فالس الأزهار" مقتطفاً من «*كسارة البندق*» لتشايكوفسكي.
أوقفت نشاط كله لكي أستمع حتى وإن كان هذا مؤلماً. فقد كان دوري الأول بوصفي راقصة محترفة دورَ قطرة الندى في نسخة بالانشين وعرفت لحظات من المجد. إني لا أطيق تذكر بداياتي بهذا الوضوح كله، في حين أن ساعة نهاية عملي قد دقت. ومعها ساعةُ آمالي وأحلامي. نما لدي انطباع بأن عضلاتي وأوتاري أخذت تتحرك وأنها تتذكر حركات، لكنني بقيت جامدة كتمثال.
في نهاية القطعة بقيت لحظة لكي أعود إلى الواقع وأنهي كأس نبيذي. فكرت في هذا الإنتاج لبالانشين. كانت كوريغرافياه تستدعي أطفالاً للعب دور كلارا وكسارة البندق: فقد بسّط الأدوار. لم أكن

كوريغرافاً عظيمة، لكنني أعرف عن ظهر قلب خطوات رقص قطرة الندى. هل يمكنني أن أبسطها؟ ليس من أجل طفل، بل من أجل فتاة منغولية؟

نهضت وأطفأت المذياع. في وسط الصالون اختبرتُ ثقل جسمي على ركبتي. لا تستطيع مينا، مثلي، أن تنفذ أية حركة معقدة تتطلب مرونة ساقيها. دندنت الموسيقى وفكرت بالحركات التي طلب مارلون من الأطفال أن ينفذوها. هناك كثير من الضرب بالقدم في الهواء وعلى الأرض. حاولت أن ألطّف من اتساعها لكي أوفر لها أناقة أكثر وأتصرف بحيث أنها تشبه أكثر خطوات رقصة كلاسيكية في نظر مينا. ثم استرجعتُ مختلف أوضاع الذراعين، أكثرتُ منها واستخدمتها في مكان قدمي لكي أروي قصة الباليه. استرجعت ومضة: رأيت مينا ترتدي لباساً أحمر شاحباً وترقص في وسط المسرح. وحولها كان الآخرون يرتدون لباساً أبيض ويقلّدون حركاتها. لن يكون هذا باليه حقيقياً حتى من بعيد، بل سيكون للعرض مظهر باليه، ولاسيما بالنسبة إلى مينا التي تعشق هذا الفن.

بعد ذلك جلست من جديد. هل أريد حقاً أن أتورّط؟ كم من الوقت سأبقى هنا، على أية حال؟ إذا لم تكن كراتين بيت الجزّازين لا تحوي إلا كتباً وأشياء تافهة فسوف أتخلص منها قبل نهاية الأسبوع وأستطيع أن أركب طيارتي إلى سيدني بعد يوم أو يومين.

ومع ذلك، فإني لا أرغب في العود إلى سيدني. إن كلّ ما أريده هو أن أستعيد حياتي كما كانت منذ ستة أشهر خلَتْ. عضضتُ شفتي السفلى، مصمّمة على ألّا أبكي، وألّا أتفجّع على قدري، وألا أشعر بهذا الفراغ الهائل.

في الأيام التالية، شذّبتُ حركات رقص مينا، وأنا أتساءل ما إذا كنتُ حمقاء، فأنا لا أعرف شيئاً كثيراً عنها ولا عمّا تستطيع أن تفعله. لكنّ هذه الصورة لا تكفُّ عن معاودتي: مينا والأنوار عليها وبشرتها شاحبة،

تنتقل بحلاوة طفولية على موسيقى رائعة. أنا شبه متأكدة من أني قد بسّطتُ دورها وحافظت في الوقت نفسه على الجمال والأناقة اللذين يمكن أن يُرضيا عاشقةً لبحيرة البجع.

في نهاية المطاف قررت أن من واجبي أن أكلّم باتريك في هذا الموضوع، وأن أعرض عليه مشروعي. أنا مستعدة لأن يقول لي إن هذا غير ممكن. سوف يخيب أملي، لكنَّ إعطاء آمالٍ زائفة لمينا أمر أخطر.

لم أقل لمونيكا إلى أين أنا ذاهبة، حتى وإن كنت أعرف تماماً أنها ستعرف في النهاية. فسيخبرها باتريك. كانت قد عرضت عليّ أن تصحبني إلى المدينة لكنني لا أرغب في أن تكون موجودة لحظة سأعرض أفكاري على باتريك، ودون أن أعرف سبب ذلك بالضبط فهل يزعجني حضورها؟ ربما. هل أفضّل أن أكون وحيدة مع باتريك؟ ربما أيضاً.

قلت لها إني سأقوم بنزهة طويلة، وتركتها تكنس بيت الجزّازين. أخذت ترافق بصوتها قرصاً مضغوطاً أحضرته معها وبدت مسرورة جداً به. وأنا ما أزال أعاني في تصديق أن هذه الفتاة فقدت والديها وهي صغيرة جداً. لكنّ باتريك نجح بتفوق في الإبقاء على توازنه على الرغم من الظروف، فكثير من التفاصيل لديه تثير الإعجاب.

أنا لست بصدد الوقوع في عشق باتريك. فجوش هو من يسكن عقلي مساءً قبل أن أنام. أسترجع لقاءنا الأول، يومَ انتقلنا إلى شقتنا، واللحظات الرائعة، لحَظات المجد التي كونت حياتنا. بين وقت وآخر أستسلم لأوهام جديرة بمراهِقة. وأبدع سيناريوهات قائمة على ما يمكنه أن يقول لي ويفعله يوم سيتوسل إليّ بأن أعود إليه. أتخيل بأدق التفاصيل ما سأشعره لحظة سيحتضنني في المطار، ويأخذ بالبكاء بسبب الألم الذي سبّبه لي. وبعد ذلك يغزوني الخجل، وما تلبث دموعي أن تحلّ محل أحلامي.

مهما يكن من أمر، فإن باتريك يثير فضولي، وأشعر بارتياح معه.
وصلت إلى مدرسته بُعيد الساعة الثالثة، فدلتني أمينة السر إلى مكان غرفة المدرسين.

عندما رآني باتريك ابتسم وغمغم:

– إيمّا! ماذا تفعلين هنا؟

أجبته وأنا أدرك أني أبدو بهيئة حمقاء:

– مفاجأة! أريد أن أُريك شيئاً ما.

– وما هو؟

بينما أخذت أشرح له كان يهزُّ رأسه دون أن يبدي أية علامة حماسة، فأخذت أشك...

كرر قائلاً:

– *فالس الأزهار*؟ إنها تبدو معقدة قليلاً بالنسبة إليها.

– يجب أن أريك. ولكن إذا كنت تعتقد أنها قاسية جداً عليها فسأتفهم. لدي الانطباع بأنها ستكون رائعة في هذا الدور.

ابتسم وقال:

– موافق. سوف آخذك إلى غرفة الموسيقى وستريننني.

اجتزنا بهو المدرسة التي بدأت تخلو من الطلّاب. كان قد قال لي إنها مدرسة ثانوية، ولكنها تحوي أطفالاً من الأعمار كافة. كان باتريك يمشي منتصباً بقامته الطويلة، وبدا أنه لم يلاحظ أن المراهقات يرفعن أهدابهن عند مروره. كانت قاعة الموسيقى خالية وقد جُهزّ مسرح صغير في إحدى زواياها ولكنه كان مليئاً بصناديق تحوي أدوات موسيقية.

فتح باتريك خزانة وأخرج قارئ أقراص ثم قال وهو يبحث في الخزانة:

– أنا شبه متأكد من أن لدينا قرصاً يحوي هذه الموسيقى.

بدأت أشعر أني الآن حمقاء بعض الشيء. سوف يضع القرص المدمج وسوف أرقص أمامه. ولكن ليس الرقص الذي أتقنتُه، ليس كراقصة باليه محترفة. لأول مرة في حياتي أشعر بعدم ارتياح في جسدي. أنا متكدِّرة.

وجد القرص المدمج ووضعه في الجهاز. تسلَّحت بشجاعة وفكَّرت بمينا. نفَّذتُ الحركات. أبدى ابتسامة ما انفكت تتسع شيئاً فشيئاً وهو يهزُّ رأسه، ثم قال لي:

– نعم، نعم أكملي، هذا جميل!

رغبت في أن أقول له: «ليتك تعرف ما كان بوسعي أن أفعله في الماضي!» وكنت أود لو أنه يراني وأنا أرقص وأن يعي ما يمكن أن يقوم به جسمي والجمال والرقة اللذين يأتيانني من السماء. توقفت وأنا أتعثر، ودون أن أنظر إلى عينيه قلت:

– باختصار الباقي على الأسلوب نفسه. ستة أطفال آخرون يمكنهم أن يشاركوا أيضاً. فهل يستحق هذا عناء أن آتي إلى تدريب آخر؟

أجاب بعد لحظة من الصمت:

– أعتقد أن الأمر يتعلق بك.

– بي أنا؟

– ستكون مينا فرحة جداً، ووالدها موافق على أن تقوم بهذه الحركات. ولكن قد تأخذ وقتاً لا بأس به لكي تتعلمها.

– أوه، هل يجب أن أكون أنا من سيعلِّمها إياها؟ ألا يمكنني ببساطة أن أُري هذه الحركات لمارلون؟

ثم فكَّرت لحظة، ولكنه قال:

– لا أعتقد. بل أعتقد أنكِ أنتِ من يجب تعلّميها.

– حسنٌ... أعتقد أني سأبقى هنا لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً.

– ولماذا ليس ستة؟

إنه يطلب مني أن أبقى. فهل أريد البقاء؟ أنا لا أستطيع حتى الإجابة على هذا السؤال. ففي النهاية، لا شيء ينتظرني في سيدني. قلتُ أخيراً:

– نعم، ربما ستة أشهر، فعلى أية حال، أنا لن أستطيع بيع البيت قبل شهر آذار.

– وليتك تستطيعين أن تساعدينا من أجل عرض عيد الميلاد...

وددتُ أن أرفض، فأنا لا أرغب في استهلاك نفسي في أي شيء كان. ولكن لم لا؟ هل أتخيّل أن ركبتي ستشفى فجأة؟ وأن أستطيع السفر من جديد إلى لندن، وأستأنف عملي حيث تركته؟ وخزت دموعي مقلتيّ.

تقدّم باتريك ولمس معصمي بلطف وقال:

– إيمّا، ربما أنا أطلب منك أكثر من طاقتك.

فسّرتُ موقفي، وقد خجلتُ من دموعي غير المناسبة، وفوجئتُ بحرارة يده على ذراعي:

– لا، لا، لا بأس، إني أفكّر، هذا كل ما في الأمر.

– لا مشكلة بالنسبة إلى مينا، فهي لا تحتاج إلى تعلّم كوريغرافيا جديد.

أجبتُ من صميم قلبي:

– بلى. فأنا أعرف ما تشعر به فتاة شابة تعشق الرقص الكلاسيكي.

تنفستُ ملء رئتيّ وابتلعتُ دموعي الأخيرة وأضفت:

– أنا آسفة. فأنا لم أكن أريد أن أبكي.

قال وهو يسحب يده:

– أحياناً لا يستطيع الإنسان أن يسيطر على دموعه. هل تريدين أن أوصلك إلى بيتك؟ وهكذا أستطيع أن أصحب مينا معي.

– أريد أن أبقى. أقصد أني أريد أن أظلّ هنا في تاسمانيا، حتى عرض عيد الميلاد، وأريد أن أساعدكم.

بدا وكأنه يحاول أن يُخفي ابتسامة عريضة حين قال:

– هذا... هذا عظيم يا إيمّا. هذا لا يُصدّق.

صباح اليوم التالي أيقظني جرس الهاتف في ساعة مبكرة، عند الساعة الثامنة صباحاً. لقد بقيت في السرير، مع إفراط في شرب النبيذ.
رفعتُ السمّاعة عن طاولة سريري، وقلت:
– آلو!
– صباح الخير، أنا بينيلوب سايكس. لديّ شيءٌ ما لأقوله لكِ، وأتساءل ما إذا كان بوسعي أن أمرّ بك هذا الصباح، فبيتك على طريقي.
على الأقل بدأ الناس يفهمون أني لا أحبّ الزيارات المفاجئة، قلت:
– بكل تأكيد. حول ماذا؟
كنتُ أتصفّح دفاتر الحسابات القديمة حين عثرتُ على رسالة ذات طابع خاص. *خاص جداً*. ومن المفضّل أن تحتفظي بها.
انتصبت، فقد أثارت فضولي، فقلت:
– سأكون ممتنّة لك جداً إذا أوصلتها إليّ.
– جيد جداً، سوف أنطلق الآن، وسأكون عندك بعد عشرين دقيقة.
استحممتُ بسرعة وارتديت ملابسي وحاولت أن أتغلّب على الشعور بالغثيان الذي أصابني بسبب نبيذ الليلة الماضية.
وصلت بينلوب إلى أمام بيتي في الدقيقة الموعودة، فعرضتُ عليها وهي تناولني الرسالة:
– هلاّ دخلتِ وتناولت فنجاناً من الشاي؟
– لا، سوف أذهب، فأنا لا أريد أن أزعجك.
قلت لنفسي لا بدّ أني بدوت باردة أمامها، بل عدوانية، في زيارتها الأخيرة، فأجبتها:
– إنك لا تزعجينني.
ابتسمت ابتسامة عريضة فشعرت أني حمقاء. قلت لها:
– لقد احتفظت بعدة أشياء من أجلك.

– اتصلي بي في الأسبوع القادم، عندما يناسبك ذلك.

ثم أضافت وهي تشير إلى الرسالة:

– ليس هناك من مرسَل إليه ولا من تاريخ، ولكنها موجودة في نهاية دفتر يعود إلى عام 1939. وبحسب دفاتر الحسابات تبين لي أنها مكتوبة بخط يد جدتك.

ثم استدارت وتوجّهت نحو سيارتها.

فتحتُ الرسالة وأنا ما أزال واقفة على عتبة الباب. هب نسيم عليل فحرك زاوية الورقة. إن بينلوب على حق: فهذا بالتأكيد خط جدتي. وما هو إلا صفحة من رسالة تحوي عدة صفحات وتبدأ في وسط جملة:

ولكن ليس هناك من قواعد في الحب وأنا لست امرأة يُملى عليها سلوكُها. أنا أحبك ولا يهمّني كثيراً ما يقوله الآخرون، ولا شيء يمكنه أن يغيّر حالتي هذه. لدي انطباع بأني لطالما أحببتك. كنجمة في السماء عند ولادتي، انتظرتني بفارغ الصبر. عندما أنظر إليك أشعر بتشنّج في بطني، ويحرقني جلدي. أفكر بك الآن وأنا أغلي. هل هناك من شيء أجمل وأكثر طبيعية من هذا الشعور؟ حتى وإن كنا لا نستمع إلى عقلنا ولا إلى قلبنا، فإن جسدينا منجذبان دائماً أحدهما إلى الآخر. هذا شعور بدائي. وإذا كان الله موجوداً فقد أراد أن نعيش. عندما تكون بداخلي لا نشكّل إلا شخصاً واحداً ولا شيء يمكنه أن يفرق بيننا. أنا لا أعبأ بما يمكن أن يقال في المدينة. فما هم إلا حمقى ومحدودو العقل لا يرون أبعد من طرف أنفهم. اطمئن يا حبيبي: فأنت لي وأنا لك: وهم لا يستطيعون أن يصلوا إلينا.

استغرقت لحظة لأسترد نفسي. فالهوى في هذه الرسالة لا يُستشفُّ من الكلمات فحسب بل من القوة التي كُتب بها الحبر على هذه الورقة

أيضاً. أنا أعرف أن هذا هو خط جدتي، الخط نفسه الذي كان يتمنّى لي السعادة في أعياد ميلادي كلها، والذي كان يعلن لجدّي أنه قد فوّت الخطوات الأولى لخالي مايك، ولكن يبدو لي من المستحيل أن تستطيع كتابة رسالة كهذه.

إذا كانت موجودة في دفتر يعود إلى عام 1939، فقد كُتبت قبل أن يتلاقى جدّايَ بزمن طويل. إلا إذا كانت موجهة إلى جدي وأنها وجدت في هذا الدفتر عن طريق المصادفة.

حاولت أن أفكر في الأمور بعقلانية، وأنا أعرف أني سأقوم بجهد ضائع. إن المرسَل إليه في هذه الرسالة ليس جدي، فما من رسالة كتبتها جدتي إليه تصرخ بهذا الهوى، بل كانت رسائلهما مليئة بكلمات من قبيل: «شكراً لأنك بدوت عاقلاً بهذا القدر» و «هذا كرم منكَ بأن أرسلت إليّ هدية بهذا الجمال» أو: «بعد عودتك يجب أن ننظم عطلة عيد الميلاد».

عندما تكون بداخلي...

تمتمت:

– إيه، يا جدتي، كم أنت مليئة بالمفاجآت!

الفصل التاسع عشر

بيتي

ألفا خروف، وبيت فارغ وتجارة مفلسة. كان ميكائيل قد أمسك بأرنب، وها هي بيتي تقسّم الآن لحمه الطري بين طبقين. وكان هناك أيضاً بطاطا من حديقة الخضار. لا توجد طاولة طعام يتعشيان عليها. على أية حال، أغلقت بيتي الغرف التي لا تحوي أية قطعة أثاث، فالصدى يثير جنونها. نقل ميكائيل سريره إلى غرفة أليس سابقاً في الطابق الأرضي وساعد بيتي إلى أن تُصعد سريرها إلى الغرفة الرئيسة. وكانت قد اشترت طاولة للمطبخ. أما الغرف الأخرى فقد كانت خالية كلّها.

بذلن بيتي ما بوسعها منذ أن أصبحت مالكة وايلدفلاور هيل قبل شهرين. ولكن كيف يمكنها أن تعلن لميكائيل أن جهوده ليست كافية؟ وأن عليها أن تبيع، وأن عليهما أن يغادرا؟ فهو ليس لديه أي مكان يذهب إليه.

لقد ورثت بيتاً وخرافاً وكذلك ديوناً تتعلق به، ولم يكن محصول الصوف وفيراً ما يكفي لسدادها. كان جار بيتي، جيمي فاركوار ذكياً فلم يلبث أن عرض عليها شراء أراضيها. وبحسب نصائح ليو سامبسون

باعته ثلاثمائة آكر[1] من الأرض. وقد استخدمت معظم هذا المبلغ لسداد ديونها، وجزءاً لدفع رواتب موظفيها ـ أليس غادرت مباشرة، أما تيري وميكائيل فقد بقيا ـ، واحتفظت بالباقي. فلن يكون هناك دخل من المال قبل السنة القادمة والجزّ القادم. ويجب عليها أن تعيش بما بقي لديها من المبلغ. فهي لا تستطيع أن تنفق كل ما لديها على الأثاث والطعام. إنها لا تملك شيئاً ويجب أن تكتفي بذلك.

عندما ستأتي لوسي ستكون الأمور مختلفة. ستشتريان اللحم والعصيدة والعسل. ومع ذلك فإن على لوسي أن تنام في سرير بيتي. هنري يرى أنها غبية إذا احتفظت بالبيت، وليو سامبسون من الرأي نفسه. وبدأت بيتي تعتقد أنهما على حق.

ساعدها ميكائيل. فهو يقوم بكل ما تطلبه منه سواء الذهاب إلى المدينة مشياً أو مساعدة تيري في إصلاح السياج أو تنظيف المطبخ أو حتى سماع بيتي وهي تشكو من الفوضى العارمة التي تسود أوراقها التي باتت تُمضي ساعات كل يوم في فرزها. إنهما يتدبران أمورهما، ليبقيا.

أما اليوم فقد أتى تيري لمقابلتها. قال بنظرة زرقاء شاحبة تبدو صادقة حقاً:

– أنا آسف. لكنّ فاركوار قدّم لي عملاً في الجوار، ويجب أن أقبله.

– لماذا؟

– لأنك بحاجة إلى المال قبل الجز القادم ولأنك ستطردينني على أية حال. فعليّ أن أنتهز هذه الفرصة ما دام الوقت ما يزال مناسباً.

لا يمكنها أن تلومه. فقد كان حاضراً لديها في الماضي، ولكن يجب عليها أن تكفّ عن الاعتماد على إرادتها الطيبة. فهي تعرف ماذا يعني العيش في المجهول والابتعاد عنه بأي ثمن. وعلى الرغم من كل شيء فإن استقالته مثّلتْ رصاصةَ الرحمة بالنسبة إلى بيتي. فالمزرعة لا يمكن أن

---

[1] الآكر يعادل نصف هكتار تقريباً.

تسير بلا مدير. ولا يمكنها أن توظّف مديراً جديداً بلا مال. لقد حان الوقت للتخلّي عن هذا الحلم الغبي. وأتى زمن بيع وايلدفلاور هيل وشراء بيت صغير في هوبارت لكي تكون قريبة من لوسي ولتبحث عن عمل آخر. ولكي تستعد لتعيش حياة متواضعة وأن تقرر بألاّ تصبح غنية وقوية أبداً.

حملت الطبقين إلى الطاولة ونزلت الدرج لتنادي ميكائيل. كان جاثياً مستغرقاً في إصلاح السياج الذي يحمي حديقة الخضار. وحين نهض بدا وكأن لديه انحناء. إنه ما يزال في الخمسين من عمره، ولكنه أمضى حياته في إنجاز أعمال صغيرة فشعر بالإنهاك. وسوف يعاني في إيجاد عمل آخر. ابتلعت عقدة ذنبها. وقالت:

– هيّا لتناول الطعام.

أجاب:

– أنا قادم، إني أحتاج إلى دقيقة أخرى فقط.

صعدت بيتي لتنتظره في المطبخ. صلصة اللحم بردت في طبقه. وأخيراً أتى ليجلس مقابلها.

غمغم وهو يتناول شوكته:

– هذه الأوبوسومات خبيثة جداً، لقد تمكنت من إيجاد طريق في حديقة الخضار.

– ميكائيل، لدي خبر سيء.

رفع كتفيه فقالت:

– تيري استقال.

– آه، لقد أخذه فاركوار.

– هل كنت تعرف أنه قد اقترح عملاً على تيري؟

– قال لي تيري ذلك في الأسبوع الماضي. فاركوار مهتم جداً برؤية إفلاسك، على ما أظن.

دوّرت بيتي هذه المعلومة في رأسها. فلطالما بدا جيمي فاركوار لطيفاً جداً معها، ولكنها تصدق كلام ميكائيل. فعندما كسبت وايلدفلاور هيل جذبت إليها كثيراً من الأعداء. ليس لأن رافائيل أثار تعاطفهم بصورة خاصة، بل إن فكرة أن خادمة فقيرة، وامرأة فضلاً عن ذلك، يمكنها أن تمتلك مزرعة كبيرة بدت أمراً مرفوضاً من كثيرين. بقيت تفاصيل المعاملة سرية وسرت شائعات، وضد مصلحة بيتي دائماً. لقد اخترعت قصة ميراث كاملة، ولكنها لم تحصل بعد على فرصة لحكايتها لأيٍ كان في المدينة. ولم يعد لهذا أيةُ فائدةٍ الآن.

اعترفت قائلة:

أنا لا أعتقد أن بوسعي أن أكمل يا ميكائيل. والناس جميعاً يقولون أن عليّ أن أبيع: فاركوار والسيد سامبسون وتيري... ربما هم على حق. أنا آسفة فأنا أعرف أن ليس لديك أي مكان تذهب إليه.

أكل بصمت لبعض الوقت، ثم توقف عن الأكل وأخذ ينظر إلى نور المساء الضئيل الذي ما يزال ينير المطبخ. كانت الكهرباء ترفاً لا يمكنها أن تدفع أجرها. ثم سأل:

– هل ستتركين المزرعة؟

شرعت في ابتسامة متوتّرة ثم أجابت:

– نعم يا ميكائيل، سوف أترك المزرعة.

– أنا لا أعتقد أنك مضطرة لذلك.

– أنا لا أرى حلاً آخر.

– توظّفين مديراً جيداً للمزرعة، وتتابعين. فأنت ربة العمل، ولم تعودي تعملين عند رجل. هل هذا جيد؟

– لا أستطيع أن أدفع أجر مدير آخر، وسوف ينتهي مالي قبل موسم الجز القادم.

– بيعي قطعة أرض أخرى، وفاركوار سيشتري.

- ولكن كيف لي أن أعرف ما إذا كان المدير الجديد أهلاً للثقة أم لا؟ أنا لا أريد أن أبيع قطعة أرض أخرى لكي أخاطر. فتيري يعرف المزرعة كجيبه.

بينما كان ميكائيل يفكر، زمَّ شفته السفلى، ما منحه هيئة مضحكة كطفل كثير النزوات. كادت بيتي أن تنفجر ضاحكة حين قال أخيراً:

- تشارلي هاريس.

استغرقت بيتي بضع ثوان لكي تستوعب الاسم، ثم عادت إلى ذاكرتها أحداث اليوم الذي هجرت فيه هنري. لقد أنقذ تشارلي حياة لوسي.

أضاف ميكائيل:

- لا أحد يعرف وايلدفلاور هيل مثل تشارلي. إنه رجل ذكي جداً، ويعرف ما يناسب التجارة. ولم يكن السيد بلانشارد يحبه لأنه كان محتالاً جداً. وسوف تحبينه كثيراً.

- وكيف العمل لإيجاده؟

- لقد ذهب إلى بْليغ.

- كان هذا منذ سنوات.

- وربما ما يزال فيها. اكتبي له رسالة.

أُعجبت بيتي بفكرة أن يكون لديها رجل ذكي يدير المزرعة، رجل قادر على تدويرها، يجذبها كثيراً. إذا باعت المزرعة ستكون غنية في فترة وجيزة، أما إذا نجحت في إعادة إقلاع المزرعة فإنها ستصبح في منجاة الحاجة بقية حياتها.

قالت أخيراً:

- موافقة. سوف أكتب له رسالة، ولكن إذا لم أحصل على رد خلال خمسة عشر يوماً فيجب عليَّ أن أطلب من السيد سامبسون أن يجد لي مشترياً.

شعر ميكائيل بالارتياح وواصل طعامه. إذا كان مستقبلها يقلقه، فلن يبدي شيئاً.

مرّ أسبوع. لا شيء. ثم ذات صباح، أتى ليو سامبسون لزيارة بيتي بينما كانت تغير شراشف سريرها وتستعد لاستقبال لوسي لأول مرة. كانت قد أرادت أن تؤجل مجيء ابنتها حتى تحلّ مشكلات المزرعة. والآن أدركت أن من الممكن ألا تُحَلّ هذه المشكلات أبداً.

بادرها قائلاً:

– يقولون في المدينة إنك ستبيعين المزرعة.

أجابت بحذر:

– أفكر بذلك. لماذا؟

– لقد تلقيت عرضاً.

تسارَعَ خفقان قلب بيتي فقالت:

– صحيح؟ ممن؟

– إنه يريد أن يبقى اسمه مغفلاً.

– من جيمي فاركوار، أليس كذلك؟

– هل تريدين أن تعرفي كم يدفع؟

– هيّا، قل.

قرأ المحامي الرقم بصوت عال. إنه رقم كبير، ولكنه لا يقارب أبداً القيمة الحقيقية لهذه المزرعة.

ردّت مباشرة:

– هذه إهانة. إنه فاركوار، أنا واثقة من ذلك.

لزم ليو سامبسون الصمت، فأضافت بيتي:

– إنه لا يكفُّ عن مضايقتي وهو يعرف أني أمرُّ في ظرف عصيب. فقد أغرى مديري.

– أعتقد أن عليك أن تقبلي، فبذلك ستؤمّنين مستقبلك.

- إني بذلك أبيعه مستقبلي، ومستقبل ابنتي أيضاً.
- إنه يقدّم من المال ما لم تكوني تحلمين به قبل سنة يا بيتي.
- ولكني منذ ذلك الحين وأنا آمل بمال أكثر. سوف أفكر في ذلك. فأنا لست غبية.

بعد أقل من ساعة على ذهاب المحامي سمعت من جديد أحدهم يقرع بابها. لا أحد يأتي لزيارتها أبداً، لذا دفعها الفضول لكي تفتح الباب.

في الجهة الأخرى من الباب لمحت رجلاً طويلاً أسود البشرة، يرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً غامق اللون، ويعتمر قبعة فوق شعر طويل مجعد يصل حتى كتفيه تقريباً. بقيت بيتي لحظة حتى تعرفت إلى تشارلي هاريس.

لم تستطع الامتناع عن الابتسام وهي تقول:
- ها قد أتيت!

ردّ بابتسامة وخلع قبعته ثم قال:
- لقد تلقيت رسالتك يا سيدتي. هل يمكنني أن أدخل لكي نتكلم؟

كان محاطاً بكلبين أسود وأبيض بقيا مُقعيين باحترام شديد لحظة فتحت له بيتي الباب. هي تعرف أن نساء المدينة الأخريات يُبدين حذرهنّ تجاه رجل من السكان الأصليين حين يأتي ليقرع بابهن. ولكنّ هذا الرجل خاطر بحياته من أجل إنقاذ ابنتها من الغرق.

بالإضافة إلى ذلك فهي تعرف أيضاً أنها مختلفة جداً عن أولئك النسوة.

قادت بيتي تشارلي حتى المطبخ ووضعت الإبريق ليسخن. حمل دورق ماء لكلبيه في الخارج ثم عاد إلى المطبخ وجلس بجسمه الطويل والنحيل على إحدى الكراسي. فبدا جسماً تعباً.

قالت بيتي وهي تضع أوراق الشاي في الإبريق:
- آمل ألا أكون قد سببت لك المتاعب.

ثم اضطرّت إلى تحويل بصرها والتوقف عن تأمل ساقيه الطويلتين.

– لا ، أبداً. فأنا أعشق وايلدفلاور هيل، وأكون مسروراً عندما أعود إليها. وأنا لم آتِ من بْليغ إلى هنا مشياً لو لم أكن كذلك.
– يجب أن أشرح لك أمرين أو ثلاثة.
– هذا مؤكد، فآخر مرة رأيتك فيها لم يكن معك سوى كرتونة مبلّلة وفتاة صغيرة صهباء الشعر. واليوم، ها أنت تمتلكين أشياء غير الكرتونة المبلّلة.
– هذه التجارة أخفقت مع رافائيل بلانشارد. كان يجب عليه أن يبيع، وأحد أخوالي في اسكتلندا ترك لي ميراثاً صغيراً بعد وفاته.
إن الكذب ليس بالأمر العسير جداً.
– فهمت. والفتاة الصغيرة الصهباء؟
– مع والدها الآن، ويجب أن تأتي لرؤيتي في نهاية الأسبوع.
وضعت بيتي صينية الشاي على الطاولة ونظرت إلى تشارلي وهو يضع ثلاث ملاعق سكر في فنجانه. جرع جرعة بصوت قوي كما لو أنه ميت من العطش ثم بدأ يسترد عاداته الجميلة ويصلح جلسته على الكرسي ليشرب بهدوء.
قالت له:
– يجب أن أكون صريحة معك يا سيد هاريس، لم يعد لدي مال. لقد بعت ثلاثمئة آكر من الأرض لأسدّد ديوني وسوف أصبح بلا مال قريباً. وأنا على وشك أن أبيع كل شيء. إذا قبلت أن تأتي للعمل معي فسأبيع بضع قطعٍ أيضاً لكي أتمكن من دفع أجرك وسنؤجل الإفلاس إلى ما بعد.
– لا تبيعي شيئاً. إنها مزرعة جميلة يا سيدتي، ويجب ألا تبيعيها لأحد.
– نادِني بيتي. ولكني لا أستطيع أن أدفع شيئاً قبل موسم الجزّ القادم، وأنا خائفة منه.
– وكيف تدفعين لميكائيل؟
– أنا لا أدفع له. ونحن نأكل مما نزرعه.

رفع كتفيه وقال:

- سأفعل مثله.

- هذا ليس عدلاً يا سيد هاريس.

- ناديني تشارلي.

وابتسم فلاحظت وجود غمازة عميقة على خده الأيسر تهبه هيئة طفولية.

ابتسمت رغماً عنها وكرّرت:

- ليس من العدل أبداً يا تشارلي أن أوظّف شخصاً وألا أدفع له.

انحنى إلى الأمام ووضع فنجان الشاي. بدا وكأنه يبحث عن كلماته، ثم قال:

- لقد رأيت رافائيل بلانشارد يوجّه هذه المزرعة إلى الإفلاس. فهو لم يكن إلا غبياً قذراً. يمكنك أن تربّي كثيراً من الخراف هنا، ويجب ألّا تبيعي أية قطعة أرض. كلّ ما عليك هو أن تذهبي إلى المصرف وتقترضي ما يكفي من المال من أجل شراء ألفَي خروف أيضاً على الأقل. فهذه المزرعة يمكنها أن تستوعب سبعة آلاف خروف. ويمكنك أن تجني مئة بالة من الصوف في السنة. وعندها سنتكلم بأجري.

تعرف بيتي أن عليها أن ترفض. ومع ذلك، ففي موسم الجز الأخير جنوا اثنتين وعشرين بالة من الصوف وقد وفر لهم هذا مبلغاً جيداً ولكن وجب على بيتي أن تسدّد ديون رافائيل ولم ترى منها بنساً واحداً. إن خمسين بالة قد تسمح بتشغيل المزرعة لأكثر من سنة، وبوسعهم أن يشتروا أثاثاً. أما مائة بالة، فستجعل منها امرأة غنية بحيث تستطيع أن تطلب حضانة لوسي.

أضاف تشارلي:

- ولكن سأكون بحاجة إلى مساعدة فأنا لا أستطيع أن أتوصّل إلى ذلك بمفردي.

- وأنا لا أستطيع أن أسمح لنفسي بتوظيف أناس آخرين، ولا أستطيع أن آمل أن يأتي الجميع للعمل عندي مجاناً.

- ميكائيل يمكنه أن يساعد. هل تُحسنين ركوب الحصان؟ يمكنك أن تساعدي.

- لا، فأنا لم أدنُ من حصان في حياتي.

- سوف أعلّمك. يمكننا نحن الثلاثة، مع الكلاب، أن نحوّل هذا المكان وأن نعيد إلى هذه المزرعة الألق الذي تستحقه. عندما أنفقت ميراث خالك لشرائها، ألم يكن هذا ما كنت تريدينه؟ وإلا لما أقدمت على تبديد هذا المال. أنت لم تكسبي هذه المزرعة لكي تتخلّي عنها عند أول عائق.

شعرت بيتي بأنها مذنبة قليلاً لأنها كذبت عليه. فقالت مدافعة عن نفسها:

- لا بكل تأكيد.

- إذن، إذا كنا مستعدين للتشمير عن سواعدنا، فإني أعدك بأن وايلدفلاور هيل ستكون تجارة رابحة. سيكون ذلك صعباً، ولكن يمكن القيام به.

كان واثقاً من أن بيتي لا تخشى أن تلطّخ يديها. فقد كانت أكثر رعباً من أن تفقد ملكيتها الجديدة. أخذت شهيقاً عميقاً ومدت ذراعها من الطرف الآخر للطاولة وقدمت له قبضة يد مصممة، ثم قالت:

- أنت موظف عندي يا تشارلي هاريس.

لم تكن بيتي تستقر في مكان صباح اليوم الذي ستصل فيه لوسي، فهي قلقة جداً لأن هذه أول مرة تزورها فيها ابنتها في وايلدفلاور هيل منذ أن امتلكتها. وماذا إذا لم تُحبب لوسي هذا البيت الجديد؟ فيما سبق، كانت لوسي جزءاً منها، تشاركها حياتها اليومية. وعندما تعمل عملاً قاسياً بمساعدة تشارلي هاريس سوف تتمكن بيتي من استرداد حضانتها. بالعمل الشاق وبتقديم التضحيات. يجب على بيتي أن تجتهد

من أجل الحفاظ على رباطة جأشها كلما فكرت بالقرض الذي وقّعته. أراها مديرُ المصرف قائمة المبالغ وتواريخ التسديدات الفصلية. وكان هذا مرعباً. عملياً لن يكون معها ما يكفي من المال لتسديد القسط الأخير من السنة، ولكنها تأمل، عندما يحين الأوان، وبما أنها على وشك بيع محصولها من الصوف، يمكنها أن تستمهل المصرف شهراً أو شهرين. على الرغم من كل شيء، يجب عليها أن تكون حذرة أكثر من أي وقت مضى في ما يخص المال. موظفاها وهي مروا لأخذ سندويشات الشحم بالنسبة للفطور: فقد كان المربى ترفاً لا يمكنهم أن يتعاطوه بعد الآن. لحسن الحظ أن ميكائيل كان أخضر اليد وكانت نبتاته تنمو في كل مكان في الحديقة.

سيارة هنري الجديدة، شيفروليه زرقاء تسير في الممر الترابي الطويل قُبيل موعد الغذاء، متأخرة كثيراً عن موعدها. إنها تأمل ألا ينوي هنري ومولي البقاء لتناول الطعام، فلا يوجد ما يكفي حتى من الكراسي لجلوسهم، فما بالك بالطعام. كانت بيتي قد خزّنت بعض الأشياء من أجل زيارة لوسي، لئلا تحرم ابنتها من شيء. وهي لا تريد أن تعطي كل ما لديها لهنري ومولي في اليوم الأول، ولاسيما أنه لا ينقصهما شيء.

كانت تنتظر أمام المدخل. انطفأ المحرك تاركاً مكانه لصوت الريح التي تعبث بأغصان أشجار السَنْط. نزلت لوسي من السيارة فلمع شعرها الأصهب تحت أشعة الشمس. فتحت بيتي ذراعيها آملة أن تأتي ابنتها إليها راكضة. لكن لوسي اقتربت بخطا وئيدة وغير مكترثة تقريباً. فقد انفصلتا منذ زمن طويل.

جثت بيتي وطوقت ابنتها بذراعيها على الرغم من تردّدها ثم قالت لها:

– عزيزتي، لقد اشتقت إليك كثيراً.

انفجرت لوسي باكية وتشبثت بأمها بقوة، وكان قلبها يخفق بشدة. رفعت بيتي رأسها فرأت هنري ومولي يسيران في الممر. لم يكن هنري

يعتمر القبعة فلاحظت بيتي أن شعره أصبح قليلاً. نهضت وحملت لوسي على خصرها حتى وإن أصبحت الطفلة ثقيلة جداً بالنسبة إليها، ثم ابتسمت لكي تستقبلهما وقالت:

- أهلاً بكما في وايلدفلاور هيل.

ردّ هنري عابساً:

- لقد أتينا إلى هنا من قبل.

سرعان ما فهمت بيتي أن هنري يشعر بالغيرة، وربما هو نادم لأنه ليس معها، وربما يحب أن يكون مالكاً لمزرعة كهذه. فقالت بيتي:

- ولكن الآن، هي لي. ادخلا.

بالتأكيد، في الداخل كان من الصعب عليها أن تؤثر فيهما. لقد سمحت للوسي أن تصعد الأدراج وتنزلها وأن تفتح أبواب الغرف الخالية وتغلقها.

قال هنري مُلقياً نظرة ذات مغزى من حوله:

- إذن، حدّثيني عن هذا الخال الذي توفي تاركاً لك مالاً لشراء هذا البيت؟

- إنه خالي من جهة أمي.

- لم تكلميني عنه من قبل. وأنا أعرف أنك لم تكوني على احتكاك مع أمك نفسها.

من حسن حظِّها أن مولي قاطعتهما سائلةً من أعلى الدرج بعد أن تفحّصت الغرف كلها ووجدتها فارغة

- ولكن أين ستنام لوسي؟

- معي حالياً، فليس لديَّ ما يكفي لشراء سرير جديد.

نزلت لوسي الدرجات الأخيرة بسرعة وتعلقت بخصر بيتي. أصدر هنري تكشيرة تعبّر عن عدم موافقته ثم قال:

- لم تعد طفلة صغيرة يا بيتي، يجب أن يكون لها غرفتها الخاصة.

تدخلت لوسي قائلة:

- ولكن هذا لا يزعجني.
فقالت لها مولي:
- بكل تأكيد يا عزيزتي، فقلبك طيب.
عاد هنري إلى موضوعه سائلاً:
- إذن ماذا عن هذا الخال؟
- إنه جد خالي مونتغومري. وكان يسكن في إنفرنيس. وأنا لم ألتق به سوى مرة واحدة.
تساءلت ما إذا كان لونها قد احمرّ.
سألها هنري بينما كانت مولي تنزل الدرج:
- وهل تعيشين هنا بمفردك؟
- لا، هناك ميكائيل الذي يساعدني في البيت والحديقة، وتشارلي الذي يدير المزرعة.
سألت مولي مرعوبة:
- هل يسكنان هنا؟
ردت بيتي:
- ميكائيل لديه غرفة في الطابق الأرضي، وتشارلي يسكن في كوخ الجزّازين.
كان تشارلي قد أصرّ على هذه النقطة، فمن غير اللائق أن ينام في بيت بيتي نفسه والجميع سيشاطرونه هذا الرأي.
سأل هنري من جديد:
- تستطيعين أن تدفعي لموظفين، ولا تستطيعين أن تشتري أثاثاً؟
- ليس قبل محصول الصوف القادم.
- ومتى سيكون هذا؟
عاد إلى أمام المدخل. هي لن تقول لهنري إنها لا تتوقع أي دخل من المال قبل عام، وربما عليها أن تبيع أرانب مقابل بضع بنسات تسمح لها بشراء بعض البترول. الشتاء لن يأتي قبل أشهر، ولكنها تخشاه.

أجابت هنري:
- قريباً. لكنّ لوسي ستكون بخير هنا، وسوف أعتني بها، كما اعتنيت بها طوال سنوات يا هنري. وما من سبب لتشكّ بي الآن.
أبدى هنري انزعاجاً من ذكرى ماضيه غير المستقر فطأطأ رأسه وتوجّه نحو السيارة، لكنّ مولي لم تتبعه بل قالت للوسي:
- لوسي، هل يمكنك أن تُودّعي بابا بست قبلات؟
ركضت لوسي فالتفتت مولي إلى بيتي وقالت:
- يجب أن أقول لك شيئاً لأنك سوف تعرفينه من فم لوسي وسوف تنزعجين.
- وما هو؟
حاولت بيتي أن تحتفظ بحرارة صوتها.
إن لوسي لم تعد تناديني ماما مولي، بل تناديني *ماما* فقط.
فتحت بيتي فمها لتحتج لكنّ مولي أضافت مباشرة:
- أنا أعرف أنك أمها، ولا نية لي بأن أحلّ محلك. لكنّ لوسي ستبدأ المدرسة في السنة القادمة ومن المعقّد جداً أن نفسّر للجميع من معلمين وجيران وأصدقاء حقيقة الموقف.
- معقّد جداً؟ أم معيب جداً؟
احمرّت مولي وقالت:
- الاثنان. أنا أقبل ذلك. فهذه الطفلة ولدت خارج الزواج. وفي هوبارت، حيث نعيش وحيث ستذهب إلى المدرسة أنا سأكون مرجعها بوصفي أمها فلماذا نَسِم هذه الفتاة المسكينة بالحديد الحامي ونثبّت اختلافها عن بقية زملائها؟ فالخطأ ليس خطأها إذا ولدت في ظروف غير مشرّفة.
أرادت بيتي أن تدافع عن نفسها لكنها امتنعت. ففي النهاية، حين قامت بمغامرتها مع هنري كانت تعرف أنه رجل متزوج. نما لديها انطباع بأن هذا الأمر قد حدث منذ مليون سنة.

أضافت مولي وهي تضع قفازيها:

– على أية حال، أنا ماما، وأنت ماما. والطفلة تعرفِ جيداً من هي امها.

صرخ بها هنري من داخل السيارة:

– أسرعي!

قالت مولي وهي تشير إلى هنري بأن يهدأ:

– إن مزاجه سيِّئ جداً. سوف نلتقي بعد أسبوع. واتصلي بنا إذا احتجت إلينا قبل ذلك.

لم توضح لها بيتي أن هاتفها سيُقطع قبل نهاية الأسبوع، بل قالت:

– إذن، إلى الأسبوع القادم.

عادت لوسي نحوها راكضة نحو بيتي التي امتلأ قلبها سخطاً. فكيف تجرؤ مولي على ذلك؟ كيف تجرؤ على تبرير أفعالها بهذا القدر من التفسيرات المنطقية؟ بيتي تعرف أن مولي تتحرق للحصول على طفل. وكون لوسي تناديها ماما يلبِّي رغباتها هي بقدر ما يلبي رغبات الطفلة.

سألتها لوسي بقلق:

– هل الأمور على ما يرام، يا ماما؟ تبدين غاضبة.

انحنت بيتي لتقبِّل رأسها بينما كانت السيارة تقلع، ثم قالت لها:

– لست غاضبة منك يا حبي، لندخلِ إلى بيتنا الجديد.

استيقظت لوسي باكراً. ما تزال بيتي نائمة بجانبها متكورة، وتضع ذراعها على بطنها. حاولت أن تنام من جديد لكنَّ السرير غريب الأطوار. والعصافير صاخبة جداً، وهي تريد أن تذهب إلى الحمام.

نهضت بهدوء ولبست المئزر الزهري، ذلك الذي حاكته لها مولي. مولي لا تصنع ثياباً جميلةً بقدر تلك التي تصنعها أمها، فحاشيتا هذا المئزر ليستا متساويتي الطول. خرجت لوسي من الغرفة على رؤوس أصابع قدميها لأنها تذكّرت ما قاله لها والدها ومولي:

– إذا استيقظت باكراً حضّري فطورك بمفردك، ولا توقظينا.
الطقس بارد في الممر فشدت مئزرها على جسمها. توقفت في الحمام ثم نزلت الدرج. إنها تحب كثيراً بيت ماما الجديد والكبير، بغرفه الفارغة. تساءلت ما إذا كانت أمها موافقة على أن تقيم خيمة في إحدى هذه الغرف الكبيرة وتنام فيها على الأرض مباشرة مع بطانيات.
وصلت لوسي إلى المطبخ وقطعت قطعة من الخبز عديمة الشكل وغطتها بملعقة من العسل واتجهت نحو النافذة. في البعيد عند السياج، رأت رجلاً يسرج حصاناً. كانت بشرته غامقة اللون ولكنها مختلفة جداً عن بشرة خادمة مدام بانبريدج في الجهة الأخرى من الشارع في هوبارت. فقد كانت سوداء جداً بحيث أنها تشبه العرقسوس بالنسبة إلى لوسي.
نظرت الفتاة من النافذة للحظة. لديها حصان خشبي متأرجح في البيت، ولكنها تحب كثيراً أن تلمس حصاناً حقيقياً. ففي آخر مرة أتت إلى هنا، منعها رجل من أن تقترب من الخيول. لكنّ الرجل ذا البشرة الغامقة يبدو لطيفاً. بالإضافة إلى ذلك، إن أمها هي التي تمتلك المزرعة الآن، إذن يجب عليه أن يطيع لوسي بكل تأكيد. فتحت باب غرفة الغسيل، نزلت الدرجات وخرجت إلى الباحة.
ما يزال العشب ندياً والشمس تحيط الغيوم بنور ذهبي، والسماء تكتسي لون الميلك - شيك بالفريز. صرخت بالرجل:
– هيه! انتظر!
التفت نحوها وابتسم وانتظر أن تقترب.
بلل الندى جواربها. عن كثب بدا لها الرجل ذو البشرة السمراء جميلاً بعينيه السوداوين الواسعتين اللتين بدتا حنونتين. بادرته مباشرة:
– أمي تملك المزرعة، وأريد أن أداعب الحصان.
– بكل تأكيد، ولكن يجب أن تكوني لطيفة معه.
خفض الحصان رأسه فمررت يداً حذرة على أنفه. وأخذت أذنا الحيوان تتحركان إلى الأمام والخلف. فقال لها الرجل:

- ها قد أحبك جيداً.
- أنا اسمي لوسي.
- وأنا اسمي تشارلي. لقد التقينا من قبل، منذ بضع سنوات.
التفتت إليه لوسي وقالت:
- لا أعتقد، فلدي ذاكرة قوية جداً.
- كنت صغيرة جداً. وكنت تجتازين نهراً فائضاً مع أمك. وقد جرفك التيار فاضطررتُ إلى القفز في الماء لكي أخرجك.
عادت بذاكرتها إلى أبعد حدث ممكن لكنها وجدت عناء في التذكر. التمع حدثٌ في ذاكرتها ولكنه بقي غائماً: رأت نفسها في الماء، مرعوبة. ثم قالت:
- هل هذا صحيح؟ لحسن الحظ أنك كنت موجوداً، وإلا كنت سأغرق.
داعبت رقبة الحصان ثم التفتت من جديد نحو تشارلي وسألته:
- لماذا بشرتك غامقة جداً؟
- ولماذا شعرك أصهب؟
رفعت كتفيها فقلّدها فانفجرت ضاحكة، فقال لها:
- من الأفضل أن تعودي فالطقس بارد.
قال ذلك ثم اعتمر قبعته وامتطى صهوة الحصان ثم أضاف:
- سوف تقلق عليك أمُّك.
- لا، إنها لن تقلق.
ضحك تشارلي ثم صفر. فخرج كلبان من الحظيرة وركضا باتجاهه ثم ابتعد، ولوسي بقيت مزروعة في العشب الندي.
هل أخرجها حقاً من الساقية عندما كانت صغيرة؟ كانت ستتذكر ذلك. ربما يكذب. مولي تقول إن عليها ألا تثق بخادمة السيدة بانبريدج لأنها سوداء. وربما كان الأمر نفسه مع تشارلي. ومع ذلك فهو يبدو لها لطيفاً جداً، وأحياناً تقول مولي أشياء عن أشخاص لا تكون صحيحة

دائماً. فذات مرة سمعتها لوسي تتخاصم مع والدها ـ وكان هذا الخصام الوحيد بينهما على حد علمها ـ وقامت مولي بمناداة أمها باسم سيِّئ. إنها لا تذكر الكلمة، ولكنها تعرف أنها ليست كلمة لطيفة.

– لوسي!

استدارت ثم رفعت عينيها نحو أمها التي كانت تشير إليها من نافذة الغرفة:

– عودي! فالطقس أبرد من أن تقومي بنزهة في هذه الساعة.

اخترقت الشمس الغيوم وأضاءت الندى الذي غطّى العشب. وعادت لوسي إلى البيت وهي تقلد الحصان.

قرصت بيتي أنفها، ثم وضعت قلم الحبر. التوتّر يؤلم رقبتها ورأسها. إنها تراجع الأرقام كلّها من جديد، وهي لا تستطيع أن تجمعها كما يجب.

فوائد القرض التي يجب عليها أن تسدّدها سوف تقضي عليها.

ولكن يوم الجمعة، حجز تشارلي ألفي خروف ميرينوس من النوعية الممتازة من المزرعة حيث كان يعمل. فات الأوان على الندم: فقد كانت قد وقّعت الأوراق.

ومع ذلك، فإن الطقس جميل هذه الظهيرة. الشمس تسطع على نافذة المكتب، وهو غرفة صغيرة جداً مزوّدة بسلةٍ هي بمثابة كرسي ومن طاولة صنّعها ميكائيل كيفما اتفق. كانت الهضبة مليئة بأزهار بريّة متفتّحة. ربما كانت بحاجة إلى الخروج من هذا المكتب واستنشاق الهواء النقي لتجميع أفكارها.

قُرع باب المكتب، رفعت عينيها فرأت تشارلي.

قال:

– هيه مدام!

على الرغم من أنها قالت له غير مرة أن يخاطبها «بيتي»، فإنه مصرّ على استخدام «مدام». سألته:

– هل أستطيع أن أساعدك يا تشارلي؟

– ها قد مرّ أسبوعان ولم تركبي هذا الحصان!

– لقد قلت لي إنه ما يزال من غير الضروري أن أفعل ذلك.

– سيكون ذلك ضرورياً قبل نهاية الصيف. فأنا لا أستطيع أن أفعل كل شيء مع الكلبين.

لم تشأ بيتي أن تعترف له بأن فكرة امتطاء صهوة الحصان ترعبها، فلطالما بدت لها الخيول ضخمة وردود أفعالها غير متوقعة.

قالت:

– إذن ما يزال لدي وقت للتعلم.

– ولكنه ليس وقتاً طويلاً لكي تصبحي فارسة جيدة. اسمعي يا مدام، لا يمكنك أن تملكي مزرعة دون أن تجيدي ركوب الخيل. هكذا كان رافائيل بلانشارد يعمل وقد رأيت ما حدث له. يجب أن تنتقل الخراف في أغلب الأحيان. وهناك ألفان آخران سيأتيان هذا الأسبوع، ويجب أن تساعديني أو أن توظفي شخصاً آخر.

نظرت بيتي إلى صفوف الأرقام فانتباها إحساس بأنها طعنت بخنجر في قلبها.

قرفص تشارلي ووضع ذراعيه على مكتبها وقرّب ذقنه وقال بصوت خافت:

– مدام؟ هل أنت خائفة؟

وابتسم ابتسامة عريضة، فأصيبت بيتي بالعدوى، فضحكت وقالت:

– ليس خوفاً، بل هو ضيق.

– ككل الناس في المرة الأولى. لكن آبي هادئة جداً وستكون لطيفة معك.

نهض وأشار إلى فستانها بإصبعه ثم قال:

- أليس لديك ملابس أخرى؟ غيري ملابسك واتبعيني على الأسفل، إلى الإسطبل.

ثم مضى بخطوات واسعة. أغلقت بيتي دفتر حساباتها ونظرت إلى إطار الباب لكي تراه وقد ابتعد. إن لدى هذا الرجل جاذبية معينة، وسهولة في التعامل. إنه يشعر بالراحة في جسده. بيتي تعرف أنها ستكون خرقاء ومضحكة عندما تركب هذا الحصان، ما سبّب لها الانزعاج مسبقاً.

لبست بنطالاً ترتديه عادة في أثناء العمل في الحديقة، وأخذت قبعتها المعلقة قرب الباب ثم اتجهت نحو الدجاجات التي تقوقئ وهي تتنزه في الحديقة. وكان ميكائيل يزرع أعشاباً اليوم.

حين وصلت إلى الإسطبل كانت آبي، الفرس الكبيرة بانتظارها. انحنى تشارلي بلطف نحو الفرس وهمس بضع كلمات في أذنها. وكان حصانه الرمادي بيرش ينتظر مربوطاً في محبسه. بلعت بيتي ريقها بصعوبة وقالت:

- أنا جاهزة.

داعب تشارلي خاصرة الفرس، وقال:

- الداخل هو الجانب الأيسر، والخارج هو الجانب الأيمن. ابقي إلى يسارها فهي معتادة على ذلك. وسوف أسرجها.

ببطء، وبصبر شديد وبكثير من السعادة، أراها المراحلَ كلها. وضع اللجام في فم الفرس وربط الرتاق وفرش سجادة السرج وشد المهماز... وعلّمها أن تتكلم بصوت خافت مع الفرس لتهدئتها، وساعدها على المحافظة على توازنها عندما تصعد. وُلِد لديها انطباع بأنها مرتفعة جداً أرادتِ أن تنحني إلى الأمام لكي تمسك بعرف الفرس حتى تبقى على قيد الحياة.

فأوقفها تشارلي قائلاً:

- لا، لا، يجب أن تسترخي يا مدام. أسبلي يديك وأنزلي كعبيك. وضعي قدميك إلى الأمام. يجب أن تري أصابع قدميك. لا تتوتري، اهدئي، وتنفسي بعمق.

الكلام أسهل من الفعل. بدأت آبي تتحرك فحاولت بيتي ألّا تتحرك وأن تجلس كما يجب. هدَأ تشارلي الفرس من جديد فتنفست بيتي بعمق. قال لها مشجّعاً:

- والآن بهدوء. أعطيها ضربة خفيفة من كعبيك. بهدوء، بهدوء.

نفّذت تعليماته فتحركت الفرس.

أضاف تشارلي وهو يفرك خطم الفرس:

- أكملي. أكملي.

سألته بيتي:

- وكيف أقول لها إلى أين تذهب؟

- استخدمي الزِّمام.

بسهولة وخفة امتطى تشارلي صهوة حصانه. وبعد لحظة صار بجانبها ثم قال:

- سنبدأ بهدوء، حول السياج فقط.

قالت بيتي لنفسها إنها لن تعتاد أبداً على شعور أنها في خطر، وهي معلّقة في مكان شاهق، على ظهر حيوان. لكنّ تشارلي أبدى كثيراً من الصبر معها. لم يدفعها أبداً إلى القيام بأكثر مما تشعر أنها قادرة عليه.

دارا حول السياج دورتين ثم عادا إلى الإسطبل. فسألته بيتي:

- هل هذا كل شيء؟

أجاب تشارلي وهو يترجل:

- بقي أن تتمرني على ذلك.

رفع يديه لكي يمسك بخصر بيتي وهي تحاول أن تنزل إلى الأرض. كان قوياً وثابتاً. وهي كانت ثقيلة وخرقاء. نزلت إلى الأرض محدثة فرقعة فصهلت آبي صهلة خفيفة. فقالت لها بيتي:

- لا تسخري مني.

نبّهها تشارلي قائلاً:

- كل يوم يا مدام. سنقوم بدورتين حول السياج ثم ثلاثة ثم أربعة. وعندما تعتادين على ذلك سوف نسير بصورة أسرع وإلى مكان أبعد. وأنا بحاجة إلى أن تساعديني على جمع القطيع في فصل الخريف. هل تعتقدين أنك ستتمكنين من ذلك؟

نفخت بيتي بصوت قوي وقالت:

- أعتقد أن ليس لدي خيار آخر.

أصبحت نظرته السوداء جدية وقال:

- لا يا مدام، ليس لديك من خيار.

الفصل العشرون

أخذت تتدرّب يومياً على ركوب الحصان، واعتادت عليه شيئاً فشيئاً. كانت النهارات طويلة. وعُلّمت الخراف الجديدة وأخذت تتجمّع في ظلال الأشجار في ساعات حرّ الظهيرة الشديد. في اليوم الأخير من شهر شباط خرجت لأول مرة على الحصان مع تشارلي لنقل القطيع من مرعى إلى آخر. في الحقيقة، كان الكلبان أكثر فائدة بكثير منها. لكن تشارلي لم يقل شيئاً. وذاك المساء، أحسّت بألم في ساقيها وفي ذراعيها، اللتين أحرقتهما الشمس لأنهما كانتا عاريتين بين القفازين والكمّين. ولكنّ نومها تلك الليلة كان أهنأ نومٍ عرفته منذ زمن طويل.

تشارلي وميكائيل هما سنداها. فميكائيل يعتني بالبيت، وتشارلي بالمزرعة، وحاولت بيتي أن تنكبّ على الأوراق. إنها لا تنفق شيئاً تقريباً. فهم يعيشون من منتجات الأرض من خضار، ويقسرون أنفسهم على أكل البيض بدلاً من الدجاجات. كانت بيتي تنزل إلى المدينة مرة كل خمسة عشر يوماً، لتشتري مؤناً: الشوفان والعسل والحليب والصابون والطحين. هي تحبّ تلك النزهة التي تسمح لها بالتفكير وبالاسترخاء بعيداً عن المزرعة. كانت مشغولة جداً بالمهام العديدة التي يجب عليها أن تقوم بها بحيث أنها لا تملك أبداً الوقت للتفكير في أي أمرٍ آخر.

أدار مالكون جددٌ محل البقالة العامة فامتلأت بيتي أملاً. فهي لم تُصغِ قطّ للإشاعات التي تسري في المدينة. نصف الكلام يدور حولها بكل تأكيد، هي وامتلاكها لويلد فلاور هيل. والنصف الآخر يتلخّص بالاحتمالات الكئيبة بنشوب حرب في أوروبا. لكنها سمعت أيضاً امرأتين مسنّتين تعبّران عن اشمئزازهما من المرأة الشابة التي باتت تدير المحل.

إذ قالت إحداهما:

- إنها شابة جداً وطموحة جداً.

فردت الأخرى:

- إنها هي التي تحكم زوجها.

كانت بيتي تحلم بإيجاد حليفة لها. خلف البوفيه الزجاجي الطويل الذي يستخدم ككونتوار في المدخل تقف امرأة قصيرة، سمينة وشقراء الشعر. ابتسمت لبيتي لدى وصولها، وكانت هذه أول مرة منذ زمن طويل تُستقبَل بيتي بابتسامة في المدينة. بادرتها المرأة:

- صباح الخير، أهلاً وسهلاً، اسمي تيلي.

- وأنا بيتي بلاكسلاند، من وايلدفلاور هيل.

- هل أنت اسكتلندية؟ فهذه اللكنة...

- نعم.

- لقد كانت أمي اسكتلندية، ولكنّ عمّاتي ربّينني في جنوب أفريقيا.

- وكيف وصلت إلى هنا؟

انفجرت تيلي ضاحكة وقالت:

- يمكنني أن أسألك السؤال نفسه. لقد تزوجت من أسترالي.

واصلتا حديثهما بينما كانت بيتي تشتري وتحسب بنساتها كما لو أنها قطع من الماس. طرحت عليها تيلي بعض الأسئلة حول المزرعة وموقعها وحجمها، ثم تذمّرتا، هما الاثنتان، من صعوبة العمل، ومن إدارة البيت. ثم قالت تيلي وهي تغلّف علبة حليب مسحوق:

- أنا أرى أن أزواجنا يفرطون في طلباتهم منا.

- في الواقع أنا وحيدة الآن.

- أوه، أنا آسفة. هل توفي زوجك؟

احمرّت بيتي وهي تقول:

- لا، إنه... لم تَسِرِ الأمور.

ضحكت تيلي ضحكة متوترة هذه المرة ثم قالت:

- ليس لديك حظ. لا بدّ أن حياتك كامرأة وحيدة صعبة. قلبي معك!

سُرّت بيتي بهذا التعاطف، فهو الوحيد الذي وجّهه إليها أحد سكان القرية، ثم اعترفت بصوت خافت:

- إنها صعبة جداً. شكراً على لطفك.

ثم كسحلية تظهر فجأة من تحت حجر ظهر رجلٌ أحمر الوجه من الداخل، في الثلاثين من عمره، مُزيّت الشعر. نظر إلى بيتي من رأسها حتى قدميها بعينيه الصغيرتين الباردتين. فبادرت تيلي قائلة بصوت ضاحك:

- أوه يا فرانك، أعرّفك ببيتي.

هزّ رأسه مع ابتسامة منقوصة. لاحظت بيتي أن تيلي أصبحت عصبية فجأة، فبدا لها احتمال أن تتمكن من السيطرة على زوجها أمر مضحكاً: وما ثرثرة المرأتين المسنتين إلا لأنهما لا تجدان شيئاً أفضل لتفعلاه.

قالت بيتي وهي تجمع حاجاتها:

- تشرّفتُ بمعرفتك. يجب علي أن أذهب.

عندما فتحت الباب كادت أن تصدم مارغريت داي التي تتأهب للدخول. إنها لم ترها منذ بِضعة أشهر، منذ أن طلبت منها مغادرة بيتها. بادرتها بيتي وقد حمسها حديثها مع تيلي:

- صباح الخير يا مرغريت.

نظرت إليها مرغريت نظرة باردة ولامستها في أثناء مرورها. انغلق باب المحل وبقيت بيتي مزروعة في الخارج. تبخّرت حماستها. تجرأت على النظر إلى داخل المحل، فرأت عبر الواجهة مرغريت منحنية على

كونتوار المحل، تكلم تيلي. رفعت المالكة الجديدة عينيها ولمحت بيتي في الطرف الآخر من الواجهة ثم أشاحت بوجهها، دون ابتسامة هذه المرة.

أرادت بيتي أن تفتح باب المحل من جديد وتصرخ: «لا تصغي إليها! إنها ثرثارة حمقاء!» لكنها لم تفعل شيئاً، بل رفعت ذقنها وسارت. إنها ليست بحاجة إلى حلفاء، فبوسعها أن تتدبر أمورها بمفردها.

شعرت بوطأة الأسابيع الطويلة التي غابت في أثنائها لوسي، وبخاصة في الليل، عندما تجد نفسها في سريرها تتأمل وحدتها ساعات طويلة. كانت نهاراتها حافلة، دون وقت ضائع، ترهقها، ولكنه تعب محبب. أما في المساء فوحدها الأفكارُ المؤلمة تزورها.

شهر آذار هو موسم جزّ الجزء الخلفي من الخراف. أوضح تشارلي لميكائيل كيف يستخدم الجزّازة ثم وضع يده على العجين. إنها فترة صعبة، فهم يستيقظون باكراً، قبل الفجر، ساعةَ تعبر السماءَ غيومٌ ماطرة، وحين تشكّل الأشجار اليابسة كتلاً سوداء جامدة في الضباب. ثم تتوالى نهارات لا تنتهي يقومون في خلالها بجمع المواشي، ونقلها من مرعى إلى آخر. وكل مساء ترتمي بيتي على سريرها منهكة. ومع ذلك فقد كوفئت عندما باعوا المحصول لتاجر صوف من لونسيستون بسعر أعلى مما كانت تأمل. حصلت على قليلٍ من المال الإضافي. فذهبت إلى المدينة واشترت بضعة أمتار من القطن السميك الزهري من محل تيلي هارو. لم تعد تيلي تعامل بيتي بالحرارة نفسها، بل ككل سكان المدينة، قبلت أن تأخذ مالها بسرور.

بهذا القماش خاطت فستاناً لِلوسي، فقد نسيت كم كانت تحب الأقمشة، والخطوط الناعمة للخياطات والثنيات التي كانت تتشكل تحت إبرتها. أخذت تتساءل عما يَحلُّ بالصوف الذي تبيعه. إذا تمكنت من الاحتفاظ بقليل منه فإنها ستتمكن من حمل إنتاج مزرعتها الخاصة.

وفّرت لها هذه الفكرة سعادة لا توصف وشعوراً بأنها مستقلة وقوية. تلك الليلة، ولأول مرة منذ عدة أشهر، أخرجت ورقة ورسمت كروكيات لسترة ستكون رائعة من الصوف. فقد كانت قد رأت في مجلات خياطة محل ليونيفورد، أن الموضة تتطلب خطوطاً طويلة مع أشرطة عريضة. وغاصت في رسومها عدة ساعات.

وأخيراً حلّت عطلة عيد الفصح، لكنّ هنري رفض أن يأخذ لوسي قبل نهاية احتفال أحد الفصح. لم تكن بيتي تجد الوقت للذهاب إلى الكنيسة: فهناك أشياء كثيرة أخرى عليها القيام بها. على أية حال، بصمت وايلدفلاور هيل المستمر وروائح أرضها، لهي أقرب إلى الله من البهو الرطب لكنيسة المدينة الصغيرة. أحياناً، عندما كانت تتنزّه عند غروب الشمس وترى في البعيد الجبال مكتسية اللون الأزرق، والانعكاسات الفضية تلمع على خزانِ الماء والظلال الباردة تمتد على أحواض الوادي حتى على العشب وعلى الأشجار، كانت تتساءل كيف تمكنت من العيش في مدينة باردة ومكتظة.

وأخيراً عادت ابنتها ظهيرة يوم الأحد.

كان تشارلي يتصارع مع سياج قرب المر، فلم يكن معهم ما يشترون به سياجاً جديداً، ولكن بالاستعانة بأسلاك قديمة من الحديد، أصبح خبيراً في مادة الحرتقة. اجتازت سيارة هنري المنعطف وظهرت في ساحة رؤيتهم.

كانت بيتي في غاية السعادة، فشهور الانتظار شارفت على نهايتها. وخلال أسبوعين سوف تتمكن من الاستفادة من لوسي ومن جسمها الصغير المنحشر بجسمها ليلاً. سوف تتمكن من النوم مع عطر شعرها الحار وهو يعبق في منخريها.

دوّى بوق السيارة. لم تتخيل أن هنري استخدمه من تلقاء نفسه، بل افترضت أن لوسي ومولي قد دفعتاه إلى ذلك. ثم توقفوا في نهاية المر.

فُتح الباب ونزلت لوسي. هذه المرة لم تتوقع بيتي أن تكون مستعدة. فقد احتضنتها بكل قواها. وعندما تراجعت بيتي لتنظر إليها رأت وجهها مليئاً بالدموع. قالت لها لوسي:

– لقد اشتقت إليك يا ماما.

– وأنا أيضاً، ليتك تعرفين كم اشتقت إليك، يا حبيبتي!

ترجلت مولي وهنري من السيارة بدورهما. مولي بكامل أناقتها، المعروفة كعادتها، بقبعتها وقفازيها، تجمّدت حين رأت تشارلي.

دنا هنري من بيتي وناولها كتابين وقال بصوت مبتور:

– دعيها تتدرّب على القراءة. فهي ليست مبرّزة في المدرسة.

احمرّت لوسي.

أضافت مولي بلطف:

– نعم يا لوسي، يجب أن تقرئي بصورة أفضل لكي تتمكن أمك من أن ترسل إليك رسائل عندما لا تكونان معاً.

ثم بدت عصبية وهي تنظر إلى تشارلي.

تدّخلت بيتي وقالت:

– مولي، هل التقيت بتشارلي؟ إنه مدير مزرعتي.

صاحت لوسي التي تعرفت إليه للتو:

– تشارلي!

ثم أسرعت نحوه.

شعر تشارلي بالتوتر المحيط وتراجع لئلا ترتمي لوسي بين ذراعيه. مدّ طرف السياج وبعض الأشواك بمثابة تحذير ثم قال:

– بكل هدوء أيتها الصغيرة الصهباء، فهنا توجد أشياء قاطعة.

قالت مولي:

– أهذا هو تشارلي؟ إن لوسي لا تكفّ عن الكلام عنه. لم أكن أعرف أبداً أنه أسود.

صحّح هنري قائلاً:

- إنه ليس أسود تماماً.

ثم رفع كتفيه وأضاف دون أن يكلف نفسه عناء خفض صوته:

- وماذا يغير هذا في الأمر، على أية حال؟

شعرت بيتي في آن واحد بالانزعاج لأن تشارلي يسمعهما وهما يتكلمان عنه دون أي تحفظ، وبالفرح لأن هنري بدا غير مبال بانزعاج مولي.

فتحت لوسي مع تشارلي حديثاً حامياً حول الخيول والمدرسة وبيض عيد الفصح. رافق هنري مولي إلى السيارة وانطلقا. فوجئت بيتي: ففي قلب مولي الطيب لا مكان للأشخاص الملوّنين. إن لديها لطفاً انتقائياً وتبدو قليلة الانفتاح على الاختلاف. نادراً ما وجدت بيتي فرصة لتشعر بأنها متفوقة على مولي من وجهة نظر أخلاقية، وها هي الآن تستفيد من هذا الإحساس غير العادي.

صرخت بابنتها:

- تعالي يا عزيزتي، فلديَّ هدية لك!

ركضت لوسي نحوها وتعلّقت بخصرها وسألتها:

- ما هي؟ ما هي؟

- لقد صنعت لك فستاناً زهرياً، وهو اللون الذي تفضلينه. هيا لندخل.

أخذت بيتي ابنتها إلى الغرفة في الطابق الأول، وكان الفستان الزهري ممدداً على السرير. سرعان ما خلعت لوسي تنورتها وقميصها. لقد فقدت استدارتها كطفلة. عملياً، لقد بدأت تتغير، وأصبحت أطول وصار بوسعها أن ترتدي ملابسها بنفسها. ولحظة أرادت لوسي أن ترتدي الفستان فهمت بيتي أنه لا يناسبها.

فقالت لوسي:

- أوه!

- لوسي لقد ازداد طولك خمسة سنتيمترات على الأقل!

ابتسمت لوسي بفخر وقالت:

- ماما تردّد دائماً إني آكل كحصان.

ماما. وُلد لدى بيتي شعور مفاجئ بأنها فقدت شيئاً ثميناً. فابنتها تكبر في مكان آخر، ومع أمٍ أخرى. لقد تغيّرت كثيراً منذ آخر مرة رأتها فيها بيتي وضمتها بذراعيها. وهي ستواصل التغيُّر، بكل تأكيد، أيضاً وأيضاً، كسطح البحر. إلى أن يأتي يوم وتتغير كثيراً بحيث أن بيتي لن تعود تعرفها، لن تعرفها كما يجب أن تعرف أمٌّ ابنتها في حميميتها.

سألتها بيتي:

- ماما، هل أنت حزينة لأن الفستان لم يناسبني؟

أمسكتها بيتي بيديها وقالت:

- لا يا عزيزتي، فأنا أستطيع أن أكبّره؛ بل أنا حزينة لأنك تكبرين بعيداً عني.

استدارت لوسي نحوها وغمزتها بعينيها. فسألتها بيتي:

- هل أنت سعيدة مع بابا ومولي؟

- نعم. ولكنّي أفضّل أكثر الفترة التي أراك فيها.

- وأنا أفضّل ذلك أيضاً.

- أنا لا أحب المدرسة.

- لكنَّ مولي على حق. فعندما تجيدين القراءة والكتابة يمكنني أن أرسل إليك رسائل، وسنشعر أننا لسنا بعيدتين، إحدانا عن الأخرى.

- طيب، سأبذل جهدي.

- هذا جيد يا ابنتي.

قرر مدير المصرف أن يزيد الفوائد على قرض بيتي لحظةَ أخَذَ فصل الشتاء يترك أولى أثاره الباردة على الحقول. لقد أمضت بيتي معظم سنواتها الأخيرة في القلق لأن المال ينقصها، ولكنها لم تشعر من قبل بالمسؤولية لإيجاده. أمضت ساعات طويلة مع دفاتر الحسابات، وعلى وضع الموازنات، ودراسة الدفاتر القديمة التي تبيّن محاصيل الصوف في

الماضي، وفي تقدير محصول هذه السنة المتوقع بعد أربعة أشهر. لم يكن فصل الشتاء الفصل المثالي للتوفير، ويشغلها بصورةٍ عامة همُّ ميكائيل وتشارلي لأنهما رجلان وهما بحاجة إلى طعام أكثر منها. لقد علّمتها التجربة أن هذه الأيام الطويلة التي يمضونها في جمع الخراف ومعالجتها من مرض الظلف والعمل بشكل قاس يسبب جوعاً شديداً. وبدا لها تقديمُ حساء الخضار مع سندويشات من الشحم قاسياً جداً في هذه الأمسيات.

ومع ذلك فإنهما لم يتذمرا أبداً. وهم الثلاثة بدوا وكأنهم أسرة واحدة مرتبطة بالمحن والتضحيات مع الشعور المشترك بأنهم ينجزون شيئاً ما معاً. بيتي تعرف أنها مميزة: فهي التي تستفيد بصورة رئيسة من عملهما الشاق، وبالتالي، قررت أن تدفع لهما وألّا تحتفظ بالمال نفسها لئلا يولد أيٌّ فارق فيما بينهم ويقطع هذه الصلة. فبعد لوسي، هما الشخصان الأفضل في العالم بالنسبة إليها.

قررت أن الوقت قد حان لفتح الصالون، حيث توجد المدفأة الكبيرة، حتى وإن كان لا يوجد فيه كراس من أجل الجلوس. فخاطت وسائد من قطع قماش واشترت بساطاً مستعملاً من المدينة. وبينما كانت تُجري حساباتها في ذلك اليوم وهي تجلس إلى مسند النافذة أملاً في الإحساس بحرارة الشمس عبر الزجاج البارد، كان ميكائيل ينظف الموقد. وإلى جانبه كومة من قطع الحطب مرتبة بشكل جيد كان قد قطعها في وقت مبكر من ذلك النهار. تلك الظهيرة انتابت بيتي رغبة شديدة في أن تجلس قرب نور نار المدفأة وحرارتها، وأملت أن ينضمّ إليهما تشارلي. إنها لا تفهم لماذا يرفض أن يُمضي وقتاً أكثر في البيت. لقد عاشت في كوخ الجزّازين، فهي تعرف أن الوضع هناك قاس وأن الطقس بارد. إنه يُجهد نفسه في العمل، وهي تفضل أن يتمتع بقليل من الرفاهية.

وكانت تحب أيضاً أن تُمضي المزيد من الوقت معه.

بدأت هذه الفكرة تتشكل في رأسها. فعندما يكونان في الخارج، ويعملان معاً، لا يكون لديهما وقت للكلام. وغالباً ما يكون كل منهما في

جهة مختلفة من السياج، ويتكلّمان صراخاً بسبب الكلاب التي تنبح والخراف التي تثغو والحفر الموحلة المحفورة بينهما. لكن حضوره يوفر لها كثيراً من الطمأنينة. وكلما اقتربا كلّما رغبت في المزيد: لكي تعرفه معرفةً أفضل، ولتفهم هذا العقل وهذا القلب اللذين يسكنان في الجسم الناعم والجميل نفسه، وأن يكون بينهما مسافة أقصر، بطريقة أو بأخرى، فقد كان صبوراً ولطيفاً وشغّيلاً وقوياً... ويمتلك كثيراً من المزايا المثيرة للإعجاب بحيث أنها بدأت تُعجب به كثيراً.

أعلن ميكائيل وهو يجمع دلوه وفرشاته، ووجهه وهباب الفحم يغطي يديه ووجهه:

– ها قد انتهيت.

– هل يمكننا أن نشعلها قليلاً هذا المساء؟

هزّ كتفيه ثم قال:

– إذا امتلأت الغرفة بالدخان فعليّ أن أبدأ من جديد.

انفجرت بيتي ضاحكةً وقالت:

– هيّا نظّف نفسك، وشكراً على عملك.

أمال رأسه جانباً وهو يكشّر ألماً ثم قال:

– لدي ألم في رقبتي، لقد أصبحت أكبر من القيام بهذا الآن.

قال مازحاً ثم غادر الصالون وهو يعرج لأن سلكاً حديداً كان قد ثقب قدمه في الأسبوع الماضي.

نظرت بيتي إلى المدفأة. ما يزال الوقت بعد الظهر، والطقس ليس بارداً ما يكفي لإشعال المدفأة، ومع ذلك عليها أن تختبر مجرى التهوية... ابتسمت وكوّمت قطع حطب في الموقد، ثم وضعت قطعاً صغيرة فوقها وأشعلتها. وفي الربع ساعة التالي انشغلت بالنار التي أضرمتها وتأكّدت من أنها لا تملأ البيت دخاناً، ثم وضعت وسادة على الأرض وجلست عليها وأخذت تتأمّل اللهب.

استرخت قليلاً. نعم، عليهم أن يشدّوا الأحزمة في خلال فصل الشتاء، وبعده يأتي موسم الجز وقد نظمت موازنتها بشكل جيد جداً بحيث أنه بعد هذا الدخل من المال، يمكنهم أن يرتاحوا. سوف تتمكن من دفع أجر ميكائيل وتشارلي ووسوف تحترم مدفوعات فوائدها، وحتى أن تشتري بعض قطع الأثاث. أغمضت عينيها وحاولت أن تتخيّل كيف سيكون شكل هذه الغرفة في السنة القادمة، في الفترة نفسها. كنبة وطاولة منخفضة ومصباح، بل ويمكنها أن تستعيد وصل الهاتف والكهرباء ـ لقد دفع رافائيل كثيراً من المال ليأتي التيار إلى هنا، والآن ها هو مقطوع. وفي الطابق الأول، سيكون هناك غرفة للوسي. سوف تشتاق بيتي للفتاة ليلاً، ولكنها أصبحت أكبر بكثير من أن تقاسمها سريرها نفسه. إنها ليست مستعجلة لفتح بقية غرف البيت، فهي تفضّل تجميل الغرف التي تسكنها. الشتاء سيمنحها وقتاً للخياطة، هنا أمام المدفأة. وحين سيكون لديها ما يكفي من المال، سوف تشتري آلة خياطة كهربائية.

تدفّأت بهذه الأفكار والظهيرة تميل إلى نهايتها. في الخارج، سمعت صوت تشارلي وهو عائد إلى الإسطبل، وينادي كلبيه، ففكرت بتحضير العشاء. مشت في الممر وقرعت باب ميكائيل بلطف، فصاح:

– ادخل.

فتحت الباب فوجدته ممداً على سريره، فوق أغطيته، وهو يتألّم من التعب. أعلنت:

– سوف أحضّر العشاء.

فردّ قائلاً:

– ليس من أجلي، هذا المساء، فأنا لستُ بخير.

قالت باهتمام:

– كيف لست بخير؟ إنه مجرّد تعب بسبب تنظيف المدفأة.

حرّك رأسه وقال:

– لا أعرف، أعتقد أني محموم.

دنت منه ووضعت يدها على جبينه، فوجدته ساخناً وليس حارقاً. فقالت له:

– استرح إذن، وأنا وتشارلي سوف نتعشّى بمفردنا.

ومع ذلك، فقد أوضح تشارلي أن لا داعي لتحضير العشاء إذا كان ميكائيل لن يشارك معهما. أكل قطعة خبز مع العسل وعاد إلى كوخ الجزّازين. وعادت بيتي إلى مدفأتها وصنعت نقاط الصليب على ضوء النار. بقيت هناك ساعات لتستفيد من الحرارة بينما الرياح تهبّ في الخارج، حتى شعرت بألم في يديها وبدأت تتلف عينيها.

لم تعد تستطيع أن تبقى يقظة فوضعت خياطتها جانباً. أشعلت شمعة لكي تنير طريقها وتركت النار تخمد. حين وضعت قدمها على أول درجة من الدرج تذكرت أنها لم تذهب لترى كيف أصبح ميكائيل. إنه نائم بكل تأكيد. دارت حول الدرج واستمعت من خلف باب غرفته.

سمعت أنيناً. هل سمع وقع خطواتها؟ ألصقت أذنها بالباب. فبدا لها تنفسه عسيراً. توقفت قليلاً. لم تشأ أن تدخل دون أن تُدعى، ولكنها تخشى أن يكون مريضاً. صاحت:

– ميكائيل!

الأنين نفسه. حاول أن يناديها. تسارع نبضها وفتحت الباب.

على نور الشمعة المترنح شهدت منظراً مرعباً، فقد كان ميكائيل ما يزال ممدداً فوق البطانيات ولكنّ عضلاته كانت كلها متشنّجة لتشكل كتلة جامدة وقبضتاه ملتويتان بجانب جسده وظهره مقوس كقوس كمان. توسّل إليها بنظره وفكه مضغوط ورئتاه تبحثان عن الهواء. صاحت:

– أوه، يا إلهي!

وتذكّرت تشنجه وحمّاه بعد الظهر فصاحت من جديد:

– يا إلهي! تشارلي! تشارلي!

غادرت الغرفة بأسرع ما يمكن واجتازت المطبخ منادية تشارلي وهي تعرف أنه لا يستطيع أن يسمعها من هذه المسافة. انعزال المزرعة أزعجها كثيراً، بعيداً عن الناس وبعيداً عن كل نجدة. وحتى ليس هناك من هاتف لاستدعاء طبيب. نور القمر المتجمد يضيء العشب الرطب. إنها تخاطر بالانزلاق. وبعد لحظات كانت تطرق باب كوخ الجزّازين وتصرخ:

– تشارلي، تعال بسرعة! إنه ميكائيل!

– فتح الباب وعيناه ناعستان ونصفه الأعلى عار، فسألها مباشرة:

– ماذا يحدث؟

– لا أعرف.

تلمّس تشارلي الأرض بحثاً عن قميص فارتدى واحداً دون أن يزرّره. وبلحظة مرّ من أمامها وشق طريقه في الظلام حتى البيت. اشتدت الرياح، واختبأ القمر خلف غيوم تجري بأقصى سرعة. أسرعت بيتي لتلحق بتشارلي وقلبها يخفق بسرعة، وتنفسها يُخرج بخاراً في هواء الليل البارد.

انتظرت خارج غرفة ميكائيل، فهي لا تريد أن تراه هكذا: فوضعه أرعبها. دخل تشارلي حاملاً الشمعة وخاطب صديقه القديم الذي كان فمه يُخرج شهقات دون أن يستطيع أن يتلفظ بأية كلمة. خرج تشارلي من الغرفة، أغلق الباب خلفه ونظر نظرة جادة وقال:

– ألمه شديد، إنه يعاني من الكزاز.

انقبض قلب بيتي فقد سمعت من قبل بهذه الكلمة ولطالما لُفظت بنبرة حزينة، فسألت:

– ماذا يمكننا أن نفعل؟

– يجب أن نستدعي طبيباً.

– هل يمكنك أن تذهب على الحصان إلى عند فاركوار، وتستخدم هاتفه؟

– من الأفضل الذهاب إلى المدينة فإنها ليست أبعد بكثير. وقد يرفض أن يساعدنا، فهو لا يحبك.

بيتي تعرف أنه ليس الآن أوان الانزعاج فسألت:

– وكيف عرفت ذلك؟

– ولماذا سيقدّرك؟ فقيمة مزرعتك أكبر من قيمة مزرعته وهو يعرف ذلك، فلديه مستنقع.

واجتهد تشارلي في الابتسام ثم أضاف:

– من الأفضل الذهاب إلى المدينة ورؤية الدكتور مالكولم. وآبي لا تحب الخروج ليلاً، ولكن هناك ضوء القمر.

– آبي؟ ألن تأخذ بيرش؟

– لستُ أنا من سيذهب إلى المدينة يا مدام، بل أنت.

– أنا؟ ولماذا أنا؟ سيكون الأمر أسرع معك أنت، وأكثر ضماناً.

– الناس جميعاً يعتقدون أني سارق، ولن يساعدوني.

– ولكنهم غيّروا رأيهم بكل تأكيد الآن. وما من أحد كان يحب رافائيل.

بينما كانت تقول هذا تذكرت رأي مرغريت في تشارلي: *لا يجوز أن يسرق رجلٌ أسود ملكية رجل أبيض، هذا كل ما في الأمر.* ثم سألت:

– هل يجب عليّ حقاً أن أذهب إلى المدينة على الحصان في الظلام؟

– آبي حيوان جيد، ويمكنك أن تثقي بها إنها تسمع جيداً وحاسة شمها أفضل منا.

ألقت بيتي نظرة على باب ميكائيل، وسألت بصوت خافت:

– هل سيموت؟

تحولت عينا تشارلي إلى بركتين سوداوين مليئتين بالانفعال وقال:

– لا أعرف يا مدام. فقد رأيت رجلاً يموت بسبب الكزاز، واثنين آخرين وقد شُفيا منه دون مشكلة. وفي أثناء غيابك سوف أنظف جرح قدمه وأتأكد من أن يبقى هادئاً.

وافقت بيتي فقال لها:

- هناك مشعل في غرفتي في الكوخ. البطارية ضعيفة، ولكنه سيساعدك على تسريج آبي في الظلام. خذيه أيضاً من أجل الطريق، فقد تحتاجينه.

***

استغرقت آبي وقتاً حتى هدأت، فهي غير معتادة أن تُركَب ليلاً. فهي تحمحم وتكبو في الظلام. واضطرت بيتي إلى استدعاء رباطة جأشها لتحتفظ بصوت هادئ يُطمْئِن الفرس.

الرياح تشتد أحياناً وتصفر. وأحياناً أخرى تئنّ على قمم الأشجار. والقمر يلمع قبل أن يختبئ خلف الغيوم ثم يظهر من جديد. كان الطريق مليئاً بظلال مجنونة تأتي وتروح. وبدا أن الليل يتحرك ويرتجف.

تشبّثت بيتي بفرسها كما لو أن حياتها متعلقة بها وطلبت منها أن تتقدم. لقد أحرق البرد يديها، وأخذ أنفها يسيل وعيناها تبكيان. وأخذ جسمها يرتعش من الخوف على ميكائيل، وقد أبدت يقظة قصوى لكي تبقى بأمان. فهي لا تريد أن تسقط وتُجرح هي أيضاً. الطريق يمتد تحت حوافر آبي التي وجدت إيقاعها وأخذت تضرب الأرض حتى المدينة.

البيوت الصغيرة كلها كانت غائصة في الظلام. لا بد أن منتصف الليل قد مضى. وصلت إلى أمام بيت الدكتور مالكولم وربطت آبي بالحاجز. تجمّد أنفها وخداها وشعرت بألم في أذنيها.

وجب عليها أن تقرع الباب لمدة خمس دقائق قبل أن يستيقظ أحد ما. أضيء المدخل وفُتح الباب. كان الدكتور مالكولم يرتدي مئزراً وزوجته تقف خلفه كظل.

سأل دون أن يكلّف نفسه عناء إخفاء انزعاجه:

- ما هذا؟

– أحد موظفيَّ في وايلدفلاور هيل مريض، مصاب بالكزاز.

بدا وكأنه يعاني من حرب داخلية. تنفّس من أنفه وقال أخيراً:

– أنا لن أخرج.

– ولكنه قد يموت.

– هل قلت الكزاز؟

فرك ذقنه وأصدر تكشيرة انزعاج من فمه وقال:

– سوف أعطيك بنسلين وباربيتوريك لإرخاء العضلات. اتصلي بي غداً صباحاً. وإذا لم يتحسن فسوف أذهب لأراه.

كانت أكثر تعباً وتجمّداً واضطراباً من تصنّع اللطف، فقالت:

– ليس لدينا هاتف. ولهذا السبب قطعتُ هذه المسافة كلّها، على الفرس، في الظلام. أنت طبيب ويجب عليك أن تساعدنا.

تراخى، وصارت بيتي على يقين من أنه سيغيّر رأيه لو لم تضع زوجته يدها على كتفه وتقول:

– الساعة الآن الواحدة صباحاً، ولن يأتي الآن. وعن أي موظف تتكلّمين، هل تقصدين الساكن الأصلي أم الثائر؟

ابتلعت بيتي غضبها وقالت:

– ولكنّ ميكائيل ليس شيوعياً.

– إنه لا يتكلّم إلا اللغة الروسية.

– بل يتكلّم الإنكليزية بصورة جيدة جداً.

تدخّل الدكتور مالكولم متجاهلاً زوجته وقال:

– سأعطيك هذين الدواءين، وسوف آتي لرؤيته مع أول ضوء صباح الغد.

ثم التفت إلى زوجته وقال:

– عودي إلى النوم. وأنا سألحق بكِ بعد بضع دقائق.

ألقت زوجة الطبيب نظرة على بيتي التي لم تعرف ما إذا كانت نظرة فوقية أم نظرة شفقة. وعلى أية حال، اضطرّت بيتي إلى تحويل بصرها لئلا يغلي دمها.

وضع الطبيب بعض الأقراص في عبوتين صغيرتين، أعطاها التعليمات، ثم تركها ترحل في الظلام، وهو عاجز عن النظر إلى عينيها. حلّت بيتي رباط آبي، ثم انطلقت عائدة في البرد المجمّد.

تركت آبي في الإسطبل دون أن تنزل سرجها، واجتازت غرفة الغسيل بأسرع ما سمحت لها ساقاها، ثم وصلت إلى البيت. كانت خائفة مما يمكن أن تجده لدى وصولها. إنها تخشى أن يعلن لها تشارلي أن ميكائيل قد مات، أو أنه كفّ عن التنفس، فاستعدّت لتلقّي الأسوأ.

حين سمع تشارلي وقع خطواتها سارع للقائها في الممر، وبادرها قائلاً:

– إنه بحالة سيئة. وقد أصابه ارتعاش، ولم يعد يستطيع التنفّس، ولكنه عاد إلى التنفّس الآن.

– عليه أن يتناول قرصين من هذا الدواء، وقرصاً من الآخر.

ثم وضعت العلبتين في يده وقالت:

– أنا آسفة يا تشارلي، فأنا لا أستطيع أن أعطيه الدواء، حتى إني لا أعرف ما إذا كان يستطيع ابتلاعه... فيجب أن تهتمّ به أنت.

نظر إليها ثم هزّ رأسه. أمسك بالعلبتين فلامست أصابعه أصابعها لحظة ثم أسرع إلى الدخول إلى غرفة ميكائيل وأغلق الباب خلفه.

ظلت بيتي في الممر وغطت وجهها بيديها. وخزت دموعها عينيها لكنها منعتها من أن تسيل. فقد كان ميكائيل طيباً جداً معها وشريفاً، وكان يعمل عملاً شاقاً. إنها لا تطيق فكرة أنه من الممكن أن يموت. وتلك الصورة التي ارتسمت في رأسها عن جسمه الملتف والمتوتر لا تفارقها. أسندت ظهرها إلى الجدار ثم تركت جسمها ينزلق إلى الأرض ووضعت رأسها على ركبتيها وأخذت تنتظر.

بعد ما يزيد عن نصف ساعة، خرج تشارلي من الغرفة، وقد ذابت الشمعة على حاملها ثم جلس قربها. سألته بلهفة:

- إيه؟

- إنه أكثر هدوءاً الآن، وأعتقد أن الأدوية ستجعله يتحسن. فقد استرخى جسمه قليلاً.

طوى ساقيه الطويلتين، وطوّق ركبتيه بذراعيه، وسأل:

- هل رفض الطبيب المجيء؟

- قال إنه سيأتي غداً صباحاً.

رفعت بيتي كتفيها وحاولت أن تكبت دموعها ثم قالت:

- لقد وصفت زوجته ميكائيل بأنه شيوعي.

- آه، لقد فاتها شيء ما، فميكائيل رجل طيب.

- إنه الأفضل.

ران صمت قصير ثم سألها:

- وماذا قالت عني؟

أجابت بيتي كاذبة:

- لا شيء.

أخذت شفتا تشارلي تتحركان وكأنه سينفجر ضاحكاً ثم قال:

- بالتأكيد. إنها من النوع الذي لا يحفظ لسانه، تلك المرأة.

لم تستطع بيتي الامتناع عن الضحك ثم عادت إلى جديتها وقالت:

- تشارلي، لماذا يأخذ الناس فكرةً سيئة عنك؟

أجاب مباشرة:

- أنت لا تأخذين فكرة سيئة عني.

قالت مؤكدة وحلقها متوتر قليلاً:

- لا.

نما لديها انطباع بأنها تقول كلمات ممنوعة وهي تضيف:

- لا، بكل تأكيد.

– يجب أن أهتم بأشياء أهم بكثير من رأي السيدة مالكولم.
ثم هزّ رأسه باتجاهها وأضاف:
– وأنت أيضاً.
أسندت بيتي رأسها إلى الجدار وقالت:
– هذا صحيح، على ما أعتقد.
ثم ألقت نظرة إليه بينما لم يكن ينظر إليها، ثم حوّلت بصرها قبل أن يلاحظ ذلك، وقالت:
– أنا لا أعرف شيئاً عن حياتك يا تشارلي.
– ليس هناك أشياء كثيرة تقال يا مدام.
– هل ستناديني «بيتي» ذات يوم؟
باعد بين يديه وقال:
– هذا غير لائق.
– أتمنّى ذلك تماماً.
– قد تندمين على ذلك. فإذا سُمع في المدينة أني أناديك باسمك أؤكد لك أنك ستندمين.
– لا، أنا لا أخجل من قول أنك صديقي. فلولاكما أنت وميكائيل لما بقيت حتى الآن. وأنا فخورة بأن يعرف الناس هذا.
ولكنها ما لبثت أن شعرت بالانزعاج من الحماسة التي غلّفت صوتها.
قاطعت نظرة تشارلي نظرتها على ضوء الشمعة الضئيل. بدا على وشك أن يقول كلمة، ولكنه لم يقل شيئاً. أحست بيتي أن شيئاً ما يعتمل في بطنها، إحساس لم تعرفه منذ سنوات طويلة، منذ أن كفّت عن كونها تلك المراهقة الغبية العاشقة لهنري. ارتعشت خوفاً لأنها فهمت ما يعتريها: الرغبة. جسمه الطويل النحيل المتكور قريباً جداً منها وبشرته الحنطية اللون وشعره البني الأجعد وعيناه السوداوان... عادت إلى نفسها وفضلت أن تفكر بأنها تعبة وقلقة على ميكائيل وأن عقلها يلعب مقالب معها.

سألها منتشلاً إياها من حلم يقظتها:

– ألن تنامي قليلاً؟

– وأنت؟

– سأبقى هنا.

– إذن، وأنا أيضاً.

نهض قائلاً:

– سوف أنزل سرج آبي المسكينة، أبقي أذنك منصتة.

انتظرت بيتي وحاولت أن تركز انتباهها. إن ظهور هذه الرغبة أقلق استقرارها. فقد كفت عن التفكير بالرجال منذ زمن طويل لأنها قالت لنفسها إن أحداً لا يريد امرأة لها ماض. لقد أمضت كثيراً من الوقت في الاهتمام بلوسي وفي مقارعة الفقر بحيث أن الرغبة باتت في المقام الثاني. لقد أيقظها تشارلي ولم يكن هذا متوقعاً. اعتنت بدراسة مشاعرها بالتفصيل لأنه من المؤكد أن لا شيء سينتج عنها.

عاد من الإسطبل، دخل إلى الغرفة ثم عاد للجلوس بجانبها بصمت، ثم قال:

– إنه نائم، ويبدو أن الحمّى قد خفّت.

– وجسمه؟

– أكثر استرخاءً. وأعتقد أنه سيخرج منها بسلام.

امتلأ قلب بيتي ارتياحاً، ثم قالت:

– آمل أن تكون على حق.

بدأت تحسّ بالتعب، وثقل رأسها على ركبتيها، ولكنها قرّرت ألّا تنام تلك الليلة وتسهر على صحة ميكائيل. نهضت وأشعلت شمعة جديدة. الريح تصفع النوافذ. إنهم يشعرون بالأمان في البيت، وكل شيء هادئ. قالت وهي تحاول أن تجلس على الأرض:

– حاول أن تبقيني يقظة. أنت قلت أن لا شيء يُقال عنك، وأنا أراهن على العكس.

- موافق يا مدام، إذا كان هذا ما تريدينه.

ثم أخذ يروي لها لحظات مختلفة من طفولته، ما يزال يتذكّرها، بعيداً، بعيداً جداً في الشمال، في جزء من العالم حار ورطب، حيث كان البحر أخضر والسماء زرقاء ما يكفي لتؤلم العيون. وشرح لها أنه فهم مبكراً جداً أن لونه لم يكن بلون أمه المعبودة، وبالتالي فإن جماعته كلّها توجّست منه. تذكّر أن رجالاً بيض أتوا ليأخذوه إلى مدرسة خاصة، مع أطفال آخرين مثله، وأن أمه بكت قائلة إن حاله أفضل هكذا، وأنه شعر أنه ضائع، وتائه وأنه لن يراها بعد ذلك أبداً.

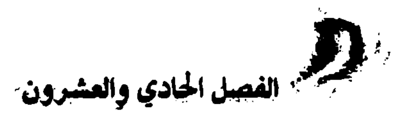
- لن تتخيّلي ما هو يا مدام، عندما يقول لك الناس الذين يحيطون بك جميعاً إن هذا لصالحك، بينما كل ما تملكينه أنت هو شعور سيئ.

وصمت بعد أن شوّه الانفعال صوته.

مدت أصابعها لتلمس أصابعه، ولكنه ابتعد فقرّرت أن تُرجع يدها. مضت الساعات. في كبد الليل تطفو الأسرار على السطح. كل جارحة من جوارحها تتوسّل إليها بأن تقوم بحركة أخرى، ولكنها لم تفعل شيئاً. هذا غير صحيح، ويجب عليها ألّا تنسى أنه موظّف لديها. وحين انتهى من رواية قصته، طرح عليها أسئلة حول حياتها فروت له أحلامها الطفولية حول تفصيل الملابس، وحبها للأقمشة، وعالم الأزياء، وعن فكرتها المجنونة في صنع شيءٍ ما من صوف الخراف التي يربّونها هنا، في وايلدفلاور هيل. وبدافع من مصلحتها قالت حقائق أخرى دون أن تريد: حول هنري ولوسي وحتى رافائيل. وانتهى بها الأمر بأن روت له كيف أصبحت مالكة لهذه المزرعة، فأخذ يضحك لمدة عشر دقائق متواصلة.

وسط الكلمات والقصص، بزغ الفجر شيئاً فشيئاً، وزالت حمّى ميكائيل. وصل الدكتور مالكولم بعد قليل، فاختفى تشارلي في كوخه من جديد. انقطع سحر الليل، وأخذت حاجات الحياة اليومية الأولوية. ميكائيل سيشفى بعد أسبوع أو أسبوعين.

أما قلب بيتي فقد تغيّر إلى الأبد.



الفصل الحادي والعشرون

لو لم يكن تشارلي موجوداً في موسم الجزّ، لكانت بيتي قد انهارت.

وظّفوا خمسة جزّازين انتقلوا للسكن في الكوخ، وطلبوا كميات هائلة من الفطورات والعشاءات. إما أن تستخدم بيتي بقية مالها لتدفع للمصرف أو تدفع أجرهم: فتبعت الخيار الثاني، وكتبت رسالة إلى المصرف تقول إنها ستدفع الفوائد فيما بعد، بعد محصول الصوف. وأخذت تنتظر.

لم يعودوا يملكون ما يوظّفون به حرّاساً آخرين للقطيع، فتصدّى كلّ من بيتي وميكائيل لهذه المهمّة. فأخذت بيتي تُمضي الصباحات في جمع القطيع والظهيرات في الطبخ. واهتمّ ميكائيل بفتح الحواجز وإغلاقها، وإدخال القطيع إلى داخل السور. وكان الكلبان يعملان عملاً مضنياً بحيث أنهما كانا ينهاران بعد الظهر وينامان كجثتين هامدتين. وكان تشارلي يُدير الجميع. كان يعرف أين يوجد كل شخص في أية لحظة. يعطيهم تعليماته بصوته الهادئ واللطيف، وينقل القطيع من جهة إلى أخرى من المزرعة، ويتأكّد جيداً من أن كل جزّاز يجزّ صوف ثمانين خروفاً كل يوم.

كان كوخ الجزّازين مليئاً، فوجب على تشارلي أن ينام في البيت. فرش فراشه القشّي في إحدى غرف الطابق الأول. وحينما تنام بيتي كانت تفاجئ نفسها وهي تفكر بهذا القرب، في نهاية هذا الممر المظلم، بعد بابين من هنا... جسمه الطويل الممدّد وبشرته الحارّة... وفي النهاية تمنع على نفسها هذه الأفكار فتنام من فرط الإرهاق. وفي اليوم التالي، عندما ترى تشارلي، تنسى ما كانت قد فكّرت فيه في الليلة السابقة. ولا شيء يحمل على الاعتقاد بأن الأفكار نفسها قد عبرت خياله، هو أيضاً.

مساء اليوم الرابع من الجز، كانت بيتي تصعد الدرج متعبة لتأوي إلى فراشها حين رأت تشارلي خارجاً من الحمّام، مبلّل الشعر، يرتدي قميصاً واسعاً وبنطال جينز.

قالت له وهو ينعطف نحو غرفته:

– ليلة سعيد، تشارلي.

ردّ وهو يغلق بابه:

– ليلة سعيدة، بيتي.

قال «بيتي» ولم يقل «مدام». وفّر لها سماعُ شفتيه تلفظان اسمها متعة غير متوقعة. دفئ قلبُها ولم تستطع الامتناع عن الابتسام.

وأخيراً. أخيراً أتى المال.

حكم بائع الصوف أن الجّزز ناعمة جداً لكنّ وزنها يبقى صحيحاً على الرغم من كل شيء. وبالنتيجة فإن المال الذي أخذته بيتي من البيع سيكون أكبر بكثير مما أمِلت. فقد سددت للمصرف الذي أخذ يرسل إليها رسائل مطالَبةٍ أكثر فأكثر جفافاً. والأهم من ذلك أصبحت بيتي قادرة على دفع أجر ميكائيل وتشارلي وإضافة علاوة في مغلف راتب كل منهما.

احتج تشارلي قائلاً:

– أنا لا أستطيع أن أقبل هذه العلاوة يا بيتي. فهذه التجارة لك، وأنت التي تتعرضين إلى مخاطر، فأنت من يجب أن يأخذ المكافأة.

– وأنتَ أيضاً تعرضتَ إلى عدد لا بأس به من المخاطر. وعملت عندي شهوراً طويلة دون أن تأخذ أجراً حقيقياً.

أعاد المغلف إلى يد بيتي وقال:

– أعطيني ما يجب أن تعطيني إياه دون بنس واحد إضافي. اشتري قطيعاً. وأنا ماذا أفعل بهذا المال؟ اشتري خرافاً واجعلي من هذه المزرعة تجارة أكثر قوة. وهكذا سيكون لدي عمل في السنة القادمة والسنة التالية. هكذا يمكنك أن تكافئيني.

اتبعت بيتي نصيحته ونظمت وصول ألف وخمسمائة خروف في شهر تشرين الثاني.

وأخيراً باتت تمتلك ما يكفي من المال لشراء أثاث. فتحت غرفة الطعام، ووضعت فيها طاولة تتسع لستة أشخاص، ووضعت كنبتين في الصالون. واشترت سريراً للوسي ووضعته في الغرفة المجاورة لغرفتها. كما صار بوسعها أن تدفع ثمن سجادات وقماشاً للستائر، وأعادت وصل الكهرباء والهاتف. وفي خلال شهر تحولت وايلدفلاور هيل إلى بيت حقيقي. وصلت لوسي في بداية عطلة عيد الميلاد، ولأول مرة منذ أن غادرت بيتي هنري، عرفت أن بوسعها أن تمنح ابنتها كل ما تحتاج إليه.

فكّرت بيتي كثيراً بتوظيف مديرة تساعد لوسي في المدرسة، ويمكنها أيضاً أن تساعد في المطبخ وفي المهام البيتية. سوف تكبر لوسي في المزرعة التي ستتعلم أن تديرها، وتتعلم ركوب الخيل، وجمع القطيع والقيام بملايين الأشياء الصغيرة التي تقوم بها هي وتشارلي. وبعد ذلك، عندما تصبح شابة، يمكنها أن تدير التجارة يداً بيد مع بيتي، وأن ترث هذا الاستقرار المالي حينما لا تعود بيتي موجودة. إنها تعرف أن بوسعها أن تقدم للوسي أكثر بكثير من هنري ومولي: أكثر من حياةٍ تماشي معايير

المدينة المحدودة والمدرسة والكنيسة، وأكثر من حياةٍ فتاةٍ صغيرة رصينة مُؤهّلة لتصبح امرأة مطيعة تماماً.

ومع ذلك فقد ترددت بيتي في التكلم عن هدفها مباشرة مع هنري ومولي. فاتصلت بليو سامبسون وطلبت منه أن يأتي إليها ليتناقشا في الموضوع.

إنها لم ترَ المحامي ثانيةً منذ أن رفضت بيع قطعة أرض أخرى لجيمي فاركوار. ومع ذلك فقد بدا محبباً وعملياً كما حفظته في ذاكرتها.

بادرها قائلاً وهو يضع حقيبته الجلدية البالية على طاولة غرفة الطعام:

- يجب أن أعترف يا بيتي بأنك نجحت حقاً في إدارة هذه التجارة. وبأني لم أكن أعتقد بأنك ستتمكنين من ذلك.

أجابت قبل أن تتخذ مجلسها مقابله:

- لقد نصحني بذلك تشارلي هاريس. إنه شخص رائع.

قطّب المحامي حاجبيه.

ما كانت بيتي لتتسامح بسماع أفكار مسبقة خسيسة في بيتها. فقالت:

- هل هذا هو رأيك أيضاً يا ليو؟ ألم تصدق رغم ذلك تلك الإشاعات السخيفة التي كانت تتّهمه بأنه سرق رافائيل؟ وأنت تعرف أكثر من أي شخص آخر أيّ نوع من الرجال كان رافائيل بلانشارد.

- هذا صحيح، وأنا أعرف أيضاً أن تشارلي هاريس رجل طيب. لكنّ الناس أساؤوا إلى سمعته في المدينة، بل إن بعضهم قال...

وأخذ يبحث عن كلماته ثم أنهى جملته قائلاً:

- إنه يجب ألاّ يكون هنا.

- لو لم يكن هنا لأفلستُ منذ سنة.

- نعم، ويجب عدم التقليل من أهمية غيرة الناس. فقد كنتِ خادمة، والآن، ها هي تجارتك تسير بشكل جيد كتجارة فاركوار. وتوظّفين رجلاً

أسود متهماً بالسرقة... اسمعي يا بيتي، أنا أعرف كم هو شاقٌ عملُك هنا، ولكن يجب عليك أيضاً أن تعملي على إقامة تفاهم مع أهل المدينة. فهم لا يشعرون بكثير من الحماسة نحوك. وسواء شئتِ أم أبيت فأنتِ جزءٌ من هذا المجتمع. ونجاحك يرتكز على علاقاتك بقدر ما يرتكز على مبيعاتك.

كانت النافذة الواسعة المطلّة على الفناء مفتوحة، تسمح بدخول روائح التراب والأزهار البرّية ورياح الصيف. أطلقت بيتي زفرة طويلة وقالت:

– شكراً على اهتمامك يا ليو. ولكني أريد أن أكلّمك في أمر آخر.

أخرج قلماً ودفتراً ووضع نظارته وقال:

– إني أسمعك.

– أريد أن أستردّ ابنتي. أنا أعرف أن هنري وزوجته يتأهّبان لتوكيل محام، وأنا أريد أن أستشيرك أولاً.

خربش على ورقة ثم رفع عينيه نحو بيتي وقال:

– هل سيلجأان المحكمة من أجل الحصول على الحضانة الحصرية؟

– أنا متأكدة من ذلك.

تنحنح، وبدا وكأنه يأخذ وقتاً لا نهائياً من أجل الإجابة، فكاد قلب بيتي ينقبض، فقالت:

– هيا، قل لي.

– إذا سمحتُ لنفسي... وإذا فهمت جيداً...

تنحنح من جديد وأضاف:

– هل كان هنري متزوجاً من مولي عندما حملْتِ بلوسي؟

– نعم.

وضع علامة معينة على ورقته ثم سأل:

– وهل هربتِ مع هنري إلى بلد آخر تخلّصاً من زوجته؟

– نعم.

العلامات تتراكم على دفتر ليو. لقد ذهبت مع ابنة هنري دون أن تخبره. وقد حضرت أدوار البوكر المرفقة بالشراب مع رافائيل، وراهنت بجسدها من أجل الحصول على المزرعة.

أجابت بيتي بانزعاج:

– نعم، نعم، نعم. ولكن لا أحد يعرف ذلك.

– إنهما سيعرفانه. إذا وكّل هنري محامياً فإنهما سيعرفان كل شيء. وسيزوران مرغريت داي، ويتكلمان مع تيري الموظّف عند فاركوار، وسيذهبان إلى أليس وستكون مسرورة جداً بتزويدهم بالتفاصيل.

– ولكنّ هنري ليس أفضل مني حالاً. فقد اضطررتُ لهجره لأنه كان يُفرط في الشراب، ولأنه كان مولعاً بالمقامرة، ولأنه تركنا نتضوّر جوعاً.

– ألا ترين إذاً كم من النقاط وضعتُ عليها إشارة في هذه الصفحة؟

أمسك قلمه من جديد وأضاف علامة، أكثر طولاً وشدّةً من الأخريات وأضاف بصوت هادئ:

– بيتي، أنت لا تعرفين ما يقوله الناس عنك في المدينة.

– إنك تحسن عملاً إذ تقوله لي أنت.

لم يستطع النظر إليها في عينيها وهو يقول:

– يقولون إنك وتشارلي عاشقان.

أحسّت بيتي بحرارة تغزو جسمها وبانزعاج ممتزج بالرغبة، فسألت:

– من يقول هذا؟

– ظاهرياً، قال أحد الجزازين إن تشارلي ينام في البيت.

– وتيري كان ينام في البيت عندما كان رافائيل يعيش هنا.

– رافائيل لم يكن امرأة عازبة مشكوكاً بأخلاقها.

جفّ حلق بيتي. أضاف المحامي:

– ضمن هذه الشروط، إن فرص استعادة لوسي... يجب أن تفكري بالانفصال عن تشارلي.

قالت وهي تصرّف بأسنانها:

– لن أنفصل عن تشارلي. إذا فقدتُ تشارلي فإن هذه التجارة لن تساوي شيئاً حين ترثها ابنتي. ونحن لسنا عاشقين. بل هو موظف عندي.

أكّد ليو قائلاً:

– أنا لا أشك في أنك تقولين لي الحقيقة.

وفجأة تنبّهت بيتي إلى تفصيل فقالت بحزم:

– يجب ألاّ تتكلم بهذا الشأنً لأحد. إذا عرف تشارلي أنه يجعل حياتي صعبة بطريقةٍ ما، فإنه سيغادر حالاً.

رفع ليو يديه وقال:

– ستبقى هذه المقابلة كلها طيّ الكتمان.

وغاصت بيتي في صمت، فقد اخترق جسدُها وعقلُها بمشاعر وأفكار شتّى.

قال ليو أخيراً:

– اعلمي تماماً أنك إذا ما قمت بهذه الخطوة فإنها ستكون صعبة. ومن الأفضل أن تطلبي بلطف من هنري ومولي أن تُمضي وقتاً أطول مع لوسي. اشتري سيارة واذهبي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في هوبارت. فأنا أرى أن تسوّوا المسألة ودياً.

كانت قد فكرت بشراء سيارة، ولكنها فضّلت عليها الحصول على مزيد من الخراف. وصعوبة التوفيق بين حاضر لوسي ومستقبلها تؤرقها تماماً.

ثم ثارت أعصابها. فلماذا عليها أن تطلب من أي شخص كان، وبلطف، الإذنَ بقضاء وقتٍ أطول مع ابنتها، ولاسيما من امرأةً ليست مرتبطة بلوسي بأية صلة دم؟ هذا ظلم. تمتمت:

– أريد أن أستردّها يا ليو.

– إذن اتبعي نصيحتي. انتظري ستة أشهر أخرى، أمّني استقراراً، ثم انتظري حتى تخفت الإشاعات.

- إن ستة أشهر فترة طويلة في حياة طفلة.
- ستبقى طفلة بعد ستة أشهر، أو حتى بعد سنة. تخيّلي: محصول آخر من الصوف وستكسبين كثيراً من المال. ومتى يكن المرء غنياً، يكن أقوى.

ستة أشهر، سنة. قلبها لا يريد أن يستمع لنصائح ليو لكنّ عقلها خضع لها. سنة أخرى، ومحصول آخر من الصوف، عندها ستكون في وضع أفضل.

قال ليو خاتماً حديثه وهو يضع دفتره في حقيبته:

- تصرفي خطوة خطوة. وبحق السماء، اتخذي بضعة أصدقاء في المدينة.

عند وصول المواشي الجديدة، بات من البدهي أن بيتي لم تعد تستطيع مساعدة تشارلي في مهامه. إنه بحاجة إلى رجل يمتلك خبرة ليعمل معه. وظّفت حارساً للقطيع يدعى بيتر من أجل الموسم كله، وبقيت في المنزل لتضبط الحسابات أو لتعمل على آلة الخياطة الجديدة. كان من الصعب عليها ألاّ تعود تمضي مزيداً من الوقت مع تشارلي، ولكن في نهاية النهار يكون جسمها ممتنّاً لها لأن بشرتها لم تحرقها الشمس ولأن يديها لم تتغطيا بطبقة سميكة متيبّسة.

ذهّب فصلُ الخريف أوراقَ صف أشجار الحور التي تحيط بالممر. ولم تخشَ بيتي قدوم الشتاء هذه السنة: عملياً، لم تلاحظ كثيراً أنه يوشك أن يحلّ. أوحل المطرُ الباحات، وخضّر الهضاب، لكنها تشعر براحة في بيتها. كانت لوسي تنام في الطابق الأول في سريرها الدافئ، وكان يجب عليها أن توصلها إلى هوبارت بعد يومين.

بيتي تخيط تحت نافذة الصالون وتفكُّ الحواشي لتُطيل اللباس المدرسي للوسي. فقد كانت الفتاة الصغيرة تكبر بشكل ملحوظ. وقد اتفقت مع هنري: هو يستبدل حذاءها كلما دعت الحاجة، وهي تهتمّ بلباسها المدرسي. كانت تخيط وهي تدندن فَرِحةً بصوت دواسة آلة الخياطة التي تضرب على إيقاع حركاتها. في المذياعِ، أخذ رجلٌ يتكلم عن ألمانيا. يبدو

أن الناس جميعاً يريدون أن يتكلموا عن ألمانيا في هذه الأيام. شعرت بالفرح لأنها بعيدة جداً عن أوربا. ثم ما لبثت أن شعرت بحضور شخص خلفها فالتفتت.

كان تشارلي واقفاً عند الباب وابتسامةٌ عريضة على شفتيه. ابتسمت بدورها، فهي تسعد عندما تراه. سألته:

- ماذا هناك؟

- لديّ شيء ما من أجلك.

ثم أشار بإصبعه إلى إحدى الكنبات وقال:

- اجلسي هنا وأغمضي عينيك.

- ما هو؟

- هيا!

أطفأت المذياع، جلست حيث أشار ثم أغمضت عينيها.

- لقد أنفقتُ عدة أشهر لإيجادها. وسترين على فاتورة الهاتف أني أجريتُ عدة اتصالات بلونسيستون. ولكنني أعتقد أنها ستعجبك.

جعل الفضول بدن بيتي يقشعرّ، ثم أحسّت بشيءٍ كبير وثقيل يوضَع على ركبتيها. فتحت عينيها فرأت لُفافة كبيرة من القماش الأسود.

صاحت وهي تمرّر أصابعها عليها:

- صوف! صوف ناعم!

قال مصحِّحاً:

- بل هو صوفكِ أنت.

- هل تقصد...؟

لقد تكلّمتُ مع الوكيل التجاري، فأوصلني إلى الصانع الذي اشترى الجزء الأكبر من محصولنا الأخير. أنت تعرفين أن الصوف قد بيع بالمزاد، ثم أعيد بيعه أكثر من مرة... باختصار، لا يمكن التأكّد من أنه ليس إلا صوفك، ولكنه صوف تاسمانيا، هذه المنطقة. ومن الممكن أن يكون قليل منه من صوف وايلدفلاور هيل.

فرشت بيتي بِضعة أمتار من القماش وتفحّصت مقطعه بيديها، فوجدت فيه صورةَ وعدٍ وإمكانيةً وشعوراً لم تعرفه منذ مراهقتها.

قال تشارلي:

– للأسف، ليس لديهم إلا اللون الأسود.

أجابت بأنفاس متسارعة:

– شكراً. إن هذا يعني لي الكثير.

– أعرف. فأنا أتذكّر أنك قلتِ لي هذا ليلة مرض ميكائيل.

رفعت نظرها نحوه وبقي غائصاً في عينيه للحظة، قبل أن يحوّل بصره. بدا قلبُها وكأنه يخفق في حلقها. حقاً، لقد عانى الكثير... لماذا؟ كيف لا ترى في ذلك دليلاً على عاطفته نحوها؟ وربما على رغبته؟

قال وهو يجرّ قدميه نحو الباب:

– هو ذا...

– سوف أصنع لك شيئاً ما.

– لا، لا تنشغلي بي، بل احتفظي به لنفسك.

سحبت بيتي عدة أمتار أخرى من القماش وأدنتها من وجهها. كان عقلها قد بدأ يتصوّر كروكيات. لقد عثر على فكرة عظيمة.

عملت في الخياطة طوال شهري نيسان وأيار. لم تصنع شيئاً من أجلها ولا من أجل لوسي، بل رسمت تنورتين مختلفتين ثم خاطت عشر قطع من كل موديل بمقاسات مختلفة. ثم طرّزت عشرين إتيكيت ألصقتها على مستوى الخياطة: بلاكسلاند وول Blaxland wool. ولمّا رأت هذه الإتيكيتات على الملابس شعرت بفخر لا يوصف. طوت كل تنورة بحب، وغلّفتها بورق حرير وكدّستها على الكتبة.

عادت كلمات ليو سامبسون تسكنها: *سواء شئتِ أم أبيت فأنت جزءٌ من هذا المجتمع.* إنه على حق، فهي بحاجة إلى حماستهم. وعليها أن

تتفاهم بصورةٍ خاصة مع تيلي هارو التي تملك المحل الرئيس... وبيتي تريد أن تقبل أن تضع ملابسها عندها للبيع.

كانت السماء صافية صباح يوم الجمعة، حين مشت حتى المدينة لتتكلّم مع تيلي على انفراد.

منذ أن كلّمتها مرغريت داي، وهي تتعامل ببرود مع بيتي، كذلك فإنها لم تحاول أن تفتح معها حديثاً ولا أن تبتسم لها. أما اليوم، فقد ابتسمت بيتي وهي تنتظر على الكونتوار.

قالت لها تيلي بنبرة حيادية، ودون أن تنظر إليها:

– صباح الخير.

– تيلي، أريد أن أطلب منك خدمة كبرى.

ظلّت تيلي فاغرةً فمها، فأضافت بيتي:

– لقد صمّمتُ هذه التنانير... وهي ذات نوعية جيدة، مصنوعة من صوف محلّي.

وأخرجت نموذجاً من كل موديل: تنورة طويلة، أحدهما مغزلي الشكل، والآخر متوسّع. ثم قالت:

– أنا أبحث عن مكان أبيعها فيه، وتساءلتُ ما إذا كان بوسعك أن تضعيها هنا.

هذه المرة، رسم فمُ تيلي ابتسامة، إذ بدا أن طلب بيتي قد أعجبها. ثم قالت:

– هل أنتِ جادة؟ ما من أحد في هذه المدينة يشتري شيئاً صادراً منك.

أعادت بيتي تغليف التنورتين وظلّت رافعة الرأس. ما كان يجدر بها أبداً أن تأتي إلى هنا. وكان من الأفضل لها لو أنها ركبت حافلة وذهبت إلى هوبارت وقصدت أحد أكبر المحلات حيث تهتم النساء بالموضة أكثر اهتمامهن بماضي المصمّمة. استدارت مستعدة للذهاب. لكن الغضب تملّكها فجأة فسألت:

– ماذا فعلتُ لكم؟ أنتِ وسكان هذه المدينة حتى تعاملوني كل هذه المعاملة السيئة؟

غمزت تيلي بعينيها وكأنها تفكّر بالسؤال لأول مرة. لكن وجهها ما لبث أن قسا وقالت:

– الناس هنا شرفاء، ويعملون عملاً شاقاً. ولديهم أسباب جيدة لئلا يحبّوا من لا يمكن أن يقال عنهم هذا الكلام.

– أنا شريفة، وأعمل عملاً شاقاً.

ردّت بازدراء:

– ليس هذا ما يُقال لي.

ودّت بيتي أن تصرخ، وتقلب علبة السكاكر وحوامل بطاقات المعايدة على الكونتوار. لكنها اكتفت بأخذ نفسٍ طويل، ثم قالت:

– أنتم لا تعرفون شيئاً عني.

ومضت.

قررت أن تشتري سيارة في المحصول القادم. ومن الآن فصاعداً ستذهب حتى بْليغ أو إلى بوثويل من أجل التموُّن. وبانتظار ذلك، فإن ميكائيل هو من سيأتي للتسوّق من هنا. لأن بيتي لن توجّه كلامها أبداً إلى أي شخص كان من هذه المدينة

في النهاية، مولي هي من ساعد بيتي على بيع التنانير. فحين أتت وهنري وأنزلا لوسي في بداية العطلة الشتوية، وجدت مولي الملابس مكوّمة على الكنبة، فسألت وهي تفتح إحدى التنانير:

– ما هذه؟ ولماذا لديك منها كل هذه الكمية؟

شرحت لها بيتي أنها صمّمت هذه الموديلات وخاطتها، الأمر الذي أذهل مولي، ولكنها لم تنجح في إيجاد محل لتبيعها فيه.

فقالت مولي:

– لديَّ صديقة في الكنيسة تعمل لدى فيتزجيرالد في هوبارت. وأستطيع أن أريها إياها إذا شئت.

ثم توقفت فجأةً عن الكلام، كما لو أنها ندمت على عرضها المساعدة.

وكانت بيتي أكثر يأساً من أن تدع انزعاجاً كهذا يستقر في نفسها، فسألت:

– هل تفعلين هذا؟

– أنا... نعم، بكل تأكيد.

ثم ألقت نظرة على هنري الذي كان يهز رأسه منزعجاً، فأجابت:

– سأسألها.

– شكراً، أنا لا أعرف كم تساوي. قولي لصديقتك أن تفعل الأفضل. وأن تتصل بي إذا دعت الحاجة.

ثم وضعت بيتي التنانير بين ذراعي مولي وأضافت:

– احتفظي بواحدة لك.

وبعد أن ذهبا قالت لهما إلى اللقاء بحماسة وذراعها على كتف لوسي التي سألتها:

– لماذا تبتسمين هكذا يا ماما؟

احتضنتها بيتي بقوة وقالت:

– العمل الشريف يا عزيزتي مُربح دائماً.

احتفظت بيتي ببقية الصوف وفي رأسها فكرةٌ محدَّدة: سوف تخيط معطفاً لتشارلي. فالمعطف القديم الذي يرتديه لجمع القطعان أصبح ممزقاً عند الكتفين. وكانت قد رقعته ثلاث مرات أو أربع. تخيّلتْه في معطفه الجديد المخيط باليد، بعنايتها. سوف يكون مزوداً بأكمام واسعة وبسحاب طويل ومبطّناً بجلد خروف لكي يبقى دافئاً في أثناء فصول الشتاء الطويلة والتي لا ترحم. ولكنها كانت تريد أن يكون مفاجأة، فأخذت مقاساته بالنظر منذ عدة أشهر. عندما كان يأتي إلى المطبخ مساءً،

قدّرت عرض كتفيه ومحيط رقبته، حيث تنـزل خصـلات شـعره الـبني، وطول ذراعيه الضخمين.

أيقظت مراقبتُه اللصيقة لـزمن طويـل جـداً في نفسـها رعـبَ رغبتهـا المؤلمة. ولكن لماذا يجب أن يُقلقها هذا؟ فالمدينة تأخذ عنها فكـرة سـيئة. فمن يبقى ليهينها؟ عندما عانى تشارلي هذه المعاناة كلها لكي يجـد لهـا الصوف، لا ريب في أنه أراد أن يقول لها كم هي مهمـة في نظـره. مـرت الأسابيع وهي تترصّد كلمـةً أو تعـبيراً علـى وجهـه أو دلـيلاً يؤكـد هـذه الفرضية. وأحياناً، تمرّ هذه الحالةُ في ظرف ثانية، في لحظة عدم انتباه، تكون هذه هي الحالة.

عملياً، أصبح المعطف أكثر بكثير من مجرد هدية في ذهن بـيتي: إنـه يعني رمزاً قوياً لرغبتها نحوه. ففي المساء، عندما يذهب تشارلي إلى النوم تبقى لتعمل في مشروعها، فتخيط البطانـة والجيـوب باليـد. وبينمـا هـي تفعل ذلك تُطلق العنان لتخيُّل اللحظة التي سـتقدم إليـه المعطـف فيهـا. وعند كل نقطة خياطة تعي أكثر أنها أصبحت عاشقة له. فقد خِيط هـذا المعطف بحبها.

أخيراً، بينما بلغ فصل الشتاء أوجه وصار نور النهار يمضي بسـرعة، صارت الهدية جاهزة، وأخذت تتأهّب لتقديمها له.

فاجأته في أسفل الدرج، لحظةَ كان متجهاً بخطا حثيثة نحو الإسطبل ليمضي إلى عمله، مرتديا معطفه الرمادي البالي، فنادته:

– تشارلي!

فوجئت بصوتها الذي خرج ناعماً.

التفتِ وأمال رأسه قليلاً جانباً ووجّه إليها ابتسـامته الرقيقـة المعتـادة وقال:

– صباح الخير يا بيتي.

نزلت الدرجات بسرعة وناولته المعطف.

أمسكه بيديه وتفحّصه فعبر وجهَه تعبيرٌ لا تستطيع وصفه، ربما كان تعبير حزن. فسألته:

- ألم يعجبك؟

ظهرت ابتسامته من جديد وقال:

- إنه رائع يا بيتي، شكراً.

وخلع معطفه الرمادي ووضعه على درابزين الدرج ولبس المعطف الجديد. إنه يناسبه إلى حد الكمال. شعرت بزهو لا يُصدق بعملها. ما كان ليكون أفضل على جسمه الطويل لو أنها استخدمت متراً لأخذ مقاساته.

تمتم وهو يمدُّ ذراعيه لتأمل الكمين:

- حقاً رائع. إنه أجمل شيء أمتلكه في حياتي.

ثم رفع عينيه نحوها وهز رأسه وقال:

- شكراً.

- لا شكر على واجب.

أرادت أن تلمسه وأن تمسّد بيدها القماش على مستوى الكتف. إن رغبتها في فعل ذلك تنهشها. مرت لحظة طويلة من الانفعال بصمت، ثم قالت:

- تشارلي، أنا...

- بيتي، لا تقلقي كثيراً من أجلي. ولا تقدّمي لي هدايا جميلة. ولا تزعجي نفسك من أجلي، فأنا لست... لست شخصاً يستحق هذا الاهتمام كله.

كانت بيتي قد تخيلت سيناريوهات عديدة لهذا المشهد، ولكنه لم يقل شيئاً كهذا في أيٍ منها. بلعت ريقها بصعوبة. هل هو يحذّرها؟ إنها لا تطيق فكرة أن تبقى طيَّ التجاهل. لملمَتْ شجاعتَها بكل قواها وقالت:

- أنت تستحق كلّ الاهتمامات، فأنت من أجمل الأشخاص الذين أعرفهم.

وأضافت في نفسها: *بل أجملهم.*

من جديد بدا لها وجه تشارلي موسوماً بالحزن. ها هو حلم بيتي ينهار. كان يجدر بهذا المعطف أن يقرّب بينهما، لا أن يولّد انزعاجاً أو بعداً.

– أنا لست مدير مزرعتك، بل أنا موظف عندك.

– لولاك لما كان هناك مزرعة.

– ليس لدي شيءٌ غير عادي.

ثم نظر مباشرة إلى عينيها وقال:

– ويجب ألاّ أكون كذلك.

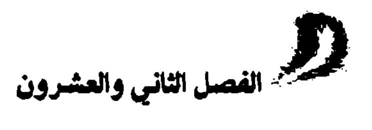
إنه يحذّرها، هذا مؤكد. شعرت أنها حمقاء. فقد قرأها كما يُقرَأ كتابٌ مفتوح، وعرف الرغبة الحمقاء التي غذّتها نحوه، وقال لها أن تكبحها قبل أن يشعر كل منهما بالحرج. بمكابدةٍ كبحت بيتي دموعَها. واجتهدت في أن تشرع في ابتسامة صغيرة ثم قالت:

– حسنٌ، أنا لا أستطيع أن أبقى أتكلم هنا طوال النهار. من الأفضل لي أن أعود إلى مواصلة حساباتي.

اعتمر قبعته واستدار وذهب. إنه رائع في معطفه الجديد، ومنيع إلى الأبد.

في الأول من شهر آب تلقّت اتصالاً من جناح الألبسة الجاهزة النسائية في محل فيتزجيرالد في هوبارت. لقد باعوا تنانيرها ويريدون أن يعرفوا ما إذا كان لديها تنانير أخرى. لقد كسبت ثمانية وأربعين جنيهاً ويجب أن تأتي لأخذها.

بدا لها قبولُ عملٍ إضافي وسيلةً جيدة لمحاولة طرد تشارلي من أفكارها.



الفصل الثاني والعشرون

1988

لن يكون عيدُ الميلاد نفسَه دون ميكائيل.

أصوات الضحكات والموسيقى تدوّي في القاعة. حارسا القطعان، بيتر وأخوه مات، يغنيان أغنية وداعٍ بصوتٍ تعتعه السُكْر. ولوسي تقفز في كل الاتجاهات قرب شجرة الميلاد، وتطالب بمعرفة محتوى «الهدية الخضراء الكبرى». كان ميكائيل يقف قرب المدفأة المطفأة، وذراعه تطوّق خطيبته، ويبتسم الابتسامة نفسها التي كان يبتسمها يوم التقيا منذ ستة أشهر. سوف يتزوّج من كاترين، وهي أرملة لديها ولدان كبيران. وسينتقلان للعيش في لونسيستون، مع والدي زوجته المقبلة العجوزين. أما بيتي فعليها أن تتعلّم كيف تتدبّر أمورها دون ميكائيل.

قالت بيتي وهي ترفع غطاء البيانو:

– هيا يا روزيللا. غنّي لنا أغنية جميلة بدلاً من هذين الاثنين اللذين ينشّزان في الغناء؟

روزيللا هي جارتها الجديدة. وقد استأجرت وزوجها مزرعة جيمي فاركوار في بداية السنة وصارا صديقين حميمين لبيتي. وابنتهما ليزي لها

سن لوسي نفسها، لذا فإنهما تمضيان معاً كل دقيقة من عطلتهما في الجري في الباحات وبناء الأكواخ وصنع أشكال من الطين.

بينما كانت روزيلا تتخذ مكانها لتغنّي جنغل بيلز، والجميع يحيطون بالبيانو، طوّقت بيتي لوسي بذراعيها. استعرضت وجوه ضيوفها، ووضعت قائمة بكل التبريكات التي تتمتّع بها في هذه الفترة من عيد الميلاد. فقد وفّر لها محصولان خرافيان من الصوف وعملٌ إضافي في تصميم الملابس للنساء العاملات الأمانَ المالي الذي ما انفكّت تحلم به منذ زمن طويل. بيانو وشاحنة خدمة صغيرة، وزينات عيد الميلاد من الزجاج. على مضض انتهى الأمر بهنري بأن أبدى احتراماً لرغبتها وسمح للوسي بأن تبقى فصلاً كاملا عندها حيث تقوم مدبّرة البيت بتعليمها. للأسف، فقد تسلّت لوسي كثيراً في باحات البيت ولم تحقّق كثيراً من النجاح في الدراسة، وقد علمت مولي بذلك، فقالت لبيتي وهي تحرّك يديها الشاحبتين قرب صدرها:

– يجب أن تستأنف الذهاب إلى المدرسة في شهر كانون الثاني.

عرفت مولي أنها فقدت لوسي، وبيتي لا تبدي أي تعاطف. إنها ستشعرّ بتمزّق في داخلها بعد أن تعود لوسي إلى هوبارت بعد كل هذا الوقت الذي أمضته معها، ولكنها تعرف أنها في طور كسب المعركة، ببطء ولكن بكل تأكيد.

ومع ذلك فإن نجاحها المالي لم يتجاوب مع توقّعات قلبها. فتشارلي ما يزال يعمل عندها، ولكنه عاد للسكن في كوخ الجزّازين. لقد قَبِل بالتأكيد أن تشتري له بيتي سريراً جديداً ومكتباً صغيراً وخزانة لوضع حاجاته، ولكنه ما يزال يُبقيها بعيدة. عملياً، لم يكن لديهما الوقت ليرى أحدهما الآخر. فهو يدير الأعمال من جهته، وهي من جهتها. ولم يُبدِ لها أية عاطفة منذ أن أحضر لها لفافة القماش. إنه موجود في الطرف الآخر من الباحة، ولكن من الممكن أن يكون على بعد ملايين

الكيلومترات. اجتهدت في ألاّ تتألّم من ذلك. ونجحت في معظم الأحيان في كبح خيالاتها. ومع ذلك، فإنها لم تلتق برجل بقامته بعد.

لاحظ تشارلي أنها تجيل بصرها في القاعة، وتبتسم له. ابتسامة صداقة دون أية دلالة خفيّة. مهما كانت هذه العلامة الحنونة متحفّظة فإنها كافية لتُضفي على عيد الميلاد مسحة كئيبة، كما لو أن لحناً آخر في مكان ما في متناول سمعها، أكثر حزناً، ينافسها.

انتهت الأغنية، فطلبت بيتي الصمت لتعلن شيئاً ما، فقالت مخاطبةً ميكائيل:

- ميكائيل، عندما لم يكن لدي شيء، كنتَ معي، وقد ساعدتني في أحلك لحظات حياتي، وسأكون لك في غاية الامتنان.

وزّع ميكائيل شكره بحركة مرتبكة. وتطاولت كاترين على رؤوس أصابع قدميها لكي تقبّله على خدّه المغضّن. صفّق الجميع، وطالب البعض بدورة براندي جديدة، فأدركت بيتي أن الوقت قد حان تماماً لتذهب لوسي إلى النوم.

ردّ تشارلي بعد أن تمنّت لوسي ليلة طيبة وهي تقف عند الباب:

- طابت ليلتك أيتها الفتاة الصغيرة الصهباء.

رافقت بيتي ابنتها إلى الطابق الأول. وقالت لها:

- إنها الساعة الحادية عشرة!

ثم ضحكت وأضافت:

- لا تخبري مولي بذلك.

تمتمت لوسي:

- ماما سيئة!

جلست بيتي على سرير لوسي، واستفادت من برودة الغرفة ومن ظلمتها اللتين تناقضان حرارة الصالون وضياءه، وسألت ابنتها:

- هل اشتقتِ إلى ماما مولي؟

– إني مشتاقة لِأبي أكثر. ولكن عندما أكون معه، فإني أشتاق إليك. وهذا ليس عدلاً، فحيثما أكون أشتاق إلى أحدكما.

أبعدت بيتي خصلة شعر عن جبين لوسي، وقالت:

– أنا آسفة يا عزيزتي.

– أحياناً أخترع قصة في رأسي، أتخيّل أن مولي قد ماتت وإنك وأبي أدركتما أنكما ما تزالان متحابّين. وبعد ذلك، نكون جميعاً معاً في بيت واحد.

خنقت بيتي ضحكة وقالت:

– لا يجدر بك أن تتمنّي موت مولي.

– أنا لا أتمنّاه أبداً. بل هو يخطر ببالي فقط، أحياناً. أعرف جيداً أن هذا سيكون محزناً، وأني سأشتاق إليها، ولكن إذا اجتمعنا، أنت وبابا وأنا، فإن ذلك سيسعدني.

ابتسمت لها بيتي في الظلام، وقالت:

– أنا آسفة يا لوسي. ولكنها مجرّد قصة في رأسك. فأنا وبابا لن نجتمع أبداً معاً هكذا.

هزّتِ بيتي رأسها بحزن وقالت:

– أعرِف.

ثم فكّرت لحظة قبل أن تضيف:

– ولكن قبل ذلك، كنتِ تحبّينه، أليس كذلك؟

أجابت بيتي وهي تحاول أن تتذكّر ما شعرت به نحوه ذات يوم:

– نعم، بكل تأكيد.

– لأني طرحتُ عليه السؤال نفسه وأجاب بأنه كان يحبّك أيضاً، فيما مضى. وابتسم لي ابتسامتك نفسها.

لسببٍ تجهله بيتي، شعرت أنها حزينة لهذه الفكرة. نعم لقد تحابّا، حباً غبياً. وأنجبا هذه الطفلة الرائعة، وبعد ذلك لم يفعلا سوى الاختصام حول حضانتها.

أضافت لوسي:

– لكن مولي سمعت كلامه فغضبت. وأنا لم أرَها من قبل غاضبة بهذا الشكل.

فضّلت بيتي الصمت لأنها لا تعرف كيف تشرح الموقف لابنتها. فما عمر لوسي سوى تسع سنوات. ربما عندما تصبح في الثانية عشرة، سوف تروي لها القصة كلها. وهي تتمنّى ألاّ تحكم عليها لوسي حكماً قاسياً.

أعلنت بيتي:

– والآن، حان وقت النوم.

– وهناك شيء آخر يا ماما: بابا لديه مولي، أما أنتِ فليس لديك أحد.

– لستُ بحاجة إلى أحد. فأنا أتدبّر أمري بمفردي.

قالت لوسي وقد نامت على جنبها:

– هذا أفضل. لأني لا أريد بابا آخر.

داعبت بيتي كتفها. نهضت وأغلقت الستائر لكي تحجب عنها نور النجوم الساطع، ثم نزلت إلى الطابق الأرضي.

ولكن بيتر وتشارلي كانا قد عادا إلى الكوخ. وروزيللا وأفراد أسرتها أخذوا يجمعون أشياءهم متأهّبين للذهاب. وسوف يُبيتون عندهم ميكائيل وكاترين، لأن حافلة لونسيستون تمرّ خلف بيتهم تماماً. حين رأت بيتي أمتعة ميكائيل مجمّعة عند باب المدخل، فاضت عيناها دموعاً. ذهبت إليه وسط هذه الفوران كلّه، وقالت له وهي تضغط على يده بقوة:

– إلى اللقاء لا صديقي العزيز. سوف أشتاق إليك.

– آه، سوف تنسينني بعد وقت قصير.

– أبداً، أبداً.

وضغطت يده من جديد.

حنى رأسه وطبع قبلة رقيقة على أصابعها، ثم قال:

– أنتِ أفضل ربة عمل عرفتُها في حياتي.

صاحت كاترين:
- هيا يا ميكائيل، سيارتنا تنتظر.
قال بصوت حازم:
- أنا قادم!
ثم مال على بيتي لئلا يسمعه أحد واعترف:
- إن أجمل سعادة للإنسان، هي أن يعشق.
- أنا مسرورة جداً من أجلك.
- وأتمنّى الشيء نفسه من أجلك.
أبدت بيتي ابتسامة عريضة وقالت:
- حسنٌ أنا...
- لا يجدر بي أن أقول شيئاً. لقد قال لي ذات مرة، منذ نحو سنتين تقريباً، بأني لا أملك الحق في قول ذلك لك. ولكنني لطالما تمنّيتُ أن يكون تشارلي وأنت عاشقين.
شعرت بيتي بحرارة في وجهها:
- تشارلي قال لك ألّا تفشي لي سرّاً؟
أجاب ميكائيل بالإيجاب بهيئة رصينة، ثم قال:
- إن تشارلي يهتم كثيراً بسمعتك.
اختنق بضحكته وأضاف:
- قلت له إنك ستسخرين من ذلك كثيراً، فأنت ذكية، ولديك مال، وما تزالين جميلة جداً.
تراجع ثم ابتسم لكاترين وقال:
- ولكنك لستِ بجمال زوجتي المقبلة.
أشارت إليه كاترين من جديد بأن يسرع، فليزي، ابنة روزيللا تبكي من التعب، ثم قالت:
- حان الوقت لنذهب.
قال ميكائيل:

- إلى اللقاء.

فقالت بيتي:

- لا وداعاً!

ابتعدت الأصوات، وانغلق الباب.

عادت إلى الصالون، رفعت الكؤوس والأطباق وأزالت رماد السجائر الساقط على الطاولة. وشيئاً فشيئاً رتّبت الغرفة بعناية ونفضت الوسائد. شغّلت المذياع فسمعت أغاني عن عيد الميلاد. إنه تغيير لطيف مقارنةً بالنقاشات اليومية حول هتلر وتشرشل.

ماذا قال تشارلي لميكائيل ولماذا؟ هل لديه حقاً مشاعر تجاهها؟ هل خبّأها من أجل الهدف الغبي لحمايتها من إشاعات المدينة؟ إنها لم تعد تعرف أين هي الآن. فقد أمضت كثيراً من الوقت في إقناع نفسها بأنها لا تشعر بالحب نحوه، وبأنها شعرت بنفسها وحيدة ومتروكة للذهاب إلى الجنون. فماذا يجب عليها أن تفعل الآن؟

لقد ابتعد تشارلي عنها بإرادته. في لحظة كانا قريبين، ليلة مرض ميكائيل، تلك الليلة التي زخرت بقصص وأسرار تعود إلى سنوات. ومنذ ذلك الحين، فرّق بينهما دوراهما في المزرعة. فهو سكن في الكوخ مع الأولاد، أما هي فقد بقيت في البيت مع دفاتر حساباتها وآلة خياطتها. كان من المستحيل ردم الهوة التي انفغرت بينهما. غضبت منه لأنه اتّخذ ذلك القرار من دونها، ولأنه حكم أن رأي ليونيفورد الجائر أهمّ من عواطفها نحوه.

والآن، لقد فات الأوان.

قبل أن يغادر ميكائيل كان قد علّم بيتي قيادة سيارة الخدمة، والتحكم بهدير محركها وبعجلاتها العريضة. كذلك أخذت لوسي بنفسها إلى هوبارت في أواسط شهر كانون الثاني. ولدى وصولها إلى أمام البيت، أخذت الفتاة تبكي، فلم تعرف بيتي ما إذا كانت هذه الدموع تعني أنها

حزينة لفراقها أم سعيدة للقاء والدها. ضمّها هنري بقوة، فلا أحد يستطيع أن ينكر الرابط الموجود دائماً بينهما.

قالت مولي وهي تضع يداً خفيفة على كتف لوسي:

– شكراً لأنك أوصلتها إلى هنا. لقد اشتقنا إليها كثيراً.

ردّت بيتي:

– والآن دوري أنا في الاشتياق إليها. هل تريدين أن تمشي قليلاً معي؟

دخل هنري ولوسي إلى البيت. واجتازت مولي باب الحديقة مع بيتي. توجهتا نحو شجرة السنط الضخمة في نهاية الشارع. شعرت بيتي بجفاف بشرتها بسبب الرياح الحارة التي تهبّ من الغرب منذ عدة أيام.

ذهبت بيتي إلى هدفها دون مواربة:

– أودّ أن أحصل على لوسي زمناً أطول، فأنا أريد أن تظل عندي نصف السنة. وهي تدرس جيدا مع المدبّرة.

أخذت مولي تهز رأسها ثم قالت:

– هذا يؤثّر في استقرار الفتاة. ويجب عليها أن تكون أكثر تفوّقاً في المدرسة. ثم إنها لا تذهب إلى الكنيسة عندما تكون عندك. فقد أصبحت غير قابلة للتوجيه.

كررت بيتي:

– أصبحت غير قابلة للتوجيه!

ردّت بيتي دون أن تعرف ما إذا كانت مولي على حق أم لا ـ صحيح أن لوسي تتمتع بكثير من أوقات الفراغ عندما تكون في المزرعة:

– ولكنها تتعلم التعرف إلى المزرعة. وهي الآن تجيد ركوب الحصان، وتساعد في أعمال الحديقة وتتعامل جيداً مع الدجاجات.

– هذه ليست حياة فتاة شابة. هي بحاجة إلى حدود. بحاجة إلى تعلم العادات، وإلى أن تكون قادرة على التكيُّف مع العالم. كما إن النمش يزداد في وجهها.

رفّت مولي أجفانها وهي تنظر إلى الشمس التي كانت قوية في ذلك اليوم، ويُحرق وهجُها كل شيء في طريقها. ثم أضافت:

– أنا لن أخبر هنري بذلك، بل أُخبرك أنه لا يكف عن التأفف في أثناء غيابها حتى صار شخصاً لا يُطاق. فهو يحبّ هذه الطفلة أكثر مما يمكنك أن تتخيلي.

لم تصر بيتي، فالانفصال الدائم عن لوسي صعب جداً، وليس من المفيد صب الزيت على النار مع وجود أحقاد قديمة.

استفادت بيتي من وجودها في هوبارت لتمرّ بالمحلات التي تبيع ملابسها، ولتأخذ مالها وطلبيات جديدة. توقفت عن العمل لصالح فيتزجيرالد لأنها لم تعد تستطيع تلبية طلبه. وبالتالي، فقد ركّزت اهتمامها على عدد محدود من الموديلات ذات المقاسات القليلة المختلفة، وباعتها بسعر أغلى بأربعة أضعاف وقبلت طلبيات خاصة عندما كانت تدعو الحاجة. فبرأيها الصوف يساعد بشكل أفضل على خياطة ملابس عملية، أكثر بكثير من الفساتين الهشة التي كانت تحب أن ترسمها عندما كانت مراهقة. لقد بدأت تحب جمال المنحنيات البسيطة. وفي رأسها عشرات الموديلات وهي ترسمها أحياناً على الورق. ولكن من دون فريق من الخيّاطات لن يكون لديها أبداً الوقت لخياطتها. لذا فقد اكتفت بإنجاز هذا العمل بهدوء.

جعلت الحرارة المرتفعة الطريق يلمع أمامها فعادت إلى البيت وزجاج السيارة مُنزَل. بدت لها السيارة فارغة جداً من دون ثرثرات لوسي. ما يزال غياب هذه الفتاة يسبب لها ألماً دفيناً يرفض أن يهدأ. قبل عشر سنوات تقريباً، كانت قد اكتشفت أنها حامل. وها قد مرت هذه السنوات العشر مرور البرق. لماذا تبقى هنا، تنتظر أن يتلطّف عليها هنري ومولي؟ الآن، هي غنية وقوية ما يكفي. فهي تستطيع أن تدافع عن نفسها ضد كل الحجج التي يمكن أن يجدوها لإخضاعها.

اجتازت الهضاب والوديان التي جففتها أشعة الشمس القوية. انتهى الإسفلت تاركاً مكانه للتراب. بطّأت سرعتها. إنها تقترب من ليونيفورد، فقررت أن تتوقف فيها. هذه المرة لن تدع ليو يردعها. إذا رفضوا تقاسم حضانة لوسي فإنها ستناضل من أجل استرداد ابنتها كليّاً.

تشكّل بيتي وجهاً مثيراً للفضول في ليونيفورد في هذه الأيام. عادة، كانت تذهب للتسوق على بعد ساعة بالسيارة في الشمال في مدينة كبيرة، لئلا يهتم أحدٌ بمعرفة هوية مالكة وايلدفلاور هيل وطريقة امتلاكها لها. حين أوقفت سيارتها الملطّخة بالطين أمام البريد، مقابل بيت ليو سامبسون الحجري الصغير، وقف متسكعان ليريا لمن هذه السيارة. ترجّلت منها رافعة الرأس ونزعت قفازيها ووضعتهما في محفظة يدها. كان فرانك هارو يكنس الرصيف أمام المحل بعينيه اللتين ترفّان باستمرار. توقف قليلاً ليلقي عليها نظرة سيئة. تجاهلته. كانت ترتدي ثياباً أنيقة، أحد الموديلات التي صمّمتها، وكان شعرها مصفوفاً بشكل رائع ومجموعاً في مؤخرة رأسها. هي تعرف أن مشيتها مزهوة وأن العمل الشاق والمال يجعلانها جميلة وبصحة جيدة. لا بدّ أنهم الآن يموتون جميعاً غيرة منها لأنها أصبحت غنية.

رفعت رياحٌ حارة قبعتها، فثبتتها في مكانها بيدها. اجتازت الشارع ورنت جرس المحامي الذي أدخلها إلى بيته المنعش. وقال لها:

– بيتي، أنا مسرور! أنت رائعة. ادخلي، ادخلي.

قادها إلى مكتب صغير ذو أرضية صقيلة فيه طاولة من خشب السنديان لا تناسب تلك الغرفة ـ فقد كانت محشورة تحت النافذة التي تطلُّ على مرج فيه حراج برية. وخَطَ الشيبُ لحية ليو تقريباً، واصفرّت أصابعه بسبب التدخين الذي جعل رائحة التبغ تفوح من المكتب.

تبادلا كلاماً في العموميات لبعض الوقت، ثم سألها عن لوسي فذهبت مباشرة إلى غايتها:

- إنها السبب الذي أتيت من أجله إلى هنا. فأنا أريد الحضانة الحصرية لابنتي. وسوف ألاحق ذلك في المحكمة إذا لزم الأمر.

هزّ ليو رأسه وقال:

- قد يكون ذلك مُكلفاً.

- أستطيع أن أدفع.

- ومن الممكن أن تخسري القضية، أو يمكنك أن تخرجي منها بالحق بزيارةٍ محدودة. والمحاكم لن تكون في صالحك. فهو متزوج، وأنت لست متزوجة.

- الفتاة يجب أن تعيش مع أمها.

بدا ليو على وشك أن يقول شيئاً ما لكنه سكت.

ثم فضّل أن يقول أخيراً:

- إن تحذيراتي التي قلتُها في المرة الماضية ما تزال قائمة.

- أعرف، ولكني أريد أن أفعل ذلك. لديّ ماض وأنا لستُ فخورة به. ولكنّ لهنري ماضياً أيضاً. وأستطيع أن أُحضر شُهوداً إذا لزم الأمر: بيلي ويلدر ودوريس بيني والمرأتان اللتان تملكان المحل الذي كان هنري مديناً له، وأشخاص من غلاسكو إلى اقتضى الأمر. لم يكن عمري آنذاك سوى ثمانية عشر عاماً، بينما كان هو في الثلاثين من عمره.

استند ليو إلى مسند كرسيّه وفكّر، ثم قال:

- اكتبي لي هذه الأمور كلّها. خذي وقتك، واكتبي رسالتك بتأنٍ، واذكري فيها أسماء الأشخاص الذين يمكنهم أن يساعدوك. وحين أحصل عليها، سأبدأ العمل.

نهضت وانحنت لتصافحه، ثم قالت:

- شكراً. أنا سعيدة لرؤيتك في ملعبي.

استيقظت بيتي في وقت متأخر من الليل. كان الطقس حارًا جداً بحيث أنها تركت النافذة مفتوحة. ولاحظت أنها دفعت غطاءها بعيداً عنها. فهل هذا ما أيقظها؟ الحرارة؟

لا، بل هو شيء آخر. تنبّهت إلى رائحة خفيفة، ولكن يمكن التعرّف إليها، دخان.

قفزت من سريرها. وانحنت من نافذتها وشمّت الهواء الخارجي. فهناك دخان في الريح، والريح حارة وتهبّ بقوة.

لبست مئزرها، وهُرعت إلى الطابق الأرضي، فتحت الباب الخلفي، ونزلت إلى غرفة الغسيل، ثم خرجت إلى الفناء. هي الآن مطلّة على الحقول الممتدة خلف البيت، شمالاً. السماء المدخّنة احمرّت: غابة الأوكاليبتوس تحترق.

ظلّت بيتي مشلولة لبضع ثوان تنظر إلى أوراق الأشجار والريح تصفعها بشراسة. الريح تهبّ من الجهة الشمالية الشرقية، ما يعني أن النار آتية باتجاههم.

صرخت وركضت باتجاه كوخ الجزّازين، وصاحت بصوت خنقته الريح:

– تشارلي! تشارلي!

وكان يصلها بشكل متقطّع صوتٌ مرعب يشبه صوت قطار مندفع بأقصى سرعة. هل هو هسيس النار؟ آبي وبيرش خافا وأخذا يرفسان في الإسطبل بعد أن أنذرتهما رائحة الدخان. فصرخت بهما:

– اصمدا!

أخذ قلبها يخفق بقوة في صدرها وهي تصلّي لكي يعرف تشارلي ماذا يفعل.

لاقته عند المدخل، وآثار النعاس ما تزال عالقة على وجهه. فتح فمه ليسأل عن المشكلة لكن حواسّه أجابته.

صرخ قبل أن يبدأ الجري ويتبعه الكلبان:

- يا إلهي، يا بيتي!

ثم التفت لحظةً وقال:

أسرعي بتسريج آبي وانزلي بها إلى أبعد مكان ممكن لفتح السياج. خذي الكلبين معك. ولا فائدة من تجميع الخراف لأنها ستعرف طريقها بنفسها.

سألت:

- ألا نأخذ السيارة ونهرب؟

التفت نحوها فبرقت عيناه في الظلام وقال:

- هل تريدين أن تفقدي كل شيء؟

هزّت رأسها بالنفي، فقال:

- إذن سنبقى.

أخذ قلبها يصدم أضلاعها. أسرعت إلى الإسطبل، وبيدين مرتعشتين أسرجت الفرس التي كانت تُبدي علائم العصبية. خرج بيرش لحظة فُتح الباب وهرب باتجاه الجنوب. عانت بيتي من مصاعب العالم كلّها حتى ركبت آبي التي أخذت تحرّك رأسها وتتأرجح من جهة إلى أخرى. هدّأتها، وكلّمتها بصوتٍ هادئ وهي تريد أن تصرخ خوفاً. بحق الشيطان، ماذا ستفعل إذا فقدت كل شيء: البيت والمواشي... لن تستطيع إعادة بناء البيت أبداً. وحتى إذا اشترت قطعاناً أخرى، فماذا ستأكل في مزرعة محروقة؟

تضرّعت مغمَضة العينين:

- أوه، لا، أرجوك يا إلهي!

أجبرت آبي على التقدّم. صفرت للكلاب وأخذت تطرق أرضاً وعرة في ليل رياحُه جارّة. فتحت السياج وهي تصارع الرياح. علق مئزرها بالأسلاك الشائكة وتمزّق. وأخذت قطع كبيرة من الرماد تتطاير فوق رأسها. في البداية، لم ترَ سوى قطعة أو اثنتين، ثم رأت العشرات. بل أخذ الرماد يهطل فوقها. سمعت أصواتاً خلفها، التفتت فرأت عائلة من

الكنغر تعبر المزرعة بأقصى سرعة. إنها تتجه جنوباً، بعيداً عن النار، مجتازة الحواجز بقفزةٍ واحدة، وكأن بيتي غير موجودة.

لآبي حسابها الخاص. فقد خفضت رأسها وكأنها ستشرع في رفسة. صوّبت خطمها ووسّعت منخريها، وحمحمت خوفاً. وأخذت تخبط غضباً أمام الظلال، وتجمّدت عندما لم تعد ترى شيئاً، ثم اختبأت حين سمعت غصناً يتكسّر بقربها. بيتي تجد عناءً كبيراً في البقاء على صهوتها لأنها قليلة الخبرة، فخاطبتها:

– هيس! هيس! يا جميلتي!

ولكنها شعرت أنها تنزلق، فنزلت عنها بسرعة. هزّت آبي رأسها فطار العنان من يدي بيتي، وانطلقت الفرس تعدو.

استدارت بيتي، فصدمها الخوف. فاللهب يشخر في أسفل الهضبة وهي لا تدري ماذا تفعل.

هل تشارلي في البيت بمفرده؟ ثم خاطبت الكلبين قائلة وهي تشير إلى آبي:

– اذهبا من هنا! اتبعاها!

نظرا إليها نظرة حيرة. ولكنها كرّرت:

– هيا! اذهبا!

ثم أخذت تجري باتجاه تشارلي. لا يهمّها أن تَنفُق قطعانُها، بل المهم لديها هو أن تبقى إلى جانبه.

صار الرماد المتساقط متواصلاً، ليتحوّل إلى دخان ما إن يلامس الأرض. ركضت بسرعةٍ لم تركض بها من قبل، بحيث أن فخذيها التهبتا، وقلبها أخذ يضرب كالطبل بين أضلاعها. في البعيد رأت أن الإسطبل قد احترق، ولا بد أن الجمر قد تسلّل إلى ما تحت السقوف، وظل تشارلي يتحرّك على سطح البيت ويرتسم على السماء الحمراء. بذلت جهداً إضافياً في الإسراع، وفجأة هدأت الرياح وساد صمت كئيب. فصرخت:

– تشارلي! لقد توقّفت الرياح!

التفت فرآها تجري نحوه، فصرخ:

- سوف تغيّر اتجاهها. انتظري!

وبالفعل، بعد بضع لحظات عادت الأشجار ترتعش، وأخذت الأغصان الرفيعة ترسم دوائر ثم استسلمت وطارت بعيداً. وهطل فوقهما مطر جديد من الرماد.

أصبحت بمحاذاة غرفة الغسيل، ورأت تشارلي وقد أصعد خرطوم الري إلى السطح، وأطفأ الأجمار التي كانت تنهمر على البيت.

صرخت بيتي:

- إنها تتجه نحو الشرق.

شعرت بارتياح على الرغم من الدخان الخانق، وأضافت:

- لقد غيرت الرياح اتجاهها، وسوف تقف النيران فوق بيتنا تماماً.

سألت تشارلي من أعلى السطح:

- ماذا يجري؟

- المضخة لم تعد تعمل.

- هل أجلب لك الماء؟

- لا، انسي الدلاء، وتفحّصي المضخة!

نظرت إلى المضخة فاغرةً فاها. فهي لا تعرف عنها شيئاً، والأجمار تدور من حولها.

صرخ:

- انظري إلى نهاية الخرطوم.

ركّزت انتباهها بصعوبة، فوجدت الخرطوم معقوداً، ما سبّب توقّف التدفق. فكّت عقدته بيدين مرتجفتين فطرش الماء جسمها كلّه، وانفصل عن المضخة.

- أسرعي يا بيتي!

بحثت عنه تلمّساً، ووصلته من جديد بالمضخة، وضغطت بكل قوتها على المكبس.

وسرعان ما سُمع صوت الماء على السطح، فقال تشارلي:

- حسنٌ، كفى!

انقبض قلبها عندما رآته في الأعلى وسط الجمر. وماذا إذا انزلق؟ أو سقط؟ أو حوصر باللهب؟ بدا لها إنقاذ بيتها بلا فائدة لو لم يكن تشارلي هنا. وفجأةً أدركت بوضوح أنها تحبّه، وأن كلّ هذا القلق النابع من آراء الآخرين إنما هو مضحك، وتافه. فلماذا يدَعان أي شخصٍ كان يُملي عليهما حياتهما؟

صاحت به:

- انتبه يا تشارلي! أرجوك أن تنتبه!

لم يُجب. لم تعد النار تتقدّم، وسمحت بيتي لنفسها أن تأمل بالبقاء حذرة. رفعت ياقة مئزرها على صدرها. هدأ تساقط الرماد، والآن، وجّهت الرياح اللهب نحو جهة أخرى. ولكن كيف يمكن معرفة أنها لن تغيّر اتجاهها من جديد؟

مرّت لحظة وقلبها ما يزال يخفق. وهدأت الرياح وهمد الرماد دون أن يلتهب.

صاح تشارلي من الأعلى:

- أعتقد أنك تستطيعين أن تغلقي الخرطوم الآن، يا بيتي، وأنا سأبقى هنا.

- إذن سأصعد أنا أيضاً.

- لا، ابقي في الأسفل.

ولكنها لم تطعه. بل قطعت الماء، وأسرعت إلى البيت، إلى غرفة لوسي، حيث يوجد سلّم يؤدّي إلى السقيفة ومنها إلى حاجز السطح. ومن هناك تستطيع أن تتسلّق على القرميد، فوجدت تشارلي جالساً وخرطوم الماء ممدّد إلى جانبه، يطوّق ركبتيه بذراعيه، والهباب يغطّي وجهه.

بادرها:

- لقد قلتُ لك ألاّ تصعدي.

وضعت يدها على المزراب لكي تصعد، ولكنه نهض بحذر وأشار إليها أن تتوقّف. ثم قال:

- سأنزل إلى عندك، وسيمكننا أن نرى النار.

انزلق عن السطح ووصل إلى جانبها. ومن هناك تمكّنا من الإطلال على الحقول، والأشجار في البعيد، والنيران ذات الانعكاسات اللامعة والبرتقالية.

سألته:

- هل ستحيط بنا النيران؟

- يبدو ذلك، إلا إذا غيرت الرياح اتجاهها من جديد.

تأمّلا المشهد بصمتٍ لمدة لا بأس بها. احترق الإسطبل وانهار مطلِقاً نفحة هائلة من الرماد والجمر. شيئاً فشيئاً خَفَتَ هسيس النار في البعيد. تنبهت بيتي إلى أنها أبقت قبضتيها مضموتين ففتحتهما ببطء. كان تشارلي واقفاً إلى جانبها، قريباً جداً بحيث أنها تمكنت من الإحساس بحرارة جسده. ألقت عليه نظرة عابرة فغزاها إحساس بالدوار.

لاحظ نظرتها والتفت نصف التفاتة، وكأنه يخشى أن تلاقي نظرتُه نظرتها. قالت:

- شكراً.

رفع كتفيه وأجاب:

- هذا عملي.

- هذه هي المرة الثانية التي تنقذ فيها شيئاً ثميناً بالنسبة إلي.

لم يُجب، ولكن هذه المرة قبل أن ينظر مباشرة إلى عينيها غمر الانفعال بيتي، فقالت:

- تشارلي...

تلا كلمتَها صمتٌ طويل، وشعرت بانقباض في بطنها. جسدها بأكمله يتوسل إليه بأن يضمها بين ذراعيه. نظرت إلى شفتيه لحظةً ثم حوّلت

بصرها. على الرغم من كل شيء، فإن فكرة أن تلامس شفتاه شفتيها ألهبت جسدها.

قال بصوت رصين جداً ومتأنٍ جداً بحيث أنها عرفت سلفاً أنه سيصدّها:

– بيتي... عليك أن تذهبي إلى النوم. وأنا سأبقى هنا لأتابع مراقبتي.

– وأنا سأبقى معك.

– غير ممكن.

رغبت بيتي أن تبكي من الإحباط ومن الإرهاق.

أضاف:

– لا فائدة من أن نكون نحن الاثنين متعَبين غداً. فلدينا كثير من العمل. اذهبي إلى النوم، وسأخبرك إذا تغيرت الريح من جديد، ويمكنك أن تثقي بي.

أجابت بكل صدق:

– أعرف.

استيقظت بعد أربع ساعات، وكان الفجر كئيباً، فلم يعد سفح الهضبة سوى كومة سوداء خانقة. أمضت على نافذتها دقائق طويلة، مرعوبة من منظر الأشجار، ومن جثثها المدخّنة. وعلى ضوء النهار تمكنت من أن تدرك إلى أية درجة نجت وايلدفلاور هيل. تساءلت وقد غزاها خوفٌ عَصَرَ بطنها، تُرى كيف نجا جيرانُها.

خفضت بصرها فرأت تشارلي جالساً تحت نافذتها تماماً، وقد عاد كلباه وتمددا منهكين، أحدهما إلى يمينه والآخر إلى يساره.

لبست مئزرها الممزق، والذي سوّده هباب الفحم، وأسرعت إلى الطابق الأرضي وصاحت:

– تشارلي؟

عندما التفت إليها عصَرَ التعبُ البادي على وجهه قلبَها. قال لها مبدياً ابتسامة صغيرة:

- صباح الخير يا بيتي. لقد اتجهت الريح نحو الشرق. ولقد سبّب الحريق أضراراً لا بأس بها هنا، ولكننا لم نخسر شيئاً مهماً: الإسطبل والمنظر.

الخوف والإرهاق... وكثير من المشاعر العصيّة على الوصف. فقد كادت أن تفقد كل شيء. أخذت تبكي. نهض وهو لا يعرف ماذا يفعل في البداية، ثم مدّ يده نحوها قبل أن يتراجع.

فانهارت عليه وأمسك بها. شعرت بصلابة جسمه وقوته. طوقت ذراعاه بيتي بحذر. داعب ظهرها وقال:

- لقد انتهى الكابوس، وكل شيء على ما يرام.

رفعت رأسها لتنظر إلى عينيه. لابدَّ أن ما اكتشفه في عينيها أرعبه، فقد تراجع خطوة إلى الوراء ثم قال:

- بيتي، أنا...

مدّت يدها ووضعت أصابعها على شفتيه لتسكته وقالت:

- أعتقد أني سأموت الآن إذا لم تقبلني.

بقيت جملتها معلقة، وجسدها بانتظار رده. فأبعد يدها الموضوعة على فمه وجذبها نحوه. أصدرت أنّةَ خافتة وتركت ذراعي تشارلي تطوقانها، ويده تسرّح شعرها، وفمه الحار يقبّل رقبتها وأذنيها وأخيراً شفتيها. كان جسده صلباً واحتضانه قوياً. غاض العالم تحت قدميها، فهي لم تعش إلا لكي تعرف هذه اللحظة، ومن أجل هذا الهوى المفترس الذي ينهشها. مرّر تشارلي يديه على مئزرها، وكشف شيئاً فشيئاً كتفها اليسرى. وبعد لحظة وضع شفتيه الملتهبتين على جسدها باحتفال. انحشرت به بجسدها المحموم، ثم همست:

- تعال إلى غرفتي يا تشارلي.

قال متهرباً وهو يفك إسار جسدها ويتراجع قليلاً:

– أنا مغطّى بالهباب والرماد.

ثم عاد وجهه إلى رصانته وأضاف:

– بيتي، هلِ أنت واثقة من نفسك؟

– واثقة جداً.

بقيا ممددين طويلاً، وجسداهما العاريان متداخلان تحت نور الشمس المتسلّلة عبر الستائر المفتوحة. كانت النافذة تُدخل حرارة هواء الصباح ورائحةَ الدخان الحرّيفة لأشجار الأوكاليبتوس المحترقة. أخذت أصابع تشارلي ترسم أشكالاً غامضة على كتفها اليسرى، وهي تستمع إلى خفقان قلبه في صدره الصلب. ثم قال لها بصوت مبحوح بسبب الدخان وقلّة النوم:

– يجب أن أعترف لك بشيء يا بيتي.

– هيا قله.

– أنا أحبك منذ زمن طويل.

ابتسمت دون أن يتمكن من رؤية وجهها.

ثم سألها:

– وماذا سنفعل الآن؟

– سوف ننسى بقية العالم ونطلق العنان لحبّنا.

صمت. وإن هي إلا لحظة حتى نام.



الفصل الثالث والعشرون

كان هنري جالساً في سيارته والمحرك يعمل، يتساءل ما الذي تفعله مولي طوال هذا الوقت. لقد تركا لوسي عند بيتي، وعلى طريق العودة توقفا في ليونيفورد لأن مولي أصرّت على شراء شيء ما ليأكلاه قبل عودتهما. نما لديه انطباع بأنها تأكل باستمرار في هذه الآونة وأن حزامها صار ضيقاً على خصرها. واجتهد هنري في ألاّ يلاحظ إلى أية درجة تبدو بيتي جميلة وممشوقة القوام مقارَنةً بزوجته.

لم يفكر بالعودة إلى بيتي ذات يوم، فمشاعره نحوها تبخرت منذ سنوات طويلة.

فلماذا تجرؤ مولي على أن تتأخّر هذا التأخّر كلّه؟ ألا تعرف أنه يكون سيئ المزاج دائماً عندما يودّع ابنته الصغيرة؟ فهذه الطفلة هي الشيء الوحيد في هذا العالم الذي يجعله سعيداً: أما الباقي ـ المال والعمل الجيد والزوجة المخلصة ـ فلا يعني له شيئاً. وحدها لوسي تملأ فراغ قلبه بالسعادة.

أطفأ المحرّك وترجّل من السيارة. اجتاز الشارع ثم فتح باب المخزن الرئيس، فرأى مولي واقفة أمام الكونتوار، أسيرة امرأة شابة ورجل

معسول الشكل يتناوبان على التكلّم معها بصوت خافت، من الجهة الأخرى من الصندوق. سألها:

– مولي! هل أنت جاهزة؟

التفتت إليه، فرأى وجهها شاحباً، فسألها بنفاد صبر:

– ماذا يحدث؟

لطالما كانت ردود أفعاله غير متّزنة. ولكنها قالت هذه المرة:

– لقد بلغني كلامٌ سيئ عن بيتي.

شعر هنري بوخز في ظهره من الانزعاج. إنه ليس مجنوناً ببيتي، ولكنها أم لوسي. وكل ما يمسّ بيتي يمسّ لوسي في طريقه. فقال لها:

– اصعدي إلى السيارة يا مولي!

جمعت مشترياتها ومشت أمامه. ألقى نظرة على الزوجين الواقفين خلف الكُونتوار، ثم خرج إلى ضوء النهار.

كانت مولي تنتظره في السيارة، ويدها في علبة شوكولا. ثم قال لها وهو يُقلع بالسيارة:

– كنتُ أفضّل ألاّ تستمعي إلى هذه الأقاويل يا مولي.

ثم أضاف حين وصلا إلى الطريق الترابي:

– هذا لا يليق بك.

– أعتقد أن علينا أنْ نفكّر بالمرأة التي تعتني بابنتنا عندما لا نكون موجودين يا هنري، وإلاّ فإننا سنكون أبوين سيئين.

تشنّج. *ابنتنا!* فقال:

– لوسي هي ابنة بيتي مثلما هي ابنتي.

– نعم، ولكنك اخترتَ امرأةً جيدة زوجةً لك، تذهب إلى الكنيسة. وأنا أمٌّ جيدة للوسي. والرجل الذي تمنحه بيتي دور الأب رجل مخيف.

خامَرَه طيفُ شعور بالغيرة. من أين أتاه؟ إنه لم يعد يريد بيتي، وهو مقتنع بذلك تماماً. فسألها:

– كيف هذا؟

– قالوا لي إن لديها عشيقاً.
ألقى نظرة على مولي التي كانت تلحس أصابعها من آثار الشوكولا، وقال:
– أكملي!
صمتت للحظات لكي تُضفي على كلامها مزيداً من التشويق، ثم قالت:
– تشارلي، الرجل الأسود.
نظر إلى الطريق المتد أمامه، وظلّ صامتاً لبعض الوقت. الحق يُقال، لا يعنيه أن يكون الأشخاص سوداً أو بيضاً أو خضراً. ولم يبدُ له أن تشارلي قد تطوّر، بل بقي مقبولاً. هزّه الخبر هزّاً غريباً. هل هذا بسبب فكرةِ أن هذا الرجل يلمس بيتي، كما كان يلمسها من قبل؟ أم أن السبب هو تحذير مولي بإمكانية ألاّ يكون تشارلي أباً جيداً لابنته؟
ختمت مولي قائلة:
– أعتقد أننا متفقان. يجب إيقاف هذا.
ردّ هنري بصوت مخنوق:
– يحقّ لبيتي أن تحبّ من تشاء.
أضافت مولي وكأنها لم تسمعه:
– أنا أرى الأمر مخيفاً.
وكذلك شكّ هو في أنه سمعها تلفظ هذه الكلمات:
– تخيّل أن يقبّل ابنتنا الصغيرة قبل النوم.
شعر أن جسمه كلّه يرتعد. ومع ذلك فقد أضافت:
– أنا أعلم أن بعضاً منهم ليسوا أشراراً، ولكنني أفضّل ألّا يدنو أحدٌ من شخص عزيز عليّ.
تحوّل صوتها إلى همس، لا بدّ أنه لم يسمعه مع هدير المحرّك. فأمرها وهو يرغب أن تتفهّمَ دفقات الخوف والغضب التي تهيّجه:
– اسكتي! أنا أفضّل ألا أسمع شيئاً.

فظلّت جاثمة على مقعدها بصمت طوال بقية الطريق.

انتهى الأمر بتشارلي بأن انتقل إلى السكن في البيت، وإن كان مصرّاً على النوم في غرفة أخرى. فغرفة لوسي تتوسّط غرفة بيتي وغرفته. ورأت بيتي أن يجهّزا غرفة مستقلّة في أثناء الأسبوعين اللذين تُمضيهما عندها، ولكن هذا مستحيل.

لقد اعتادت على حرارة جسمه، وعلى الإحساس بأصابعه المفتونه بجسدها. في وقت متأخّر من تلك الليلة، بعد أن أيقنت بأن ابنتها قد نامت، انزلقت في الممر وطرقت بابه.

فتح الباب بحذرٍ وعيناه السوداوان تشعّان في الظلام، وسألها:

- هل أنت متأكدة يا بيتي؟

- أنت تطرح عليّ هذا السؤال دائماً، وجوابي يظلّ نفسه.

تراجع ليسمح لها بالدخول، ثم أغلق الباب خلفه. سقطت بين ذراعيه، وقدّمت فمها لشفتيه وللسانه. سريره الصغير ينتظرهما. في الطرف الآخر من النوافذ المجرّدة من الستائر ترسل النجوم نوراً هادئاً، وثابتاً. سرعان ما فهم تشارلي كيف يرضيها. وبالمقارنة فقد بدا هنري أخرق جداً، بينما كان تشارلي يدعها ترتوي، وأذناها تطنّان، وهو يضمّها بقوة إلى صدره الواسع، ويوشوشها أرق كلمات الحب.

لا تتلخّص علاقتهما بمجرّد انجذاب جسدي، بل تشعر أحياناً أن روحيهما تتجاوبان وتمتزجان. لقد صُنعا من القماشة نفسها، فهو ملاذها الذي بحثت عنه طوال هذه السنوات.

قالت بيتي بعد أن مارسا الحب، ومنتصف الليل يدنو:

- يجب أن نتزوّج.

- لا أعرف يا بيتي، فالناس في المدينة، لا يحبّون هذا.

- ولكن لا يمكن أن نستمر هكذا، كما لو أنه سر، وكما لو أننا نخاف من رأيهم.

- بحسب رأي محاميك، نحن محقون في أن نخاف.

قبلت بيتي قائلة:

- حسنٌ. ولكن بمجرّد أن أحصل على حضانة لوسي، لن نخفُي ذلك..

أمضت أسابيع في كتابة الرسالة إلى ليو سامبسون، واضعة فيها كل الإيضاحات الممكنة. شعرتْ بأنها مذنبة لتعدادها أخطاء هنري الواحد تلو الآخر، ولكن يجب عليها أن تتذكّر أنها لم تختلق شيئاً: فهو من أراد أن يهرب معها بعيداً عن زوجته، وهو من عرّض أمنهما للخطر بالسُكْر والمقامرة، وهو من عاد إلى مولي بعد أن أخذت ميراثها. في الحقيقة، بيتي لا ترى أن هنري أبٌ سيئ، فهي تعرف أنه ما من شخص يحب لوسي أكثر منه. ومع ذلك، يجب عليها أن تستخدم كل ما يمكن أن يكون في صالحها لكي تقرّر المحكمة بأن لوسي ستكون في حال أفضل مع أمها، مع أمها الحقيقية، وليس مع زوجة هنري، المرأة الغضُوبة والتي لا تُتجنب. وبعد ذلك أصبحت الرسالة بين يدي ليو، ووُقّعت الأوراق وصارت جاهزة لتُرسل ما إن تعود لوسي من المدرسة. وشرح ليو لبيتي أن شهوراً ستمر قبل أن تحكم المحكمة.

أضافت بيتي:

- تخيّل يا تشارلي: انت وأنا يمكننا أن نتزوّج، ولوسي ستكون عندنا، ووايلدفلاور هيل ستكون لنا.

انفجر ضاحكاً ثم قال:

- اعلمي يا بيتي أني أسخر من امتلاك الأشياء أو عدم امتلاكها.

- ولكن يجب ألاّ تفعل هذا. فإذا متُّ غداً، سيأتي أحدٌ ما ويملك المزرعة. لقد اشتغلتَ كثيراً، ولم تُكافأ على عملك.

- أنا سعيد بما لديّ. ومن الأفضل للإنسان ألاّ يفرط في الحلم، ولاسيما إذا كان أسود.

انتصبت بيتي ووجّهت نظرها نحوه، فرأت شعره ممدّداً حول رأسه على الوسادة، وعلى كتفيه العاريتين وبارزتَي العضلات، وقالت:

- أفرِطْ في حلمك معي بقدر ما تشاء.

- إذاً سمحتِ لي يا بيتي، أنا أفضّل أن أكون حذراً.

انحنتِ لتقبّله على جبينِه، فملأت رائحةُ جلده منخريها، وقالت مطمئنة:

- كل شيء سيسير على ما يرام، وسترى.

استغرقت بيتي وقتاً طويلاً لمعرفة الشعور الذي يسبّب لها اضطراباً في أمعائها: إنه الشعور بالذنب.

ها هي تُعيد لوسي إلى هنري ومولي، ولكن كل شيء مختلف هذه المرة. ففي الليلة الماضية أرسل ليو سامبسون الأوراق لمحاميهما. وبين يوم وآخر من هذا الأسبوع سيأخذان علماً بأن بيتي تحاول أن تحصل على حضانة لوسي، وبأنها سطّرت قائمة بالأخطاء التي ارتكبوها بوصفهما أبوين.

اليوم، هما لا يعلمان بعد. وقد خرجت مولي حين سمعت سيارة بيتي، فأشارت إليهما أمام باب الحديقة. إنها المرة الأخيرة التي يبدو فيها هذا الطرف متّفقاً مع الآخر.

قالت مولي وهي تعانق لوسي:

- أوه، يا ابنتي العزيزة!

- صباح الخير يا ماما، لقد داعبتُ نضناضاً[1]!

نظرت مولي من فوق رأس لوسي باتجاه بيتي، وقالت:

- لقد استُدعي... استُدعي إلى العمل.

- أبلغيه تحيتي.

---

[1] جنس حيوانات لبونة، يعيش في أستراليا، يشبه القنفذ، ويُسمّى قنفذ النمل أيضاً.

وجّهت إليها مولي ابتسامة متشنّجة فخشيت بيتي أن تكون قد خمّنت أفكارها، ولاسيما حين سألتها:

- كيف حالك؟

- جيدة. ننتظر محصولاً جيداً من الصوف هذه السنة، والمحل يبيع ملابسي بأسرع مما أستطيع أن أزوّده بها.

ثم قالت لنفسها إن عليها أن تكفّ عن الكلام بسرعة.

- وكيف حال تشارلي؟

وبقيت الكلمات محصورة في فمها، فتدخّلت لوسي قائلة:

- علّمني تشارلي كيف أعقد خمس عقد مختلفة!

- عظيم جداً يا عزيزتي، ولكن يجب أن تنتبهي إلى عدم الاقتراب كثيراً من شخص أسود. فالسود ليسوا مثلنا تماماً.

غلى دم بيتي غضباً، ولكنها فضّلت ألاّ تستبق الدفاع عن تشارلي، وقالت:

- لوسي تعامل الناس كما هُم، ولا يهمّها مظهرهم كثيراً.

قالت مولي بصوت ملطّف:

- لأنها ما تزال طفلة، ولكن من المؤكّد أنها ستفهم هذا مع مرور الوقت.

سألت لوسي:

- تشارلي ليس شريراً، أليس كذلك يا ماما؟

أجابتها أمها بصوت خافت:

- تشارلي رجل طيب، وأنت فتاة رائعة يا صغيرتي. وسوف نلتقي بعد ثلاثة أشهر.

- ثلاثة عشر أسبوعاً.

- بالضبط.

كبتت بيتي الحزن العميق الذي تشعر به دائماً لحظة وداع ابنتها. في تموز، من المحتمل كثيراً أن تأتي لوسي لتسكن عندها بصورة نهائية. قالت لها:

– إلى اللقاء يا عزيزتي.

– سلاماً يا ماما.

وانتظرت مع مولي أمام البوابة حتى صعدت بيتي إلى سيارتها وانطلقت.

عاد بيتر ومات في شهر أيار من أجل جز مؤخرة الخراف. بدأت الخضرة تظهر في سفح الهضبة المحروق. شعر تشارلي بضيق شديد تجاه الموظفين اللذين أتيا ليعملا في المزرعة.

قالت له بيتي بينما كان يدفعها بلطف في المطبخ ذات مساء:

– لا تقلق إنهما هناك، في الكوخ، وهما حتى لا يتناولان وجباتهما في البيت. ولن يعرفا شيئاً أبداً.

– في المرة الماضية، كنت أنام في كوخ الجزّازين، أما الآن فسيلاحظان أني لم أعد أسكن فيه.

– لن يستخلصا من ذلك أية نتيجة. لقد عاش ميكائيل في البيت سنوات ولم يقل عنه أحد كلمة واحدة.

أمسك يديها بيديه، رفعهما إلى شفتيه وقال:

– أنا قلِقٌ عليك، هذا كل ما في الأمر. قلِقٌ لما يمكن أن يفكر به هذان الشخصان.

– أنا لا أعبأ بما يفكر فيه الناس.

للحظة عانى في إيجاد كلماته، ثم أجاب أخيراً:

– أنت تقولين هذا لأنه ما من أحد كرهك أبداً.

– بلى، معظم سكان ليونيفورد يعدّونني امرأة سيئة السمعة.

– نعم، ولكن على الأقل لا يعدّونك امرأة ملوّنة.

صمتت بيتي. أفلت تشارلي يديها ثم قال:
– لنكتفِ بالحفاظ على المسافة بيننا حتى يخيِّم الليل.
– وبعد ذلك، يمكننا أن نتقارب.
– نتقارب بالقدر الذي تريدينه.

عاد فصل الشتاء، ووجدا نفسيهما وحيدين من جديد. وأمضيا سهرات طويلة قرب النار متعانقين. لم يكفّ تشارلي عن القول لها بأنه يحبها، وأنفاسُه تُلهب جلدها وشعرها، ويذوب قلبُها في قلبه بحيث أنها بدأت تخاف: خوف عصيٌّ على التحديد، ذلك الخوف الذي يشعر به كل إنسان حين يُفرط في حب الآخر. الوسيلة الوحيدة لبيتي لكي تُخفي هذا الخوف هو أن تركِّز انتباهها كله وخيالها كله على تشارلي، وأن تترك بقية العالم تفرُّ منهما.

يوم سلَّم المحامي الرسالة إلى هنري، اتصل هذا ببيتي ونفث سمّه وهدّدها: لا يهمّها كثيراً، فقد أعلن لها ليو سامبسون أن الجلسة من أجل حضانة لوسي سوف تؤجَّل إلى شهر آب. لا يهمّها كثيراً. ساعية البريد الجديدة رفضت أن تخدمها عندما أرادت أن ترسل طرد ملابس إلى محلها في هوبارت. قادت السيارة إلى المدينة المجاورة، ولا يهمّها ذلك كثيراً، فهي عاشقة. إنه عشق مجنون، عشق يُعمي. فلم ترَ قدوم التتمّة. أبداً.

عندما عادت لوسي من الكنيسة خلعت حذاءها في غرفتها ثم وضعته في خزانتها. استلقت على سريرها حيث كان ينتظرها بوني وهورس. تناولت كتاباً وأخذت تشاهد الصور. قُرع الباب ودوى صوت مولي:
– لوسي؟

توقفت لوسي عن القراءة. إنها لا تريد أن تدخل مولي التي أصبحت غريبة الأطوار في هذه الآونة. بدت وكأنها تخشى شيئاً ما، وكأنها تخاف من لوسي.

لكنّ مولي سمحت لنفسها بالدخول مهما كانت فكرة لوسي عنها. تسحّبت لوسي إلى زاوية السرير وأخذت تشدُّ أذني بوني بأصابعها.

ابتسمت لها مولي وفي لحظة ولِد انطباع لدى لوسي بأن كل شيء عاد طبيعياً. ولكن ما من شيء كان طبيعياً. فبابا ومولي صارا يتحادثان طويلاً في هذه الفترة، بصوت خافت ومتوتّر. وكلما كانت لوسي تدخل إلى الغرفة كانا يسارعان إلى السكوت. فأدركت لوسي أن شيئاً ما يُحاك وعرفت أنها هي المقصودة به.

سألتها مولي وهي تجلس إلى السرير بعد أن مسّدت الشراشف بيديها:

– هل يمكنني أن أكلمك يا عزيزتي؟ إنه أمر مهم.

وافقت لوسي حتى وإن كانت تفضّل أن ترفض، ثم سألت:

– أين بابا؟

– إنه في الصالون. وهو يقول إن من الأفضل أن أكلّمك أنا لأننا بنات.

وجّهت إليها ابتسامة جديدة ففكرت لوسي بأنها لا تشبه *البنت* أبداً. هزت كتفيها ثم سألت:

– ماذا هناك؟

– الأمر يخصّ بيتي، أمك.

انتظرت لوسي، واعتراها خوف، فهي لا تريد أن يقال لها إن أمها مريضة أو قد ماتت.

أكملت مولي قائلة:

– لقد فعلت شيئاً سيّئاً. فقد كتبت رسالة شريرة جداً، ووالدك غاضب جداً الآن.

– كتبت رسالة إلى بابا؟

– لا، كتبتها إلى محاميها، ولكن ليست هذه هي المشكلة. ففي هذه الرسالة قالت أشياء غير صحيحة. وماذا نسمّي شخصاً يقول أشياء غير صحيحة؟

– كاذب.

– هو ذا، أمك... قامت بأشياء يرفضها كثير من الناس، أشياء لا يرضى عنها الله.

لم تعد لوسي تعرف أية فكرة تتخذ عن الله. إنه يخيفها دائماً ولكن فقط عندما تكون هنا، في هوبارت. أما في المزرعة فإنها لا تقلق كثيراً مما يمكن أن تكون فكرته عنها. سألت أخيراً:

– أي نوع من الأشياء؟

– أشياء تخصّ الكبار ولا يمكنني أن أشرحها لك.

ليست هذه هي المرة الأولى التي تُقال فيها اتهامات ضد أمها، فلم تطرح لوسي أية أسئلة بعد ذلك.

قالت مولي:

– ولكنها أصبحت قريبة جداً من هذا الرجل الأسود.

– تشارلي؟ إنه لطيف.

انفتح فم مولي وقالت:

– إنه يبدو لطيفاً، وهذا كل ما في الأمر. فهو لص في الواقع. وكل الناس في ليونيفورد يعرفون أنه سرق أشياء لرجل أبيض وغني.

أمسكت مولي بيد لوسي وأضافت:

– يجب أن تقولي لي يا عزيزتي إذا كنتِ قد لاحظت أي شيء عندما كنت في المزرعة. شيء... سيئ؟ إذا لاحظتِ شيئاً فيجب أن نعرفه، بابا وأنا. وهذا سيساعدنا كثيراً في ملف المحامي.

هزّت لوسي رأسها بقوة وقالت:

– لم ألاحظ شيئاً.

– احكي لي ماذا تفعل، ومع من تتكلم.

واصلت لوسي هز رأسها بالنفي.

– أين تنام في الليل؟

– في غرفتها، بجانب غرفتي.

– وعندما تستيقظ في الصباح؟

كانت نظرة مولي تُرعب الطفلة، ومع ذلك فقد قالت:

- أمي لا تفعل شيئاً سيئاً. إنها تنهض، وتتناول الفطور معي ومع تشارلي في الصباح، و...

- وتشارلي، هل يتناول الفطور معكما؟

بقيت لوسي جامدة، تشعر بقلبها يخفق في حلقها.

تدوّرت عينا مولي وهي تسأل:

- لوسي؟ هل تشارلي ينام في البيت؟

هزّت الطفلة رأسها دون أن تفهم لماذا تجد مولي هذا صادماً إلى هذا الحد.

أشاحت بوجهها، وقد احمرّ وقالت:

- أنا آسفة أن أقول لك هذا: لقد ارتكبت خطيئة.

- أمي ليست خاطئة.

- هل تذهب إلى الكنيسة؟

لم تدرِ لوسي بماذا تجيب.

صرخت مولي:

- هنري! هنري، تعال إلى هنا!

انتظرت لوسي على السرير وقلبها يخفق. لقد ندمت لأنها تكلمت مع مولي، وكان يجب عليها أن تصون لسانها. ثم وصل والدها. هي تعرف أن بوسعها أن تثق به. قفزت من السرير وغرست رأسها في صدره.

سأل بنبرة حادة:

- ماذا يجري؟

سمعت لوسي الكلمات ترنُّ في قفصه الصدري. فلم تجرؤ على النظر إليه.

ردّت مولي:

- لوسي تقول إن تشارلي ينام في البيت، وإنه يتناول الفطور معهما صباحاً. وأنا واثقة من أنك تستطيع أن تتخيل البقية.

زان صمت. ما تزال تشعر بيد والدها على ظهرها. لكنَّ مولي أضافت سائلة:

– إذن؟ هل تريد أن يكون لابنتك أب أسود زانٍ؟

– مولي...

– أنا أحذّرك، إذا خسرنا القضية، فهذا ما سيحدث، وسيكون ذلك الرجل بمثابة والدها، بدلاً منك.

خافت لوسي وتراجعت لكي تنظر إلى والدها، ثم قالت:

– أنا أريد أن تكون أنت أبي، وليس أحدُ آخر.

قويت نبرة مولي وهي تقول:

– قل لها. قل لها إن أمها تغوص في الخطيئة حتى أذنيها.

– مولي...

– يجب أن نبقيها بعيدة عن هذه المزرعة.

أبقت الطفلة نظرها على أبيها. كل ما كان يقوله لا يمكن أن يكون إلا صحيحاً وجيداً. إن مولي غاضبة وتتصرف بشكل غريب، لكنَّ بابا لن يدع شيئاً سيئاً يصيبها أبداً.

وقع نظر والدها عليها وابتسم لها من زاوية شفتيه ثم قال:

– هل تحبين أن تقومي برحلة صغيرة يا ابنتي؟

***

أصيبت بيتي بحمّى أقعدتها في السرير في الأسبوع الأول من شهر تموز، في اليوم نفسه الذي كان يجب عليها أن تسترد لوسي في هوبارت. أرادت أن تتصل بها لتقول لها إنها ستأتي لتأخذها، ربما بعد يوم أو يومين من التأخير. بعد أن ركّبت الرقم، خشيت أن يردَّ هنري أو مولي، لكنَّ أحداً لم يرد. لا يمكنها أن تفعل شيئاً فهي لا تستطيع أن تقف إلا

بصعوبة، ومن المستحيل أن تقود السيارة. سوف تعود إلى النوم آملة أن تتحسن حالها في الغد.

في الصباح التالي أخذ الهاتف يرن في الفراغ في بيت هنري. ظنت أن الجهاز يعمل بشكل سيئ وخشيت أن تتخيل لوسي أن أمها قد نسيتها.

بينما كانت ترتدي معطفها، مصممة على الذهاب إلى هوبارت، فقدت توازنها واصطدمت بالجدار. لمحها تشارلي فأسرع ليسندها قائلاً:

– أنت ما تزالين مريضة.

– إن أذني تؤلمني كثيراً، ولا أستطيع أن أقف على قدميّ.

– أنت لا تستطيعين أن تقودي السيارة، ولست بحالة جيدة، وهناك كثير من الضباب.

– لا أستطيع أن أبقى هنا، فلوسي تنتظرني منذ الأمس.

– تستطيع أن تصبر.

– أنت لا تفهم، فهي ستظن أني نسيتها أو أني لا أحبها. وأنا لا أريدها أن تكوّن أفكاراً كهذه لمدة طويلة، ولا حتى لساعة واحدة، فما بالك بيوم آخر.

طوق تشارلي ذراعها بيد قوية، فعرضت عليه:

– يمكنك أن تقودني إلى هناك.

ابتسم ابتسامة مرّة وقال:

– بيتي لقد رأيتِ كيف تنظر إليّ مولي.

– أنا لا تهمّني مولي.

– أنت على حق بكل تأكيد.

– أنت تعمل عندي، وليس هناك شيء غير عادي في أن يعمل موظف كسائق عند ربة عمله.

لمست يده بلطف وقالت:

– من فضلك! إن ابنتي تنتظرني.

– ألا تستطيعين أن تكلميهم بالهاتف؟

- إنه لا يعمل على ما أعتقد.

زفر وهو يبحث عن قبعته ثم قال:

- موافق، ولكن سوف أنتظر في السيارة.

إنها المرة الأولى التي يذهبان فيها إلى مكان ما معاً بالسيارة. وحين ابتعدا عن المزرعة كان الضباب يتمدّد تاركاً العشب المتجمد يُطلق لمعاناً فضياً. على الرغم من أن أذنها تؤلمها، وتعاني من دوار دائم، لم يستطع شيء أن يُفسد الفرح الذي تشعر به وهي تسير على الطريق، وترى الأشجار التي عرّاها فصل الشتاء والحقول الواسعة المتعرجة برفقة الرجل الذي تحبه. استولى عليها شعور بالظلم. فالنساء الأخريات يمكنهن أن ينعمن بمتع بسيطة جداً. ومولي لها الحق في أن تتنزه في السيارة مع هنري، وتيلي هارو مع فرانك... ومع ذلك فإن الحب الذي يجمع بين بيتي وتشارلي أنقى وأقوى بكثير من حب هذين الزوجين. ما إن تنتهي قصة حضانة لوسي حتى تتزوج من تشارلي وتسخر من كل من يستنكر وضعها.

وصلا إلى أمام بيت هنري قبيل الساعة الحادية عشرة. ترجلت بيتي من السيارة وانتظرت حتى يكفّ رأسها عن الدوران قبل أن تجتاز باب الحديقة وتمشي في الممر. كان الهواء بارداً حتى سبّب لها الارتعاش وهي تقرع الباب. ما من مجيب.

غمرها خوف رهيب فجأة: إنهم لا يردّون على الهاتف ولا يفتحون الباب. قرعت من جديد بصوت أقوى، ثم اتجهت إلى وراء البيت. سمعت باب السيارة يُصفق. لحق بها تشارلي ولكنها لم تُدرك هذه المعلومة كثيراً. أصبح نظرها غائماً وشبه ظليل. ثمة شيء ما قد حدث. هذه البديهية صدمتها ببرودة وقوة.

أطلقت عدة ضربات على الباب الخلفي، دون جدوى. وجدت دلواً خلف البيت فقلبته ووضعته تحت نافذة غرفة لوسي وصعدت فوقه حين وصل تشارلي وساعدها على حفظ توازنها. أحدث تنفسها بخاراً على الزجاج. سألها تشارلي:

- ماذا ترين؟
كانت الستارة مفتوحة ما يكفي لكي ترى ما بالداخل: غرفة خاوية.
لم يعد هناك من سرير ولا ألعاب ولا خزانة ولا شيء. توقف قلبها ثم فقدت توازنها وهوت بين ذراعي تشارلي وهي تصرخ:
- إنها فارغة.
- لا تقلقي. فما يزال الوقت مبكراً جداً.
ساعدها على العودة إلى أمام البيت. كانت جارة هنري تنشر غسيلها فسألها تشارلي:
- هل يمكنك أن تساعدينا؟
رفعت المرأة رأسها فرأت تشارلي ممسكاً ببيتي بين ذراعيه فاسودّ وجهها وسألت:
- ما هذا؟
- سألتها بيتي بيأس:
- هل رأيتِهم يرحلون؟ الرجل والفتاة الصغيرة الحمراء؟
- منذ نحو ثلاثة أسابيع. لماذا؟
ثلاثة أسابيع؟ لماذا لم يُقل لها شيء؟
- أنا أم الطفلة. وأريد أن أعرف إلى أين ذهبوا.
- قال الرجل إنهم ذاهبون نحو الشمال. هذا كل شيء.
ثم تناولت سلّة غسيلها وأدارت لهما ظهرها. فصرخت بها بيتي:
- من فضلك!
ردت المرأة وهي ذاهبة:
- أنا لا أعرف شيئاً آخر.
ثم أغلقت الباب خلفها.
شعرت بيتي بأن العالم يميد تحت قدميها وامتلأ حلقها بالشهيق.
ضمها تشارلي بذراعيه فسألت باكية:
- أين ابنتي يا تشارلي؟ إلى أين أخذا طفلتي؟

الفصل الرابع والعشرون

استيقظت بيتي قبل الفجر، في نور محجوب، وتساءلت للحظة أين هي، ثم تذكّرت: الشراشف الحائلة اللون، ورائحة التبغ القديم في الستائر، والسجادات... إنها تنام في الفندق الوحيد في هوبارت الذي يقبل أن تنزل امرأةٌ بيضاء مع رجل أسود، وهي ما تزال في خصام مع كابوس: اختفاء لوسي.

عادت إلى سريرها، ورأت تشارلي صاحياً، ينظر إليها بعينين هادئتين. سألته:

- منذ كم من الوقت وأنت صاح؟

- منذ نحو ساعة. أنا أريد أن أكون حاضراً عند يقظتك، لحظة تتذكّرين كل شيء.

شرعت في ابتسامة. نهار الأمس انغمس في ضباب بلا نهاية: فقد ركضا في كل مكان، وطرحا أسئلة على الجيران، وعلى راعي كنيسة مولي، وعلى الموظّف عند هنري، وعلى صديقة مولي في فيتزجيرالد. لقد سأل تشارلي وبيتي هوبارت بأسرها، ولم يحصلا على أي جواب. فمعظم الناس لا يعرفون شيئاً أبداً، وراعي الكنيسة اكتفى بالقول إنهما لم يعودا يأتيان إلى الكنيسة. وبعضهم كان يمتلك معلومة، ولكنها هي نفسها

باستمرار: قالا إنهما سيرحلان نحو الشمال، ولا أحد يعرف أين. وبالمقابل، فإنهم فوجئوا جميعاً بأن تكون بيتي هي أمّ لوسي. بل لاحظت أن بعضاً من هؤلاء لم يصدّق ذلك.

حاول تشارلي إقناعها بأن تعود إلى وايلدفلاور هيل، ولكنها رفضت بعناد أن تعود دون ابنتها. هذا غباء بكل تأكيد، فمن البدهي أن ابنتها ليست في هوبارت. فبحثا عن فندق في برد المساء المجمِّد، وانهارا نائمين.

والآن، على بيتي أن تتخذ قراراً: فماذا عليها أن تفعل بعد ذلك؟ نصحها تشارلي وهو ينزل عن سريره:

– ستكونين في وضع أفضل في البيت يا بيتي. فقد فعلنا كل ما بوسعنا هنا.

قالت وهي ممدّدة على ظهرها:

– إنه خطئي.

ثم غطّت عينيها بذراعيها، وقلبها يخفق بقوة في صدرها:

– ليتني اكتفيت بالتكلّم معهما عن الحضانة، بدلاً من تبليغهم عن طريق المحكمة.

لبس تشارلي قميصه ثم عاد إلى الجلوس على سريره وهو يزرّره بمهارة:

– أنت بنفسك قلت إن هنري كان جاهزاً لتوكيل محامٍ أولاً.

– أنا أريد فقط أن أعرف ما إذا كانت بخير.

– من المؤكّد أنها بخير، فهما يحبّانها ولن يؤذياها.

اطمأنّت بيتي قليلاً لهذه الفكرة. ومع ذلك فإنها لا تستطيع أن تشرح لتشارلي إلى أية درجة تشعر أنها تائهة بسبب جهلها لمكان لوسي، ولعدم معرفتها متى ستضمّها بذراعيها من جديد. حاولت أن تكفّ عن البكاء، ولكن هذا مستحيل.

قال تشارلي بصوت هادئ وهو يمسح بطرف إصبعه الحنون دمعة سالت على خدها:

– طيب، بما أن محاميك قد وضعك في هذا المأزق، ربما يستطيع أن يُخرجك منه أيضاً. لنعد إلى البيت، وعلى طريقنا يمكنك أن تمرّي بليو سامبسون.

وافقت واستعادت جرأتها وقالت:

– أنت محق. فهم لم يختفوا هكذا. وهو سيساعدني على إيجادها.

العودة إلى ليونيفورد بالسيارة مختلفة كثيراً عن الذهاب. فالوسط السائد في السيارة ممزّق. أسندت بيتي رأسها إلى يد تشارلي الموضوعة على الزجاج ونظرت إلى المنظر الذي ينسرب أمامها، واعية للكيلومترات التي تفصلها عن لوسي. لحظةَ رَكَن تشارلي السيارة أمام بيت ليو سامبسون كانت بيتي قد وصلت إلى نقطة خشيت معها ألّا ترى ابنتها بعد ذلك أبداً. في الطرف الآخر من الشارع مدّ الناس العاديون أعناقهم لكي يروها. وحين ترجلت من السيارة أمعنوا النظر لكي يروا من يقود السيارة، لكنّ تشارلي أبقى قبعته على رأسه وترك الزجاج مغلقاً. توسّلت إليه بيتي وهي تنحني عبر فتحة باب السيارة:

– تعال معي!

لا يا بيتي. الشيء الأخير الذي يجب أن أفعله هو أن أمشي إلى جانبك بينما كل هؤلاء الناس ينظرون إلينا.

وترك يديه تضغطان على المقود.

أغلقت الباب وذهبت. شعرت بالحرارة في وجهها على الرغم من الطقس البارد جداً. وأدركت أنها ما تزال لا تمتلك اللياقة التي تؤهلها للخروج، ولاسيّما أن أذنها اليسرى تؤلمها وتُصدر طنيناً خفيفاً.

أخذت نفساً عميقاً ثم دفعت باب ليو.

كان يعمل في مكتبه الصغير، وأمامه يتمدد غليون جاهز. حين قرأ تعبير وجهها تحولت ابتسامته إلى تقطيب لحاجبيه، ثم سألها:

- ماذا يحدث؟
- لقد أخذاها.
قالت ذلك ثم أخذت تبكي.
روت له القصة كلها وكأس براندي كبير في يدها. كان يكتب ملاحظات وهو يهزّ رأسه تعاطفاً. وفي الطرف الآخر من النافذة كان السياج يرتعش بفعل الريح. قال لها أخيراً:
- سوف أتصل بمحاميهما مباشرة، فربما يعرف إلى أين ذهبوا. أما الآن يا بيتي، فيجب أن تعودي إلى البيت وتستريحي. فأنت مريضة.
- لا أستطيع أن أستريح قبل أن أعرف أين هي.
- أعتقد أن عليك أن تقبلي أننا لن نعرف أين هي قبل مرور بعض الوقت استريحي. هل يوجد... شخص يعتني بكِ في المزرعة؟
ولفظ الجزء الأخير من جملته بصوت خافت جداً.
- يوجد تشارلي.
وافق ثم وجه إليها ابتسامة حزينة قليلاً وقال:
- هذا جيد.
نقر على صفحة الملاحظات الموجودة أمامه ثم أضاف:
- سوف أتصل بك بمجرد أن أعرف أي شيء كان.
في الخارج جعلها الهواء الثلجي تسعل. توقفت وحاولت أن تستردّ نفسها. ولكنها سقطت ووجهها على الأرض. كانت الصدمة على الأرض الباردة والمعشبة عنيفة، لكن اليدين اللتين أمسكتا بها من خصرها كانتا رقيقتين.
- لا بأس يا بيتي؟
- تشارلي، أنا أشعر أني لست على ما يُرام.
- لا تلمسها أيها الأسود القذر!
رفعت بيتي رأسها فرأت فرانك هارو واقفاً على بعد بضعة أمتار منهما وعيناه ترفّان. ردّ تشارلي مدافعاً:

– كنت أساعدها على النهوض فقط.
– ما كان يجدر بك أن تضع يدك على امرأة بيضاء.
وتقدم باتجاههما ثم هزّ تشارلي ليبعده وأسند بيتي إلى مرفقه.
كان فقدانُ لوسي قد أوصلها إلى أوج غضبها، فلم تستطع أن تتحمل وقاحة فرانك، فقالت له وهي تدفعه بقوة:
– ارفع قوائمك القذرة عني! كيف تجرؤ على الكلام مع تشارلي بهذه الطريقة؟
تجمع الفضوليون وقد جذبهم صياحها. فصرخ فرانك:
– هل ستدَعيه يلمسك بهذه الطريقة؟ كما لو أنك له؟
همس تشارلي في أذنها:
– تعالي يا مدام. من الأفضل أن نعود إلى المزرعة.
مدام، بدت هذه التسميةُ شتيمةً بالنسبة إليها، ورمزاً للفترة التي سبقت حبهما. لن تستسلم، لا فرانك ولا جيشه من الأفاقين سوف يكسروها. فقالت بثقة:
– أنا له، كما ترون. قلبي له، وقلبه لي.
تعالت صيحات مستنكرة. كان تشارلي قد جلس خلف مقوده. أغلق باب السيارة وانطلق.
– إذن أنا أمنعكم من أن تتكلموا بسوء عنه. فهو أفضل منكم.
ثم كنست المجموعة بنظرها ورفعت صوتها وقالت:
– إنه أفضل منكم جميعاً.
استعادت توازنها بالاستناد إلى السيارة، ووجدت قبضة الباب وصعدت إلى العربة كيفما اتفق، سعيدة بالعودة إلى مقعدها. قال لها تشارلي بصوت بارد:
– ما كان يجب أن تفعلي هذا.
التفتت نحوه وقالت:
– تشارلي؟ هل تلومني؟

أقلعت السيارة دون أن يرد، فرجته قائلة:
- قل شيئاً ما.
- من الأفضل ألاّ تسمعي ما أرغب في أن أقوله لك. الآن سوف تعودين إلى النوم وسوف أجلب طبيب بوثويل. لا يمكننا أن نفعل شيئاً من أجل لوسي الآن، ولكن صدقيني، يجب أن أتأكد من أن تجد أمها في أحسن حال.
التفتت بيتي نحو الزجاج من جديد وتركت صمتاً مشوباً بدموع حرّى على خديها.

دام مرضها تسعة أيام. التهاب أذن ألزمها السرير وسبّب لها حمى شديدة. كانت تنام ساعات طويلة مشوبة بأحلام مخيفة رأت فيها لوسي وهنري. وكان تشارلي يحضّر لها الحساء الذي لم تأكله، ويبدل شراشفها عندما تبتلّ بسبب التعرق، ويتأكد من أن الطبيب سيمر لفحصها.
في اليوم التاسع، شعرت بتحسّن، فقعدت وأكلت أخيراً. وكان تشارلي جالساً على طرف السرير يراقبها بصمت. لم ينبس بكلمة منذ عودتهما. هي تفترض أنه ما يزال يلومها على المشهد مع فرانك هارو، ولكن لماذا كان عليها أن تسكت؟ إنها تسخر كثيراً من رأيهم فيها.
تناولت قطعة من الخبز وغطستها في طبق حسائها ثم قالت:
- لقد فكرت: فقد قال هنري لجارته إنهم مسافرون نحو الشمال وأنا تذكرت أن بيلي وايلدر، وهو صديق قديم لهنري، كان قد انتقل إلى لونسيستون. أعتقد أن علي أن أتصل به.
- بيتي...
- ففي النهاية الشمال يمكن أن يعني أيضاً الأراضي الرئيسة، ولكني لا أعتقد أن هنري يحب العيش في مكان لا يعرف فيه أحداً أو ليس لديه فيه عمل. فهو جبان في صميمه، إذن...
قاطعها تشارلي بتصميم هذه المرة:

- بيتي، لقد اتصل ليو سامبسون منذ يومين.
تجمّدت ووقفت قطعة الخبز في منتصف الطريق إلى فمها، وسألت:
- لماذا لم تُخبرني بذلك؟
- كنت أنتظر أن تتحسن حالك.
ارتعش بطنها خوفاً وقالت:
- لأنه خبر سيئ، أليس كذلك؟
باعد بين يديه وقال:
- تكلم ليو مع محامي هنري، فأخبره أن موكّله ومولي ولوسي قد سافروا إلى اسكتلندا.
إلى اسكتلندا. المسافة جمّدت دمها. لوسي في اسكتلندا... أو أيضاً على طريق اسكتلندا. تقلصت معدة بيتي، كما لو أنٍ بعد لوسي ينذر بانتزاع أحشائها. وضعت يديها على بطنها. فقال لها تشارلي:
- أنا آسف يا بيتي.
- يجب أن أذهب للقائها.
دفعت طبق حسائها وأبعدت أغطيتها.
أمسك بها تشارلي بقوة وأعادها إلى فوق الشراشف وقال:
- ليس بهذه السرعة. خذي وقتك في التفكير.
- ابنتي موجودة في الطرف الآخر من العالم، ويجب أن أذهب لأستردّها.
كان صوتها قوياً ومتوتراً بحيث أنها استغربت هي نفسها رنينه بهذه القوة.
أضاف تشارلي:
- اسمعيني وحاولي أن تهدئي. هنري قال إنه سيتصل بك لكي يعطيك عنوانهم ما إن يستقروا في مكان ما. ويجب عليك أن تصبري.
- ولماذا يجب علي أن أصبر؟
- لأنك إذا ذهبت الآن إلى اسكتلندا فلن تعرفي أين هم.

- سوف يذهب إلى غلاسكو. وأنا أستطيع أن أجد أمه...

عندما لفظت هذه الكلمات كانت تعرف أنها تتكلّم بغباء ويأس. فما من أية ضمانة بأن يتصل هنري بأمه، ويمكنها أن توجد في غلاسكو دون أن تعرف أدنى فكرة عن مكان لوسي.

- هذا ليس عدلاً. فليس لديه الحق في أن يأخذها هكذا. وليس هو من يُملي القواعد. سوف تشتاق إليّ، وسوف تتساءل عما يحدث. سوف تضيع.

- لقد قارب عمر لوسي العشر سنوات، فهي ستفهم.

- ولكن ماذا قالوا لها عني؟

صمت تشارلي.

ألحّت عليه وهي تدرسه عن كثب:

- تشارلي؟

قطّب حاجبيه بقوة فسألته:

- هل أنت غاضب مني؟

- لقد قلت لك إنها ليست فكرة جيدة أن نكون معاً.

هل تشارلي على حق؟ تمددت على سريرها من جديد، فتمدد إلى جانبها على الأغطية وخده على الوسادة، وقال وهو يداعب شعرها بيده:

- أنا آسف.

- أنا أشعر بثقل كل المدن وكل البحار التي تفصل بيننا.

ثم وضعت يدها على صدرها وقالت:

- هنا على قلبي.

خشيت بيتي ألا تُشفى من مرضها: فالأيام تمضي وهي ما تزال تشعر بأعضائها ثقيلة وبرأسها يدور. ثم سرعان ما فهمت أنه ليس مرضاً في البدن، بل في القلب.

وما أثار رعبها هو أن الحياة استمرّت كما لو أن شيئاً لم يحدث. لقد اعتادت أن تنفصل عن ابنتها وكان من الممكن أن يبدو كل شيء طبيعياً: فلم تكن تبكي في غرفتها الفارغة، ولا تتألم من غياب ضحكة طفلتها. من وجهات نظر عديدة، لم تتغير الأمور. ومع ذلك، فقد مضت الأسابيع وهي ما تزال ترزح تحت هذا الثقل. وتشارلي هو راحتها الوحيدة، ولكنه يحضّر بنشاط لموسم الجزّ وهي أيضاً لديها عمل يجب أن تقوم به، وثياب يجب أن تخيطها، ولكنها كانت تعاني من عدم القدرة على التركيز في أي شيءٍ كان. وخيالها يسبب لها رعباً. والآن، ولوسي في اسكتلندا، هل ستراها يوماً ما؟ إنها تدوّر المشكلة في رأسها على وجوهها كافة. ماذا ستكون مولي وهنري قد رويا للوسي بحقها؟ وكيف ستتمكن من انتزاع ابنتها من أبيها الذي تعبده؟ وإذا سافرت إلى اسكتلندا هل ستتحمل البعد عن تشارلي لزمن طويل؟ وأية آلام ستكابدها امرأةٌ بيضاء ورجل أسود إذا ما غامرا بالسفر معاً؟ وماذا سيحلُّ بالمزرعة إذا سافرا معاً؟

انتهى بها الأمر بأن فهمت بأنها محشورة، والغضب ينهشها. وهي تلوم نفسها: فلو أنها لم تطلب جلسة من أجل حضانة لوسي لما هربوا...

وأخيراً وصلتها رسالة.

حملها إليها تشارلي عندما أتى إلى الغذاء، في أحد الأيام الأولى من فصل الربيع وكان قد أمضى الصباح في جمع الخراف مع الكلاب. بيتر ومات لن يأتيا قبل أسبوع والجزازون يجب أن يصلوا بعدهما بأسبوع. كانت بيتي منشغلة جداً، وكان تشارلي يهتم بكل شيء.

ناولها الرسالة في المطبخ حيث كانت تعدُّ الطعام. مزّقت الغلاف بأصابع مرتعشة وفتحت الرسالة. قرأ تشارلي من فوق كتفها. وكانت بخط هنري وليس مولي:

عزيزتي بيتي،

لقد اشترينا بيتاً في غلاسكو ونحن نعيش فيه. لوسي مسرورة جداً بمدرستها الجديدة وكنيستها الجديدة. من الأفضل ألاّ تتصلي بها قبل شهر أو شهرين لكي تسمحي لها بالتركيز على علاقاتها الجديدة هنا.

اضطرّت إلى أن ترفع رأسها وتأخذ نفساً عميقاً قبل أن تتابع القراءة.

آمل أن تفهمي لماذا اتخذنا هذه الإجراءات القاسية. لقد واجهتنا معضلة: الحفاظ على مكانة ابنتنا في قلب الله أو تركها لتصبح شاهداً على ظلم. لقد قمنا بما يمكن أن يقوم به كلُّ أب محب في مكاننا.

من الواضح أن هذه الفقرة كانت بإملاءٍ من مولي. شعرت بيتي بموجة غضب تتصاعد بداخلها وأرعبتها فكرةُ أنها تستطيع أن تقتل مولي في هذه اللحظة بالذات دون أي وازع.

لقد كتبتُ عنواننا على ظهر الغلاف إذا كنت تريدين أن تكتبي للوسي، ولكني لن أعطيها أي من رسائلك إذا كانت تحوي ما يمكن أن يشتّتها.

جعّدت الورقة والغلاف ورمتهما أرضاً، فقال لها تشارلي وهو يلتقطهما:

– اهدئي، لا تفعلي هذا. سوف تحتاجين إلى هذا العنوان لكتابة رسالة إلى لوسي.

– لن أكتب إلى لوسي.

نظر إليها دون كلام. فأعلنت:

– سأسافر إلى اسكتلندا، وأقرع بابهم وأطلب أن يعيدوا إليّ ابنتي.

وافق ثم سألها:
- ومتى ستسافرين؟
- غداً. هذا الأسبوع. في أسرع وقت ممكن.
- موسم الجزّ سيبدأ بعد ثلاثة أسابيع.
- يمكنك أن تتدبر أمرك بدوني.
زمَّ شفتيه. فأضافت:
أنا لاتهمّني الخراف، ولا يهمني أي شيء: أريد أن أستعيد ابنتي.
وإذا لم تتمكني؟ وإذا لم يدَعوك تأخذينها؟
سوف أرغمهم.

ذاك المساء، رتبت أوراقها على أرض الصالون. وكانت المدفأة مشتعلة والمذياع يعمل. وكان تشارلي ما يزال يعمل في الخارج. وجدت جواز سفرها وحجزت رحلتها على سفينة مسافرة إلى لندن بعد يومين. من الآن وحتى ذلك الحين يتحتم عليها أن تُنهي حساباتها. من لندن سوف تسافر إلى غلاسكو وتنزل عند هنري قبل أن يُتاح له الوقتُ حتى للاحتجاج. كيف جرؤ؟ وبأي حق خطف ابنتها ويريد أن يقرر متى وكيف تستطيع بيتي أن تراها؟

انتهت قطعة الموسيقى التي تُبثّ من الإذاعة، ثم دوّى صوت المذيع هادئاً وحاراً. كان يخاطب رجلاً آخر، لكنّ بيتي لم تكن تسمع إلا بأذن واحدة. منذ شهر يدور الكلام عن ألمانيا التي تقوم بالعدِوان أكثر فأكثر. بدا ذلك كله وكأنه يحدث بعيداً جداً، وكأنه غريب جداً عن الحياة البسيطة التي تعيشها هنا في الطرف الآخر من العالم.

أدركت أن تشارلي قد نهض لكي يرفع صوت المذياع، فسألته بعد أن رفعت نظرها عن حساباتها:
- ماذا يحدث؟
- هل سمعت؟

هزّت رأسها.
عادت الموسيقى من جديد فقال تشارلي:
- لقد فاتتنا الأخبار: فقد غزت ألمانيا بولونيا.
لم تعترف له بيتي بأنها لا تعرف حقاً أين تقع بولونيا بل سألته:
- صحيح؟
هزّ رأسه وأجاب:
- أنت لا تفهمين: فإنكلترا متحالفة مع بولونيا.
غلى قلب بيتي وهي تسمع تشارلي يقول:
- نحن في حالة حرب يا بيتي.

توسّل إليها ألاّ تسافر. في الليلة الماضية ضمّها إلى صدره الحار بقوة طوال الليل. لم تنم إلا قليلاً، بل كانت تستيقظ باستمرار معذّبةً بالألم الذي سيصيبها لانفصالها عنه. على الرغم من كل شيء فقد صمّمت: سوف تستعيد لوسي وتعيدها إلى البيت، وسيشكّلون عائلة.

هي تعرف أن عدة تفاصيل في مكان ما، في أعماق كيانها، ليست سليمة في هذا الحلم، لكنها رفضت أنْ تعترف. فلكي تنطلق في هذه الرحلة يلزمها التصميم. وهي لا تستطيع أن تركز انتباهها على شيء آخر ولو دقيقة واحدة.

أنزلها على الرصيف بُعيد الظهر.
التفتت نحوه ونظرت مباشرة إلى عينيه وقالت:
- إلى اللقاء يا حبيبي.
ابتسم وقال:
- سوف تعودين قريباً. وسأشغل نفسي بانتظار عودتك.
وافقته والدموع في عينيها. ضمت جسدها إليه وتعانقا للمرة الأخيرة بحرارة وهُيام ثم همست في أذنه:
- أحبك.

- وأنا أحبك أيضاً، إلى الأبد.

حملت حقيبتها وأشارت إليه بيدها، وشيّعتْ بنظرها السيارةَ حتى اختفت عند المنعطف. في نهاية معبر طويل توجد سفينة ضخمة صدئة، لونها أحمر وأسود. النوارس تخفق بأجنحتها في السماء. والألواح الخشبية المغطاة بالطلاء تتشرّب رائحة المرفأ الحادّة. وإلى جانبها يوجد هناك كوخ خشبي صغير يستخدم كمكتب. يجب أن تقوم فيه بتثبيت الحجز ودفع ثمن التذكرة. دار رأسها حين فكرت بأنها ستصعد إلى السفينة، وتقوم بهذه الرحلة الطويلة جداً، وتترك هذه كلّ المسافة الباردة تفصل بينها وبين تشارلي. وُلد لديها انطباعٌ بأنها تبتعد أكثر فأكثر. ولوسي بعيدةً جداً الآن. والاثنان في مكانين متقابلين، وهي في وسط العالم.

دفعت باب المكتب فوجدته فارغاً. أجالت بصرها في الجوار فلم ترَ أحداً يُسرع إلى مساعدتها. حجبت غيمةٌ ضوء الشمس. جلست. أخرجت دفتراً وقلماً وبدأت تكتب رسالة إلى تشارلي. وقد كتبت فيها معاناتها خلال الأسابيع الماضية وبثّته مشاعرها بقوة. إنهم سيتزوجان، وسيتحدّيان رأي الآخرين لأن حبهما أسمى بكثير من اهتمامات هؤلاء الناس.

- مدام بلاكسلاند؟

رفعت رأسها وطوت الرسالة بسرعة في دفترها. رأت رجلاً يقف بالباب. ملامحه ناعمة بعكس حاجبيه الأسودين جداً. وقال لها:

- أنا آلان جيفسون. وقد تكلمنا على الهاتف.

نهضت وصافحته سائلة بصوت واثق لم يكن كذلك في الواقع:

- متى ستنطلق السفينة؟ أنا مستعجلَة لكي أجلس في قمرتي.

قال لها دون أن ينظر إلى عينيها مباشرة:

- أنا آسف يا سيدتي، فلن نتمكن من أخذك إلى لندن في نهاية المطاف، إنه الذعر. هذا الصباح و...

- لن تأخذوني إلى لندن؟ ولكني حجزت مكاني.

لقد تغيرت الأمور منذ ذلك الحين. فقد علمنا هذا الصباح أن الألمان قد فجروا سفينة مدنية بريطانية قرب الساحل الاسكتلندي: *أثينيا*، وكان على متنها نحو ألف مسافر.

ضمّ شفتيه وبيتي لا تعرف ما إذا كانت خائفة أم حزينة، ثم أضاف:

– نحن لا نعرف ماذا نفعل، إننا ننتظر الأوامر.

– ولكن... يجب أن أسافر. يجب أن أذهب إلى اسكتلندا. ومتى يمكننا أن نعرف؟ وإلى من يعود القرار؟

بدا مصدوماً فقال:

– سيدتي، إذن أنت لا تفهمين؟ إنك تُبحرين إلى منطقة الحرب. ونحن لا نعرف ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء الناس. إنك تخاطرين بحياتك. لقد مات مئات الأشخاص، ومن بينهم فتاة صغيرة.

فتاة صغيرة، مثل لوسي. وأخذت تبكي فقال لها الرجل وهو يناولها منديلاً أبيض:

– خذي، خذي. هذه الحرب الغبية تربكنا جميعاً. وسترين، فسوف تنتهي قبل عيد الميلاد. إنها زوبعة في فنجان. ولا تسافري منذ الآن وحتى ذلك الحين.

شكرته على منديله وغادرت مكتبه، حملت حقيبتها وعادت إلى الشارع. رفعت رأسها ونظرت من فوق الأبنية. القمة الضخمة لجبل ويلنغتون تشرف على المدينة التي تقسّمها الشمس والظلال. ماذا يجب عليها أن تفعل الآن؟

جرّت قدميها وحقيبتها إلى جميع الوكالات البحرية التي صادفتها، حتى تلك التي كان يعمل فيها هنري في الماضي. وفي كل مرة تسمع القصة نفسها: يجب أن ننتظر لنرى.

ولكنها لا تريد أن تنتظر لترى، بل تريد أن تتصرف الآن ما دامت تمتلك حتى الآن الشجاعة والغضب. إحباطها يتعاظم كلما مرّ النهار.

هائجةً صبّت جام غضبها على وكلاء السفر الذين يحاولون أن يحموا حياة طاقمهم في لحظة مرعبة من التاريخ.

عندما سمعت آخر رفض، كان الوقت قد تأخّر جداً على ركوب الحافلة إلى ليونيفورد. فكّرت أن تدفع لشخص ما لكي يوصلها إلى بيتها صباح اليوم التالي. حاولت أن تتصل بتشارلي هاتفياً، لكنه لم يرد. لا بدّ أنه في الخارج، ويستفيد من أنوار الغسق الأخيرة لكي يُدخل الخراف إلى داخلِ السياج ويجهّزها للجز. تفكيرها بتشارلي جعلها تبتسم. نامت باكراً نوماً عميقاً.

استدعى تشارلي الكلبين بصفرة وأطعم بيرش وسقاه وأعاده إلى البيت.

بدا له غريباً أن يكون وحيداً هنا، يذرع هذا البيت الفارغ جيئة وذهاباً. حتى وإن كانت بيتي ناعمة جداً، فإنها تملأ المكان بحضورها الحار، ومن دونها يبدو كل شيء بارداً.

ترك الغسقُ مكانه لليل. كان يخرج بقايا طعام من البراد حين سمع طرقاً على الباب. بفضول ذهب ليفتح.

رأى ستة وجوه تنظر إليه، وما من واحد منها يوجّه إليه نظرة ودية. عرف منها وجه فرانك هارو وزوجته تيلي، وشخصين عجوزين من البار ورجلين آخرين وجهاهما غير مألوفين. خفق قلبه بسرعة وسأل:

– ما هذا؟

سأل هارو:

– سيدة البيت أليست هنا؟

هزّ تشارلي رأسه بالنفي.

– لقد رأيناك تغادر المدينة برفقتها وتعود من دونها. فنحن نتساءل عمّا فعلت بها.

– لقد ذهبت في رحلة صغيرة.

سألت تيلي:

– إلى أين؟ وكم من الوقت ستبقى؟
– هذا يتعلق بها.
رد أحد الشخصين العجوزين:
– وهذا يتعلق بنا أيضاً إذا فكرنا أنك قد تخلّصتَ منها.
ففهم تشارلي أنهم سكارى. وفجأةَ، أدرك الخطر المُحدق به فحاول أن يغلق الباب. لكنّ هارو تدّخل واضعاً قدمه أمام الباب:
– لا، لا، ليس بهذه السرعة. إلى أين تذهب هكذا، أيها الأسود؟
أدرك تشارلي أن أي شيء يقوله لن يغير أي شيء ففضّل الصمت. لكن هارو قال:
– السيدة اختفت ولديك المزرعة لك وحدك. هل أنت متأكد من أنك لم تقم بأي شيء سيئ تجاهها؟
قال أحد اللذين لا يعرفهما:
– نحن نعرف جميعاً أنه قام بشيء سيّئ: فقد امتطى امرأةً بيضاء على سبيل المثال.
قال هارو:
– أرجوكِ أن تتكلم كلاماً لائقاً، فزوجتي موجودة.
سأل تشارلي:
– وماذا تريدون مني؟
– الأمر بسيط: أن تغادر الآن، ولن نسيء إليك.
وافق تشارلي فماذا يمكنه أن يفعل خلاف ذلك؟ وسوف يعود غداً سراً ويقوم بدورةٍ من الشمال. وفي المرة القادمة، لن ينسى أن يُغلق الأبواب بالمزلاج. إذا أراد أن يستمر في مراقبة المزرعة في أثناء غياب بيتي، فيجب عليه أن يبدو حذراً.
يبدو أن أمل هارو قد خاب، فربما كان يتمنى أن تحدث معركة. خرج تشارلي وأغلق الباب خلفه، شق طريقه بينهم وسار في الممر فأمطروه

بنكاتهم البذيئة، حتى المرأة. لم يصدق أن امرأة يمكن أن تنضم إلى مجموعة من هؤلاء، وفكر ببيتي، وبعذوبتها وجمالها.

بينغ! صدم رقبته شيءٌ ما قاس وثقيل. خارت ساقاه وطنّت أذناه طنيناً قوياً. كاد أن يفقد وعيه لكنه بقي صاحياً. سمع أصواتاً بعيدة، ثم صوتاً بجانبه، إذ قال هارو:

– في الغبار، فهذا مكانك أيها الأسود!

ضربه تشارلي بكل قوته بين فخذيه فهوى على ركبتيه بجانبه وهو مستمر في إطلاق شتائمه. ثم هوى على جسم تشارلي.

شعر تشارلي بالنصل لكنه لم ير شيئاً. أحسّ بألم مبرح. ثم ابتعد هارو متعثراً وهو ما يزال يشتمه. مرّر تشارلي يده على بطنه، وضغط على المكان الذي يؤلمه أكثر فعادت أصابعه مغطاة بالدم. ما يزال تائهاً ولم يتمكن من النهوض. رقد على ظهره ونظره نحو النجوم. ثم سمع صوت محرك سيارة. لقد ذهبوا. يجب عليه أن يصل إلى سيارة بيتي ويقودها حتى عيادة الطبيب. ولكن لم يعد لديه أية قوة ولم تعد أعضاؤه تستجيب له.

سمع من جديد صوت محرك. لقد عادوا. ضوء الفوانيس موجّه إليه وخيال رجل يقترب منه. فصاح:

– ساعدني!

انحنى الرجل فوقه. إنه ليس هارو، بل هو ليو سامبسون.

– تشارلي؟ أوه، يا إلهي!

ثم تراجع عندما رأى الدم. فكرر تشارلي بصوت بدا آتياً من بعيد:

– ساعدني!

– هل هم من فعلوا ذلك؟ لقد سمعتهم يتكلمون عنك في المقهى، ثم ذهبوا جميعاً فجأة فلحقت بهم.

كان يكلمه بصوت مذعور وهو يضغط على الكلمات.

– اجلب لي طبيباً يا ليو.

انحنى ليساعده على النهوض، لكنَّ ألمه كان لا يُطاق إذ صرخ:

- اتركني هنا! واذهب وائتني بطبيب بأسرع ما يمكن.
وكانت كلُّ كلمة من كلمات تشارلي أضعف من التي قبلها. أجابه ليو وهو ينهض:
- أنا ذاهب.
- ليو، إذا متُّ...
- لن تموت.
أضاف تشارلي بأقوى ما يستطيع:
- إذا متُّ فأرجوك ألاّ تقول لبيتي كيف حصل ذلك، لأنها ستشعر بالذنب.
- لكنَّ الشرطة يجب أن تعرف الحقيقة. ويجب أن تأخذ العدالة مجراها.
هزَّ تشارلي رأسه بنفاذ صبر وقال:
- ليس هناك من عدالة أبداً بالنسبة إلى رجل مثلي، وأنت تعرف ذلك.
- ولكن أنت تستحق أن تأخذ العدالة مجراها يا تشارلي، فأنت رجل طيب، بل من أفضل الرجال.
- عِدني فقط... عدني بألّا تقول شيئاً لبيتي، ولا لأحد... فأنا أريد بأي ثمن أن أجنّبها هذا الألم.
هزَّ ليو رأسه بهيئة رصينة وقال:
- نعم، نعم، أعدك بذلك.
ثم وضع يده على كتف تشارلي واستدار وركض نحو سيارته.
كانت النجوم تتأمل المشهد بصمت، وتشارلي يتأملها أيضاً، فقد شهدت ولادته، ورأته يعيش حبه العظيم، ومن الطبيعي تماماً أن تكون حاضرة الآن، في هذه اللحظة.

أنزلت السيارةُ بيتي في أول الممر. فمشت الطريق الترابي حاملة حقيبتها. منذ انطلاقها من هوبارت وهي تبكي، بصمت، على مقعدها الخلفي. إنها تأمل أن تكون قد اتخذت القرار الصحيح: بعد الحرب ستسافر لرؤية لوسي. وبانتظار ذلك سوف تخضع لقواعد هنري: سوف تكتب رسائل وترسل هدايا وتُجري اتصالات لمسافات طويلة، عندما يسمح لهما جهازهما بذلك. وبعد ذلك، عندما يُهزم الألمان، ولا يعود هناك خطر في السفر، سوف تسافر إلى هناك. وربما تركب الطائرة إذا كان محصول الصوف جيداً. وفي النهاية سوف تحاول أن تعقد معهما اتفاقاً معقولاً.

رأت سيارة ليوسامبسون واقفة في ممر بيتها. قطّبت حاجبيها ثم أسرعت للوصول إلى المدخل.

– تشارلي؟

ظهر ليو من الصالون. بدا وكأنه لم ينم طوال الليل، وقال:

– بيتي! لم أكن أعلم أين كنت.

– ألم يقل لك تشارلي؟

اقترب منها، أمسك بيدها وقال:

– تعالي واجلسي في الصالون.

سحبت يدها. تجمّد دمها خوفاً وصاحت:

– لا. ماذا حدث؟ لماذا أنت هنا؟ أين تشارلي؟

رطّب المحامي شفتيه فسألته من جديد وحلقها مضغوط:

– ليو؟ قل لي؟

– لقد حصل حادث.

لا!

امتقع وجهها، وارتفع صدرها، وصاحت:

– لا، لا، لا. ليس لتشارلي.

– بيتي، أنا...

- ماذا حدث؟

- أنا لست... أنا لست متأكداً. فقد أتيت لزيارتك ورأيت بيرش مُسْرَجاً وعنانه مجروراً على الأرض. وقد أوصلني إلى... ربما جفل الحصان من أفعى. وتشارلي كان...

نظرت إليه بجمود وهي ترجوه بداخلها ألاّ يلفظ الكلمة التي كان يوشك أن يقولها.

- أنا آسف يا بيتي، فقد مات تشارلي.

قالت متلهّفة:

- أين هو؟ أريد أن أراه، هل هو...؟

- جثمانه عند الدكتور مالكولم. ويجب ألاّ تريه هكذا يا بيتي. احتفظي عنه بصورة وهو حي.

هزّ رأسه وزم أنفه وأضاف:

- أستطيع أن أعمل على أن يدفن هنا، في فناء البيت، إذا أردت.

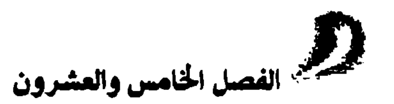
يُدفن؟ يُدفن؟ تشارلي تحت الأرض. سعت يداها للوصول إلى وجهها. وكانت شهقاتها قوية بحيث أنها تجمّدت في مكانها.

قال ليو وهو يحاول أن يحتضنها ليواسيها:

حقاً أنا آسف.

لم تقبل أن يطوقها بذراعيه، فهي لا تريد أن يحتضنها أحدٌ سوى تشارلي.

تراجع ليو فسقطت في أسفل الدرج واصطدم رأسها بزاوية إحدى الدرجات وبقيت صرخة محبوسة بداخلها. لقد فقد الزمن معناه. الدقائق. الساعات. فراغ. فراغ. أمامها: سنوات من الفراغ.



الفصل الخامس والعشرون

إيمّا

هبّ نسيمٌ حارٌّ على الأحراج أمام باب المدرسة ذي المصراعين. في البعيد أرى السفن في المرفأ، والأعلام الملوّنة ترفرف مع الريح. بينما كان باتريك ومارلون يحضّران التدريب، جلست على المقعد الخشبي الطويل لأستفيد من بداية فصل الصيف، والسماء الصافية، والشمس الدافئة على العشب وعلى الماء. السيارات تُنزل الأطفال الواحد تلو الآخر. أتى بعضهم وحيّاني بعناق، وقد أربكتني عفوية عاطفتهم. مينا هي آخر من وصلت بسيارة والدها اللكزوس البيضاء. ترجّلت منها، أغلقت الباب، ثم انطلق. ذهبت للقائها في المرآب. كان شعرها الأسود مشدوداً إلى الخلف، ومسرّحاً على شكل ذيل حصان، وخداها الأحمران يتناقضان مع شحوب وجهها.

قلت لها:

– صباح الخير، مينا.

– هل عدتِ؟

– نعم، سأعلّمك قليلاً من الباليه.

ابتسمت ابتسامة عريضة وسألتني:

– صحيح؟

وبيدها الحارة والناعمة أمسكت بأصابعي وضغطتها بقوة وسألت:

- بحيرة *البجع*؟

- بل *كسارة البندق*، هل تعجبك؟

وافقت دون أن تترك يدي ثم دخلنا.

بينما كان مارلون يبدأ تحمياته المعتادة، انعزلنا، مينا وأنا، في غرفة أخرى مع قارئ أقراص مدمجة وموسيقى *كسارة البندق*. استغرقت لحظة لتدرك أنها انفصلت عن المجموعة، ولكن بعد أن فهمت أسباب اختياري، انبرت للمهمة بحيوية. يجب أن أعترف بأني فوجئتُ كثيراً وارتبكتُ كثيراً بالطريقة التي اتبعتْها لتعلم الحركات. ودُهشت أيضاً بالموهبة التي أخذتْ تكرّرها بها. رأيت جمالاً حقيقياً لديها. ومع ذلك فبعد نصف ساعة تقريباً رفعَتْ الراية البيضاء، وتوقّفت فجأة وسط إحدى الحركات تماماً، ثم قالت:

- سوف أكمل التعلّم فيما بعد.

احتجتُ إلى ثانية لأتكيّف مع الموقف. وددت أن أقول لها: "لن تتعلمي أبداً إذا تركت الحركات بهذه السهولة." ولكنني قسرت نفسي وتذكرت أنها ليست راقصة باليه، بل هي فتاة صغيرة منغولية. وخرجَتْ منها بنجاح، بل قلت لها:

- لقد مثّلتِ جيداً. إنها بداية جيدة. وسوف تكونين أجمل قطرة ندى رآها الناس في حياتهم.

أمسكت بيدي وهزّتها في الهواء وسألتني:

- والآن، هل أستطيع العودة إلى الآخرين؟

شاهدتُ بقية التدريب وأنا جالسة مع الفرقة. عملياً، نظرت إلى ظهر باتريك أكثر من التدريب. كان يقف منتصب القامة وكتفاه مربعتان ومرسومتان جيداً. لقد كان جوش يمارس الكمال الجسماني، فقد بنى جسمه كناقل للأثاث بينما كان يُمضي نهاره كله في مكتبٍ أثقل أداة فيه

كان يحملها هي جهاز البلاك بيري. لأول مرة بدا لي هذا التفصيل سخيفاً.

في نهاية التدريب اضطررنا، باتريك وأنا، إلى الانتظار عشرين دقيقة، خارج المدرسة، لأن والد مينا تأخّر في المجيء. أريتُها من جديد الخطوات على العشب، ولكنها عانت في التركيز دون موسيقى فتركتها بسلام. وصلت اللكزوس أخيراً وأطلق والدها بوقه فابتعدت مينا إلى المرآب وهي تحيينا تحية سريعة:

– إلى اللقاء.

سألت باتريك بصوت خافت:

– ألا يأتي أبداً لمشاهدة التدريبات؟

– أبداً.

– ولا إلى العروض؟

– أبداً.

صُفق الباب وانطلقا. فأطلقت بين شفتي كلمة "سخيف!"

زفر باتريك وقال:

– لا أحد يعرف ماذا يحدث في هذه العائلات، فمن الأفضل عدم إطلاق الأحكام عليها.

– وهل لديها أمٌّ؟ وأخوة وأخوات؟

– أمها ماتت وهي صغيرة. وليس لديها أخوة ولا أخوات.

دوّرت هذه الفكرة في رأسي لحظة، ثم سألني باتريك:

– هل أنت جائعة.

أجبته قبل أن أُدرك مغزى سؤاله: غذاء لاثنين:

– لا، أقصد، نعم، قليلاً. إذ يجب أن نأكل في النهاية. هل تريد أن نتغدّى في مكان ما؟

– إذا شئت.

– بكل تأكيد، ولم لا؟

أجبت وأنا أتساءل ما إذا توصّلتُ إلى أن أبدو شخصاً غير مبال.

دخلنا إلى سناك ـ بار في ساندي باي. المقهى مخيِّبٌ، ولكن معي الوقت الكافي لتأمل باتريك ـ لقد عانيت في تصديق أني تمكّنت ذات يوم من إيجاده أكثر أهمية من كونه رجلاً جميلاً. في الواقع، إن لديه وجهاً جذاباً جداً، وبصورة خاصة، إن له عينين خضرتُهما نادرة.

سألني بعد أول جرعة من القهوة:

– كيف جرت الأمور مع مينا؟

– لقد كانت رائعة، ومركّزة جداً. وأنا لا أعتقد أنها تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك.

– الأطفال جميعاً مختلفون. لديهم قدرات متنوّعة جداً. وأنا لا أستغرب شيئاً يقومون به.

ابتسم ثم أضاف:

– إذن، هل أحبّت رقصتها الجديدة؟

هززت رأسي وقلت:

– إنها باليه حقيقية.

– إن الرقصة التي أريتِني إياها عبقرية.

شعرت بقليل من الانزعاج وقلت:

– إنها مبسّطة جداً. لقد كانت قطرة الندى أول دور ألعبه. وكانت صعبة جداً في الواقع.

أدركت أني أتباهى بنفسي، ولكني لم أستطع الامتناع عن ذلك، فأنا أريد أن يعرف أني كنت موهوبة حقاً. لكنْ هذه الرغبة اليائسة في التأثير فيه جعلتني حزينة فسكتُّ.

تركني أتلظّى هكذا في صمتي لبضع لحظات، ثم قال:

– إيمّا، لقد رأيتُك ترقصين.

– صحيح؟

- مونيكا لديها DVD. وقد كنتِ بطلتَها عندما كانت مراهقة. والناس جميعاً يعرفونك بسبب الصلة التي كانت تربط جدتك بهذه المدينة. وبائع الجرائد ما يزال لديه بعض أقراص الـ DVD المخزّنة. وقد رأيتك ترقصين *جيزيل* مئة مرة.

أشعَعْتُ زهوًا وقلت:

- أنا أجهل تماماً أن مونيكا من معجباتي.

- لقد حلّفتني يميناً بألا أقول لك شيئاً. فهي تخشى أن تعدّيها مجنونة.

انفجرت ضاحكة وسألت:

- هل كانت تريد أن ترقص؟

- حاولتْ لبعض الوقت عندما كانت صغيرة، ولكنها لم تكن موهوبة، بل هي عصا مخلعة مثلي.

وأضاف وعيناه على فنجان قهوته:

- أنت ترقصين رقصاً في غاية الروعة.

صحّحتُ له قائلة:

- كنت أرقص، في الماضي.

ثم تذكّرت جسمي الذي تغيّر وعضلاتي التي ذابت كثلجٍ تحت الشمس.

فقال معتذراً:

- أنا آسف، لم أكن أقصد أن أثير شجونك.

قُدِّم لنا الغذاء فتوقّفنا عن الكلام عني - شعرتُ بارتياح وخيبة في آن واحد. فقد كنت أرغب كثيراً أن أسمع إلى أية درجة كنت أرقص بشكل جيد سابقاً، وخاصة من فمه. ومع ذلك، إن التفكير في ذلك يسبّب بداخلي حزناً حقيقياً مثلما يفقد الإنسان شيئاً ولا يجده أبداً.

بعد الغذاء أنزلني باتريك في البيت ووجدت نفسي وحيدة، بلا عزاء، مع إحساس بالرغبة ملتصق ببطني. ولكنّي لا أعرف حقاً ماذا أشتهي.

احتفظت جدتي بكل الكروكيات وبباترون لكل قطعة ثياب خاطتها. وهي موجودة كلها في قطعة أثاث ضخمة في الوكالة المركزية لبلاكسلاند وول، شمال سيدني. وقد عُرضت مرة بعد مرة في بهو البناء، في واجهة، تحت إنارة بيضاء. وبالتالي فإن آخر شيء كنت أتوقع أن أجده في الكراتين هو هذا الباترون على الورق الشفاف.

أفرغت بنشاط كرتونة بدت أنها لا تحوي سوى روايات لجورجيت هاير وقد تركت عليها الصراصير آثارها. وكان ذلك في وقت مبكّر من أحد أيام الآحاد، فقد استيقظت مع النعقات الأولى للغربان. أيقظني حلمٌ من نومي. كانت أمي حاضرة، ولكنها لم تكن أمي. ومدٌّ هائل يتحضّر ويجب عليّ أن أجد صورة في كرتونة لكي أثبت هويتها قبل أن تأخذها الموجة العملاقة. استيقظت لحظة ادلهمّت السماء مع وصول هذا الجدار الهائل من الماء.

هذا الحلم صدّع رأسي.

لهذا السبب أنا هنا، أُخرج من كرتونة هذا الباترون المطوي طية واحدة، والذي سينضم قريباً إلى بقية مجموعة سيدني. فتحته فأدركت أنه رُسم لطفل، بنت صغيرة، وهو عبارة عن فستان صغير.

دفعني الفضول إلى متابعة التفتيش. وفي أسفل الكرتونة أخرجت أحد عشرة باتروناً آخر على الورق الشفّاف المتشابه. إنها ثياب أطفال فقط: قمصان وتنانير وفساتين.

لم تصمِّم جدتي ملابس للأطفال قطُّ، بل اشتهرت بموديلاتها المخصَّصة للنساء العاملات. بسطتُها أمامي وتأمّلتُها طويلاً. من المؤكد أنها قد صمَّمت هذه الباترونات لإحدى جاراتها، أو صديقاتها، أو... ومع ذلك فإني لم أكف عن التفكير في الفتاة الصغيرة التي في الصورة. هل كانت هذه الباترونات لها؟ ومن هي؟

تردّدت للحظة في الاتصال بأمي لكي أسألها —فقد تستطيع أن توضح لي هذه المسألة في خلال بضع ثوان. لكني عدلت عن الفكرة: إذا كان

لجدتي أسرة أولى سراً، فإن أمي سوف يُقلَب كيانها عندما تعلم ذلك، ولن تلبث أن تأتي إلى هنا.

طويت الباترونات بعناية ثم وضعتها على البيانو. عليَّ أن أقبل ألّا أفرّغ بعد الآن هذه الكراتين فقط من أجل اكتشاف قصة جدتي: فقد أصبحت منذ الآن أبحث عن أدلّة. أمضيت زمناً مضاعفاً في ذلك، وأخذت أتفحّص كلّ ورقة وكلّ رسالة وكلّ دفتر حسابات. كما تفحّصتُ فواتير قديمة تخصُّ شراء خراف، وبيع صوف، أملاً في أن أجد قرينة. بلا جدوى. ولكني تابعت البحث.

ذاك المساء نفسه، اتصلت بي أمي المزوّدة بحاسة سادسة شبه خارقة لكي تسألني عن أخباري، فقالت:

– كنت أظن أنك ستعودين إلى البيت اليوم.

– ألم تذهبي إلى المطار لاستقبالي؟

– لا، لكني غيرت شراشف سريرك.

شعرت بأني مذنبة. على أية حال، لديّ صلةٌ، في أغالب الأحيان، مع عقدة الذنب عندما يتعلق الأمر بلويز بلاكسلاند –هنتر فقلت لها:

– سوف أبقى بضعة أسابيع أخرى، وربما ستة.

بدت مرعوبة وهي تسألني:

– ولكن كم كرتونة بقي لك لتفرزيها؟

– أنا أبطأ مما كنت أتخيل، ثم إني أحب أن أكون هنا، عملياً. وقد اتخذت أصدقاء، وسوف أعود في عيد الميلاد، هذا مؤكد.

– سيكون هذا رائعاً، أول عيد ميلاد نمضيه معاً منذ زمن طويل.

– ماما، هل يمكنك أن تُرسلي إليّ أشيائي من فضلك؟ ما جلبته معي من لندن.

كنت أقصد حاسوبي وهاتفي المحمول، بالإضافة إلى ذلك فأنا لم أجلب معي إلى هنا سوى بناطيل جينز وتيشرتات.

تناقشنا لبعض الوقت، ثم تجرّأتُ وطرحت عليها سؤالاً بكل حماقة:

– ماما، ماذا تعرفين عن حياة جدتي في الفترة التي عاشتها هنا؟

– كانت تدير مزرعة الخراف. وكانت تُجري الحسابات ولكنها كانت تذهب أيضاً إلى الأرض لجمع المواشي. أنا لم أكن أصدقّها لو لم أراها بأم عيني، ممتطية حصاناً، في أحد الأيام، في مزرعة أحد الأصدقاء. وكانت آنذاك في الخمسين من عمرها، وكانت تركب الحصان بكل ارتياح.

– هذا جنون.

– لقد كانت جذّابة.

وشعرت بابتسامة من خلال صوت أمي. ثم سألتها:

– ولا شيء آخر؟ هل كان لديها أصدقاء؟ أصحاب؟

– أشك في ذلك يا ابنتي. فلم يكن لديها وقت لذلك. بالإضافة إلى هذا فإن جدك هو أول حب لها.

– حقاً؟ فقد كانت في الثلاثين عندما التقت به.

تلا ذلك صمت قصير كانت أمي تحملُ سره. صمت للحساب أكثر منه للتفكير، ثم سألتني:

– ولماذا تطرحين عليَّ هذه الأسئلة؟

أجبتها وأنا عاجزة عن تقليد لامبالاتها– فقد قرأت لعبتي بوضوح.

– لا لشيء.

– إيم، إذا كنت تعرفين شيئاً ما، أنا...

– أنا لا أفهم ما تقصدين.

– إذن فلماذا تسألين عن ماضي جدتك؟

– لأني هنا في بيتها الكبير والقديم، وأتساءل فقط ما إذا كان أناسٌ آخرون يعيشون معها، وما إذا كانت تشعر بأنها وحيدة.

– هل تشعرين بأنك وحيدة؟ هل تريدين أن آتي إلى عندك؟ هل أنت بحاجة إلى مساعدة لفرز الكراتين؟ جدّياً أقول، يجب ألّا تبقي زمناً

طويلاً هناك، فمكانك هنا في سيدني معنا. ستسير الأمور بشكل أسرع إذا أتيتُ لمساعدتك. وأستطيع أن أركب الطائرة غداً لكي أجلب إليك أمتعتك بالمناسبة.

أنا أعرف تماماً تقنياتها في الإقناع، فقد خبرتُها مئات المرات في لندن. فقلت لها:

لا يا ماما، لا بأس. أرسلي إليّ أمتعتي فقط، فأنا أحب أن أمضي بعض الوقت وحيدة، فهذا سيتيح لي أن أفكر، وأنا بحاجة إلى ذلك. لا تأتي.

أرجوك الاّ تأتي.

وعلى الرغم من كل شيء، فقد خمنَتْ شيئاً ما. كان من الأفضل لي ألّا أقول شيئاً. أو على الأقل الاّ أقول لها هي. وربما أنجح في معرفة ذلك إذا تعاملت مع خالي مايك كما يجب.

وجب علي أن أنتظر حتى يوم الخميس التالي لكي أتلقى أشيائي. سألتني مونيكا بينما كانت شاحنة البريد تسير في الممر:

– ما هذا؟

– أشيائي، وملابس وأشياء أخرى أتيت بها من لندن.

فتحت العلبة الأولى وأنا أجثو بحذر.

– إذن، ستقيمين هنا؟

– ليس بالضبط.. أقصد نعم، لبعض الوقت.

أخرجت ملابسي وبسطتها إلى جانبي على الأرض، في المدخل.

– دعيني أحضّر لك غرفتك الرئيسة. خذيها، فهي الأجمل.

هززت رأسي وقلت:

– كل الغرف جميلة، وأنا مرتاحة حيث أنام. آه، ها هو حاسوبي: فقد كنت أقول لنفسي ربما كان بوسعي أن أتصل عبر الإنترنت.

فاقترحت عليّ:

- هل أستطيع أن أتصل بشركة الهاتف؟
- سيكون هذا عظيماً.
وجدت هاتفي المحمول، فارغاً تماماً. بحثت كثيراً عن الشاحن، عبثاً. فأنا لا أتذكر أني أتيت به من إنكلترا. لا بدّ أنه ما يزال موصولاً بأحد الجدران هناك.
أخذت مونيكا الهاتف من يدي وقالت:
- أنا سأهتم به.
ابتسمتُ لها، وتذكّرتُ ما قاله لي باتريك: إعجابها وهي مراهقة، فقلتُ لها:
- أنتِ رائعة يا مونيكا، كان يجب عليّ حقّاً أن أتعلّم هذه الأشياء بنفسي. ولكن لطالما كان لديّ مساعِدة، فلم أنظّم نفسي، ولم أفهم كيف يمكن أن تعمل هذه الأشياء. كنتُ أرقص وحسب.
- وهذا جيد أيضاً.
- من ناحية، نعم. ومن ناحية أخرى، أشعر أني لا أنتمي إلى العالم. وقد كان هذا أكثر صعوبة بالنسبة إليّ حين حصل لي الحادث.
سمعت أزيز الإبريق في المطبخ، فقد كانت مونيكا قد وضعت الماء ليغلي قبيل وصول سيارة البريد. فسألتني:
- أنا ذاهبة إليه، شاي أم قهوة؟
- قهوة بكل تأكيد.
كان باب المدخل ما يزال مفتوحاً فتسلّق شعاعُ شمس عريض حتى ركبتيّ وأنا أفضُّ الكرتونة. في تلك اللحظة مرّ سربٌ من الكتوّة[1] مطلقاً صيحات حادّة ثم ران الصمت من جديد. بتُّ أحبُّ الصمت أكثر فأكثر، ولاسيما ألاّ أسمع أصوات السيارات.

---

[1] نوع من الببغاوات الكبيرة الحجم.

وجدتُ في العلبة كيساً بلاستيكياً يحمل شعار بلاكسلاند وول. وفي الداخل كان يوجد تاجي الذي وضعتُه في بحيرة *البجع*، ذلك الذي طلبت من أبي أن يرميه. بكل تأكيد لم يكن أبي موهوباً قط بطاعة الأوامر - فالسنوات التي أمضاها في تسلط أمي أعطته كل المناعة. عادت مونيكا وبقينا جالستين أرضاً نشرب قهوتنا. قلت لها أخيراً:

– تصوّري، حياتي كلها مجموعة في أربع كراتين، بينما حياة جدتي تملأ بيتاً بأكمله. فماذا يمكن أن يعني هذا.

– لا شيء، فحياتك مختلفة.

في العلبة الثانية وجدت صورةً لي ولجوش في إطار متعرج، ولم أكن قد استعددت لها حقاً. أخرجتها ببطء إلى ضوء النهار. فسألتني مونيكا:

– من هذا؟

استغرقتُ لحظة قبل أن أتمكّن من الرد:

– إنه جوش، السابق

– السابق؟

– نعم، بيد أني لم أشأ أن يصبح السابق، فقد تركني قبيل الحادث.

– أما زلت تحبينه؟

كان هناك علامة استنكار في صوتها. رفعت رأسي فرأيتها تمعن النظر إليّ، فقلت:

– حسنٌ، نعم. ربما. فهو ما يزال في رأسي.

ولكني بدأت أنساه، أنسى الطريقة التي كان يتغير بها وجهه عندما يبتسم، أنسى رائحة جلده عندما يخرج من تحت الدوش، أنسى صوت ضحكته...

لم تقل مونيكا أية كلمة، فتساءلت عمّا يمكن أن يكون قد أزعجها. شربنا قهوتنا بصمت. أخرجت جوائزي في الرقص. لم تكن أمي انتقائية: فقد أرسلت إليّ أشيائي كلّها.

سألت مونيكا:

– هل تعرفين أين يمكن أن أضع هذه الأشياء كلها؟

هزت كتفيها وقالت:

– حقاً لا أعرف.

– لطالما كان لديك أفكار جيدة.

نهضت وهي تقول بصوت جاف:

– سوف أنظِّف المطبخ.

انتقل نظري من صورة جوش على الأرض إلى مونيكا. يبدو أنها شعرت بالغيرة. وعندها فهمت. لقد كانت غيورة جداً: من أجل أخيها. لم أكن أعرف ماذا أقول، فسكتُّ. كنت موزعة بين رغبتي في طمأنتها ورغبتي في ألّا أكذب عليها، فأنا ما أزال أحب جوش. على الأقل هذا ما أعتقده. لم أتطرّق إلى هذا الموضوع معها. فتظاهرت بعدم ملاحظة غضبها.

ومع ذلك فإني لمت نفسي لأني سِرتُ بعكس غريزتي، بأن أصبح صديقة للناس هنا. فالناس جميعاً معقّدون وعصاة على التوقع. وأنا منهم.

أعرف أني إذا انتظرت حتى الساعة العشرين من يوم السبت لكي أتصل بخالي مايك ستكون لدي فرصة الالتقاء به وهو يشرب. إنه يعبد البيرة، ولكنه يجتهد في ألّا يشرب إلّا في العطلة الأسبوعية.

خالي مايك يعيش بمفرده، فقد تركته *تانت نونا* عندما كنت صغيرة، ومنذ ذلك الحين صار لديه مجموعة من «الصديقات» دون أن يرتب أموره مع إحداهنَّ.

قلت له حين رفع السماعة:

– خالي مايك؟ أنا إيمّا.

– ابنة أختي المفضّلة. أنا أشرب بعض الكؤوس، تعالي واشربي معي؟

– أنا في تاسمانيا.

– أما زلتِ هناك؟ لم تُخبرني لويز.

– الأشياء التي يجب أن أقوم بها من أجل ترتيب هذا البيت أكثر مما ظننت.

– يجب أن تستأجري أحداً ما ليقوم بذلك بدلاً منك، وتبيعي المزرعة وتستخدمي هذا المال لكي تشتري شقة صغيرة في سيدني. أنا أخرج مع امرأة تعمل في مكتب عقاري ويمكنها أن تساعدك على إيجاد مكان.

تركته يتكلم ويمنحني نصائح لبعض الوقت لكي أحضّر الأرض. أنا أحب خالي كثيراً ولكنه شخص رهيب إذ يدّعي معرفة كل شيء. أنهى كلامه ليأخذ نفساً طويلاً فانتهزتُ هذه الفرصة الثمينة لكي أتدخّل قائلة:

– قل لي يا خالي، ماذا تعرف عن حياة جدتي هنا في تاسمانيا؟

الخراف.

– وبالإضافة إلى ذلك، أقصد حياتها الخاصة. هل كانت تعيش وحيدة؟

– سمعت حفيفاً فافترضتُ أنه يحكُّ ذقنه السيئ الحلاقة: علامة جيدة. فهو يقوم عادة بهذه الحركة عندما يتأهب لإفشاء سر يجب أن يحتفظ به، فقال بحذر:

– حسنٌ، لا أعرف حقاً. ولماذا هذا السؤال؟

– لقد وجدت بعض الأشياء في الكراتين وأتساءل ما إذا كان لديها صديق... أعز من صديق آخر.

– اسمعي، أنا لا أستغرب هذا. ولم أحصل على تأكيد له من قبل، ولكن عندما كنت في سن السادسة عشرة تقريباً، أنصتُّ وفوجئت بخلافٍ دار بين جدك وجدتك.

– و؟

– أتذكر أن جدك قال لها: «أنت تخفين عني شيئاً ما يا بيتي» فلم تجبه. وبعد ذلك قال: «مهما فعلتِ في الماضي، إذا كان من شأنه أن يؤثر في علاقتنا، يجب أن أعرفه». لكنها لم تقل شيئاً. لم ترد بأية كلمة.

فقلت وقد أجّجت هذه القصة فضولي:

- حقاً؟

- لا أتذكر الكلمات بالضبط، ولكن بكل تأكيد كانت قد خبّأت عنه شيئاً ما حول ماضيها الذي كان يُقلقه. كان متوتراً في تلك الفترة. وكان ذلك قبيل انتخابات عام 1966 تماماً، ثم حصل على مقعده بأغلبية ضعيفة. وصار حديث الناس في تلك السنة.

- إذن، ماذا كان يريد أن يقول، برأيك؟

لا أعرف كثيراً يا إيم. في وقت مبكر من تلك السنة كانت أمي قد ابتعدت عنه لبعض الوقت. فقد ذهبت بمفردها إلى تاسمانيا. لم يقل لنا أبي ماذا يحدث، ولكننا فهمنا، أنا ولويز، نوعاً ما أنهما يقومان باستراحة. ثم عادت، وبدا أنهما قد تصالحا، وسارت الأمور جيداً. على أية حال، حقاً أنا لم أفكر في هذه المسألة منذ ذلك الحين.

دوّرتُ هذه المعلومات في رأسي: جدي الذي كان يتّهم جدتي بأنها تخفي عنه أسرار ماضيها. وصورة فتاة صغيرة بين ذراعيها وسلسلة من الباترونات لملابس طفلة. عشيق. ومزرعة ممنوحة مجاناً من نبيل إنكليزي صغير. لأول مرة أدركت أني لا أدع نفسي أذهب إلى مضاربات صرفة. فقد كانت جدتي تُخفي شيئاً ما عن ماضيها في هذا البيت، ولكني لم أتمكن من جمع قطع اللوحة التركيبية كلها.

الفصل السادس والعشرون

الأيام الجميلة أتت: السماء الصافية والنقية، والشمس، ونسائمُ حارّة، وأزهارٌ بريّة في كل مكان، حتى بدا بقائي منعزلةً في البيت جريمة. مرّ باتريك ليأخذ بعد الأشياء إلى المكبّ، وليساعدني على نقل بعض الكراتين التي لم تُفتح بعد إلى قاعة المدخل التي تُستخدم كمستودع. كان متوتّراً، ففسّر ذلك بأن المدرسة سحبت منهم حق الدخول إلى المدرسة في الأسبوعين القادمين، وأن فرقة «الخطميات البرية» سوف يكون لها زمن أقل بكثير من أجلِ التدريب على العرض. ومع ذلك فقد تساءلتُ ما إذا كانت مونيكا قد كلّمته وأنه لا يريد أن يلتقي نظرُه بنظري لأنه عرف أني أحبّ شخصاً آخر.

انتهينا تقريباً من ترتيب البيت، فصار في حالة تؤهّله للبيع، وبدا وكأنه مسكون. كانت مونيكا تنظّف كوخ الجزّازين، وما يزال هناك بضع كراتين في الغرفة الأمامية، ولكني وضعتُها جانباً لأفرزها عندما يأتي المساء، أما الآن، فسوف أتفرّغ لصيانة الحديقة.

بدأتُ بالممرات أمام مدخل البيت. أنا لا أملك أية موهبة في البستنة، ولكني كنتُ أراقب جوش وهو يعتني بنباتاته على سطحنا فتعلّمتُ بعض المبادئ. اقتلعتُ الأعشاب الضارّة وقلّمتُ الأشجار تحت الشمس الحارقة

دون أن أفكّر بشيء لساعات طويلة، فتكوّمت خلفي نفايات خضراء، وأسفتُ لأني لم أرَ هرّاً أو كلباً ممدّداً في الممر، تحت الشمس، ليرافقني. سمعت الهاتف يرنّ في مكان ما في البيت، ولكني لم أعد أستطيع الإسراع للرد عليه، بسبب ركبتي الجريحة، فتركتُه يرن.

كنتُ أنوي أن أُغير على قطع الخشب الموجودة تحت شجرة السنط حين انعطفت سيارةٌ ودخلت إلى الممر. انتصبتُ، ومددتُ ساقي، فتعرّفتُ إلى سيارة بينيلوب سايكس. زيارة أخرى مفاجئة! أم أنها هي التي اتّصلت للتو؟ سرعان ما شعرتُ بالخجل: فلماذا أتخيّل دائماً أن نوايا الناس سيئة؟ ولماذا بات من المستحيل عليّ أن أبدو دمثة ولطيفة؟ فقسرتُ نفسي وقلت لها وهي تترجّل من السيارة:

– صباح الخير!

ابتسمت لي بحذر ثم اقتربت مني وقالت:

– حاولتُ أن أتّصل بك...

– كنتُ سأشرب الشاي، فهل تشاركينني؟

– لن أبقى.

صمّمتُ على أبقائها، وإعطائها انطباعاً أفضل، فقلت وأنا أحتضنها:

– أنا مُصرّة.

قبلت أن تدخل معي، وجلست إلى الطاولة بينما أخذتُ أحضّر الشاي.

قالت وهي تضع كتاباً على الطاولة:

– لديّ شيء من أجلك. كنتُ أرتّب كل دفاتر الحسابات التي أعطيتِني إياها في ملف «ما قبل الحرب»، وقد وجدتُ هذا، وفي الواقع، كنتُ قد نسيتُ أنه عندي.

تناولت الكتاب. كان مطبوعاً على ورق سميك ولامع، وغلافه غير متقن، ومنشور على نفقة المؤلّف، وعنوانه *حياة امرأة ورعة*.

قالت وهي تضع بحذرٍ الحليب في فنجانها:

– وهو مملّ أكثر مما يبدو. ولكن عليك أن تقرئي الصفحات التي وضعت عليها علامة.

– وعمّ يتحدث؟

– المؤلفة امرأة تُدعى باميلا ليسي، وخالتها مرغريت داي كانت قد عاشت في ليوينفورد بين عامي 1929 و1945، وكانت تدير صحيفة وقبل وفاتها، أعطتها لابنة أختها. وقد جعلت منها ابنة أختها سيرة ذاتية، فيها ما يشبه الرواية. ومن المؤكّد أن الأسماء قد تغيّرت من أجل الغُفل....

عندها رفعت حاجبيها بطريقة ملحوظة، ثم قالت:

وقد تصفّحتُه مع قصة جدّتك... اسمعي، أنا لا أعرف، ولكن في هذا الكتاب شخصية يمكن أن تكون مستوحاة من بيتي. اسكتلندية شابة أتت إلى هوبارت، فقيرة، معدمة، وفي النهاية حصلت على مزرعة كبيرة للخراف.

انتابني غضب مفاجئ وقلت:

– نعم! إنها بيتي بلا شك.

لا أستطيع أن أقول لك أية تفاصيل من القصة قد اختُرعت أو لا يا إيمّا، وباميلا ليسي لم تعد هنا لتجيب على أسئلتنا. وإذا كانت بيتي هي المقصودة، فما هي إلا شخصية ثانوية... تتكلّم عنها في صفحات قليلة.

ثم أراحت ظهرها إلى مسند الكرسي وأضافت:

– وأنا أخبرك سلفاً بأنها لم تجعل منها شخصية جديرة بالمديح.

الآن ندمتُ لأنني شجّعتُها على البقاء، فقد نهشتني رغبةٌ عاتية في أبدأ بقراءة هذا الكتاب مباشرة. وعلى الرغم من هذا فقد تكلّمنا عن البيت وعن مشاريعي، وعن الطقس، ثم ذهبت. شيّعتُها حتى السيارة وأنا أتأبّط الكتاب بقوة. ثم وجدتُ لنفسي زاوية تحوي أعشاباً مجنونة بين أشجار

الحور. اشتدّت الريح وأخذت الغيوم تتسابق في السماء. بدا العالم كلّه متحركاً، لكني بقيت جالسةً، جامدة، أقرأ.

«الاسكتلندية الشابة، كما تُدعى، وصلت ذات مساء مبلّلة حتى العظم، مع طفلة صغيرة جداً صهباء الشعر، تطلب مساعدة». لا يوضح الكتاب ما إذا كانت الطفلة بنت بيتي أم لا. ولكن والد الفتاة أتى ليأخذها بعد صفحتين، في حين أن المرأة قد لا تكون أمها. أو أنها كانت كذلك. تورّطت الاسكتلندية بقضايا كحول ومخدرات ومقامرة، ومجالس فجور (لم تستخدم المؤلفة اللفظة الأخيرة بالذات، ولكنها أحالت إلى «أسوأ العلاقات التي يمكن تخيّلها بين أشخاص بالغين»)، ثم تمكنت من إقناع صاحب مزرعة محلية بأن يبيعها إياها مقابل ثمن زهيد.

على أية حال، لقد أخطأت المؤلّفة حول هذه النقطة: فبيتي لم تأخذ المزرعة بمبلغ زهيد، بل مجاناً.

لا أعرف ماذا أفعل بهذه المعلومات. وكان أسلوب الكتاب سيئاً جداً وأخلاقياً، بحيث بدت الأحداث غير واقعية. ومع ذلك فقد تساءلتُ ما إذا كان الرجل الذي أعطى المزرعة لبيتي هو الرجل نفسه الذي خاطبتْه في رسالتها، ولكن التواريخ غير متوافقة: فرافائيل بلاكسلاند عاد إلى إنكلترا عام 1934. والرسالة الملتهبة كانت قد كُتبت بكل تأكيد عام 1939. فهل كان لجدتي أكثر من عشيق؟ وهل الطفلة الصغيرة التي في الصورة هي ابنتها؟ ومن هو الرجل الذي أتى ليستردّ الفتاة الصهباء؟ كنتُ أريد أن أعتقد، مثل أمي، أن جدي هو أول رجل في حياتها. الوحيد.

ولكن الخطأ الأسوأ الذي يمكن أن نرتكبه حول الأشخاص المسنّين هو أن ننسى أنهم كانوا شباباً، ذات يوم.

أعدت قراءة الصفحات السبع عدة مرات بحثاً عن قرائن غير موجودة بين الأسطر، وبين أحرف الطباعة. وبدأت أقول لنفسي إني لن أكتشف أبداً سر جدتي، فشعرت بخيبة كبيرة. كان يجب عليَّ أن أكون أكثر

حضوراً عندما كانت ما تزال على قيد الحياة، وأن أمنحها مزيداً من الانتباه، لكني كنت في لندن لأعيش عملي الهام جداً، وحتى لو كانت قد قالت لي ذات يوم إنها تريد أن تكلّمني حول موضوع رئيس، ربما لما كنت قد استمعت إليها.

والآن أستمع إليها. لا شيء أكثر تأكيداً.

مرّ باتريك ليأخذ مونيكا ظهيرة الأربعاء بعد المدرسة. هي تعود مشياً، عادةً، ولكنَّ عاصفة كانت تتحضّرِ في البعيد، في السماء الدافئة. سررت برؤيته، ومع ذلك حرصت على ألّا أبدي ذلك.

قال لي مجاملاً:

– أوه! لقد قمتِ بعمل جميل في الحديقة.

فقلت وأنا أشير إلى أكوام الأغصان والأعشاب الضارة:

– إن هذا العمل يريحني.

– أنت بحاجة إلى قاطرة لنقل هذا. هل تريدين أن أستعلم عن ذلك؟

– ستسير الأمور، ويجب أن أتحسن في هذا المجال. السعي إلى مساعدة وحل مشكلاتي بنفسي.

لاحظت أنه لم يخلع نظارته الشمسية فقلت له:

– في الواقع كنت أود أن أكلمك عن مينا. وإنه لأمرٌ جيد أنك مررت.

– حول أي موضوع؟

– أسبوعان بلا تدريبات. هي معرّضة لأن تنسى كل شيء، والوقت محسوب علينا. هل تعتقد أن والدها سيوافق على إنزالها هنا؟ إذ يمكنها أن تبقى هنا طوال العطلة الأسبوعية إذا رغبت...

صمتُّ قليلاً وأنا أعي أني لا أعرف كيف أهتم بطفلة مثل مينا، ثم خاطبتُه قائلة:

– وإذا لم تعتقد أنها فكرة مجنونة.

ابتسم باتريك ورفع نظارته الشمسية إلى أعلى رأسه. نزلت خصلة من شعره في زاوية تامة على وجهه، ثم قال:

– أرى أنها فكرة رائعة، لكنَّ والدها لن يقبل أن تذهب إلى مكان بعيد كهذا بالسيارة. قد أتمكن من إقناعه إذا عرضت عليه أن آتي لإحضارها وأخذها.

– سيكون هذا إزعاجاً كبيراً لك.

– الأمر سيّان عندي، فقد اعتدت على القيادة لمسافات طويلة.

أعاد نظارته إلى فوق أنفه ثم سألني:

– هل أستطيع أن أتصل بك فيما بعد؟ فسأرى ماذا يمكنني أن أفعل.

– بالتأكيد، أطلعني على ذلك.

أحببت البستنة أكثر فأكثر. وكان هذا مفاجئاً لأني كنت أميل دائماً إلى أن أكون امرأة داخلية. ومشروعي الأخير: الصفوف الطويلة التي تصل إلى غرفة الغسيل. بدأت بالأعشاب الضارة وحرصت على تجنب أشواك الورود البرية. كان عملاً متعباً، من الناحية البدنية، لكنه لم يُزعجني. فقد كان بوسعي أن أغوص فيه وأعجبتني عملية ألّا أفكر بشيء آخر، لا بركبتي ولا بجوش ولا بأمي: فلا يوجد إلا أنا وهذه الأرض التي دفأتها الشمس.

أتتني مونيكا عند الساعة الثالثة تقريباً، وسألتني:

– كيف جرت الأمور؟

نظرتُ بعين فرحة إلى كومة الأعشاب إلى جانبي، ثم إلى صفّ الأزهار، وقلت:

– لدي الانطباع بأني لا أتقدّم.

– هل تريدين أن تري كوخ الجزّازين؟ فقد أنهيتُه للتو.

نهضتُ وخلعت قفازات البستنة وسألتها:

– صحيح؟ لقد انتهيت؟

– تعالي لتري.

لم أضع قدمي في الكوخ منذ أن فرّغتُه من الكراتين، وأتذكّر أنه مكان مظلم ومليء بخيوط العنكبوت. ولكن عندما فتحت مونيكا الباب، لم أتعرّف إلى ذلك المكان. فقد نُظِّف من أرضه حتى سقفه. اختفى الغبار، وأصبحت الأرض والجدران برّاقة. فقلت باندهاش:

- هذا رائع!

- ادخلي! لدي شيء هام أريد أن أريك إياه.

وسحبتني من كمّي بلطف، وهذه أول مرة تبدو لي فيها ودودة منذ أن كلّمتها عن جوش.

تبعتها حتى الغرفة الأكبر، ثم قرفصت تحت نافذة صغيرة، وقالت:

- انظري. كل الجزّازين الذين أتوا إلى هنا كتبوا الأحرف الأولى من أسمائهم هنا.

انحنيتُ لألقي نظرة. كلامها صحيح، فقد رأيتُ مجموعة كاملة من الحرف الأولى، وقد جعلني هذا أبتسم، وسألتُها:

- هل يوجد منها في كل الغرف؟

- لا، هنا فقط، وفي الغرفة التي توجد في الجانب الآخر من الممر. وبعضها كان محاطاً بقلب بالنسبة إلى العشّاق.

أثارت هذه المعلومة فضولي، فذهبتُ لأرى الغرفة الأخرى. ولكني لم أرَ الحرف «B» مكرّراً لكي يوافق اسم بيتي بلاكسلاند. ومع ذلك فقد تزاحمت الأسئلة في رأسي: هل كان عشيق جدتي من الجزّازين؟ لهذا فقد كانت علاقتهم تشكّل مشكلة بالنسبة إلى أهل القرية.

قالت لي مونيكا وهي تمسح بإبهامها تفصيلاً فرّ منها على النافذة:

- هل تعرفين ما يجب عليك أن تفعليه؟ عليك أن تستثمري قليلاً من المال لإعادة تزيين هذا الكوخ ثم تؤجّرينه في العطلة، فسياحة الأماكن الشعبية مزدهرة.

هززتُ رأسي وقلت:

– أريد أن أبيع كل شيء في نهاية شهر آذار، فقد يهتمّ شخصٌ آخر بهذه الأمور.

– هل ستبيعين؟ أهذا مؤكّد؟

التفتَّ نحوِها وانفجرتُ ضاحكة، وقلت:

– هذا مؤكد، هذا محتمل، لا أعرف. لا أستطيع أن أبقى ، فيجب علي أن أستعيد دورة حياتي في لحظة معينة.

– في سيدني أم في لندن؟

اضطررتُ للتفكير لحظة قبل أن أجيب. فأضافت بصوت خافت:

– مع جوش؟

قررتُ أن أواجه المشكلة فسألتُها:

– لماذا غضبت عندما عرفت أنه كان لدي صديق قديم في لندن؟

– صديق قديم، هل ما تزالين تحبّينه؟

باعدتُ بين يدي دون شرح. كنتُ أنتظر جواباً. فردتّ مونيكا:

– أنا آسفة. هل بدا عليّ أني منزعجة؟

– نعم.

– لستُ سوى غبية، فقد ظننتُ أنك تحبين باتريك. أنت تعرفين، أنه يعجبك، وقد كنت أعوّل كثيراً على هذا ، فـ...

– هل تغارين عليه؟

– أفترض هذا.

ثم ابتسمت وأضافت:

– عفواً.

– لا بأس.

– هل صحيح أن....

تراجعتُ، وانتظرتُ، فقالت:

– ما كان يجب علَي أن أتكلّم...

ظللتُ صامتة، فقد تعلّمتُ مع مرور السنوات أن الصمت يحثّ الناس على الكلام أكثر.

– صحيح أن باتريك يحبّك كثيراً.

سألتُ كمراهقة:

– يحبّني كثيراً، أم أنا أعجبه؟

هزت مونيكا رأسها وقالت:

– سوف يقتلني.

– لن يعرف شيئاً عن هذا.

من المؤكد أن هذا غريب، فقد شعرتُ بقشعريرة تعبر جسمي. باتريك، عيناه الفريدتا الخضرة، وجسمه المستقيم، أنا على حق: هو يجدني مرغوبة جداً. على أية حال، كفى كلاماً عنه مع أخته. وعند هذه الفكرة أخذ جسمي يستجيب بطريقةٍ لاشعورية. في الواقع لقد ضحكتُ بهدوء وأخذتُ أكتكت كتلميذة. فقالت:

– حسنٌ، انسي هذا الحديث. أنا آسفة لأني أربكتك. هل تريدين مساعدة في الماشي؟

– بكل سرور.

وعملنا في البستنة طوال بقية الظهيرة في الحرارة، وبصمت.

أصرّ والد مينا على مقابلتي. فرافقتُ باتريك بالسيارة حتى هوبارت عندما ذهب ليجلبها. وركنّا السيارة أمام فندق خاص نوافذه واسعة في باتري بوينت.

قطّب باتريك حاجبيه وهو يتحقّق من العنوان فأطفأ المحرّك، ثم قال:

– هذا بيت كبير!

– هل يعيشان فيه لوحدهما؟

– على حد علمي.

نزل من السيارة وتبعتُه، وصعدنا حتى باب المدخل ثم قرعنا. في الضياء الذهبي لمنتصف النهار ألقيتُ بضع نظرات سريعة على باتريك دون أن يلاحظ.

فُتح الباب وظهر والد مينا. إنه رجل طويل، بشرته حمراء وشعره أسود ناعم. لم يُبد أي ابتسامة، بل مدّ يده وقال:

– صباح الخير، أن رينولد كارتر.

قدمت نفسي وأنا أصافحه:

– إيمّا بلاكسلاند ـ هنتر، وهذا باتريك تايلور.

سألني بهيئة تائهة:

– هل أنت راقصة الباليه؟ تفضّلا.

تبادلنا، باتريك وأنا، نظرة ونحن نتبعه في البيت. مررنا في ممر أرضيته صقيلة، ثم دخلنا إلى صالون كبير مدفأ. كانت مينا جالسة برصانة على كنبة، وإلى جانب قدميها توجد حقيبة صغيرة.

استقبلتنا بصوت متأثّر:

– باتريك! إيمّا!

قسرت نفسها على ألّا تتحرّك لأن والدها كان ينظر إليها، ولكنّ قدميها كانتا تتحرّكان سعادة.

قال له باتريك الذي ركّز نظره على النافذة المطلّة على دِرِونت:

– بيتك جميل!

لاحظتُ وجود حاسوب محمول على طاولة قرب الباب. كنتُ أتخيّل أن رينولد كارتر يعمل في مكتب أنيق، وليس في زاوية من صالونه.

قال رينولد:

– مينا تستطيع أن تتدبّر أمورها بشكل جيد، فلا تقوما بأشياء كثيرة بدلاً منها. ومن المهم بالنسبة إليّ، وبالنسبة إليها أيضاً، أن تحتفظ باستقلالها.

قلت وأنا أداعب شعر الفتاة:

- أنا مستعجلة لقضاء بعض الوقت معها، هذا كل ما في الأمر.
وجّهت إليّ ابتسامة عذبة.
- نعم، جيد.
ثم تنحنح وأضاف:
- هي لم تمضِ من قبل ليلة واحدة خارج البيت، فاتصلي بي إذا كان هناك مشكلة.
وكان قد أدار إلينا ظهره ونظره مثبت على شاشة حاسوبه ثم قال:
- اعذراني لحظة.
أمسك باتريك بمحفظة مينا بينما كان السيد كارتر يضغط على ملامس حاسوبه. عاد دون أن ينظر إليهما ثم قال:
- أنا آسف، فأنا أبيع أسهماً عبر الإنترنت. الأسواق الأمريكية ما تزال مفتوحة، ولديّ دائماً كثير من العمل صباح السبت.
سألته وأنا أعرف أني أشغل نفسي بما لا يعنيني لكن الفضول دفعني:
- هل هذه مهنتك؟
أجابني بصوت حيادي:
- كنت وكيل صرف قبل وفاة والدة مينا، وقد وظفت مربيةً في البداية، ثم قررت أنها ستكون بحال أفضل معي في البيت.
تدّخلت مينا:
- بابا يعمل ليل نهارٍ.
فدافع عن نفسه قائلاً:
- ولكني هنا، أليس كذلك.
طوقت خصره بذراعيها وغمزته قائلة:
- أحبك يا بابا.
- كوني رصينة.
قال لها وهو يقبلها على رأسها، ثم أفلت من احتضانها وقال لها:

- اتصلي بي إذا دعت الحاجة.

ساعدنا مينا على الصعود إلى مؤخرة السيارة. طارت فرحاً ولم تكف عن الكلام. لم يخرج والدها ليقول لها إلى اللقاء بيده، ففاجأني شعورٌ بالغضب منه. صحيح أن مينا تسكن في بيت كبير ولكنها بكل تأكيد بحاجة إلى حب ـ فهي فتاة شابة عاطفية جداً ونشيطة.

ثم تذكرت نصيحة باتريك: *لا أحد يعرف ماذا يحدث في هذه العائلات، فمن الأفضل عدم إطلاق الأحكام عليها.*

لاحظت أن إثارة مينا ليست بعيدة عن التحول إلى قلق عندما اجتزنا الأبواب الكبيرة لحديقة وايلدفلاور هيل. في بداية الممر قررت أن أطلب من باتريك أن يبقى إلى ما بعد الظهر لأن مينا تعرفه معرفةً أفضل وأردت أن تستأنس بوجوده. انتظر في الطابق الأرضي وتمرّن على البيانو غير المُدَوْزن بشكل جيد بينما رافقت مينا إلى الطابق الأول. في الليلة الماضية كانت مونيكا قد جهزت الغرفة المجاورة لغرفتي. الشراشف نظيفة وهناك مزهرية مليئة بأزهار برية على الخوان. وضعت مينا حقيبتها على السرير وجلست قربه مفكرة. فسألتها:

- هل أنتِ بخير؟

- هذا البيت مظلم وقديم.

- هذا صحيح فعمره أكثر من مئة وخمسين سنة. هل أنت خائفة؟

- لا، أين هي غرفتك؟

ضربت يدي على الجدار وقلت مطمئنة:

- الغرفة التي بجانب هذه تماماً.

ابتسمت وقالت:

- جيد.

في الطابق الأرضي كان باتريك يعزف «*فالس الأزهار*» فقلت لها:

- هذه أغنيتك يا مينا، تعالي وارقصي.

في الأسفل، في الصالون، بدت أكثر سعادة وأقل قلقاً. أبدت إعجابها بجوائزي التي صففتُها على البيانو. ولكي أفسح في المكان دفعت الكنبة إلى جانب الجدار والطاولة المنخفضة إلى تحت النافذة ورقصنا.

لقد نسِيتْ مينا بعض الحركات التي علمتُها إياها في المرة الماضية، ولكنها كانت تتحلّى بوقفةٍ جميلة حيث كان ظهرها مستقيماً وكانت قدماها مدببتين بقوة. كررنا المشهد ثلاث مرات مع باتريك الذي كان يرافقنا على البيانو، ثم شغّلنا قارئ الأقراص المدمجة وجلست وباتريك على الكنبة بينما أخذت مينا ترقص أمامنا.

لقد قطعَتْ أنفاسي. فأول مرة التقيت بها مع الأطفال الآخرين لم أرَ سوى النقاط المشتركة. أما الآن، فقد ميّزت لدى مينا المرأة الشابة المختفية بداخلها: عيناها اللامعتان وبشرتها الناصعة وشعرها الأسود الناعم ويداها البيضاوان. فقد بدت جميلةً وهي ترقص.

مال باتريك لكي يكلمني في أذني قائلاً:

– لقد قمتِ بعمل عظيم معها، فهذه الحركات تناسبها بشكل رائع.

– هي التي قامت بالعمل كله ولديها حلاوة طبيعية.

عاودتني كلمات مونيكا: *أنا أعجب باتريك*. أحسست بحرارة ذراعه على ذراعي وتركت نفسي أستمتع بهذه الملامسة.

أمرتنا مينا وهي في وسط الرقصة:

– كُفا عن الكلام، وانظرا إليّ!

ضحكنا وركّزنا انتباهنا عليها من جديد. كانت عيناها تلمعان من السعادة، فقد أعطتني درساً مهماً. لن تكون قادرة أبداً على أن ترقص الباليه بشكل حقيقي، ولكنها كانت ترقص رغم ذلك وهي تحبُّ هذا الرقص.

عندما انتهت صفقنا لها بقوة. انحنت أمامنا وأرسلت إلينا قبلات كما لو أنها تقف تحت أنوار الكواشف. ثم أعلنت:

– أنا تعبة الآن.

– هذا جيد، هذا يعني أنك اشتغلت بشكل جيد. فراقصات الباليه الحقيقيات يعملنَ عملاً قاسياً جداً.

ذهبت لتجلب لعبة الإوزة من حقيبتها وجلسنا أرضاً في الصالون ولعبنا جميعاً. أحسست بألم في ركبتي لكنه لم يكن شديداً. عند الغروب أعلن باتريك أن عليه أن يعود إلى البيت. فبدت مينا قلقة كما كانت عند وصولها فقلت لها مطمْئِنة:

– كل شيء على ما يرام يا مينا، وسأبقى هنا معك.

– هل نحن في أمان تام في هذا البيت؟ وهل هناك أقفال لكل الأبواب؟

– تماماً.

شيَّعتُ باتريك حتى الباب ولاحظت أنه لم يكن راغباً في الذهاب، وربما لم أكن راغبة في أن يذهب، أنا أيضاً. انتابني شعور بالأسف عندما رأيت سيارته تبتعد. كانت برودة المساء تغزو الحقول وتهبُّ على أشجار السِّنْط دخلت لأحضِّر العشاء.

ساعدتني مينا وهي جالسة إلى الطاولة. أخذت تفصّص البازلاء بينما أخذت أقطع الفروج لكي نزين طبق المعجّنات.

سألت مينا:

– ماذا يفعل بابا في هذه اللحظة؟

– لا أعرف. ماذا يفعل عادة مساء السبت؟

– إنه يعمل على حاسوبه.

– حسنٌ، بكل تأكيد هو مستغرق في هذا العمل الآن.

ثم جلستُ بجوارها وسألتها:

– هل اشتقت إليه؟

ابتسمت وقالت:

– قليلاً.

– سترينه غداً. ويجب أن نتدرب قليلاً قبل أن تقابليه.

ثم ملتُ نحوها وضغطتُ على يدها وقلت:

– هل تفضلين العودة إلى البيت؟ أستطيع أن أتصل بباتريك، وسيأتي ليأخذك ويعيدك إلى بيتك.
– لا، لا بأس، فراقصات الباليه يجب أن يعملن عملاً قاسياً جداً:
– هذا صحيح.
– إذن سوف أبقى وأتابع التمرين.

حوالي منتصف الليل هبَّت الرياح وهدر الرعد في البعيد. كان الصوت قوياً جداً بحيث أني استيقظت. نهضت وأغلقت نافذة غرفتي. ولحظة عودتي إلى سريري سمعت طرقاً في مكان ما.
الصوت آت من الجدار الفاصل مع غرفة مينا. قفزت من سريري وذهبت إليها. قلت وأنا أفتح الباب:
– مينا؟
نظرت إليَّ في الظلام. كانت ما تزال ملتصقة بالجدار كما بيّنت لها في المساء. أضأت المصباح فرأيت الدموع على وجهها.
– ما الذي لا يسير على ما يرام يا عزيزتي؟
ثم جلست قربها على السرير.
قالت شيئاً ما لكنَّ الكلمات كلها تشابكت في فمها. أمسكت بيدها بيدي، فكانت باردة ورطبة. إنها مرعوبة. سألتها:
– هل تريدين أن أتصل بوالدك لكي يأتي ويأخذك؟
هزت رأسها وهي ما تزال تبكي.
أخذتها إلى غرفتي وأنمتُها في سريري ثم قلت لها:
– انتظري هنا. ستشعرين بالدفء. وأنا سأذهب لأتصل ببابا.
وافقت من جديد.
نزلت الدرج وأضئت المصابيح كلها. وجدت رقم الهاتف الذي سجله لي باتريك على ورقة، وأدرته. رنَّ الهاتف ست مرات، سبع مرات، ثمان مرات، تسع... وأخيراً رفع السمّاعة.

- السيد كارتر، أنا إيمّا بلاكسلاند-هنتر.
- ماذا هناك؟
غير لطيف، شخص غير لطيف نهائياً.
- مينا قلقة بسبب العاصفة، و هي تريد أن تعود.
صمت. وأنا أنتظر.
- سيد كارتر؟
- لن أخرج وسط العاصفة.
في البداية صُدمت كثيراً حتي إني لم أعد أستطيع الكلام، ثم أضفت:
- ولكنها تبكي، تبكي كثيراً، فهي خائفة.
- نحن مضطرون جميعاً إلى القيام بأشياء لا ترغب في القيام بها. يجب أن تنتظر. اتصلي بي صباح الغد إذا لم تهدأ.
- ولكن...
ثم ختم كلامه قبل أن يضع السماعة:
- ستسير أمورها بشكل جيد جداً.
بقيت مشلولة أنظر إلى الهاتف لبضع لحظات. أنا لا أصدق ما حدث، فأخذت أغلي من الغضب. أنا أغلي.
وجب عليّ أن أجد وسيلة لأعلن لهذه الفتاة الرائعة والضعيفة أن والدها لن يأتي لأخذها. فكّرت بالاتصال بباتريك لكني لم أطق فكرة أن أطلب منه الخروج تحت المطر. صعدت الدرج بحذر، كعادتي دائماً، وأنا أتنفس تنفساً عميقاً لكي أسيطر على غضبي. كانت جالسة في سريري على ضوء المصباح ونظرها نحو النافذة.
- مينا؟
التفتت.
- لا يستطيع أن يأتي يا صغيرتي فالطقس سيئ جداً في الخارج.
هزت رأسها.
- انتظري، أنا أعرف ما يمكنه أن يرفع من معنوياتك.

نظرت إليّ وأنا أتجه نحو خواني وأفتح الدرج الأول. في الداخل وجدت تاجي الذي حصلت عليه من بحيرة *البجع*. أخرجتُه بحذر وحملته إليها.

سألتني:

- ما هذا؟

ثم أخذت ملامحٍ وجهها تتفتح واستعادت صوتها.

- هذا ثمين جداً يا مينا، يجب أن تنتبهي إليه كثيراً.

أمسكت به باحترامٍ وأخذت تتأمله.

- هذا تاج مهم جداً. إنه هو الذي وضعته عندما مثلت أوديت.

همست:

- بحيرة *البجع!*

أخذت التاج من يديها ووضعته على رأسها وشجّعتُها على الذهاب لترى شكلها في المرآة الموضوعة على الخوان. تبّخر خوفُها كله وهي تتحرك أمام المرآة التي كان يلمع فيها التاج.

قلت لها:

- عودي إلى النوم، فهناك مكان لنا معاً في هذا السرير. ولن نخاف من العاصفة الآن.

كررت:

- لا، لن نخاف.

ومشت نحو السرير وأتت لتنحشر بي وهي ما تزال تضع التاج. أطفأت المصباح وأحسست بيدها الناعمة تُمسك بيدي في الظلام، ثم قالت لي:

- طابت ليلتك يا إيمّا.

- طابت ليلتك يا مينا.

ظللتُ صاحية حتى نامت، ويدانا ما تزلان مضموتين. فوقنا مرت العاصفة ولم تحرك شيئاً.

الفصل السابع والعشرون

استيقظت باكراً لأني أحسستُ بالحر وبضيق السرير. مينا ما تزال نائمة بهيئة هادئة. سقط التاج عن رأسها واستقر على الوسادة إلى جانبها. أخذته بحذر ووضعته على طاولة زينتي. نور الصباح الهادئ يشعّ خلف الستائر. فكرت بحديقتي وقررت أن أنهض لأعمل فيها قليلاً. لبست بنطال جينز وتيشيرت كمّاه طويلان ونزلت الدرج.

كانت السماء صافية بعد أن غسلتها العاصفة. وما يزال البلل يغطّي العشب والحجارة. على طريقي أخذت دلوي المليء بالعدة ووضعته قرب المشى القديم للأزهار. أخذت أعمل بهدوء: أقطع وأقتلع وأحفر. أنا لا أعرف أبداً ما إذا كانت هذه الورود سوف تنبت ثانية بعد أن شذّبتُها بهذه الوحشية. ثم أدركت بنفحة حزن أني لن أكون هنا لكي أراها وهي تتفتح. فالبيت ستعود ملكيته إلى شخص آخر.

وضعت مسطريني جانباً للحظة وتفرّغتُ لهذه الفكرة. شخص آخر سيركن سيارته في الممر. شخص آخر سينقل أشياءه إلى غرفتي. شخص آخر سيحضّر الوجبات في المطبخ الكبير.

قلت لنفسي إني عاطفية جداً، ثم تابعت الحفر.

كانت الشمس قد ارتفعت في السماء عندما عدت لكي أرى ما إذا كانت مينا بخير. كانت قد استيقظت وارتدت ملابسها وهي الآن في الصالون تنظر إلى جوائزي. حضّرت لها فطورها ثم سألتها: ما إذا كانت تريد أن تنفذ خطوات الرقص.

– لا. أريد أن أساعدك في الحديقة.

فأعطيتها قفازين متينين للبستنة وخرجنا في برودة الصباح. لم أكن أريد أن تقترب من صف الورود: فأنا أخاف كثيراً من الأشواك. فقلت لها أن تجمع قطع الخشب حول شجرة السَّنْط المريضة وتجعل منها كومة قرب الأعشاب الضارة.

كانت مينا مسترخية أكثر بكثير من الليلة الماضية، ومتحمّسة فأخذت تتكلم عن البستنة، وروت لي أنها صنعت مع والدها مسكبة صغيرة للخضار كانا يزرعان فيها البندورة. ما زلت غاضبة من رينولد كارتر لأنه لم يأت لأخذ ابنته في الليلة الماضية ولم يهتم بحبها للرقص. كذلك فإن هذه القصة بمفردها عن البستنة لم تجعله لطيفاً في نظري.

سألتها:

– إذن، ماذا تفعلين بنهاراتك يا مينا، عندما يعمل والدك على حاسوبه؟

– أعمل ثلاث ظهيرات في الأسبوع في ملء الأجنحة في سوبرماركت.

دهُشتُ وسألتُها:

– صحيح؟

– وهكذا أكسب بعض المال وأساعد بابا. ولديّ صديقة تأتي ثلاث أصبوحات في الأسبوع لتعلّمي بعض الأمور، وتُدعى مدام باباس.

– تعلمك القراءة والكتابة؟

– لا، فقد أنهيتُ المدرسة في السنة الماضية، ومدام باباس تعلّمني كيف أركب الحافلة دون أن أتعرّض لمشكلات، وأشياء من هذا القبيل.

– تُحسنين ركوب الحافلة بمفردك؟

– لقد قمتُ بذلك مرة واحدة. وكان ذلك مسلّياً، ولكنني كدتُ أن أفوّت موقفي.
ثم تمتمت وهي ترمي قطعة عشب على الكومة:
– ثم تذكّرتُ محل الشوكولاتة، وكان موقفي أمامه تماماً.
– آه، الشوكولاتة لا تُنسى بسهولة.
لم تُجب، فالتفتّ نحوها، فرأيتها تنظر إلى شيء ما بهيئةٍ مستفهمة، بين مجموعتين من الأعشاب الدائمة، تحت شجرة السَنْط فسألتُها:
– ما هذا؟
– لا أعرف.
نهضتُ بهدوء ولحقتُ بها، توقّعتُ أن أجد حيواناً، ميتاً ربماً، ولكن لم يكن هناك حيوانٌ ميتٌ، بل هو شيء. قطّبت حاجبيّ ثم قلت:
– إنه صليب.
– كما في الكنيسة.
– نعم، لا بدَّ أن شيئاً ما مدفون هنا.
أو أحداً ما، ولكني لم أشأ أن أقول ذلك بصوت عال وأخيف مينا.
– لنرَ ما إذا كان بوسعنا الاقتراب.
أبعدت مينا الأغصانَ والأنقاض لكي نفتح طريقاً. قرفصتُ بحذر. كان ارتفاع الصليب حوالي ثلاثين سنتمتراً. استخدمت مسطريني لكي أحفر الطبقة التي تجمعت منذ عشرات السنين. أخذت شهيقاً. أنا لا أريد أن أنتزع الصليب فاقتربت أكثر فأكثر لكي أكتشف الأحرف.
من الأعلى إلى الأسفل حُفر بشكل شاقولي اسمُ: تشارلي.
سألتني مينا:
– هل هناك شيء ما مكتوب؟
– تشارلي.
أُصيب قلبي بصدمة، فهل ثمة أحدٌ ما مدفون هنا؟ مستحيل. فالناس يدفنون في المقابر.

سمعت هدير محرك سيارة. رفعت رأسي فرأيت باتريك ينعطف في الممر، والشمس تنعكس على زجاجه الأمامي هل أتى متأخراً كثيراً؟

صاحت مينا وجرت لاستقباله:

- باتريك!

- لم نتدرب بعد.

تركت عدتي وأنا أعرف أني مغطاة بالتراب والعرق وشعري قذر.

روت له مينا:

- كنا نعمل في الحديقة فوجدنا صليباً.

- هل أستطيع أن أراه؟

فدلّته مينا على الطريق فقرأ بصوت عال:

- تشارلي! إني أتساءل من يكون.

قلت:

- آمل أن يكون حيواناً أليفاً.

انتصب باتريك ونظر إليّ وهو يرفع حاجبه ثم قال:

- حيوان أليف؟ هل تعتقدين ذلك؟ في المزارع، الحيوانات تموت في كل وقت ولا أحد يتعلق بها حقاً. أنا لا أستطيع أن أتخيل أن أحداً ما قد غرس شجرة وصليباً على قبر كلب أو هر. من المؤكد أن هذا نوع من القبور التي توضع تشريفاً لشخص.

أنا أعرف أنه على حق، فقد وُضع هذا الصليب هنا بطريقة متعمدة. ولكن فكرة أن تكون هنا جثة مدفونة في فناء البيت تبعث القشعريرة في جسمي.

قلت:

- اذهبي وحضّري حقيبتك يا مينا.

- حسنٌ.

وسارعت إلى داخل البيت. ابتسم لي باتريك ثم قال:

- يوجد تراب على وجهك.

– أين هو؟

رفعت يدي نحو خدي الأيسر.

– هنا.

وأمسك أصابعي بهدوء وقادها إلى الجهة الأخرى من وجهي قبل أن يتركها.

رعشات خفيفة عبرت جسدي. مسحت التراب وسألت:

– إذن، تعتقد أن أحداً ما مدفون هنا؟

– ربما. احفري وسترين بنفسك.

قال مازحاً. ثم رفع رأسه نحو الأغصان وقال:

– لو كنت مكانك لن أبقى طويلاً هكذا. يبدو أن بعض هذه الأغصان قد يبس تقريباً.

– الأوبوسومات. حقاً يجب أن أعتني بها. فهذه الشجرة أهم مما كنت أعتقد.

ذاك المساء، بعد أن استحممتُ طويلاً وتخلّصت من تراب ذلك النهار ومن عرقه، فكرت بهذا الصليب. في الحقيقة، أنا لم أكف عن التفكير به طوال النهار. ولم أرغب في الخروج من جديد في رطوبة المساء لكي ألقي نظرة جديدة، بل فضّلت أن أفتح الغرفة الرئيسة وأقف على نافذتها. أزحت قاعدة النافذة، وكان البدر ينير الحقول المغطاة بالندى. شجرة السَنْط موجودة هناك تماماً. إن هذه النافذة هي الوحيدة في البيت التي تواجهها.

حرّك هذا المنظر ذكرياتي. فركّزت اهتمامي لكي أرى بصورة أوضح. ثم فهمت: اللوحة عند جدتي. فقد كانت تقول إنها تبعث في نفسها الهدوء والسعادة دائماً. إنه المنظر نفسه، وأنا أراه جيداً الآن، من حيث أقف. منحنى الهضبة وأشكال الصخور في البعيد. متطابقة. لقد كانت هذه الشجرة خاصةً في نظرها. وقد غرستْها في مكان تستطيع أن تراه كل يوم. وحين ذهبت كلفت أحداً ما برسم المنظر لكي تحمله معها.

إن باتريك على حق، فهذه الشجرة هي شبه حركة تذكارية. لطالما فكّرت أنها مغروسة بصورة قريبة جداً من البيت، وقد تكون الهدف، عملياً. الاحتفاظ بهذا الشخص بقربها. شخص اسمه تشارلي. وخَزَتْ الدموع عينيّ وأنا أتساءل ما إذا كان خيالي يلاعبني.

بقيت طويلاً، أتنفس هواء الليل، وأتأمل القمر الفضي الذي يغطي ضياؤه الحقول بظلال متغيرة. لقد أحبت جدتي شخصاً يدعى تشارلي. وهو رجل الرسالة، بلا شك. ولكنه مات. شعرت أن العالم يميد في لحظة. لو لم يمت فإن جدتي كانت ستتزوج منه. ولما التقت بجدي، ولما وُجدت أمي ولا خالي مايك. وكنت سوف أختفي من شجرة العائلة. على الرغم من كل شيء، فقد أسفت لأن الأمور حدثت هكذا مع جدتي. لقد كان رهيباً فقدُها للرجل الذي كانت تحبه.

يوم السبت التالي عدنا إلى المدرسة وكانت مينا ممتازة. إنها تتذكر رقصتها كلها. وقد عُني مارلون بوضع التفاصيل. ستة أطفال آخرين سوف يرقصون حركات بسيطة جداً وبطيئة جداً حول مينا: وقد بدأ هذا الجزء من العرض يتّخذ هيئة رائعة. فقد كفى مارلون أن رأى مرةً رقصةَ مينا حتى تذكر الخطوط العريضة. ألغى الحركات التي كانت تسبب مشكلة للفتاة واستبدلها بحركات عملية. شعرتُ بأني بلا فائدة، الآن، وبقيت جالسة أنظر إليهم وأدركت أن ركبتي لم تعد تؤلمني بسبب المسافات الطويلة في السيارة.

حمل الربيع بشائر الصيف. والعرض يقترب. والحديقة تأخذ شكلها. وأفرغت الكرتونات الأخيرة ورتبت محتواها. من الآن فصاعداً، لم يعد لمونيكا شيء تفعله. فتركتها تذهب مع كل أسفي. وعدَتْ بأن تمرّ لزيارتي مرة في الأسبوع ووفت بوعدها، ولكنْ كان الأمر مختلفاً عمّا كنت أشعر به عندما كانت برفقتي طوال الوقت. لقد اشتقت إليها. وكان باتريك ساهماً ومنشغلاً فشعرت بأني وحيدة.

مشيت كثيراً بل ركضت أحياناً. حاولت أن أرقص لكنّ أدائي تلخّص بتقليد شاحب لما كنت قادرة على فعله في الماضي. فهمت بطريقة واضحة ونهائية أن جسمي لا يمكنه أبداً التحرك بتلك الطريقة. فقد فقدت مرونتي والألم ينتظرني دائماً عند المنعطف إذا لم أكن حذرة، وهذا يبكني دائماً.

لم يبقَ سوى ثلاثة أسابيع قبل العرض، ونظّم مارلون أربع أمسيات تدريب عام.

قال لي باتريك:

– أنتِ لست مضطرة للذهاب إلى التدريب. فستكون مسافة إضافية بالنسبة إليك بالسيارة حتى هوبارت.

– ركبتي تتحسن الآن، وأنا أحب أن أرى مينا مرتدية بدلة الرقص.

كانت أمسيات الصيف رائعة. فقد طالت النهارات وغدا الهواء ممتع الاستنشاق، بعكس لندن ودخانها في الصيف. عندما ترجلنا من السيارة كان كل شيء تفوح منه رائحة زكية: العشب المقطوع، والأزهار في البعيد والطعام. ملأت رئتيّ بهذه الروائح بكل سعادة وحبور.

من الناحية الأخرى للمرآب، كان والد مينا يُنزلها. مددت عنقي لكي أراه بوجهه العابس. قلت:

– أعتقد أنه لن يحضر العرض هذه السنة أيضاً.

قال لي باتريك:

– من الأفضل ألاّ تتدخلي بهذه الأمور يا إيمّا.

أشارت إلينا مينا، مُثارة بأضواء المدرسة وبالتفاصيل الرائعة التي تجعل هذه الأمسية أمسية خاصة.

انضممت إليها وأمسكت بيدها وانحنيت على باب السيارة لأقول لوالدها:

– يجب عليك أن تدخل يا سيد كارتر.

– لا وقت لدي.

– ألا يمكنك أن تحرر نفسك هذه السنة لكي تأتي إلى العرض؟

نظر إليّ نظرة نارية وقال:
- هذا ليس من شأنك.
قال لي باتريك من باب التحذير:
- إيمّا!
- إنها راقصة عظيمة. ومن المؤسف أن تفوّت هذا.
- أغلقي الباب، أرجوك، فأنا مستعجل جداً.
نفذت كلامه ونظرت إليّ مينا مرتبكة ثم قالت مدافعة عنه:
- إنه مشغول جدا.
قلت وأنا أداعب شعرها:
- أنا أعرف يا صغيرتي. وقد كنت أريد فقط أن يراك وأنت ترقصين بشكل جيد.
دخلنا إلى المدرسة. وحين ذهبت مينا للقاء رفاقها، التفت إليّ باتريك وقال لي بصوت قاس:
- ما كان يجدر بك أن تفعلي هذا.
- لقد رفض أن يأتي ليأخذها من عندي ليلة العاصفة وكانت تبكي وهي مرعوبة.
رفع كتفيه ثم قال:
- أنا آسف، فقد نبّهني مارلون منذ اليوم الأول. نحن لا نستطيع أن نعرف ماذا يحدث في هذه العائلات. إنها تدير مصاعبها كلها على طريقتها. ووالد مينا يبذل ما بوسعه من أجل كسب المال وهو يعمل انطلاقاً من بيته. وهذا مثير للإعجاب.
- ولكنه مشغول أكثر من أن يمضي بعض الوقت معها. فالإنسان لا يستطيع أن ينشغل عن الحب.
انتابني شعور رهيب، وأنا ألفظ هذه الكلمات، بأني أتكلم عن نفسي. فطوال حياتي، حتى تقاعدي القسري، كنت مشغولة عن الحب لا أكثر ولا أقل. لم أعد لرؤية جدتي قبل وفاتها، ولم أكن أزور أمي، حتى جوش سئم من عدم تمكني من الحضور معه ففرّ مع سكرتيرته.

والآن؟ هل ندمت؟ فقط لأني اضطررت إلى البقاء جالسة معظم الوقت.

وتذكرت البرودة التي أبديتها في البداية حيال مونيكا وباتريك وبينلوب سايكس... حيال الناس جميعاً، عملياً.

لا بدّ أن باتريك قد ذهب ليدير أزمة في مكان ما واتخذت مكاني على مقعدي في الصف الأول.

أُطفئت الأنوار واستبدلت بإضاءة العرض. وكان باتريك قد شرح لي أنهم سيبدؤون التدريبات العامة باكراً جداً لكي يعتاد الأطفال على الأضواء. والآن فهمتِ لماذا. فبعضهم كانوا مصابين بالرهبة، فنسوا حركاتهم وأخذوا يتسكّعون على المسرح. وقد أبدى مارلون صبره الدائم على الرغم من الكارثة التي تتشكل أمام عينيه. خنقت تعليقاً.

ثم ارتفعت موسيقى مينا وظهرت في بدلتها: بدلة زرقاء ملاصقة للجسم مغطاة في الأعلى بقميص حريري خفيف. كانت حافية القدمين، كما نصحتُها. وقفت في وسط المسرح. وخفتت الأنوار ثم أتى شعاع أبيض من أحد الكواشف وتسلط عليها بقوة. تشنّجتُ، وتساءلت ما إذا كانت ستفقد وسائلها كالآخرين.

عندها رفعت ذراعيها وشكّلت لوحة آرابيسك كاملة ثم بدأت تتحرك.

بالتأكيد كان لي مآخذ، كثيرة حتى، على أداء مينا، ولكن بكل موضوعية كانت إحدى أجمل الرقصات التي رأيتها في حياتي. ليس لأنها نفذت كلّ حركة بدقة فحسب، وليس لأنها بدت كملاك أزرق شاحب يرافقه ستة ملائكة صغار بيض آخرون يشكلون دوائر حولها فحسب، بل لأنها فتاة شابة وجب عليها أن تبدي كثيراً من التحدي في حياتها وتغلبت عليها بجمال وذكاء أيضاً. بكيت طوال العرض وتساءلت كيف يمكن لوالدها أن يفوّت هذا.

***

أوصلني باتريك بعيد الساعة الثانية والعشرين. وضعت الماء لكي يغلي، وخلعت حذائي، وكنتُ أفكر بأن أرتدي منامتي مباشرة حين سمعت طرقاً على الباب.

دفعني الفضول إلى فتح الباب فرأيت باتريك. قال لي:

– أنا آسف، لقد نسيت أن أعطيك شيئاً ما.

وناولني كيساً بلاستيكياً يحوي شاحن الهاتف. ثم أضاف:

– هذا من مونيكا وقد طلبته منها. ولم يصل إلا اليوم.

– شكراً.

قلت وأنا أتناول الكيس. أخذ الإبريق يصفر فقلت له:

– هلا دخلت لنشرب القهوة؟

حوّل بصره، بعدم ارتياح، للحظة. ثم بدا وكأنه وجد صوته فقال:

– حسنٌ.

في المطبخ وصلت هاتفي المحمول بالشاحن وحضّرت القهوة. جلسنا إلى الطاولة وتحدثنا حول التدريب وعن مينا قبل أن ننتقل، لست أدري كيف، إلى الحديث عن الطقس. كنا نتكلم ككل أولئك الأشخاص الذين يريدون أن يقولوا شيئاً ما ولكنهم لا يجرؤون على التطرق إلى الموضوع. أنا معجبة به حقاً. ومعجبة بجسمه الناعم وبعينيه الخضراوين، وبأصابعه الطويلة التي تحيط بفنجان القهوة. ومعجبة أيضاً بحبه للمزاح وبلطفه وبشجاعته. أنا معجبة به لكني خائفة من المضي بعيداً، خائفة من الاقتراب منه أكثر، دون أن أعرف لماذا.

قال وهو ينهي فنجان قهوته:

– يجب أن أذهب، فغداً عندي مدرسة.

ضحكت وقلت:

– نحن نلتقي صباح السبت حتى وإن كنت لست بحاجة حقيقية إليّ.

– بكل تأكيد أنا دائماً بحاجة إليك.

أجاب باللطف الذي يتميز به.

لم أصدقه، ولكني أحاول أن أتعلم ذلك على أية حال. فقد شعرت بالعطف على مينا، فما بالك بباتريك.

رافقته حتى الباب. اتجه نحو سيارته ثم عاد إلى نصف الطريق ثم استدار. كنت أنتظر عند الباب. ضوء القمر يناسبه كثيراً. أتى وانغرس أمامي دون أن يقول شيئاً. وأنا لم أقل شيئاً أيضاً.

ثم انحنى وقبلني. كانت شفتاه حارتين، وكان جسمه حارقاً. ضغطت جسدي إلى جسده، وتركت يدي تتنزه على ظهره لتتعرف إلى تضاريسه من خلال ثيابه.

تراجع ثم تمنّى لي «ليلة سعيدة» ثم مضى.

لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام حتى بعد أن اختفت سيارته.

صباح اليوم التالي، نزلتُ لأتناول فطوري، بانتظار أن يحمّص الخبز، شغّلتُ هاتفي المحمول الذي أصبح مشحوناً تماماً. أصدر صوت بيب، ثم وصلتني أربع رسائل جديدة.

لم يتأخّر قلبي في الخفقان بسرعة.

ركبتُ رقم صندوقي الصوتي، ولاحظتُ أن أصابعي ترتعش: «إيمّا، ما يزال لديّ رقمك. اتصلي بي. جوش».

الرسائل الأربع المتتالية تشكل قصة كاملة. اتصلي بي، بحاجة لأكلّمك. سارة وأنا انفصلنا. لم تسر الأمور. إنها ليست أنت. اتصلي بي يا عزيزتي. مشتاق إليك. اتصلي بي. اتصلي بي.

اتصلي بي.

أحلامي غدت واقعاً. وبدا أن كل ما حدث منذ انفصالنا—حادثي والميراث وحياتي في وايلدفلاور هيل ـ قد انمحى. لا مجال لصراعي مع ضميري. ولا مجال للتساؤل ما إذا كنتُ غبية. لا مجال إلا لصوته، كما تخيّلتُه آلاف المرات، لصوته الذي يقول لي أن أعود إلى الوطن.

اتصلتُ به   اتصلتُ بلندن   اتصلتُ بحياتي السابقة.

الفصل الثامن والعشرون

بيتي، لندن، 1965

وضعت بيتي حقيبتها الصغيرة المليئة بمستحضرات الزينة على السرير المرتّب بشكل ممتاز، بينما كان راي يتصارع مع حقيبة أمتعتهما الكبيرة الحجم العالقة عند عتبة غرفتهما في الفندق.

– هل تريد أن أساعدك؟

فردّ ضاحكاً:

– أي نوع من الأزواج سأكون إذا لم أستطع أن أهتم بحقيبة زوجتي بمفردي؟

جلست بيتي على طرف السرير وراقبته وهو يجرّ حقيبة الأمتعة إلى داخل الغرفة. لقد قلّ شعره ولكنه لم يبيضّ بعد، كما لو أن سنوات الخدمة العامة والمسؤولية لم تسبّب له أي هم.

جلس بجانبها ثم سألها:

– هل أنتِ تعبة؟

– لا بأس.

– ثلاثون ساعة من الطيران ولا بأس.

داعب شعرها، وقال:

– بيتي العزيزة.
– متى ستذهب؟
ألقى نظرة على ساعته. إنه في لندنٍ من أجل مؤتمر. عادة، لم تكن بيتي ترافقه، فقد كانت مشغولة جداً بأعمالها في سيدني. ولكن منذ الآن، أخذت تتخلَى شيئاً فشيئاً عن إدارة بلاكسلاند وول ـ فقد أصبحت المنشأة أكبر من أن تديرها بمفردها. بالإضافة إلى ذلك، فقد أصبح الأولاد مراهقين، وفي منتهى الفرح لكونهم في عهدة عمتهم المتساهلة طوال عشرة أيام.
– كوكتيل الاستقبال في الساعة العاشرة. ولكني لستُ مضطرّاً للذهاب إليه، فهم لم يشتاقوا إليَّ.
قالت بيتي وهي تكبح تثاؤباً:
– لا، يجب أن تذهب. سأتصل بخدمة الغرف ثم سأقرأ.
– لا تنامي باكراً جداً، فسيصبح فارق التوقيت عندك عدة أيام.
– سأنتظرك.
بينما كانت تُخرج ملابسهما من الحقائب، استحمَّ، وحلق ذقنه، وجمع أوراقه وعقد ربطة عنقه. لم يعد راي السابق، بابتسامته الرقيقة وحُبّه للنكات اللطيفة، بل تحوّل إلى المحترم ريموند هنتر، عضو البرلمان للمقعد الفيديرالي لمورتوندال، ووزير الصحة في حكومة الظل.
قال وهو يقبّلها على خدّها:
– لن أتأخّر كثيراً.
– شكراً يا عزيزي.
ووضعت ابتسامة على شفتيها، ولكنها شعرت أن زاوية فمها متشنّجة.
سارعت إلى الرد:
– هناك شيءٌ ما ليس على ما يُرام، أليس كذلك؟
– اشتقتُ للأولاد.

وهناك شيء آخر ولكنني لا أستطيع أن أكلّمك عنه. التقى نظرها بعينيه الزرقاوين ثم قالت:

– سوف أتصل بأختك لأطمئن عن حالهم. وسأشعر بتحسّن بعد ذلك.

– بلّغيهم تحيّاتي.

بعد أن غادر، فتحت بيتي النافذة فدخلت ضوضاء السيارات، وبرودة فصل الخريف. صعدت إلى سريرها المرتفع وتناولت كتاباً، ولكنها لم تستطع أن تركّز على الكلمات. آخر مرة أتت فيها إلى لندن كانت قبيل هروبها مع هنري. وراي لا يعرف شيئاً عن هذا كلّه. لم تكن تريد أن تجعل من ماضيها سراً مظلماً وغائصاً ومخجلاً لكنه أصبح كذلك رغماً عنها. راي لا يعرف أنها رافقته إلى المملكة المتحدة لسبب آخر، فبعد خمس وعشرين سنة، بيتي تريد أن ترى ابنتها.

***

وفاة تشارلي كسرت حياتها وتركتها للعذاب. لكنّ موسم الجز اقترب ولم يتغير فيه شيء. ساعدها ليو سامبسون قدر استطاعته. وتفرّغ بيتر ومات للعمليات. كانت بيتي تبقى في الطابق الأول في غرفتها، تبكي طوال ساعات، تحت النافذة التي ترى منها شجرة السَنْط الفتية التي زرعتها على قبر تشارلي. وفي الليل، تحلم بأنها تحاول أن تلحق به وهو يختفي في عمق ممر مظلم تنتظر فيه أن يعود، على ظهر بيرش، من الجهة الجنوبية من المزرعة. تنتظر، أيضاً وأيضاً، حتى يخيم الظلام وتسودّ السماء الباردة. ثم تستيقظ وتشعر بغيابه من جديد. كانت ذراعاها وساقاها تؤلمها كثيراً بحيث ظنت أنها تحوي مرضاً، ولكنها لم تعلن عن أي مرض. بل بقيت بصحة جيدة إلى درجة أن ذلك بدا لها قاسياً. قلبها محطّم، وجسمها يستمر في العمل دون أدنى ضعف.

في مكان ما من العالم، الحرب تستعر. في مكان ما من العالم، امرأةٌ أخرى تربّي ابنتها. ومع ذلك، كانت بيتي عاجزة عن تجميع ما يكفي من القوة لإدارة هذه الهموم. انصرمت الأشهر في نوع من الانتظار الرهيب في حين أن ألم الحداد ظلّ ثاوياً يرفض أن يتبدد، مثل الضباب الشتوي في الوادي خلف قمة الهضبة. لم تعد ترى نور النهار.

حلّ عيد الميلاد ووجدت بيتي قليلاً من الرضى في تصميم معطف شتوي للوسي. أرسلته إلى اسكتلندا مع رسالة طويلة شرحت فيها لابنتها أن تشارلي قد توفي وأنها لم تكاتبها لهذا السبب. تبع ذلك صمت طويل دون مفاجأة كبرى.

في عيد الفصح كانت بيتي قد كتبت وأرسلت ست أو سبع رسائل. وأخذت تنتظر. ما من رد.

كان غضبها يحرمها من النوم عندما يأتي الليل. وهي تعرف أن هنري ومولي لديهما بكل تأكيد هاتف لكنهما لم يعطياها رقمه. كيف جرؤا على ذلك؟ كل ما تريده هو سماع صوت ابنتها، فهي تجد فيه كثيراً من الطمأنينة. إنها متحرقة لكي تضع هذه الحرب الغبية أوزارها. وفي الدقيقة نفسها سوف تنزل في اسكتلندا وتلتقي بهم. بانتظار ذلك، واصلت كتابة الرسائل والتعبير عن حبها لابنتها، وإرسالها في الفراغ.

بيتي تعرف أن تجارتها تترنح، فبيتر ومات شابان وبدا أنهما غير قادرين على إدارة المزرعة. المحصول الأخير من الصوف كان أفضل محصول عرفته المزرعة. لم يكن المال هو الذي يقلقها ولكن وضع حساباتها جانباً، وأنها تنظم الأشياء باكراً جداً أو متأخراً جداً عندما كانت تفكر بتنظيمها. لقد فقدت القلب الذي كانت تجعله يعمل في منشأتها. في السابق، كان إيقاع المزرعة مرادفاً بالنسبة إليها لحياة جديدة، ولولادة جديدة وللنجاح. أما الآن، فإنها لا ترى إلا الموت عندما

تنظر من حولها، وجواً كئيباً اختار أن يحطّ رحاله في وايلدفلاور هيل، وهي تعرف أن عليها أن تذهب.

وضعت إعلاناً من أجل بيع المزرعة وبدأت تحزم أمتعتها.

وذات صباح نفذت حجّها المعتاد إلى صندوق الرسائل لترى ما إذا كان قد وصلها رد من لوسي. لا يوجد شيء ولكنها وجدت رسالة ممهورة بخاتم الحكومة الاسترالية. قطّبت حاجبيها، فقد خشيت أن تتكلم عن الضرائب أو ربما عن الأخبار السيئة من الخارج. ومع ذلك، لم يكن للرسالة علاقة بمكتب التكليف بالضرائب. ظاهرياً، المجلس الحربي وقّع اقتراحاً ينص على انضمام خمسمائة امرأة إلى سلاح الجو ليكنّ عاملات برق. وكنّ بحاجة إلى لباس موحد: وتنورة من الصوف والبلازر، ويُطلب من بيتي أن ترسل ترشيحها لهذا العمل.

قرأت الرسالة مرتين قرب صندوق الرسائل ثم مرتين أخريين في صالونها. رعشة حارة غزت قلبها كرعشات الربيع الأولى بعد شتاء قارس. كان ذلك مضحكاً. بكل تأكيد هي تستطيع أن تصمم بلازر وتنورة، ولكن من المستحيل عليها أن تصنع بمفردها خمسمائة بزة.

ومع ذلك كل ما يطلب منها هو أن ترسل ترشيحها. وما عليها إلا أن تقوم بتوظيف نحو عشرة موظفات وتشتري العدد نفسه من آلات الخياطة. وما عليها إلا أن تصمم الموديلات وتدير عملية الصنع وتراقبها.

مر الصباح وهي تعمل في مكتبها، ترسم وتخربش وتمزق وتعيد الكرة. لم تعرف فرحاً كهذا منذ زمن طويل بحيث أن انطباعاً نما لديها بأنها سكرى. إنه فرح حقيقي. بعد أن بدأت ست أو سبع كروكيات، ركزت اهتمامها على المظهر الإداري وقدّرت كلفة العرض ورأت ألاّ تكون مرتفعة جداً ولا منخفضة جداً. أخذت أمعاؤها تقرقر فتذكرت أنها لم تأكل. وحين رفعت عينيها عن الكروكيات اكتشفت أن الظلام قد خيم في الخارج ـ فقد عملت في المشروع طوال النهار.

لم تستطع أن تتذكر إلى متى تعود آخر مرة مرّ الزمن فيها بهذه السرعة. منذ وفاة تشارلي، بدت لها كل ساعة طويلة بشكل فظيع. ففهمت ما يمكن أن ينقذها: العمل. ولكن ليس في المزرعة: فلديها كثير من الذكريات هنا.

بعد ستة أسابيع، علمت أنها فازت باستدراج العروض. في تلك اللحظة كانت قد حزمت أمتعتها واستعدت للرحيل. وقد وجد لها أحد السماسرة بيتاً صغيراً في حي هايماركت في سيدني وهي مزودة بقبو واسع ما يكفي لتقيم فيه ورشتها.

صباح مغادرتها لويلدغلاور هيل، كان المطر يهطل. وقد شهدت وصول المديرين الجدد. وكانوا يجرون كيف ما اتفق قطع أثاثهم عبر الوحل وبرك الماء حتى البيت، وأولادهم الثلاثة يذرعون البيت ركضاً مطلقين صيحات الفرح. فرحت بيتي لأن البيت سيعرف من جديد الضحكات والحب. صعدت إلى سيارتها دون أن تنظر إلى قبر تشارلي فهي تعرف أنها ستبكي لو فعلت.

في سيدني التقت براي، بعد أربع سنوات. كانت مدعوة إلى حفل راقص نظم من أجل جمع أموال لصالح جمعية أرامل الحرب. بصورة عامة، كانت تفضّل البقاء بعيداً عن كل نشاط لم تكن تعيش كمنعزلة ولكنها كانت حذرة. فالمكان الذي تعيش فيه الآن مختلف جداً عن ليونيفورد —فلا أحد يعرف أنها أم عازبة مشكوك في أخلاقها. ولا أحد يراها وهي ترسل كثيراً من الرسائل إلى اسكتلندا، إلى ابنتها غير الشرعية أو إلى زوجها السابق وزوجته. ولا أحد، باستثناء ليو سامبسون، يدرك الجهود التي تبذلها للالتقاء بلوسي على الرغم من تعقيد المنظومة القضائية وكلفتها المرتفعة، وعلى الرغم من هذه الحرب التي تتطاول وتضع لها العصي في الدواليب. لا أحد يرى الدموع التي تمسحها عن وسادتها ليلاً عندما تقول لنفسها إن ابنتها لا بدَّ أنها تغيرت منذ آخر

مرة رأتها فيها، وعندما أدركت أنها تتذكر بصعوبة وجه ابنتها وأن غيابها قد طال كثيراً جداً بحيث أن حاجاتها لرؤية ابنتها أخذت تقلُّ.

من وجهات نظر مختلفة، لم تعد لوسي التي كانت تعرفها موجودة. اليوم، بل حلّت محلّها مراهقةٌ مجهولة في مكان ما من العالم. وإذا كانت مخاوف بيتي لها أساس، فإن هنري وموللي قد وضعا كمية كبيرة من السم في حسابها بحيث أن الفتاة الشابة ستبدو معادية إذا ما التقتا ذات يوم.

كانت قاعة الرقص في وينتوورث هوتيل تتلألأ تحت أنوار الثريات المبهرة. وُضعت عشرات الطاولات مع أوان من البورسلين والفضة لاستقبال وجبة مكونة من خمسة أطباق. لكنَّ بيتي كانت قلقة جداً بحيث أنها لم تستطع التفكير في الطعام. فعليها أن تلقي خطاباً. فقد أصبحت امرأة مشهورة في سيدني منذ أن اختارت موديلاتها سلسلةٌ من المحلات الكبرى الأمريكية. وبعد ذلك أصبح التصدير يمثل حوالي ستين بالمائة من عملها. لم تعد تصمم ملابس للحكومة والشركات، بل للمخازن الكبرى ومحلات الموضة. نجاح موديلاتها، الجميلة والعملية في آن واحد، كان يعود إلى أن النساء يرين أنفسهن الآن أشخاصاً يمتلكون سلطة أكثر وقدرات أكثر. وبالتالي فإن بيتي، المرأة الشابة الغنية والمستقلة صارت ترمز هي وحدها إلى هذه الصفات كلها. وقد نشرت المجلة الأسبوعية *ذي أوستراليين وومن* مقالاً عنها قبل عيد الميلاد ولاحظت أنها أصبحت معروفة في الشارع أحياناً.

تقاطر مدعوو المجتمع الراقي. نساء بفساتين طويلة ومطرزة وبفرو من جلد الثعلب ومحفظة من جلد الأيّل. ورجال ببدلات من قطعتين وربطة عنق ذات نابض ذهبي ومنديل من الحرير. فقد اختارت بيتي لباساً من تصميمها: تنورة قصيرة ذات طيات واسعة وبوليرو صغير فوق قميص مقوّر من الحرير. وكانت تضع زهرة من الحرير على كتفها وتنتعل حذاءً عالي الكعبين مزيناً بعقد صغيرة. امتلأت الصالة بدخان السيجار ووجدت بيتي

عناء في التنفس. طلبت كأساً من البراندي من نادل يمر بجانبها ففوجئ بأنها ابتلعت الكأس بجرعة واحدة. وقالت له وهي تناوله الكأس:

- شكراً. أشعر بتحسن.

وأخيراً، حان وقت الخطاب. خفتت الأنوار. واتجهت نحو المنصة، وتشنّجت خلف الطاولة كما لو أن حياتها تتعلق بهذه اللحظة، وأخذت نفساً عميقاً.

طُلب منها أن تروي قصة نجاحها، وما أوصلها إلى هذا النجاح. ولكنها اضطرّت أن تُغفل أموراً كثيرة من روايتها. نعم، لقد هاجرت من اسكتلندا، وقارعت الفقر وعملت عند مرغريت داي، وأعادت تركيب أزرار لستَرات الناس، ولكنها لم تذكر الطفلة التي وجب عليها أن تربّيها، ولا الزوج المدمن على الكحول والمقامر الذي هجرته، ولا رب العمل الفاسق التي أحبطت ألاعيبه. نعم، لقد أتلفت يديها في جمع المواشي في شتاءات طويلة، ولم تكن تأكل إلا قطعاً من الأرانب البرية، والجزر الأبيض على أنه وجبة عشائها، مساء في البيت. ولكنها لم تذكر الرجل الذي علّمها ركوب الخيل، والذي أحبّها وساعدها في الأوقات العصيبة. وهكذا قامت راوية قصة حياتها على حذف اللحظات القوية وجعلها أكثر تفاهة. ومع ذلك، لم يكن من الممكن لها أن تقدّم نفسها أمام سكان سيدني الأكثر غنى، وتعترف بأن لها طفلة غير شرعية، وبأنها كسبت المزرعة عن طريق رهان مريب، وعاشت قصة حب ملتهبة مع رجل أسود. تساءلت ما إذا كانت هذه الحقائق غير المستساغة السماع سوف يُسلّط عليها الضوء ذات يوم، أو ما إذا كان سكان ليوينفورد قد فرحوا كثيراً برحيلها بحيث أنهم فضّلوا ألّا يذكروا اسمها أبداً، أو ما إذا كانت روحهم الضيقة لم تُقم وزناً لنجاحها العالمي.

أنهت خطابها مع انطباع بأنها ليست في مكانها، بينما أخذ الحضور يصفّقون لها بحماسة. ذُهلت! فقد كانت تظن أنها سبّبت السأم في نفوسهم. فتمتمت:

- شكراً! شكرا!.

صدحت الموسيقى وهي تغادر المنصة وسارع الحضور إلى حلبة الرقص. عادت إلى مكانها حيث كانت بانتظارها حصّتها من الثلج الذائب. شعرت بالجوع فجأةً فالتهمت طبقها، فشعرت بالغثيان. على طاولتها شمَّ المدعون الآخرون رائحة ماء الكولونيا الغالي الثمن وكريم الشعر. مالوا نحوها، وقالوا لها كم أعجبوا بخطابها ثم ذهبوا إلى الرقص. ظلّت جالسة، وحيدة، وتساءلت بعد كم من الوقت يمكنها أن تستأذن دون أن تبدو وقحة.

- الآنسة بلاكسلاند؟

رفعت رأسها لتكتشف أمامها رجلاً طويل القامة أشقر الشعر جميل العينين، يرتدي بدلة من الصوف مقلّمة وأنيقة التفصيل.

- هل يمكنني أن أدعوك إلى الرقص؟

نظرت بيتي إلى حلبة الرقص قبل أن تركز اهتمامها من جديد على هذا الرجل. إنها لا تجيد الرقص، فمصادفات الحياة لم تقدها يوماً إلى حفلة راقصة. فالنساء الأخريات كنَّ أنيقات ويعرفنَّ ماذا يفعلنّ.

أجابت:

- أنا آسفة، فليس لدي رغبة في الرقص.

تردد وتساءل ما إذا كانت ترفضه بصورة نهائية، ثم سألها:

- إذن، هل يمكنني أن أقترح عليك كأساً من الشمبانيا؟

لامت نفسها على رفض دعوته إلى الرقص لأنه يبدو لطيفاً حقاً، فقالت:

- طبعاً، بكل سرور.

انتظرت عودته وهي نادمة لأنها لم تنسحب عندما كان الوقت ما يزال مناسباً.

جلس بجانبها وناولها كأس الشمبانيا. شربت منه جرعات صغيرة وبطيئة وهي مدركة أن الكحول سوف يصعد إلى رأسها مباشرة لأن معدتها فارغة.

- اسمحي لي أن أقدّم نفسي كما يجب.

كانت نظرته مستقيمة وملحّة وهو يضيف:

- أنا أدعى ريموند هنتر، نائب مورتوندال.

- تشرفت بمعرفتك.

- لقد أحببت خطابك كثيراً.

- ظننت أني سببت الملل للجميع.

- أبداً. أعتقد أننا كنا جميعاً مسحورين بكلامك، أو على أية حال، أنا كنت كذلك بكل تأكيد.

لا تشربي بسرعة يا بيتي. وضعت كأسها وأخذت نفساً طويلاً ثم قالت:

- آه، منذ كم من الزمن وأنت عضو في البرلمان؟

- ثلاث سنوات ونصف. حتى وإن كان لديّ انطباع أحياناً بأني فيه منذ قرون.

ضحكت بخفة فشعر بتشجيع وروى لها بضع قصص عن حياته في كانبيرا. شعرت بأنها مجردة من سلاحها بسبب سخريته من نفسه وانتهى بها الأمر بأن أخذت تضحك بقوة مثل سيدة المجتمع ذات الوجه الأحمر التي أفرطت في الشرب على الطاولة المجاورة. تبخرت رغبتها في مغادرة المكان، وحين سألها ما إذا كان يستطيع أن يتصل بها في اليوم التالي ليدعوها إلى العشاء، لم تقل لا، ولكنها لم تقبل دعوته أيضاً، بل قالت وهي تريه كأسها الفارغة:

- سوف تطرح من جديد السؤال غداً عندما أكون متقشفة. سوف أعطيك رقم هاتفي في العمل.

سجّل رقم هاتفها ورافقها إلى سيارة أجرة أمام مدخل الفندق. وفي أثناء طريق العودة كانت ما تزال ابتسامةٌ عالقة على وجهها، واحتفظ خداها باحمرارهما، وما زالت تضحك من نكاته.

كان من الصعب على بيتي أن تتعلم فصل فضاء حياتها عن فضاء عملها. ففي السنتين الأوليين لها في سيدني كانت تسكن فوق مشغلها فكانت موجودة في العمل منذ يقظتها وحتى نومها. أما الآن، فهي تركب القطار حتى كاستلريغ ستريت كلَّ صباح لكي تصل إلى مشغلها الصغير حيث مكتبها وهاتف ينتظرانها في زاوية وحيث آلات الخياطة الكهربائية تصخب طوال النهار. اتصل بها راي بعيد ساعة الغذاء. وافقت على ألا يتصل، وخلافاً لكل توقع، شعرت بالخيبة لذلك.

عندما جدد اقتراحه باصطحابها إلى العشاء وافقت.

وهكذا، رغماً عنها تقريباً ورثت فارساً جديداً مرافقاً.

الفصل التاسع والعشرون

لم تكن بيتي تنوي أن تُخفي وجود لوسي عن راي. ولكنْ هذا حصل رغماً عنها تقريباً. فقد التقيا مرتين قبل أن يعود إلى كانبيرا من أجل عمله في البرلمان. ولم يكن قد قبّلها بعد، بل أمسك بيدها فقط. إن الوقت ما يزال مبكراً لإطلاعه على ماضيها السيئ. غاب لمدة شهرين، كتب لها في أثنائهما بضع رسائل مليئة بالأفكار المضحكة. ووعدها بأن يدعوها من جديد إلى الخروج بعد عودته. وعادت حياتها إلى سيرورتها الطبيعية دون أن تفكر فيه تفكيراً حقيقياً.

عاد قبيل عيد الفصح، وفوجئت بالاهتمام الذي أحاطها به وبالطريقة التي كان يكلمها بها كما لو أنهما زوجان. أخذها إلى مطعم على بيت ستريت وقال لها كم هو مشتاق إليها فشعرت بالفخر، لا شيء أكثر.

لا شيء أكثر، حقاً؟ فقد كانت تشعر بارتياح برفقته، فهو يعجبها، يعجبها كثيراً: إنها تحبُّ نظرته الهادئة ومزاحه الطفولي.

أمام الباب، في ذلك المساء، طبع قبلة رقيقة على شفتيها. فتصرفت بطريقة غريبة إذ ضمت جسدها إلى جسده وقبّلته بحرارة. لم يحتضنها أحد بهذه الطريقة منذ زمن طويل. ولكنه أفلت من بين ذراعيها بهدوء وأخذ يضحك، ثم قال:

- لديَّ مفاجأة لك في عطلة الأسبوع القادمة.
- ما هي؟
- إذا قلتها لك فلن تكون مفاجأة.

انتظرت أن يمضي الأسبوع وفكّرت فيه بطريقة غامضة في وقت فراغها. ومع ذلك، فإنها ما تزال لا تأخذ كلامه على محمل الجد.

يوم الجمعة تلقّت بطاقة من راي يقول لها فيها بأن تكون جاهزة للذهاب صباح السبت وأن تحمل معها ما تراه ضرورياً لقضاء ليلة. نفذت كلامه محدوّة بالفضول. أشياؤها من أجل ليلة: هل يعني هذا أنهما سينامان في سرير واحد؟ وربما كان عناقهما المحموم في ذلك المساء هو الذي أعطاه انطباعاً بأنها ستكون موافقة. هل ترغبه؟

وصل بسيارته الدودج الضخمة قبيل الساعة التاسعة. كان يعتمر قبعة رخوة وصدّاراً مشغولاً من الصوف. كان وسيماً بقامته الفارعة كقامة بطل وشعره الأشقر. ومع ذلك خلف ملامحه كشاب صغير، كان رجلاً يمتلك كثيراً من السلطة والمسؤوليات العامة. تساءلت ما إذا كان تصرفه سيكون نفسه عندما كان في كانبيرا. حمل حقيبتها في السيارة وانطلقا. فسألته:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

رد بابتسامة:

- إلى الجبال.

كان هواء الخريف نقياً وبارداً، والوديان تسبح في ضباب شاحب أزرق اللون والشمس تسطع على غطاء السيارة وعلى الأوراق الصفراء للأشجار التي تساير الطريق. شعرت براحة وهي جالسة بصمت تنظر إلى المشهد المحيط. صحبته سهلة ومريحة. ألقت إليه نظرة فرأته ينظر إلى الطريق. لكنه قال لها:

- أنا أراك يا بيتي.

ضحكت. فأضاف:

- من زاوية عيني.

– وماذا سنفعل في الجبل؟
– أبواي يسكنان في كاتونبا، وسوف تلتقين بهما.
تجمد دمها. هل يأخذها لمقابلة أبويه؟ هل الأمور جدية بينهما؟ إنها لم تقل له شيئاً بعد عن ماضيها. وهل يجب عليها أن تفعل ذلك؟
– حقاً؟
– لا تقلقي، فهما لطيفان جداً.
– أنا... أنا لم أفكر بأنك تريد أن تعرفني إلى أسرتك بهذه السرعة.
ألقى نظرة سريعة عليها ثم ركز انتباهه على الطريق من جديد، ثم قال:
– نحن نلتقي منذ شهر كانون الثاني، أليس كذلك؟
– أوه بلى. ولكنك ذهبت إلى كانبيرا لمدة شهرين.
– أشعر بأني أحمق يا بيتي. هل في حياتك شخص آخر؟
سارعت إلى الرد:
– لا، بكل تأكيد لا.
– إذن، ما الضير في أن تقابلي أبويّ؟ لديهما بيت صغير للضيوف مجاور لمزرعتهما. وهذا فقط من أجل الخروج من المدينة، فهواء الجبل منعش جداً.
لم يتأخر في نسيان خيبة أمله وأخذ يغني أغنية تيرولية.
ضحكت بيتي فشجعه ذلك على الاستمرار. فضحكت أكثر حتى أحسّت بألم في خاصرتيها ودمعت عيناها.
كان أبواه لطيفين جداً كما قال لها. وقد مرّ النهار بين غذاء طويل ومشي طويل، ثم انسحب راي وبيتي في برودة المساء إلى بيت الضيوف الصغير.
قال لها وهو يفتح الباب بالمفتاح:
– هناك غرفتان، كما سترين. ولكن هناك حمّام واحد. وسوف نذهب إلى عند أبويّ لكي نتناول الفطور غداً. تفضلي بالدخول.

دخلت أولاً إلى البيت ذي السقف المنخفض. وكانت تخيم عليه رائحة خفيفة لرماد بارد وكتب قديمة. اتجه مباشرة إلى المدفأة لكي يشعل النار. وكان هناك كنبة كبيرة أمام المدفأة ورفوف كتبٍ تزين الجدار. قال لها وهو يشير إلى قطعة الأثاث بحركة من كتفه:

– هناك زجاجة بورتو في الخزانة. هل تشربين كأساً معي؟

– بكل تأكيد.

وجدت الزجاجة ووضعت كأسين وجلسا لينظرا إلى النار.

وضع يده على ظهر الكنبة، خلف كتف بيتي فشعرت بالرغبة تدغدغ جلدها.

سألها وهو يلتفت نحوها وقد ذهّب ضوءُ النار وجهه:

– هل يمكنني أن أطرح سؤالاً يا بيتي؟

– ما هو؟

– هذا الصباح في السيارة شعرت أنك متحفّظة في أن تكوني معي.

– لا، أبداً. فأنا أحب كثيراً أن أكون معك.

– أنا أقصد متحفّظة لفكرة أن نكون... كزوجين معي، أن نتعلم أن يتعرّف أحدُنا إلى الآخر ربما من أجل أن نمضي... بعيداً.

رفّت بيتي أهدابها، فقد آن الأوان لكي تكلّمه، لكي تحدثه عن لوسي، وعن تشارلي، وعن الطريقة التي ورِثت بها وايلدفلاور هيل. ومع ذلك، فهي تعرف أن راي قد انتظر أشهراً قبل أن يقبلها، وأنه من نوع الرجال الذين يتخلصون بلباقة من عناق حار. فكيف تعترف له بأنه لم يكن لديها عاشق واحد، بل اثنان؟

مستحيل. إنها لا تستطيع، وحسْب. لوسي لن تكون جزءاً من حياتها ما دامت الحرب مستعرة، على أية حال. لذا ربما لم يكن من الخطورة بمكان إذا لم تحدثه عنها الآن، في هذه الغرفة المضاءة بنار المدفأة، ونظرة راي غائصة في عينيها.

قالت له:

– أنت رجل رائع.

– ولكن...؟

– لا يوجد ولكن.

– إذن أنا لم أكن أحمق عندما أتيت بك لرؤية أبويّ اليوم؟

– أبداً.

وأمسكت بيده وضغطت عليها.

قال لها:

– أنت تستحقين رجلاً أفضل مني، أنت تستحقين أن تكوني مع شخص لا يغيب نصف السنة.

– لا يهمّني ذلك. فقد اعتدت أن أكون وحيدة.

– ألن تري أحداً آخر عندما أكون غائباً؟

هزّت رأسها وقالت:

– أعدكَ بذلك يا راي. لا أحد سواك يعنيني.

بيتي تعرف أن الحقيقة لن تلبث أن تظهر لأنها سترى لوسي من جديد يوماً ما. ومع ذلك فإن المشكلة لم تقع عندما كان راي غائباً، وعندما عاد، بل في أن بيتي كانت أكثر انشغالاً من أن تفكّر فيها. فقد انتهت الحرب أخيراً، وفي الأسبوع نفسه وصلتها رسالة من اسكتلندا.

كانت إحدى رسائلها وقد كُتب عليها: «غير معروف بهذا العنوان».

شعرت بالغضب والحيرة واليأس. فمنذ متى غيّروا مسكنهم؟ ولماذا لم يخبروها؟

ذاك المساء، على العشاء، لاحظ راي أنها كانت ساهمة ومشغولة البال، لكنها لم تقل له أن لديها مشكلات في العمل وإن عليه ألّا يقلق. لعنت نفسها لأنها لم تعترف له بالحقيقة بكل بساطة. إنه رجل طيب، وسوف يتفهّم الأمر، وسوف يقول لها لا بأس في ذلك، ولن يرى فيه أي عائق.

ولكنه نائب في البرلمان أيضاً. وعمله يرتكز على صورته: رجل لا يلطِّخه شيء، شريف وجدير بالثقة. غمرها حزن رهيب فهي تخاطر بأن تسبِّب له الضرر. وعليها أن تخرج من حياته وتدعه يكمل من دونها، أن يغازل ويتزوج من امرأة لا شيء يسيء إليها، امرأة لا تقبّله علناً.

في تلك اللحظة بالذات اختار أن ينهض عن كرسيه وأن ينزع فوطته وأن يضع ركبة على الأرض أمامها. في المطعم، تنبّه إليه الزبائن الآخرون وتبادلوا الهمسات.

فقالت له:

– لا يا راي، لا!

عبثاً.

– بيتي...

– ليس هنا.

ولكن كان الأوان قد فات. فقد أخذ الحضور جميعاً ينظرون إليهما. فاضت عيناها دموعاً. وبدا وكأنه يفيض أملاً. أراد أن يمسك بيدها، ولكنها دفعته، ثم قفزت عن كرسيها وأسرعت نحو الباب.

في الخارج كان يغزو هواءَ المساء صوتُ السيارات ودخانُ سجائر المارة.

وجدها تبكي على درجة أمام بيتها. ففي أثناء تسرعها وجريها المجنون أضاعت مفاتيحها: رصاصة الرحمة.

قال لها أمام المدخل:

– أنا من يجب عليه أن يبكي.

رفعت رأسها نحوه وقالت:

– لقد أضعتُ مفاتيحي.

ناولها إياها وقال:

– وجدتها على أرض المطعم. لقد كان شيئاً جميلاً أني جثوت على ركبتيّ، فقد وجدتها بسهولة.

- أنا آسفة جداً يا راي.
- هل يمكننا أن نتكلم في الداخل؟ فالجو بارد قليلاً في الخارج.
أشارت إليه أن يقترب ثم فتحت الباب. أضاءت المصابيح على جانبي الكنبة وسحبت الستائر، وأخذ قلبها يزمجر في صدرها.
قال وهو يجلس على كنبة قرب المدفأة:
- إذن، إذا فهمت جيداً، فأنت لا تريدين الزواج مني؟
- ليس الأمر بهذه البساطة.
- إذن، أنت تريدين الزواج مني؟
الزواج. آخر مرة فكرت فيه كانت مع تشارلي. وعند وفاته تخيلت أنها ستبقى عازبة إلى الأبد. سألته:
- ولماذا الآن؟
- لقد انتهت الحرب، والحياة ستستمر.
جعلتها هذه الفكرة حزينةً جداً لسببٍ تجهله. الحياة مستمرّة عملياً. وحياة بيتي مستمرة بعيداً عن ابنتها. الآن، بلغت لوسي سن السادسة عشرة، ولم تعد طفلة. وبيتي تريد أن تلتقي بابنتها، بجسمها الخفيف وبنظرتها الواثقة. إنها تطلب المستحيل.
قالت له:
- أنا لستُ من تعتقد.
- بل أنتِ هي.
- أنا... ماضيّ ليس
- كان لديك عشّاق؟ لقد عرفتُ ذلك منذ أن قبّلتُك أول مرة. وأنا أيضاً عرفتُ نساء. وها هن لم يعدن موجودات الآن، وأنا موجود.
فاجأها ردّه فقالت:
- ولكن سمعتك...
- بيتي، لقد تجاوزنا نحن الاثنين سن الثلاثين. وفي الحكومة، لا أحد يتوقّع أن أتزوّج من عذراء.

لم تتمكّن من النظر إلى عينيه، وهو يضيف:

- يمكننا أن نبقى مخطوبين المدة التي تريدينها، فلا شيء يلحّ علينا. ولكني أرى نفسي أشيخ إلى جانبك، يا عزيزتي. أرجوك أن تدعيني أشعر أن حلمي أصبح واقعاً.

بكت.

- ها أنتِ ستقولين لي لا، أليس كذلك؟

- نعم، أقصد، لا. لا أريد أن أقول لك لا، بل أقول لك نعم.

دنا منها وحملها وضمّها إليه بقوة وقال:

- سأعتني بك جيداً يا حبيبتي، ولن أدعك تسقطين أبداً.

أكثر من مرة كانت بيتي تريد أن تبوح له بالحقيقة. قبل احتفال خطوبتهما، وبعد احتفال خطوبتهما، وقبل أن يمارسا الحب أول مرة، وبعد أن مارسا الحب أول مرة. ولكنها لم تكفّ عن تأجيل اعترافها. وطوال ذلك الوقت، كانت تكاتب كل من تعرفه في غلاسكو طالبة المساعدة لإيجاد عائلة ماك كونيل. حصلت على ستة عشر عنواناً مختلفاً لهنري ماك كونيل في تجمّع غلاسكو بأكمله. وأرسلت رسالة إلى كل عنوان من هذه العناوين، ولم يأتِها أي جواب.

لا ريب في أنها تريد أن تقول كل شيء لراي قبل الزواج المتوقّع في شهر تموز من العام المقبل. ولكن فجأةً، أُعلِن عن انتخابات، فاختفى راي السعيد والسهل والمرِح الذي كانت تعرفه. وبات مشغولاً بصورة دائمة، ومنهكاً باستمرار، متوتِّراً في جلساته الخاصة، وساحراً باستمرار علناً. سألته بيتي ما إذا كان يريد أن يؤجّل زواجهما إلى ما بعد الانتخابات، فأجاب بأنه يريد أن يتزوّجا قبل الانتخابات، وبالتالي،

فقد شُغلت بتنظيم حفل الزواج في البلدية. ولم تمضِ ثانيةٌ دون أن تخشى الحدث، ولا ثانية.

يجب أن تقولي له.

كانت تنزي ذلك دون وصول الرسائل. ولكنها تلقّت رسالتين في يوم واحد، وبطابع مطابق. دون ذكر عنوان المرسِل على الغلاف، وكانت إحداها بخط مولي.

كانت بيتي في بيتها، وقد أخذت يوم إجازة استثنائية. جلست حافية القدمين لتستفيد من الشمس التي تنير صالونها فترة طويلة من الصباحِ، على كنبة والرسالتان بيده، ولكن لا تبدو لها الشمس حارة كثيراً الآن.

فتحت الرسالة الأول، وفتحتها ببطء. مولي.

عزيزتي بيتي،

نحن نعرف أنك حاولتِ أن تجدينا، ونطلب منك بكل احترام ألاّ تتصلي بنا بعد الآن. نحن جميعاً سعداء بالحياة التي نعيشها وليس لدينا أية رغبة في أن نتذكّر الأوقات الصعبة التي عشناها في أستراليا. لقد صارت لوسي صبية جميلة ومن المهم أن أصدقاءها الحاليين والمحتملين أن يستمرّوا في الاعتقاد بأني أمها البيولوجية. وأنا أعرف أنك متعلّقة بها ما يكفي لتركها بسلام.

المخلصة مولي.

جعلها الغضب الشديد راغبة في تكوير المغلف حين أدركت أنه يحوي رسالة أخرى. فتحت المغلف فسقطت صورتان على ركبتيها.

حبست أنفاسها. إنها لوسي، كبيرة. صبية، وكانت تنظر إلى عدسة آلة التصوير دون أن تبتسم. تعبير هنري المعتاد. وكانت الصورة الثانية للعائلة حيث يظهر الثلاثة. بدت مولي وقد شاخت بشكل فظيع. وبيتي

تعرف أنها تدفع ثمن ذنبها: ونطلب منك بكل احترام الاّ تتصلي بنا بعد الآن...

كيف جرؤت؟ وأيّ نوع من الأمهات تعدّني؟ هل تعتقد مولي حقاً أنها قادرة على أن تهجر ابنتها بهذه السهولة؟

ركزت انتباهها على الغلاف الثاني. قد يكون آتياً من إحدى عائلات ماك كونيل التي اتصلت بها.

ولكن لم يكن الأمر كذلك، بل هي رسالة من لوسي شخصياً.

عزيزتي بيتي...

زمّت بيتي أنفها. لم تقل *عزيزتي ماما*. في تلك اللحظة بالذات أدركت المنعطف الذي ستتخذه الأمور.

الا تريدين أن تتركيني أعيش حياتي بسلام؟ لقد تلقيت رسائلك كلها ولم أكلف نفسي عناء قراءتها. أنا أقدر كل ما فعلته من أجلي عندما كنتُ طفلة. وقد قال لي بابا إنه يجب عليّ أن أحبك لأنك أبعدتني عنه بينما كان غائصاً في الخطيئة. وهذا أيضاً ما فعله حين أتى بي إلى هنا وأنا ممتنة له كل الامتنان. مثلما أشكر مولي التي أعدّها أمي الحقيقية الآن. أحب اسكتلندا، وليست لي أية رغبة في العودة إلى جانبك، لا في المزرعة ولا في أي مكان آخر. اتركيني بسلام.

لوسي ماك كونيل.

وجّه هذا الرفضُ لكمةً قوية لها. أحسّت بألم في بطنها. وضعت الرسالة جانباً وأمسكت بالصورة من جديد. هذه الغريبة المجردة من الابتسام كتبت هذه الرسالة. لوسي ملاكها الصغير الأصهب، اختفت منذ زمن طويل.

لقد خبأت لها النجوم مصيراً عنيفاً. فلوسي لا تريد أن تعرف بيتي، وبيتي لا تريد أن يعرف راي بوجود لوسي.

وهكذا، لم تفاتح راي بشيءٍ بسبب عجزها في وجه الأحداث. وما كان يجب ألا يبقى سرّاً أبداً ها قد انتهى به الأمر بأن أصبح كذلك.

***

شعرت بيتي بيد باردة على خدها، فتحت عينيها بأنفاس متلاحقة. فقال لها راي:

– ما هذا إلا لأنكِ تركت النافذة مفتوحة. والطقس مثلج هنا.

عادت إلى نفسها. هما في لندن وقد عاد راي من غشاء الترحيب. قالت:

– لقد نمت كقتيلة.

– هذا لأن هناك فارق في التوقيت، وستعتادين عليه بعدَ يوم أو يومين.

سألت وهي تغلق النافذة:

– كيف كان الاستقبال؟

– لم تكن مملة كالاجتماعات التي حضرتها من قبل، ولكنها ليست بعيدة عن ذلك.

انتصبت وأبعدت شعرها الذي كان يغطي عينيها وسألته:

– راي، ستكون مشغولاً في الأيام القادمة أليس كذلك؟

– بكل تأكيد.

– إني أتساءل ما إذا كنتَ ترى مانعاً في أن أذهب إلى غلاسكو غداً وأمضي الليلة فيها.

– إلى غلاسكو؟ لم أكن أعرف أنه ما يزال لك عائلة هناك.

– لم يعد لدي عائلة هناك، ولكني... أرغب أن أرى كيف تغيّرت المدينة منذ أن غادرتها. وكان ذلك منذ زمن طويل.

زمن طويل جداً. وقد عادت في سن الخامسة والخمسين تقريباً بشعرها الأشيب وببشرتها التي أصبحت ناعمة جداً. لقد أصبحت لوسي في الخامسة والثلاثين. إن التحري الخاص الذي وظفته قال لها إن لديها ولدين. وقد أصبحت جدة، وهذه فكرة ملأتها بالفضول أكثر من الفرح.

سأل وهو يفك ربطة عنقه:

– هل هي بعيدة؟

– سأركب القطار.

– لا، لا. اطلبي من سائق أن يوصلك بالسيارة.

– ولكني سأكون هكذا مضطرة إلى فتح حديث معه. لا، فأنا أرغب في أن أقرأ كتابي مع فنجان من الشاي.

داعب يدها ثم قال:

– كما تريدين، ما دام هذا يسعدك.

أدارت له ظهرها لئلا يرى وجهها وقد تغير تعبيره.

طلع صباح حزين على لندن: شوارع رمادية وسيارات أجرة ومظلات سوداء وأوراق خريفية مبللة في القنوات الموازية للشوارع. ذهب راي وكانت ما تزال تحزم حقيبتها. لم تتمكن من التركيز، ولم تكف عن نسيان ما وضعته في حقيبتها.

وأخيراً وصلت إلى محطة كينغس بعد كروس وحذائها مبلل وطلبت تذكرة لقطار الساعة العاشرة.

قال لها رجل شباك التذاكر:

– هناك تأخير على الخط وسيتأخر القطار عشرين دقيقة.

أخذت تذكرتها وجلست على مقعد بينما كانت المحطة في فوران كامل. رجال ونساء يرتدون سترات قصيرة ويحملون مظلات يمرون قربها. أغمضت عينيها، وفكرت بأستراليا وبالشمس. وافتها صورة نهار حار في وايلدفلاور هيل: لوسي في الحديقة مع ميكائيل والشمس تسطع

على شعرها. لم تشتق إلى تاسمانيا منذ زمن طويل، فقد غدت سيدني بيتها. ولكنَّ التفكير كثيراً بلوسي منحها الحنين إلى صمت الريف الطويل وإلى عطر أشجار الأوكاليبوتس وإلى ضوء النهار النقي.

عندما غادر المدراء الأوائل لوايلدفلاور هيل عام 1951، شجعها راي على عرض المزرعة للبيع، قائلاً:

– ليس لديك الوقت للاهتمام بها ولا يمكننا أن نسكن فيها باستمرار. لقد انتخبت في البرلمان، ومكاني هنا، بين ناخبيَّ.

– أعرف، أعرف.

في تلك الفترة كان لديها ولدان في سن صغيرة تحملهما دائماً في الأوقات التي لا تكون مشغولة فيها. إنهم يملكون الوسائل للاستخدام مرضعة أربعة أيام في الأسبوع، ولكنَّ نهارات بيتي كانت مليئة أكثر من أن تستطيع القيام بمشروع آخر. ومع ذلك كان من المستحيل عليها القيام ببيع وايلدفلاور هيل لسبب بسيط هو أن تشارلي مدفون فيها.

لا تستطيع أن تقول شيئاً لراي. فما من رجل يحب أن يسمع أنه ليس الحب الكبير في حياة زوجته.

ومع ذلك ماذا ستفعل بألاف الخراف؟ اتصلت بليو سامبسون الذي اقترح عليها أن تقسم المزرعة. كان سعر الصوف يرتفع بشكل هائل: هي ستجد من يأخذه دون مشكلة. وتستطيع بيتي أن تحتفظ بالبيت وبفنائه وبكوخ الجزازين وبالإسطبل الجديد، وتبيع الباقي. والمالكون الجدد يمكنهم أن يبنوا بيتهم على الجزء الجنوبي من المزرعة.

اتصل بها في وسط الأسبوع وقال:

– حسنٌ، ربما لن تقدّري سماع ما سأقوله لك بينما أود أن أتأكد من أنك جالسة.

– هيا قل.

– آل هارو مهتمون بالمزرعة.

- آل هارو؟ تيلي وفرانك؟
- نعم، أعرف أنك لا تحبينهما، وأنا كذلك ولكن على أية حال...
- حدد مبلغاً يفلسهما. الصوف عمل مزدهر، وسوف يدفعان. وإذا وافقا، فلماذا لا أقبل مالهما؟
تردد ليو فقالت له:
- أنا مضطرة حقاً لأن أتركك.
- سوف أرى رأيهم. اعتني بنفسك يا بيتي.
- وأنت أيضاً.

الأطفال غيّروهما. فلم يعد لديهما الوقت للنقاش لساعات طويلة. الحق يقال، كان الاثنان أكبر سناً وأكثر استقراراً في عاداتهما من أن ينجبوا أطفالاً، ولكن انتهى بهما الأمر بالاقتناع بالأصوات المحيطة. كانا زوجين سعيدين، شخصين عموميين يحتاجان من الآن فصاعداً إلى ذرية لكي يمتنا صورتهما. صبي من أجله وبنت من أجلها.

كانت ولادة ميكي مختلفة كثيراً عن ولادة لوسي قبل عشرين سنة. فهذه المرة تدخل الأطباء، وأرادت المرضات فصلها عن طفلها لئلا يعدنه إليها إلا كل أربع ساعات. فكان متشوقاً جداً لكي يتمكن من الرضاعة واضطرت إلى أن تضع الزجاجة في فمه، فقالت بيتي لراي إنها تريد أن تغادر المشفى فوراً.

ولكنه أصر:
- ولكن ألا يجب أن تستمعي إليهم؟ فلديهم خبرة مع الأطفال نحن لا نمتلكها.

أقنعته وعادا إلى البيت مع ميكي. تغذى من حليبها ونام في سرير بجانب سريرهما في خلال الأشهر الستة الأولى من حياته، مثل لوسي.

أنجبت طفلين كبيرين وجميلين ولم تشأ أن تنجب غيرهما، لكنّ راي أخذ حرية التعرض لاستئصال المثانة دون أن يكلمها بذلك. لم تعرف لماذا

أزعجها هذا الأمر كثيراً لكنّ هذه الصفاقة كانت الأولى في قائمة طويلة أضعفت ارتباطهما. وغيابه في أغلب الأحيان يتركها تهتم وحيدة بالطفلين وتدير أعمالها أسهم في ذلك أيضاً. إنه لم يعر أهمية حقيقية لعمل بيتي مثلما كان يفعل بالنسبة إلى عمله.

ما زال يحبها، وهي أيضاً. لكنّ عملية شيخوختهما معاً لم تبدُ لهما رومانسية جداً، بل في بعض الأيام كانت تبدو تحدياً.

أعاد ليو سامبسون الاتصال مع بيتي قبيل موسم الجز. لقد اضطرت إلى تشغيل موظفين وأخذت تنتظر بفارغ الصبر أن تمر الأمور بخير، كما حصل حتى الآن. فقد كانت تخشى أن تسمع خبراً سيئاً.

أخبرها ليو:

– لقد قبل آل هارو عرضك.

– حقاً؟ هل استطيع أن أحتفظ بالبيت والفناء؟

– سوف يبنيان بيتاً في أسفل المزرعة قرب خزان الماء. هل تريدين أن أرسل إليك العقود؟

– سأكون في غاية السعادة!

جناحهما في إيدجكليف أصبح صغيراً عليهما. وبالتالي استفادا من هذه النعمة للقيام بشراء بيتٍ كانا مترددين بالقيام به لمدة طويلة: بيت خرب ولكنه يسبح في أشعة الشمس في بوينت بايبر.

كانا يعيشان فيه منذ سنة حين اتصلت تيلي ببيتي. كانت المربية، وهي مهاجرة يوغسلافية اسمها إيفونا، والأولاد يلعبون بصخب في غرفة الجلوس، وبيتي في مكتبها تحت النافذة التي توفر لها إطلالة على المرفأ، تحاول استدراك التأخير في مراسلاتها التي أهملت منذ زمن طويل. أحبت ألاّ ترد على الهاتف، لكنّ راي مسافر ولا تريد أن تفوّت اتصاله.

- ألو؟

- بيتي بلاكسلاند؟ أنا تيلي هارو. لا أعرف ما إذا... كنت تتذكرينني؟

نعم، فبيتي تتذكرها. إنها تتذكر كل واحد منهم، وتتذكر الطريقة التي عاملوها بها، والقصص التي رووها عنها. إن لهم جزءاً من المسؤولية في فقدانها للوسي، ولكنها لم تقل شيئاً عن ذلك.

بكل تأكيد يا تيلي.

تلا ذلك صمت طويل. تساءلت بيتي للحظة ما إذا كان هناك مشكلة في الخط، ثم سمعتها تأخذ شهيقاً طويلاً ومرتعشاً. إنها تبكي.

- ما الأمر؟

- هل يمكنك أن تساعديني؟ فنحن نشرف بهذه المزرعة منذ سنة والأمور لا تسير على ما يرام. لقد قمنا بجولة في المزرعة واكتشفنا أننا فقدنا نحو ألف خروف. كيف يمكن أن يحدث هذا؟

- هل نفقت؟

- لا أعرف.

- تيلي، أنا مشغولة جداً.

وضربت بقلمها على مكتبها وهي تتساءل كيف تنهي هذه المكالمة، ثم قالت:

- عندما كنت أدير المزرعة كنت ألجأ دائماً إلى مساعدة الآخرين فكانوا يعطونني نصائح جيدة. من يدير المزرعة؟

- فرانك.

- ولكن هل يتبع رأي خبير؟ رأي خبير يعرف الأراضي؟

تحوّل صوت تيلي إلى همس وهي تقول:

- إنه لا يريد أن يطلب نصيحة. والمطر لم يهطل، وخزّان الماء خلا تقريباً، والنعاج لا تلد، ولا أعرف ماذا أفعل، ولا نستطيع أن نسدّد للمصرف.

خامر بيتي شعورٌ بالذنب. فقد باعت المزرعة بثمن باهظ، وهي تعيش الآن في بيتٍ كان بوسع آل هارو أن يشتروه من ضمن هذه العاملة، فقالت:

– تيلي، أنا آسفة لأنكم تعانون من مصاعب، ولكن عليك أن تقنعيه بتوظيف شخص ما لمساعدتكم، وهذا هو الحل الوحيد الذي يمكنني أن أقترحه عليك.

همست تيلي:

– سوف أحاول.

ثلاث سنوات من الهطولات القليلة جعلت حياة آل هارو صعبة. وكما قال ليو سامبسون، كانت الغيوم المحمّلة بالمطر تتحاشى مزرعتهم، وتنسكب على المزارع المجاورة، وعلى المدينة، وفي كل مكان ما عدا خزان مائهم وحقولهم. في عام 1955 سمعت بيتي أن فرانك هارو قد شنق نفسه، وأن تيلي، المحطّمة، سافرت لتعيش في جنوب أفريقيا. شعرت بيتي بأنه لم يخامرها أي شعورٍ بالأسى لا على فرانك ولا على تيلي.

فربما وجدت الطبيعة وسيلةً لإنصافها في نهاية المطاف.

لم يدخل القطار إلى المحطة بعد. شعرت بيتي بارتفاع الأدرينالين الذي ملأ قلبها. وماذا إذا كان هذا علامة؟ هل يجب عليها أن تذهب إلى هناك أم لا؟

عادت إلى شباك التذاكر وكان المطر قد هدأ وأخذت أشعةُ شمسٍ خفيفة تتسلل من خلال الغيوم وتنعكس على البرك الزيتية.

– هل هناك أخبار عن قطار غلاسكو؟

– بعد عشرين دقيقة، ربما. اذهبي واشربي كأساً من الشاي.

خرجت إلى الشارع وتردّدت في الدخول إلى أحد المقاهي. رأت انعكاس صورتها في الواجهة. كانت ترتدي ملابس أنيقة، كعادتها، وما تزال

نحيلة القد. ولكن لم يعد يوجد آثار لبيتي القديمة، بيتي-حتى-الفجر قد اختفت. إنها امرأة محترمة من الطبقة الوسطى، على رأس مملكة الموضة، وزوجة نائب. فماذا تعتقد أن تجد في غلاسكو؟ ألم: بكل تأكيد. فضيحة علنية: ربما. لقد مر زمن طويل جداً. وإذا اكتشف راي الآن أنها خبأت عنه هذا السر منذ أكثر من عشرين سنة فإن زواجهما ستنفصم عُراه مباشرة.

ابتعدت بيتي عن المحطة وتخلَّت عن مشروعها المضحك.

– هل أنت هنا؟

من مقعدها الموجود تحت نافذة غرفتها في الفندق، رفعت رأسها. اجتاز راي الغرفة وأتى لتقبيلها ثم قال:

– إنها مفاجأة سارة. هل تريدين أن نخرج للعشاء؟

– أعتقد أني بحاجة إلى العودة إلى بيتي للحظة.

نظر إليها بفضول وقال:

– سوف نعود إلى البيت في نهاية الأسبوع القادم.

– اعذرني فأنا أقصد تاسمانيا. أنا... أريد العودة إلى وايلدفلاور هيل.

– تعلمين جيداً أننا لا نستطيع أن ننتقل، فأنا أمثل مواطني مورتوندال، ولا أستطيع أن أنقل عملي إلى عمق تاسمانيا.

نظرت إليه وفي خلال لحظة بدا لها شخصاً غريباً تماماً. هل تزوجا حقاً منذ أكثر من عشرين سنة؟ وهل تُقاسمه سريره حقاً؟ كيف استطاعت أن تكون قريبة منه إلى هذا الحد ولم تكلِّمه عن الفقدين العظيمين اللذين تعرضت لهما: أولاً ابنتها ثم شقيق روحها؟ عندها عاد راي مألوفاً لديها، عاد الرجل الذي بدا طيباً جداً تجاهها منذ زمن طويل. فقالت له بصوت خافت:

– أعتقد أن عليَّ أن أسافر بمفردي.

– من دوننا؟

– أنت تذهب طوال الوقت.

– من أجل العمل.

– سوف أعمل فقد أصبح الولدان كبيرين الآن. وليس الأمر معقداً إلى هذه الدرجة.

كرهت نفسها عندما رأت وجهه الحزين فقالت:

– أنا آسفة يا راي، ولكن هذا سوف يفيدنا، أنا واثقة من ذلك.

– هل تفكرين بهجري؟

– لا، ولكنني بحاجة إلى الزمان والمكان لكي أفكر، لكي أكون بمفردي.

لكي أنتهي من بعض الذكريات.

– إذا كان هذا ما تحتاجين إليه، فبكل تأكيد. بكل تأكيد.

ثم داعب شعرها بحنان وقال:

– أنا أحبك حقاً يا بيتي. كثيراً. وأنا مسرور لأنك هنا، ولست في غلاسكو.

بيتي ليست متأكدة من القدرة على الكلام دون أن تبكي، فلم تقل شيئاً.

الفصل الثلاثون

بدت لها وايلدفلاور هيل في مألوفة جداً ومختلفة جداً عن الذكرى التي تحملها عنها، في آن واحد. بدا لها المكان أرحب، والأشجار أكثر ارتفاعاً، وكوخ الجزازين أبعد عن البيت. ولكن الطريقة التي أخذ النور يداعب بها الحقول وحفيف أوراق شجرة السَنْط ووشوشة عصافير الدوري، وزقزقتها ساعة الأصيل، كلها لم تتغير.

البيت المسكين مظلم وسيّئ الصيانة. والبراد القديم أسلم الروح منذ زمن طويل، وغرفة الغسيل تتلخص دائماً بمغسلة ومعصرة ذات دواليب. لقد اعتادت على ترف غسالتها الآلية مع حوضيها. في اليومين الأولين تدبرت بيتي أمورها بالوسائل الموجودة ثم قالت لنفسها إنها حمقاء: فهي غنية الآن. أجرت اتصالين بهوبارت واتفقت على استلام أدوات كهربائية. ثم قامت بتنظيف البيت وخياطة ستائر جديدة وإجراء إصلاحات صغيرة.

كانت المفارقة كبيرة. فمن ناحية إنها ترتب وايلدفلاور هيل لأن هذا المكان مثّل لها في الماضي الكثير وهو يستحق أن يُصان. ومن ناحية أخرى إنها تقيم فيه براحتها... إذا دعت الحاجة. بعد سنوات من عمل شاق في إدارة شركتها وتربية أطفالها، وكونها زوجة ممتازة لرجل سياسي،

شعرت بالفرح للقيام باستراحة واستعادة نفسها. في الأسابيع الأولى في وايلدفلاور هيل، نما لديها انطباع بأنها عادت شابة. هل تفكر بهجر راي؟

حسنٌ، ربما.

كانت تكلمه كل مساء عبر الهاتف بصوت ناعم وهادئ على الرغم من مشاعرها المضطربة. وكان ولداها يطالبان بالتكلم معها بكل حماسة. ميكي فرِحٌ ومشعٌ كعادته، أما لويز فتبدو حذرة. خلف كلامهما تكمن سخرية سوداء. إنهما يعرفان. يعرفان أنها ذهبت لتفكر بمستقبلها ولا يقدّران ذلك.

كان الشعور بالذنب يكبر مساءً، في الظلام عندما يكون لديها الوقت للتفكير بولديها. ليس بمايكل ولويز فقط، بل وبلوسي أيضاً. وأحياناً كانت تتخيل لقاءهم، ولكنها ما تلبث أن تمنع عن نفسها متابعة هذه الأوهام. إنها ليست أول امرأة على وجه الأرض تملك سراً، ولداً غير شرعي، ولن تكون الأخيرة. ومع ذلك فإنها تفكر أكثر فأكثر بالموت، بموتها، وبالثروة التي ستتركها خلفها. ليس من الإنصاف أن تعطي كلّ شيء لمايكل ولويز ولا شيء للوسي. كيف سيديران جميعاً هذا الظلم؟ وبأي مقياس يجب على بيتي أن تتذكر لوسي ذكرى طيبة؟ إنها تنام في معظم الأوقات وهي تتأمل هذه الأسئلة. أسئلة أعقد من أن تتمكن من الإجابة عليها.

من الناحية الأخرى من نافذتها يقيم تشارلي. وقبره هو أول شيء تراه في الصباح عندما تفتح الستائر وآخر شيء تراه مساء عندما تسحبها. في الواقع لا يوجد إلا شجرة. ولكنه هناك على الرغم من كل شيء. إنها تشعر بوجوده، تدركه كما لو أنه واقف أمام عينيها. لم يتغير أبداً، بكل تأكيد. ما يزال شعره كثيفاً وأسود، وما يزال جسمه ممشوقاً وضخماً. في هذه اللحظات، إذا أغمضت عينيها، يمكنها أن تشمّ رائحته. هكذا تشعر

بالحنين إلى شبابها، إلى الفترة التي لم تسر فيها الأمور بشكل سيّئ، الفترة التي كانت فيها عاشقة والتي كانت فيها ابنتها بجانبها. إنه حنين قوي جداً بحيث أنها تشعر بألم ممضّ في سائر جسدها. أي ظلم أن يُضطرّ الإنسان إلى أن يشيخ! إنها لا تعبأ كثيراً بشركتها ولا بغناها ولا بالفندق الخاص الذي بنوه على المرفأ، في مستعدّة لمبادلة هذا كله بعودةٍ في الزمان لكي تعيش تلك السنة، 1939، إلى الأبد.

ذات صباح جميل قررت أن تغامر بالذهاب إلى المدينة. فقد استهلكت المؤن التي أتت بها من هوبارت. على الرغم من أن خمس وعشرين سنة مضت على آخر مرة وضعت فيها قدمها في هذه المدينة، شعرت بنبضها يتسارع كلما اقتربت من ليونيفورد.

اليوم أصبحت المدينة أكبر وصار الطريق معبداً. بقي عدد من الأبنية دون تغيير كالبريد والتغذية العمومية والحانة. أصبح مكتب ليو سامبسون محلاً لتجارة السلع المستعملة: فقد توفي ليو عام 1959. أخذت بيتي نفساً قبل أن تدخل إلى محل البقالة العمومية.

لديها انطباع بأنها تسافر في الماضي. الرفوف الخشبية والكونتوار الزجاجي وأكياس الطحين المكدسة أرضاً. ولكن خلف الصندوق، في مكان تيلي المنقبضة الفم وذات التكشيرة غير المرحبة، جلس رجل متوسط العمر أحمر البشرة. وجّه إليها ابتسامة عريضة وقال مرحّباً:

– صباح الخير أيتها الغريبة.

ترددت في الابتسام وهي تتساءل عما ستكون ردة فعله عندما يعرف من هي. ثم طردت هذه الفكرة من رأسها، فقد مضى زمن طويل، وقالت:

– صباح الخير. أنا قادمة من وايلدفلاور هيل.

انتظرت وهي خائفة من أن يطردها، لكنّه سألها:

– وايلدفلاور هيل؟ هل أنت المستأجرة الجديدة؟

– بل أنا المالكة.

تدوّرت عيناه وقال:

– حقاً؟ أنت بيتي بلاكسلاند؟ أنت... انتظري هنا ثانية يجب أن أنادي زوجتي.

ثم أسرع إلى الدرج وصرخ:

– آني، تعالي! لن تصدقي أبداً من في المدينة!

جعل المديح بيتي تحمرّ. وبعد بضع لحظات أتت امرأة شقراء طويلة بحذر، وسألت:

– ماذا هناك؟

– انظري إنها بيتي بلاكسلاند.

ابتسمت آني وهي تمدّ يدها نحو بيتي وقالت:

– يا إلهي، هذا صحيح!

قالت بيتي بزهو:

– أفترض أنك تحبين ملابسي.

– ملابسك؟ آه نعم، إنها تعجبني كثيراً. ولكننا نعرفك قبل أن تصبحي مشهورة.

– صحيح؟

– اصعدي للحظة لنتناول فنجاناً من الشاي.

كادت بيتي أن تنفجر ضاحكة، فهذا الاستقبال مختلف تماماً عن الاستقبال الذي لقيته في الماضي في المدينة. تبعت آني إلى ما وراء الكنتوار ثم إلى الطابق الأول فوصلت إلى صالون صغير ومزهر.

وضعت آني الإبريق ليسخن، عادت لتجلس مع بيتي، ثم قالت:

– أبي... أقصد حمي، في الواقع، كان يعمل عندك، ميكائيل كيريليف.

– ميكائيل! هل هو حموك؟ هل أنت ابنة كاترين؟

– نعم، أنا لا أستطيع أن أصدق أنك تتذكرين اسم أمي.

وابتسمت ابتسامة عريضة وأضافت:

– لقد كانا سعداء لسنوات عديدة.

- هل... ؟

لم تتمكن بيتي من لفظ الكلمة.

فقالت المرأة:

- توفي؟ أوه نعم، بعد أن توفيت أمي عام 1958، قال إنه يريد أن يعود إلى هنا. فقد كان يحب هذا المكان كثيرا. في تلك الفترة كان قد كبر في السن كثيراً وساءت صحته فصحبناه إلى هنا. في اللحظة نفسها كان محل البقالة معروضاً للبيع، وأحببنا هذه المنطقة. بابا توفي عام 1961 هنا تماماً، خلفي، في الغرفة.

وأشارت إلى الغرفة بحركة من يدها، ثم أضافت:

- رحل بهدوء. هل تريدين أن تري صور العائلة؟

- أريد كثيراً.

اتجهت آني نحو مكتبة مليئة وأخرجت ألبومين وقالت:

- تفضلي وشاهديهما، وأنا سوف أعد الشاي.

بدأت بيتي بالصور الأحدث، وأخذت تقلب الصفحات بحذر. كان ظهره مقوّساً وشعره أبيض ولكنه هو، ميكائيل الذي يبتسم في هذه الصور. آني وزوجها موجودان أيضاً وأطفالهما يكبرون من صفحة إلى أخرى. فتحت الألبوم الثاني فتناثر قطعاً. كانت الصور مثبتة بزوايا لم تعد تلصق منذ زمن طويل وتنزلق في مزق الورقة. أرادت أن ترتبها. ثم ألقت عليها نظرة. ذهلت فقد تعرفت إلى صالون وايلدفلاور هيل.

لا بدّ أن الصورة قد التقطت قبيل رحيل ميكائيل —فهناك شجرة عيد الميلاد. عندها تذكرت كاترين وآلة تصويرها. وبطلب من ميكائيل التقطت صوراً للمزرعة على سبيل الذكرى. كانت بيتي مركِزة وأخرجت الصور الواحدة تلو الأخرى لكي تنظر إليها.

إنه هنا، تشارلي. ظل حصان. ووجهه مغطى بقبعته. أخذ قلب بيتي يخفق بسرعة.

عادت آني حاملة صينية الشاي وسألتها:

- هل وجدت شيئاً ما؟
أرتها الصورة وقالت:
- هذا تشارلي هاريس.
- كان أبي يتكلم عنه كثيراً وكانا متقاربين. احتفظي بهذه الصورة، فلست بحاجة إليها.
- صحيح؟
وشعرت بحرارة تشعّ من وجهها. وقالت آني:
- بكل تأكيد خذي كل الصور القديمة لوايلدفلاور هيل.
- لا، لا. سوف أترك لك ذكريات حميمة. لكني سأحتفظ بهذه الصورة، فقد كان هذا الرجل... شخصاً عزيزاً عليّ.
قدّمت آني فنجان الشاي لبيتي التي سألتها عن أخبار سكان المدينة الآخرين الذين تتذكرهم. لم يعنِ أيُّ اسم شيئاً لآني. وهكذا أمضت بيتي الصباح في ذكرياتها ثم رأت أن من الأفضل لها أن تأخذ مشترياتها وتعود إلى البيت. قالت لآني وقد خطرت لها فكرة:
- آني. منذ زمن طويل لم يسكن أحد في وايلدفلاور هيل، ولكني أريد أن أخزّن فيها بعض الكراتين. فإذا أعطيتك مفتاحاً هل يمكنك أن تمري إليها لكي تري ما إذا كان كل شيء على ما يرام، وتضعي فيها الكراتين التي سأرسلها إليك؟ وسأعطيك أجرك.
- إذا كان هذا مأجوراً فسوف أعهد بهذه المهمة لابني. عمره سبعة عشرة عاماً، وهو بحاجة لكي يعمل نصف دوام، ويستطيع أن يرتّب البيت قليلاً ويصون الحديقة أيضاً، إذا شئت.
- هذا عظيم.
ختمت بيتي. وهكذا في المرة القادمة عندما تعود فلا يكون البيت بحالة سيئة جداً. إذا عادت.
- ما اسم ابنك؟ فسوف أعطيه بعض التعليمات.
- أندرو، أندرو تايلور. ولن يخيب أملك.

بعد أن عادت إلى بيتها علّقت صورة تشارلي على الجدار قرب سريرها. لسبب أو لآخر، أخفى امتلاكُ هذه الصورة الرؤى التي كانت لديها عنه. انتابها حزنٌ ولكنها لم تنزع الصورة. أصبح ألمها أقل فظاعة، محدوداً بالحدود الأربعة البيضاء لصورة.

***

فهمت بيتي أنها أتت إلى وايلدفلاور هيل لكي تُقيم الحداد، ليس على تشارلي ولوسي فحسب، فالحق يُقال أنها بكتهما كثيراً، بل على شبابها، وعلى نهاية الممكن، وعلى أن الحياة أصبحت ما هي عليه، وليس ما يمكنها أن تكون. كلّما مرّ الوقت في صمت أفكارها وفي الريف، شعرت بعناء التهدئة، وبدأت تفهم بوضوح إلى أية درجة كانت محظوظة. فلديها زوج محب وولدان مليئان بالنشاط، وفرصة في ممارسة مهنة إبداعية، حلمها. لم يعد تشارلي يظهر تحت نافذتها، وما فاجأها كثيراً هو أنها بدأت تشعر بالشوق إلى سيدني وراي ومايكل ولويز.، وغدا ارتياحها بلا حدود.

وذات ليلة، قبل يومين من التاريخ المحدّد لسفرها، حلمت.

رأت لوسي، وهي في سنٍّ تقارب الثامنة، فاتحة العينين، وعلى وجهها نمش، ونفَسُها حار وحلو. كانت تقف أمام بيتي التي جلست القرفصاء لتربط حزامها حول خصرها، فقالت لها بيتي:

– عزيزتي.

فسألتها الطفلة:

– من أنت؟

– أنا أمك.

شعرت بألم لا يُطاق لأنها لم تتعرّف إليها.

– وهل ستطلّين أمي. حتى تموت النجوم، ولا يعود يوجد إلا الصمت؟

– نعم! نعم، أنا...

استيقظت بيتي قبل أن تتمكّن من إتمام جملتها. نهضت باكية. إنه الفجر، والطقس بارد والظلام مخيّم. لبست قميص نومها ثم نزلت إلى مكتبها.

وهناك كتبت رسالة، سكبت فيها مشاعرها، وكل شيء تريد أن تقوله لتلك البنت الصغيرة في حلمها، ولكن المشاعر التي من المستحيل عليها أن تقولها للوسي البالغة، تلك التي طلبت من بيتي أن تتركها بسلام. أخذت تبكي وهي تكتب الصفحات حتى آلمتها خاصرتاها. وأخيراً وضعت الرسالة في مغلّف، وحتى كتبت العنوان، ذلك العنوان الذي لن تصل إليه أبداً، العنوان الذي ما يزال محفوراً في ذاكرتها. ولكنها لا تنوي أن ترسلها، بل إن كتابة هذه الرسالة كانت كافية. تساءلت عما ستفعل بها. لم ترَ من المناسب أن تحرقها أو ترميها في سلة المهملات، لذا وضعتها بعناية مع التذكارات الأخرى التي تحتفظ بها بعيداً عن نظر راي، وتأهّبت للعودة إلى حياتها في سيدني.

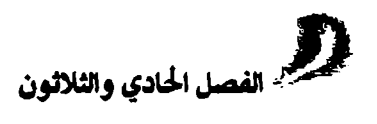
صباح يوم سفرها، أغلقت الباب وذهبت إلى تحت شجرة السنط. لقد نمت كثيراً: إنها جميلة وطويلة وقوية مثل تشارلي. شعرت بالسعادة لأن هذه الشجرة ستظلّ دائماً هنا، وأنها ستبقى لزمن طويل وستحرس وايلدفلاور هيل.

انعطفت سيارة أجرة إلى وايلدفلاور هيل، ودوّى بوقها.

قالت بيتي:

– إلى اللقاء، إلى اللقاء يا حبيبي.

ثم غادرت وايلدفلاور هيل إلى الأبد.



الفصل الحادي والثلاثون

إيما

كانت رحلتي رهيبةً. ولاسيّما أن رجلاً جلس على جهة الممر، وأخذ يشخر شخيراً فظيعاً. غفوت وصار الواقع غائماً. أنا معلّقة تماماً بين عالمين: حياتي الجديدة في تاسمانيا، وحياتي القديمة في لندن. وما من واحدة منهما تبدو لي واقعية.

في مطارِ هيثرو، شعرتُ بالتوتّر أكثر من أي وقت مضى. وماذا إذا لم يكن هذا كلّه إلا حلماً؟ وإذا لم يأتِ جوش لاستقبالي، عملياً؟ ولكن لا، ها هو هنا، ينتظرني بعد الجمارك مباشرة. ركض نحوي، وارتميتُ بين ذراعيه. إنه هو، جوش الحقيقي، بلحمه ودمه، وليس ذلك الذي ملأ أوهامي طوال الأشهر الأخيرة.

قال لي فهزّت أنفاسُه شعري:

– إيم! إيم! يا إلهي، كم أنا بشوق إليك!

شعرت بأني عاجزة عن الكلام، فاكتفيتُ بشمِّ عطره الحار الذي له رائحة الخشب. وأخيراً فكّ ذراعيه من حولي، فتراجعتُ لكي أتملّى وجهه.

لكي أنظر إليه حقّاً.

وكان أمراً غريباً: فقد كـان أجمـل في ذاكرتـي، وكانـت عينـاه أكثـر حناناً. ألقى نظرة إلى ساعة يده، وقال:

- لقد أخذتُ إجازة صباحية. لنعد إلى البيت.

ظللتُ لحظةً لا أفهم ما يقصد حتى سألتُه:

- إلى البيت؟ أوه، هل تقصد بيتك؟

ضحك من قلبه وقال:

- وماذا تظنين؟

ليس من قلبه تماماً، إذ أضاف:

- لا بدّ أن فارق التوقيت قد أضعف دماغك.

تبعتُه في طابور سيارات الأجرة واتجهنا إلى مركز المدينة. سألني:

- هل كانت رحلتك جيدة؟

- فظيعة. فأنا...

رنّ هاتفه وقال: «اعذريني» بنبرةٍ متداعية. فتأملت من خـلال زجـاج السيارة الصباحَ الكئيب الذي يطلـع علـى لنـدن. وضـع هاتفـه في جيبـه وأضاف:

- أين كنا؟

- رحلة فظيعة.

- أنا آسف من أجلك. ليس البـاب إلى جانبـك بالإضـافة إلى ذلـك، تومبكتو.

- تاسمانيا.

ثم زفرت وقلت:

- أنا تعبة يا جوش، هذا كل مـا في الأمـر. سأشـعر أنـي بخـير بعـد قيلولة طويلة.

كان قد انتقل إلى شقة مفروشة وسط صف مـن البيـوت الجورجيـة في لايمهاوس. إنها شقة ممتازة حديثة ومليئة بالذوق، وفيها كـلُّ مـا كنـت

أحبه - من قبل. وضع مفاتيحه على طاولة العمل في المطبخ ودخلت وأنا أجرُّ حقيبتي ذات العجلات. قال:

– ها قد وصلنا.

شعرت بعدم ارتياح دون أن أعرف سببه. فقد سكنا معاً طوال أشهر واستخدمنا الدور في تنظيف الأسنان أحدنا أمام الآخر. وكان قد سكن أفكاري طوال مدة غيابي... ربما ليس طوال الوقت، ولكن كثيراً في البداية.

– أنا بحاجة إلى استحمام جيد.

أعلنت له هذا وأنا أفكر بأن وقتاً من الاستراحة في الحمام ستجعلني أستعيد نفسي، وتسمح بالتأقلم على إن كل ما يحدث هو واقع: فقد عدتُ حقاً.

– هيا. وأنا سأجري بعض الاتصالات.

أخرجت مئزري وملابسي الداخلية النظيفة من حقيبتي ثم دخلت إلى الحمام. لا يوجد نافذة، بل إنارة كهربائية قوية. خلعت ملابسي ووقفت تحت الدوش.

حاولت أن أقول لنفسي إن فارق التوقيت يسبّب لي دائماً هذا التأثير: بعض الأشخاص يكونون تعبين فقط؛ أما أنا فلدي أفكار مختلطة وأنا قلقة. بعد بضعة أيام ونوم مرمّم سيكون تحفّظي تجاه جوش قد اختفى وسيعود كل شيء كما كان في السابق. جلست تحت الدوش وأغمضت عيني للماء البارد.

سمعت طرقات خفيفة على الباب ثم دوى صوت جوش:

– هل كل شيء على ما يرام في الداخل؟

– نعم، لا بأس.

فتح الباب ووقف مرتدياً ملابسه، وابتسم لي، وقال:

– ما تزالين ساحرة يا إيم.

أجبته وأنا أضحك:

- كفٌ عن هذا، فلديك أكثر مما لدي.

حلّ ربطة عنقه وتركها تسقط ثم قال:

- يمكننا أن نلعب بأسلحة متكافئة إذا شئت.

وقفتُ وأغلقت الصنبور ومددت يدي بحثاً عن منشفة لأغطي جسمي. خلع قميصه: هذا النصف العلوي وهذان الذراعان... أمر مثير للاهتمام. حاول أن ينزع المنشفة بيديه. وأمسك بي وضمني بقوة إليه وقبّلني. قبلة عميقة وحارة. ذاب جسدي بين ذراعيه. وصارت منشفتي على الأرض. ومع ذلك فإن جزءاً مني يقول لي أن *اتباطأ*، أن أكبح فوراً.

قلت وجوش يشرع بخلع بنطاله:

- انتظر!

- ما الأمر؟

- ليس مباشرة. فأنا... ليس مباشرة.

تراجع فأمسكت بمنشفتي فسألني:

- هل هناك مشكلة؟

- نعم، لا، أقصد لا أعتقد.

- هل هذا بسبب سارة؟ لأني وعدتك بأن هذا انتهى.

- ولكن متى بدأ هذا؟ لا، لا تقل شيئاً.

لم يستطع أن ينظر إلى عيني وهو يقول:

- أنا آسف يا إيمّا. ولكنّي آمل أن أتمكن من أن أترك الماضي خلفنا. لقد اشتقت إليك كثيراً، فأنت من أحتاج إليها.

- إذن دعني لبضعة أيام لكي أستردّ نفسي.

- هل تريدين أن تنامي في غرفة الضيوف هذا المساء؟

- قد يكون هذا أفضل.

في اليوم التالي استيقظتُ عند الساعة الثانية صباحاً ونظرت إلى محطة تلفزيونية موصولة على الكابل حتى نهض الفجر وجوش. قال لي وهو يطبع قبلة تحت أذني اليمنى ففاحت منه رائحة زكية:

- كان بوسعي أن أرافقك.

- لم يكن هناك من فائدة حين نكون تَعِبَيْن نحن الاثنين.

شغّل آلة القهوة وهو يتثاءب، ثم سألني:

- ماذا ستفعلين اليوم؟

- أفكر برؤية بعض الأصدقاء وأخبرهم بأني عدت.

- من أهل الباليه؟

- ربما، إذا لم يُتعبني هذا كثيراً.

أتى ليجلس بجانبي ورفع منامتي على ساقي لكي يرى آثار الجرح على ركبتي. ثم قال وهو يمرّر إبهامه على المكان الذي تركَتْ عليه العمليات الجراحية الآثار الأكثر عمقاً:

- أنا آسف جداً من أجلك.

- كان هذا قاسياً ومرعباً.

- ألن ترقصي بعد الآن؟

هززت رأسي. الآن تُعرض رسوم متحركة للأطفال على التلفزيون فبحثت عن جهاز التحكم لكي أطفئه، ثم قلت:

- أخشى أن يكون لا.

وضع من جديد يده على ركبتي برقّة ثم قال:

- سأحاول أن أنهي عملي باكراً. اتركي هاتفك مفتوحاً. يمكن أن نلتقي في مكان ما من أجل العشاء كما في الزمن الجميل الماضي.

تركته يذهبُ في الضباب الصباحي وعدت إلى الكنبة. بدأت أتساءل عما يمكن أن يفعله باتريك الآن ثم ردعت نفسي بعنف: فأنا في لندن ولن أمضي وقتي في التفكير بوايلدفلاور هيل كما أمضيت وقتي في التفكير بلندن عندما كنت هناك. لقد اتخذت قراري.

اتصلت بباتريك بكل تأكيد، بعد أن حجزتُ من أجل السفر. اتصلت به لكي أقول له إني اضطررتُ إلى العودة إلى لندن لمدة غير محدودة واني أتمنى له حظاً سعيداً من أجل العرض. فأجاب:

– ميِنا سوف تشعر بالخيبة.

ملعونٌ هو لأنه استخدم الحجة الوحيدة التي تثير شعوري بالذنب. ومع ذلك، فإنه لم يتوسّل إليَّ بأن أبقى. لم يكن هناك من إعلان حب مفاجئ. فماذا كنت سأفعل لو أن هذا قد حدث؟

ابتعد الضباب عن النهر وارتفع لكي يترك مكانه لصباح خريفي مشع. بحثتُ في أسفل حقيبتي عن دفتر عناويني القديم لكي أتنسّم أخبار أصدقائي القدامى. ربما كان مصطلح "أصدقاء" مبالغاً فيه قليلاً. معارف قديمة، أو أشخاص أرسلت إليهم قبلات بيدي ووعدتهم بأن أتصل في لحظة أو في أخرى.

الاتصال الأول: مجيب آلي.

الاتصال الثاني: لا جواب.

الثالث: هذا الرقم غير مخصص.

وتابعت الاتصال مصممة على إيجاد أحدٍ ما.

الاتصال الرابع: كائن بشري، فقلت وأنا أعرف تماماً أن اتصالي يائس:

– صباح الخير، هل يمكنني أن أكلم ميراندا من فضلك؟

– أنا ميراندا.

– مرحباً، أنا إيمّا بلاكسلاند ـ هنتر.

صمت قصير ثم سألت:

– إيمّا؟

– أعرف، أعرف. فقد مرَّ زمن طويل.

– كنت أظن أنك سافرت للعيش في استراليا.

– ذهبت إليها لبعض الوقت، ولكني عدت. هل يمكننا أن نلتقي لنعوّض قليلاً من الزمن الذي ضاع؟

– أوه، نعم، ولكن علي أن أركب الطائرة إلى سويسرا بعد الظهر، سأقوم بجولة من أجل *عصفور النار*، ولن أعود قبل عشية عيد الميلاد.

صمتُ للحظات. كانت هذه حياتي، من قبل: عبور العالم بالطائرة، والوصول إلى مسارح غير معروفة، والسفر إلى مدن جديدة، وارتداء الملابس والتمكيج والدخول إلى المسرح تحت نار الكواشف، وترك جسمي يعبّر عن نفسه مع الموسيقى.

تمكّنتُ من أن أقول لها أخيراً:

– قد أتّصل بك في ذلك الموعد.

واصلتُ تقليب صفحات دفتر هواتفي، فوجدتُ بميراندا أخرى، وتساءلتُ فجأةً: تُرى مع من تكلّمتُ للتو؟ تنهّدتُ ووضعتُ الدفتر جانباً. أعرف أن أديلاييد موجودة في استوديو التدريب تطيع أوامر الفاشي الطائر. سوف تفرح لرؤيتي، هي على الأقل. لقد آن الأوان لأخلعَ منامتي وأستفيد من هذه الحياة التي أملتُ كثيراً الحصول عليها.

آخر مرة وُجدتُ في استوديو كان ليلة حادثي. كادت رائحةُ المكان ـ مزيج من صباغ الشعر ومستحضر مسح الزجاج والتعرّق ـ أن تقضي عليّ. تبادلتُ بضع كلمات مع عامل الاستقبال قبل أن أتّجه نحو الدرج، هذا الدرج الشهير، بحثاً عن أديلاييد.

ولكني وجدتُ برايان، المدير الفني. فصاح:

– ها أنتِ إذن! لقد سَمِنْتِ!

ارتبكتُ كثيراً بحيث أني عييتُ عن الكلام للحظات، ثم دافعتُ عن نفسي قائلة:

– لم أستطع أن أمارس التمرينات بهذه الركبة اللعينة.

كانت ملاحظته جارحة، والأهم من هذا أنها خاطئة بشكل أكيد: نعم، فقد ازداد وزني قليلاً، ولكني كنتُ نحيلة جداً في الماضي، كنا جميعاً هياكل عظمية.

أمرني:

– أريني!

اضطررتُ إلى رفع تنورتي لكي أريه آثار العمليات الجراحية التي أخذ يتفحصها بحماسة، ثم خلص إلى القول وهو ينزل تنورتي:

– لقد حصل هذا في الوقت المناسب حقاً. إذا كان لا بدّ من أن يحصل لك حادث، فمن الأفضل أن يحصل في تلك اللحظة، في نهاية عملك تماماً.

– عمري إحدى وثلاثون سنة فقط.

رفع كتفيه وقال:

– لقد رأيتك ترقصين، لم يكن قد بقي لك سوى سنتين، مع الحظ

صرخ صوت في نهاية الممر:

– إيمّا!

– أديلاييد!

تركت برايان يهمهم بنبرته الكئيبة وعانقت أديلاييد.

– متى عدت؟

– صباح أمس. هل يمكننا أن نتناول الغذاء؟ فلدي أشياء كثيرة لأقولها لك.

ثم ألقيت عبارة: «طلب مني جوش أن أعود».

فوجئت أديلاييد فدوّرت عينيها وقالت:

– صحيح؟ وعدتِ؟

– أنا لم أكن أحلم إلا بهذا منذ خمسة أشهر.

تركتْ هذه الكلمات مذاقاً غريباً في حلقي.

نظرت أديلاييد إلى ساعتها ثم قالت:

– ألبرتو يجري التدريب حتى الثانية عشرة والنصف. هل يزعجك أن نتناول الغذاء باكراً؟

– ساعتي البيولوجية غير مضبوطة نهائياً بحيث أن الأمر سيان عندي. الآن هذا يناسبني جداً.

في الشوارع الباردة، تمتزج رائحة الكستناء المشوية بعوادم السيارات. أنا لا أتذكر إلا لندن الصاخبة جداً، والتي تسود فيها الروائح والحركات. اضطربت وتهت. ولكني عزوت هذا إلى فارق التوقيت. سوف أعتاد على ذلك من جديد، بكل تأكيد.

دخلنا إلى المقهى الصغير حيث توجد دائماً اجتماعات صباح الاثنين. كان المقهى شبه خال: فالوقت متأخر على شاي الصباح ومبكر على الغذاء. والزبائن الآخرون يتلخّصون برجل يتناول جزءاً من كعكة بالتين وامرأة تقرأ *الديلي ميل*. طلبنا ما نريد وجلسنا في زاوية دافئة في عمق المقهى، بعيداً قدر الإمكان عن الآلات التي تبث موسيقى الجاز.

بدأت أديلاييد الحديث وهي تبعد عن وجهها خصلة من شعرها البني:

– إذن، هو جوش؟

– نعم، جوش.

– وكيف حدث ذلك؟

– قطع علاقته مع سارة، واتصل بي فأتيت.

– وأنت... هذا يناسبك؟

– بكل تأكيد.

لكني لم أشعر بارتياح بوجوده. وما زلت لا أستطيع تخيل نفسي نائمة معه. لم أقل شيئاً من هذا لأديلاييد، بل قلت:

– أخيراً، يجب أن أعترف بأن الأمر تمّ فجأة. لنتكلم عنك الآن. أنا لا أحب أن أكون محور الحديث.

لم تجد أديلاييد مانعاً في تغيير موضوع الحديث وروت لي قصصاً كثيرة عن حياتها مع الفاشي الطائر الذي اكتشفت معه مصلحة مفاجئة.

حين وصلت طلباتنا أصرّت على أن أشرح لها ما فعلتُه في تاسمانيا - الأمر الذي لم يطلبه مني جوش بعد - وشعرت بتنامي الكآبة وأنا أروي لها. لقد نما لدي انطباع رهيب بالشعور بالحنين إلى الوطن.

بصحبة أديلاييد بدأت أسترخي أخيراً، ولم أعد أجد الأشياء غريبة وسريالية. وخمر موزيل لم يكن شيئاً قليلاً، بكل تأكيد. اضطرّت إلى العودة إلى عملها بسرعة ورافقتني إلى الشارع لكي أنتظر سيارة أجرة. وسألتني:

– هل تعتقدين أنك ستبقين؟

– أفترض أني سابقى.

– همم.

– همم؟ ما معنى هذا؟

– ذلك أنه... في أثناء حديثك لم تذكري اسم جوش سوى مرتين.

– إيه؟

– بينما ذكرت اسم باتريك إحدى عشرة مرة.

أبعدت ملاحظتها بضحكة وتأهبت لأقول لها أنها أساءت سماعي عندما ظهرت سيارة أجرة فجأة في زاوية الشارع فتقدمنا نحن الاثنتين لنشير إليها بالتوقف.

قالت لي وهي تقبّلني على خدي:

– إلى اللقاء يا إيمّا، قريباً، وربما في الزواج.

وغمزتني بعينها ولكنّ كلامها عن الزواج أخافني وقلب معدتي.

شعرت بالتعب، هذا كل ما في الأمر. هذا ما قلته لنفسي وأنا في السيارة. لقد تعبت وأفكاري ليست واضحة: لهذا لديّ الشعور بأن عودتي إلى لندن ليست مبرِّزة ولا مثيرة كما تخيلتها. لا يساعدني فارق التوقيت وكأسا الخمر على الغذاء على الرؤية بشكل واضح. ولدى عودتي إلى الشقة جلستُ على كنبة جوش وحاولت أن أركز على التلفزيون ولكني نمت وشعاعٌ شمسٍ يداعب خدي.

لا أعرف كم من الوقت نمت، لكني استيقظت لأن شيئاً ما كان يداعب ساقي. أصابع حارة تصعد تحت تنورتي وتنزلق بين فخذيّ. شعرت بحرارة في وجهي وباضطراب وبحيرة. فتحت عيني فرأيت جوش ممدداً إلى جانبي على الكنبة دفعت يده التي رفعت مطّاط سروالي الداخلي، قائلة:

– لا يا جوش!

– لا؟

وظهرت على وجهه هيئة كلب متعب. فضحكت وقلت:

– أنا أعاني من فارق التوقيت أكثر من أي وقت مضى. ويجب أن تدَعَني عدة أيام.

– إذن أنت متعبة جداً؟ ولهذا ترفضين؟

انتصبت وقلت:

– لا أعرف. بكل تأكيد.

– هل أنت متأكدة من أن السبب ليس سارة؟

فكرت بسؤاله وأدركت أن قصته مع سارة لا تهمّني كثيراً. بكل تأكيد، في البداية، لقد شكّلت لي مشكلة كبيرة حتى. هل يجب أن أقلق؟ لا أعرف بماذا أجيبه فوجدتني أقول بحذر:

– لا، أعتقد أني تجاوزت هذهِ المرحلة.

– إذن، ما المشكلة؟ أنتِ هنا، ونحن معاً في معظم الأحيان، فلنستأنف ببساطة ما كنّا قد بدأناه.

ثم خفض صوته وهمس في أذني:

– اشتقتُ لجسدك الرائع.

تُرى ما الذي حلّ بي؟ فقد حلمتُ بأنه يقول لي هذه الكلمات، وبأنه يلمسني هكذا. ولكن ها أنا هنا، معه، ولا أشعر أني على ما يرام، بل أشعر بانزعاج.

وجدتُني أقول له:

– أنا آسفة، عفوا، أشعر أني غريبة الأطوار، وبأني لستُ أنا، وأنا واثقة من أن أموري ستتحسّن من الآن وحتى العطلة الأسبوعية. وبعد أن نمضي المزيد من الوقت معاً، سيعود كل شيء عادياً.

تذكّر وهو يجلس ويضبط وضع ربطة عنقه:

– آه، على أية حال، يجب أن نذهب مساء السبت لنتناول العشاء عند هوغ. وآمل ألاّ يزعجك هذا، فهو يحتفل بعيد ميلاده الأربعين، وهذا مقرّر منذ أشهر.

هوغ شخص فظّ، وهو أفضل أصدقاء عمل جوش، فألفيتُني أقول:

– هل يتوقّعون أن يروك معي أم مع سارة؟

لم يتلقط الدعابة، بل قال جاداً:

– معك، طبعاً. فقد أخبرتُ الجميع بأنك عدتِ، وبأننا عدنا معاً من جديد. ثم أنكِ لستِ بحاجة لتكوني عدوانية بهذا الشكل.

لم أقل له إني لستُ عدوانية.

ذهب ليجلب زجاجة من البوربون من الخزانة. ها قد عدنا إلى الروتين نفسه الذي أرهقنا في الأيام الأخيرة من علاقتنا. شربنا كأساً، وطبخنا معاً، ورويت له ما حدث في نهاري، وروى لي ما حدث في نهاره. ولكن هذه المرة أصغيتُ إلى ما يقوله، وقد كلفتُ هذا العناء، لأني أعرف أني لم أكن أعيره كثراً من الاهتمام قبل انفصالنا، وأني كنتُ أكثر أنانيةً من أن أهتم بعالمه. واليوم قرّرتُ ألّا أقترف الخطأ نفسه.

ولكني فهمتُ بخيبةٍ فظيعة بأن جوش ليس لديه شيء مهمّ ليقوله.

مر يومان ولم يتّصل بي أحدٌ من أصدقائي القدامى. استخلصتُ من هذا أنهم ليسوا أصدقاء بالفعل، ولم ألُمهم، فهذا خطأي وخطأ عالم العروض. فقد كنّا نحاول أن نتقدّم فقط، وكنّا ندّعي أننا نحترم بعضنا بعضاً، في حين أننا في الحقيقة كنا جديرين بأن يدوس أحدُنا على الآخر

من أجل بلوغ نجاحات أكبر وأهم. فهؤلاء الناس لم يكونوا أصدقائي يوماً، ولم أكن صديقتهم يوماً.

إذن كيف يمكن لفتاة بلا أصدقاء أن تهتم بنفسها؟ ذهبتُ إلى المكتبة، ركبتُ مترو ستريت بانكراس، وقد أزمعتُ على الحصول على المعلومات التي تعذّر عليّ إيجادها في أستراليا. قلتُ لنفسي ربما أجد اسم رافائيل بلانشارد في أي كتاب في *المكتبة البريطانية*.

بعد أن تركتُ محفظتي ومعطفي في قاعة الملابس، اشتريتُ بطاقة لمراجعة بعض الكتب. ثم جلستُ على كرسي في صمتِ قاعةِ المطالعة المطبق، وبدأت أقلّب صفحاتها. وجدتُ ثلاث رافائيل بلإنشارد مختلفين، ولكن وجدتُ الأصلح بينهم في كتاب من خمسينيات القرن الماضي حول النبالة الصغيرة في منطقة وارويكشاير. يجب أن أقبل أن لقب التحبّب لرافائيل هو تشارلي، وبأنه منح المزرعة مجاناً لجدّتي لأنه كان يعيش مغامرة معها.

قدّمت لي الصفحة 181 بعضاً من الأجوبة، ولكن ليس هذا ما كنتُ أنتظره.

> *لقد حاولت أسرة بلانشارد، عبثاً، أن تنمّي تجارتها في مجال الزراعة في المستعمرات. وقد أُرسل رافائيل بلانشارد من قبل أبيه ليهتم بمزرعة كبيرة للخراف في تاسمانيا، في أقصى جنوب أستراليا، وكانت مستعمرة للعقوبات آنذاك. لم تلقَ التجارة نجاحاً، فعاد رافائيل إلى وارويكشاير عام 1935. تقول الإشاعات إنه خسر مزرعته في لعبة بوكر. ولكن الأسرة تؤكد باستمرار أن رافائيل بلانشارد عاد إلى إنكلترا لأسباب صحية.*

كان بوسعي أن أنفجر ضاحكة، ولكني في مكتبة عامة، فظللت جالسة وابتسامة حمقاء على وجهي. جدّتي ربحت المزرعة بلعبة بوكر؟

فمن خلال ذكرياتي، كانت عدوة شرسة للمقامرة. هل هذا صحيح؟ ففي النهاية، لقد ربحت المزرعة مجاناً.

رغبتُ في الاتصال بأمي لأخبرها، ولكن كان يجب عليّ أن أعترف لها بأني عدتُ إلى لندن، وهذه المعلومة لن تسرّها أبداً.

وبالتالي، طلبتُ أن أصوّر الصفحة وأخذتها إلى الشقة حيث انتظرت حتى يعود جوش من عمله.

ساعتي الداخلية فقدت كلّياً إيقاعها المعتاد. فلا أستطيع أن أبقي عينيّ مفتوحتين في أثناء النهار، وأصحو تماماً قبيل الفجر. كان جوش يُقبّلني كل صباح قبل أن يذهب إلى عمله وكلما مرّ الأسبوع ينفد صبره أكثر فأكثر نحوي. فأنا لا أعانقه وأرفض ممارسة الحب، وأبعده إذا بالغ في الاقتراب مني. ولا يكفُّ عن سؤالي عمّا أعانيه، وبما أني لا أعرف شيئاً، فإني أستطيع أن أقول له ذلك.

صباح الجمعة استيقظت باكراً واضطررت للبقاء دقيقة أو دقيقتين حتى أدركت أين أنا. توقعت أن أسمع زقزقة العصافير، ثم فتحت عينيّ وتذكرتُ أني لم أعد في وايلدفلاور هيل، بل أنا في شقة مفروشة في لندن حيث التدفئة تصدر طقطقات خفيفة. شعرت بالضياع: فأنا أريد عصافير.

لدي انطباع بأني بعيدة عن بيتي.

نهضت ولبست مئزري وفتحت بهدوء باب غرفة جوش فقد كنت بحاجة إلى حرارة وطمأنينة، لكني ترددت. اعتادت عيناي على الظلام. ميزت كتفه البارزة العضلات. كان جوش جميلاً أيضاً في ذكراي، لكني تأكدت من هذا الشيء بطريقة منفصلة جداً. فأنا لم أعرف حقاً شعور أنه يشكّل جزءاً من حياتي. وخزَتْ دموعي عينيّ فقد أخطأت على الخط كله. وأسقطت أشخاصاً. والآن بدأت أتساءل ما إذا كان الحلم الذي تبعته من الطرف الآخر من العالم خالياً من المعنى.

حسبت الساعة التي يجب أن تكون الآن في استراليا، إنها الثالثة والنصف ظهراً. باتريك يوشك أن يعود إلى البيت. تساءلتُ كيف يسير التدريب على العرض. ربما يمكنني أن أمنحهم مالاً أو شيئاً آخر أو أرسل أزهاراً إلى مينا عبر الإنترنت. شعرت بحاجة ماسة إلى الاتصال بهم.

تركت جوش نائماً وذهبت إلى المطبخ. أضأت المصابيح ورففتُ عيني بسببِ البريق وفتحت الهاتف. الضباب يضغط على النوافذ. والشمس لن تطلع قبل ساعات على الأقل بينما الظهيرة تبلغ أوجها حيث الهاتف يرن.

رفعت مونيكا السماعة عند الرنة الثانية وسألت:

– آلو؟

– أوه، مرحباً يا مونيكا، أنا إيمّا.

صمتٌ جليدي، هل يمكنني أن أضيف.

– هل باتريك هنا؟

– ليس بعد.

– لا بأس، أنا سعيدة بالتكلّم معك، وأنا مدينة لك باعتذاراتي بكل تأكيد.

– لا.

ترددتُ، لكنها صححت كلامي قائلة:

– أنت مدينة باعتذارات لباتريك ولمينا ولمارلون ولبقية أفراد «الخطميات البرية»، ولستِ مدينةً لي بشيء، وأنا لن أقبل اعتذاراتك، على أية حال.

كدت أتقيأ من خجلي لكني قلت:

– اسمعيني، أنا أعرف أنك غاضبة. لكني أخبرت باتريك أني مسافرة وقد تفهّم الأمر.

– آه نعم؟ لأني لا أفهم. لقد وعدت بالبقاء من أجل مساعدتهم على تحضير العرض ثم سافرت فجأة إلى إنكلترا قبل ثلاثة أسابيع من العرض الكبير.

– ليس الأمر بهذه البساطة. فقد غادرت لندن في ظروف صعبة. ولطالما أردت العودة، هذا كل ما في الأمر.

– أمر بديهي فمدينتنا الصغيرة لا تليق بمقامك.

خالفتُها قائلة:

– هذا غير صحيح.

ولكنها على حق ـ فهذا ما فكرت به تماماً في البداية.

– أنا لا أطلب منك أن تتفهمي ولكن على أية حال، أنا لم أكن أنوي أن أجرح أحداً.

– لا تهمّني نواياك كثيراً يا إيمّا. لقد جرحتِ كثيراً من الناس. والآن سوف أغلق الخط قبل أن يعود باتريك إلى البيت لأني لا أريد أن يعرف أنك اتصلت. وسأكون ممتنة لك إذا لم تتصلي.

– ولماذا لا أتصل؟

– لأنه يجب عليك أن تتركي له فرصة لكي ينساك. لذا يجب أن تجدي وسيلة أخرى للتخلص من عذاب ضميرك. اتركي أخي بسلام.

كان صوتها مظلماً ومتأثراً حين أضافت:

– إنه يستحق أفضل امرأة وهي ليست أنت.

وأغلقت الخط فوجدت نفسي أنظر إلى الهاتف وحلقي محتقن بالانفعال. إنها على حق فباتريك يستحق أفضل امرأة، امرأة رائعة. ولكني لا أطيق فكرة أن يكون مع امرأة رائعة، مع امرأة غيري.

– إيم؟

إنه جوش مستنداً إلى إطار باب غرفته والنعاس يسيطر عليه. سألني:

– هل أنت بخير؟

كان الضوء يرسم ظلالاً متموّجة حول وجهه.

– أعتقد أني بخير. كنت أسوّي مشكلة في تاسمانيا.

اجتاز الغرفة واحتضنني. كان فمه حاراً على نحري. انتابتني رغبة في البكاء. أبعدته بلطف وقلت:

– غداً مساءً، أعدك. سوف أكون بمزاج أفضل بعد الاحتفال. لقد بقيت محشورة هنا في الشقة أنتظر أن تعود كل يوم. ليس لدي القلب بأن أكون رومانسية.

– أنت في لندن. اخرجي، تسوّقي، تحركي.

– أعرف، أنا لست نفسي.

– حسنٌ آمل أن تجدي نفسك بسرعة لأني طلبت من إيمّا تلك أن تعود إلى لندن.

ضحكت كما لو أنه قال نكتة، ولكننا نعرف نحن الاثنين أنها ليست كذلك.

تحمّستُ لاستعدادات العشاء. فقد وجب عليّ أنا وجوش أن نخرج لاختيار بضع زجاجات من الخمر الجيد. وبكلّ تأكيد، أصررت على أخذ نبيذ استرالي. وبعد ذلك، انتهزت هذه المناسبة لكي أرتدي ملابس جميلة وأتمكيج وأملّس شعري. ذهبنا بسيارة أجرة في الليل اللندني وأخيراً شعرت بالرعشة التي سببها وجودي في مدينة كبيرة، عالمية، مكان تجري فيه أشياء. حشرت جسمي بجسم جوش في المقعد الخلفي من السيارة ولم أمنع قُبَله الحارة على نحري وعلى أذني. ربما لم أعد أعاني من فارق التوقيت. وربما لم أكن قد اتخذت قراراً سيئاً بالعودة.

كان هوغ وزوجته قد اشتريا وجددا شقة في طابق أرضي مع حديقة في كنسينغتون. وهوغ يكبر جوش ببضع سنوات من عدة وجهات نظر، وهو بمثابة أخ كبير له: مثال يحتذى به. لديه طفل من أوليفيا كانا قد وضعاه في السرير قبل وصول المدعوين. كان مجموعنا ثمانية أشخاص: أربعة أزواج. سرعان ما نسيت أسماء الآخرين، ولكنهم شكلوا مجموعات

صغيرة في الحديقة تحت شريط كهربائي. وبقيت وجوش في المطبخ مع هوغ وأوليفيا.

قال جوش وهو محمرّ الخدّين:

– شقتك رائعة هنا.

ثم أخذ يتأمل الإطلالة على الشارع المزدحم عبر البو–ويندو.

تدخلت أوليفيا قائلة:

– إنه طابق أرضي، وهذه ليست شقة مثالية.

لكنّ جوش حاججها قائلاً:

– ولكن لديكما حديقة.

– كان بوسعنا أن نشتري روفتوب لو أن هوغ كسب مبلغاً إضافياً قليلاً في السنة الماضية.

ثم وضعت أوليفيا إصبعين على بعد بضعة ميلميترات أحدهما عن الآخر. ضحكت لكنني شعرت أن هناك أساساً من الحقيقة فيما قالته. أنا لم أستلطفها.

ردّ قائلاً بنبرة هادئة:

– لقد كسبتُ أكثر منك.

نظرت أوليفيا إلينا، أنا وجوش، وهي ترفع كأس الشمبانيا ثم قالت:

– لا تكونا طفلين إذا أردتما رفوتوب. هذا هو الدرس الذي يجب استخلاصه.

فُتح الباب السحاب ودخل الزوجان الآخران. كان الطقس حاراً في هذه الشقة المنارة بقوة. كولدبلاي مع أساس صوتي. شربت كأسين من الشمبانيا بسرعة فاحمرّ خداي. وضع جوش ذراعه الحار حول خصري وكل شيء سيسير على ما يرام. أنا أعرفه الآن: سوف نتزوج وننجب طفلاً لأننا لا نملك الوسائل لننجب أكثر. سوف أفتتح مدرستي للرقص الكلاسيكي وأعمل عملاً شاقاً. وجوش سوف يبقى في البورصة ويعمل عملاً شاقاً أيضاً. بعد ذلك سوف نشتري شقة في الطابق الأرضي مع

حديقة وننظم عشاءً كهذا في عيد ميلاد جوش الأربعين. وسيكون هذا سهلاً.

إذن لماذا أبقي باردة حيال هذه الفكرة؟

جلسنا جميعاً حول الطاولة وقدمت أوليفيا المقبلات. كانت غاضبة قليلاً ومن الواضح أنها لم تكن تحب ألا يساعدها هوغ. تبادلت وجوش رفع حاجبينا وخنقنا ضحكتينا. نهضت إحدى المدعوات، وهي هندية أنيقة شعرها طويل أسود مرفوع إلى أعلى رأسها، لكي تساعد أوليفيا وتقترح الخمر. وحين وصلت إلى جانبي سألتني:

– هل أسكب لك يا سارة؟

ران صمت، والموسيقى ما تزال تصدح لكنْ الأصوات سكتت. لم يجرؤ أحد على النظر إليّ.

– عفواً، أنا أقصد يا إيمّا.

قلت لها وأنا أمدُّ كاسي:

– لا بأس عليكِ.

مال جوش نحوي وهمس:

– لقد خرجنا معاً عدة مرات عندما كنت مع...، أنا آسف.

كررت:

– لا بأس عليك.

ولكن لم يكنِ هذا صحيحاً، فهناك بأس عليه. لقد خدعني. وتركني. ولم يكن موجوداً في أثناء عملياتي الجراحية. هل هذا هو النوع من الرجال الذي أريد أن أتزوج منه، وأريد أن أعيش معه حياة الطبقة الوسطى، وأُنجب طفلاً ونشتري شقة مع حديقة؟ دقّت أوليفيا كأسها لكي تلفت انتباهنا وقالت:

– نخب هوغ من أجل سنواته الأربعين.

كررنا بصوت واحد:

– نخب هوغ.

ابتلعت كأسي بجرعة واحدة. سوف أسكر سريعاً جداً.

استؤنفت السهرة، وشاركتُ في الأحاديث من وقت إلى آخر. وتمكّنت دون مشكلة من التحدث، ولكني كنت أستمع أيضاً إلى حديث الآخرين وأراقبهم بصمت. في طرف الطاولة أمضى رجل ضخم الجثة قاسي الملامح نصف ساعة بالتباهي أمام جوش بأملاكه العقارية. وبدا جوش فرحاً بكلامه إذ سأله:

– كيف تفعل لتكسب هذه الأراضي بأسعار زهيدة؟ فليس في السوق أسعار منخفضة كهذه.

– أنا لا أنتظر أسعار السوق. بل يكفي أن أعرف أين ومتى، وأستطيع أن أقوم بأعمال لا تصدّق. في المحكمة التجارية على سبيل المثال، يوجد دائماً أشخاص يائسون، مضطرون للبيع. ذات يوم بعد جلسة من أجل معاملة إفلاس كسبت بيت الاصطياف لفتاة في برينغتون. وقد كانت مستعدة لكل شيء للتّخلص منه، إذا فهمت ما أقصد.

ضحك جوش. *لقد ضحك.*

لكني أعلنتُ في وجه الرجل:

– إن عمليتك غير شريفة.

حرّك كتفيه كما لو أني عرضتُ عليه أن نخرج لنتصارع، ثم قال:

– هكذا هي التجارة يا عزيزتي. إذا لم تُعجبك هذه الطريقة، فلا أحد يجبرك على العمل مثلي. ولكن لا تتذمري مثل الآخرين الذين لا يملكون شيئاً. نحن الأغنياء أذكياء بما فيه الكفاية لكي نتدبر أمورنا.

التفتُّ إلى جوش وسألته:

– هل تصدّق هذه السخافات؟

رفع جوش كتفيه، من المؤكّد أنه كان مستاء، عندما قال:

– هذه استراتيجية تجارية صحيحة، يا إيم. وأنتِ لا تعرفين عنها شيئاً. وأعتقد أنه على حق: أن يفعل الإنسان كل ما يجب أن يفعله لكي

يتقدّم. وأنتِ أيضاً، عندما كنتِ ترقصين، الله يعلم أنك لم تكوني تأخذين مشاعري بالحسبان عندما كنتِ تحضّرين لمرض ما.

انتقلوا إلى موضوعات أخرى في الحديث، وظللتُ جالسة بينهم، ولكني أيقنتُ تماماً أني لستُ في مكاني هنا. فهؤلاء الناس لا يشبهونني. وهذا المستقبل ليس مستقبلي، ولقد ارتكبتُ خطأ فظيعاً: فبعد أن انسحبتُ من هذه الحياة، ها قد غصتُ فيها من جديد وأنا آمل ألّا يكون شيءٌ قد تغيّر، وهو كذلك: لا شيء تغيّر، أما أنا فقد تغيّرت.

ناديته:

- جوش!

لم يسمعني، إذ كان منشغلاً بالحديث مع غني العقارات. فناديتُ بإصرار:

- جوش!

التفت ونظر إليّ، ومن نظرته فهمت، فقد عرف هو الآخر، فهو ليس غبياً: لم أعد نفسي، وهذا لا يمكنه أن يدوم. قلت بتصميم:

- يجب أن أعود.

قال وهو يمسك بكأسه:

- حسنٌ، دعيني أكمل كأس نبيذي، ومن ثم نعود.

- لا، لا أريد أن أعود إلى بيتك، بل سأعود إلى بيتي، فمكاني ليس هنا.

للمرة الثانية في هذه السهرة يرين الصمت. ضحك جوش ضحكة متوتّرة ثم سألني:

- إيمّا، ألا يمكن ألا يمكن أن تنتظري؟

هززتُ رأسي، ثم قلت:

- خذني إلى المطار، فإن مكاني هو وايلدفلاور هيل.

الفصل الثاني والثلاثون

كانت الساعة السابعة صباحاً حين، صعدتُ إلى سيارة أجرة في مطار هوبارت، أما جسمي، فإنه ما كان ليعرف كم هي الساعة. أنا الآن، لا أعرف اسمي، ولكنّي واثقة من شيء واحد: لقد اتّخذتُ القرار الصحيح.

سألني السائق:

– إلى أين؟

– هل لديك مانع في أن توصلني إلى ليوينفورد؟ وسأعطيك إكرامية جيدة.

شغّل عدّاده ثم قال:

– أنا بخدمتك.

– لنمرّ أولاً بباتري بوينت.

لا أتذكّر عنوان مينا، فدللتُ السائق إلى الطريق. مونيكا على حقٍ: فأنا مدينة باعتذارات إلى هذه الفتاة. قاومتُ رغبةً في الاتصال بها هاتفياً، لأني لستُ متأكّدة من أن تفهم إلى أي حدّ لندن بعيدة، ولا أني ذهبتُ إليها، بينما كان من واجبي أن أبقى لمساعدتها في تدريبها الأخير.

طلبتُ من السائق أن ينتظرني أمام البيت. قرعتُ الباب ووقفتُ أنتظر، وأنا أشعر بالشمس تدفئ ظهري. فتح والد مينا الباب، فقلت:

- صباح الخير يا سيد كارتر، هل مينا هنا؟
قطّب حاجبيه وهو ينظر إلى سيارة الأجرة الواقفة، ثم سألني:
- هل تريدين أن تأخذيها إلى مكان ما؟
- لا، لا، بل أريد أن أقول لها بضع كلمات فقط.
لم يخفض عينيه وهو يصرخ:
- مينا! لديك زيارة.
ثم حرّك رأسه وسألني:
- هل تريدين الدخول؟
وصلت مينا. وحين رأتني ارتسمت ابتسامة واسعة على كامل وجهها وركضت لتعانقني، فضممتُها بقوة. سألتني:
- هل عدت؟
- نعم.
- قال لي مارلون وباتريك إنك سافرتِ إلى الأبد.
- لقد غيّرتُ رأيي. فأنا لا أريد أن أفوّت عرضك.
تراجعتُ لأنظر إليها ثم قلت:
- أنا آسفة لأني سافرتُ بهذه الطريقة.
نظرت إليّ باستغراب، فأدركتُ أنها لم تفهم حقاً ما قمتُ به، وأنها لا ترى فيه ضيراً. داعبتُ خدّها وقلت:
- أنتِ لطيفة جداً. وأنا متشوّقة لأراك ترقصين.
وضع والد مينا يده على كتفها، ثم قال:
- ادخلي الآن يا مينا. أريد أن أكلم إيمّا على انفراد.
ابتسمت لي قبل أن تذهب، ثم نظرتُ إليه بفضول، فقال:
- دعيني أوصلك إلى سيارة الأجرة.
- بكل سرور.
مشينا في الممر. بدا منزعجاً، فسألتُه:
- عمّ تريد أن تكلّمني؟

- أنا آسف، فقد كنتُ أظن أنكِ... لم أكن أعرفك. قالت لي مينا إنك نجمة رقص شهيرة... ولم أستمع إليها. فهي ما تزال لا تفهم كيف يسير العالم. ولكنها كانت على حق، وأنا آسف لأني اعتقدتُ أنك مجرّد...

أعتقد أنه أدرك بأنه لا يستطيع أن يكمل عبارته إلا إذا شتم باتريك ومارلون، لكنَّه تراجع وقال:

- عذراً لأني كنتُ قليل التهذيب.

وقفنا على الرصيف، قرب سيارة الأجرة. على الرغم من أني متعبة وتائهة بسبب فارق التوقيت، فأنا أعرف أن الوقت قد حان، تماماً، فقلت:

- سيد كارتر، أنا أحبّ حقاً، وأشدّد على هذه النقطة، أن تأتي لترى عرض ابنتك.

رفض أن ينظر إليّ، وهو يقول:

- أنت عنيدة.

- إذن أجبني: لماذا لا تريد المجيء؟

ران صمت طويل، وسائق السيارة يراقبنا من خلف الزجاج، والنهر يعكس الشمس، ونسيم حار يحرّك رؤوس أشجار الدلب:

- لأني سأشعر بالخجل.

هذا آخر شيء كنتُ أتوقّعه، فلزمني بعضُ الوقت لاستيعاب ما يقصده. وبعد ذلك، وجدتُ جوابه حزيناً جداً بحيث غادرتني كلُّ رغبةٍ في كرهه. بل قلتُ بثقة:

- أعدك بأنك لن تشعر بالخجل أبداً، بل بأنك ستكون فخوراً بها.

هزّ رأسه وقال:

- أنتِ لستِ في مكاني، ولا تعرفين شيئاً عنها. أنا أحبّ ابنتي يا إيما، ولكنها ليست مراهقة كالأخريات، وأنا لا استطيع أن أزعم أنها طبيعية. أنا أعرفها، وأراها كل يوم، وأعرف أنها لا ترقص جيداً،

وسأكون منزعجاً عندما أراها تحاول أن ترقص. الأمر سيّان عندها، وهي مسرورة جداً بالتمرّن والتدرّب، ومن الأفضل لها ألّا آتي. فلن أعرف أين سأضع نفسي.

ثم ابتسم وأضاف:

– ستكون أسعد من دوني.

أنزل السائق الزجاج ثم سألني:

– هل سنذهب إلى ليوينفورد؟

سألني والد مينا:

– هل ستذهبين إلى هناك بسيارة أجرة؟

– ما تزال ركبتي تؤلمني كثيراً بحيث أن لا أستطيع أن أقود السيارة.

– كنتُ أستطيع أن أوصلك.

– لا مشكلة.

هبَّ النسيم على النهر، وبعثرت الريح شعري، فأبعدته عن وجهي، وقلت:

– أؤكّد لك أن ابنتك موهوبة.

رفع كتفيه. سعر سيارة الأجرة يرتفع في العدّاد، فقلتُ له «إلى اللقاء» وصعدتُ إلى السيارة، بينما ظَل واقفاً تحت الشمس، تائهاً في أفكاره، ونحن نغادر الشارع.

لا بدّ أن برّاد وايلدفلاور هيل فارغ. فلديّ انطباع بأني سافرتُ منذ قرون، في حين أن أسبوعاً واحداً عاصفاً كان قد مضى. طلبتُ من سائق سيارة الأجرة التوقف في المدينة، فذهبتُ واشتريتُ بسرعة خبزاً وحليباً وطبقاً من المعجنات الإيطالية الشريطية من محل الأغذية. وحين خرجتُ إلى الشارع المشمس، التقيتُ ببينيلوب سايكس وجهاً لوجه، وهي قادمة من الاتجاه المعاكس.

صحتُ بها وأنا أتراجع خطوة:

– بينيلوب!

– إيمّا! ظننا أنك سافرتِ إلى بريطانيا.

– لقد سافرتُ إلى هناك وعدت.

ثم ابتسمتُ وأضفت:

– فقد غيرتُ رأيي.

رفعت أحد حاجبيها المرسومين بقلم الرصاص ثم سألتني:

– إذن، ستبقين في وايلدفلاور هيل؟

– ليس لدي برنامج دقيق بعد، ولكني لا أريد أن أفوّت عرض فرقة «الخطميات البرية»، فقد ساعدتُ باتريك تايلور على تخضيره.

وخفضتُ صوتي وأضفت:

– إذا أراد أن يسامحني.

– أنا واثقة من أن باتريك لن يلومك، أما بالنسبة إلى مونيكا، فالأمر مختلف.

– نعم، فهي مدافعة شرسة عنه.

– نحن نعرفه هذا جميعاً. هل تعرفين أن باتريك كان قد خطب منذ عدة سنوات؟

انتابني شعور بالغيرة، آتياً من اللامكان، وبطريقة عصية على التبرير تماماً، فسألت:

– صحيح؟

– وقد انتهت خطوبته نهاية سيئة جداً، فقد كانت خطيبتُه تقابل رجلاً آخر في الوقت نفسه، ومونيكا هي من اكتشفت ذلك وأخبرته.

لا يمكنني أن أشعر بالذنب أكثر تجاه باتريك، ولكني مخطئة. وليس من المستغرب أن تكرهني مونيكا.

ألقيتُ نظرة على سيارة الأجرة، لا ريب في أن سعر رحلتي قد بلغ رقماً فلكياً. لا يهمّني إذا ما تحدّثت خمس دقائق أخرى مع بينيلوب، فقلتُ لها:

– لدي شيء لأقوله لك، فقد وجدتُ قبراً وصليباً واسماً مكتوباً عليه في وايلدفلاور هيل، تحت شجرة السنط، قرب البيت، وقد كُتب عليه «تشارلي».

أمالت رأسها جانباً وسألت:

– صحيح؟

– هل يعني لك هذا شيئاً ما؟

حرّكت رأسها قليلاً، ثم قالت:

– كما تعرفين، أنا أُجري أبحاثاً حول التاريخ المحلّي. وقد وجدتُ أثراً لحارس مواشي كان يعمل في بُليغ. في الحقيقة كان أكثر بكثير من حارس مواشي. فقد كان تشارلي هاريس معروفاً بأنه شغّيل جداً ومطلوب جداً. وقد غادر بُليغ عام 1935، وغالباً ما تساءلت عما حلّ به.، وقد يكون ذهب إلى وايلدفلاور هيل.

تحمّستُ وقلت:

– نعم، هو كذلك، فلا بد أن جدتي قد اعتمدت عليه، على ما أتخيّل. وأعتقد أن الرسالة الملتهبة التي كتبتها كانت موجّهَة إليه، أتذكرينها يا بينيلوب؟

هزّت رأسها وقالت:

– لا أعتقد يا عزيزتي. إنه عقد الثلاثينيات، والزيجات المختلطة كان يُنظر إليها نظرة سيئةِ آنذاك.

– مختلطة؟

– تشارلي هاريس من السكّان الأصليين.

– أوه.

– أشك في أنه كان عشيقها.

فكّرت في القبر الموجود تحت نافذة جدتي، ولم أقل شيئاً لبينيلوب سايكس. ومع ذلك فأنا شبه متأكّدة من أنها مخطئة.

فاجأني الشعور بالسعادة الذي غمرني وأنا أفتح باب مدخل وايلدفلاور هيل قبل أن أضع أكياسي، بل أرعبني. الرائحة المألوفة لمسحوق الغسيل الذي أستخدمه، والخشب، والزمن الذي يمضي. وضعتُ مشترياتي في البرّاد، والإبريق ليسخن. مجيبي الآلي يغمز. إنها أمي: «ولكن أين أنتِ يا إيمّا؟».

بدت قلقة، لا، فكلمة «قلقة» ليست الكلمة المناسبة، بل بدت مرعوبة. سرعان ما تذكّرتُ ضعفها، ما سبّب لي الدّوار. لقد بات من المؤكّد شيئاً فشيئاً أن تلك الرحلة إلى لندن كانت ضرباً من الجنون. تُرى كم من الأشخاص آذيتُ مشاعرهم؟ أمي المسكينة! فتحتُ الهاتف واتصلتُ بها.

رويت لها كل شيء: جوش ولندن، وإدراكي بأني لم أعد الشخص نفسه. ولكني قلتُ لها بصورة خاصة إني أحبّها لأني لم أقل لها ذلك كفاية في حياتي. بكيتُ وشعرتُ بالانزعاج، ومع ذلك فقد كانت أمي رائعة. فهي تعرف ماذا تقول في الوقت الملائم، وأنا لا أعرف لماذا أبعدتُها بهذه القوة. وأخيراً وجدتُ الشجاعة في أن أروي لها أسرار جدتي، وحدّثتُها عن الصور، ولعبة البوكر، وعن تشارلي، وسألتها عن رأيها في هذا.

زفرت، ولم تصمت سوى لحظة، ثم قالت أخيراً:

– لا أعرف يا إيمّا. هذا كله لا يشبه أمي، ومع ذلك... فقد فعلت أشياء غير متوقّعة أحياناً.

– كتوريث مالها للمؤسّسات الخيرية؟

– تماماً.

– ولكن لماذا أبقت هذه القصص سرية؟ أنا لا أفهم.

– فكري قليلاً بما قلته لك للتو يا إيمّا. ثم تخيلي نفسك في عقد الخمسينيات متزوجة من رجل سياسة مشهور، مع ولدين في سن صغيرة...

صمتت قليلاً، فقلت لها:

– أنا آسفة يا ماما، لم أكن أريد أن أقول لك شيئاً، فقد كنت أخشى أن أجرحك بهذه القصص عن طفل مخبأ وباقي الأمور.

صمتت من جديد قبل أن تضيف:

– لقد قالت لي أمي شيئاً ما ذات يوم، في لحظة عدم انتباه، لطالما جال في خاطري.

– وما هو؟

– كنت حاملاً بك وطرحت عليها أسئلة حول حملها الأول وحول المخاض. كنت قلقة على ما أفترض، وكنت بحاجة إلى أن تطمئنني. فروت لي أن مخاضها الأول كان سريعاً جداً وسهلاً. وأنه تمّ في البيت وبطريقة طبيعية. وبعد بضع سنوات سمعتها تقول لمايكل إن ولادته كانت رهيبة، وكان هناك كثير من الأطباء من حولها وأنها رُبطت إلى نقّالة، فكانت قصة أخرى رهيبة.

– إذن إما أنها كذبت عليك لئلا تخيفك...

– أو أن مايكل لم يكن ولدها الأول.

وانقطع صوتها، فسألتها:

– هل أنت بخير يا ماما؟

– بخير يا عزيزتي. هذا بالضبط ما يحزنني... ألاّ تجرؤ على الكلام معي حول هذه المسألة.

زفرتْ ثم أضافت:

– إني مشتاقة إليها كثيراً، وأحب أن تكون ما تزال على قيد الحياة لأطرح عليها هذا السؤال.

– وأنا أيضاً.

عند الظهر شعرت بتعب فظيع وصعدت لكي أقيل. ضبطت منبّهي على الساعة الثالثة عشرة ولكن لا بدّ أني أطفأته في أثناء نومي لأني نمت أكثر من ساعة واحدة بكثير. حلمت بجدتي. لم أكن أستطيع أن أراها

لأنها كانت بعيدة، على حصان، ولكني كنت أعرف أنها جدتي. وكان بجانبها على حصان آخر رجل أسمر البشرة. كانا على سفح الجبل الذي أراه من نافذة غرفة حمامي، وهما يضحكان...

استيقظت حين كان احدهم يطرق الباب في الأسفل. كانت الضربات قوية كما لو أن هذا الشخص يحاول أن يوقظني منذ بعض الوقت. قعدت في سريري تائهة، نظرت إلى المنبه إنها الساعة السادسة عشرة. صرخت:

– أنا قادمة!

نزلت الدرج بحذر وحين فتحت الباب، رأيت سيارة باتريك تتراجع في الممر.

ركضت وأشرت له إشارة متعجّلة. كنت أشبه مجنونة زائغة العينين وشعرها ملتصق بوجهها من العرق. وقف وأطفأ المحرك ثم ترجّل من سيارته. وقال لي:

– صباح الخير. قيل لي إنك عدت.

– كل شيء يُعرف في هذه المدينة.

– بالفعل.

نظر كلٌ منا إلى الآخر للحظة ثم اقترحت عليه:

– هل ندخل لنشرب القهوة؟

رفع كتفيه وقال:

– موافق.

جلس إلى طاولة المطبخ بينما كنت أملأ الإبريق وأضعه ليسخن.

قال لي:

– كنت أود فقط أن أحدثك عن العرض، وأسألك إذا ما كنت تنوين الحضور. سيكون مساء السبت.

– أعرف. ومن أجل هذا أتيت.

التفت إليه لكنه لم يكن ينظر إليّ فأضفت:

– أقصد هذا أحد الأسباب التي عدت من أجلها.

رفع رأسه فرأيت حزناً في عينيه وهو يقول:
- أنا لا أعرف لماذا سافرت.
- لأني غبية.
لم يقل شيئاً. صببت فنجانين من القهوة وجلست إلى الطاولة.
أخذتُ نفساً طويلاً ثم قلت:
- كنت مضطرة لإنهاء بعض الأمور هناك.
- مع جوش؟
- كيف عرفت اسمه؟
- مونيكا قالت لي اسمه.
وضعت رأسي على الطاولة وقلت:
- مونيكا لم تعد تريد أن تكلمني.
ضحك ثم قال:
- لديها جانب قاس، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بي.
انتصبت وقلت:
- أنا حقاً آسفة يا باتريك. فلم أكن أريد أن أرسل إليك إشارات مرتبكة هكذا. ولكنني لم أكن أعرف ماذا أريد. وكان يجب عليَّ أن أعود.
- والآن؟ هل عرفتِ ماذا تريدين؟
- ما أنا متأكدة منه هو أنيّ لا أريد أن أكون مع جوش.
ران صمت طويل. لا أنا ولا هو ذقنا قهوتنا. كان لدي انطباع بأنه يريد أن يعرف ما إذا كان يستطيع أن يثق بي أم لا.
قال لي:
- يجب عليّ أن أذهب، وأتركك ترتاحين.
- أنا لم أنمْ معه.
قال بصوت بارد:
- هذا لا يعنيني حقاً.
فشعرتُ بانزعاج.

رافقتُه حتى الباب، ثم قلتُ له أن يأتي لأخذي إلى التدريب مساء الأربعاء.

– لا أستطيع، فأنا سأذهب لإحضار الإنارة، ولن يكون هناك من مقعد شاغر في السيارة، ولكن يمكنني أن أمرّ اصطحابك مع مونيكا إلى العرض، يوم السبت.

بالسيارة، مع مونيكا، ولمدة ساعة! ارتعشتُ لهذه الفكرة، ومع ذلك قلت:

– شكراً جزيلاً.

أوضح:

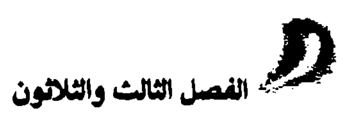
– سوف آتي عند الساعة الخامسة.

– إني بشوق.

نظرتُ إلى سيارته وهي تبتعد، وأنا آمل ألّا أكون قد أفسدتُ كل شيء.

أمضيتُ بقية الأسبوع في التفكير. أوه، وكذلك غسلتُ ملابسي أيضاً، وتسوّقتُ، وعوّدتُ جسمي على التوقيت المحلّي. والأهم من هذا أني شغّلتُ عقلي. من الآن فصاعداً، يبدو لي أن حياتي في لندن، تلك الحياة التي ظننتُها مثالية، قد انتهت. لم أعد أريد جوش، ولا أعرف لماذا رغبتُ *ذات يوم* في أن أكون معه ولندنٍ ليست مدينة مسلّية إذا لم أقم فيها بعمل مبرّز يكون أجره جيداً جداً. ومع ذلك، فأنا لستُ مستعدّة لترك الرقص. لن تسمح لي ركبتي بالقيام بالحركات التي كانت في السابق نفسها، ولكن هذا لا يعني أني لا أملك الحق بأن أحب الحركة والتعليم، أو حتى حضور عرض باليه. لم يعد مستقبلي يبدو لي بهذا السواد. في الواقع، أنا أتساءل لماذا أتذمّر وأنا حيّة وفتيّة وبصحة جيدة.

باتريك هو مصدر قلقي الوحيد على مستقبلي. فأنا لا أكفّ عن التفكير في قبلته. خفتُ أن أكون قد وقعتُ في فخ الوهم، ولكن حقاً لديّ شعورٌ بأني لم ألتق برجل أفضل منه في حياتي، وبأني لن ألتقي بمثله أبداً.



الفصل الثالث والثلاثون

كنتُ جاهزة قبل نصف ساعة من الموعد، بعد ظهر السبت، وأخذت أذرع صالوني جيئة وذهاباً. لديّ عدة أسباب لأكون عصبية: فأنا مضطرة لمقابلة مونيكا، وأريد أن أعطي باتريك انطباعاً جيداً، وأتساءل ما إذا كانت مينا ستتصرّف جيداً. كنتُ أفضّل أن أحضر التدريب الأخير ببدلة الرقص لكي أقول لها كم هي موهوبة، وكم أنا فخورة بها.

مينا. خطرت لي فكرةٌ فجأة، ولمتُ نفسي لأني لم أفكّر بها من قبل. صعدتُ إلى غرفتي وفتحت درج خواني حيث يرقد تاجي الذي وضعتُه من بحيرة *البجع*. إنها ستكون رائعة به. أدركتُ بحزن أني لم أفكّر بتقديمه لها من قبل، لأنه كان عزيزاً عليّ ـ كان رمزاً لحياتي السابقة. لقد كنتُ أكثر أنانية من أن أنفصل عنه.

وضعتُ التاج في حقيبة يدي وذهبتُ لأنتظر في الطابق الأرضي. ظهيرات الصيف لا تكفّ عن التطاول، هادئة وممتعة، مصحوبة بظلال عريضة ونسائم عليلة. وصلت سيارة باتريك إلى الممر عند الساعة الخامسة تماماً. وكانت مونيكا تجلس في المقعد الأمامي. قلتُ وأنا أصعد:

- صباح الخير.

ردّ باتريك وهو يُرجع السيارة:

- مرحبا إيمًا.

وأخذ يرجع السيارة إلى الخلف بعد أن ألقى نظرة قاسية على مونيكا التي ردّت: «صباح الخير»، على مضض.

أسندت ظهري إلى المقعد ونظرتُ عبر الزجاج. وطوال الطريق، بدت مونيكا باردة معي، لئلا أقول عدوانية. شعرتُ بعدم الارتياح، في حين أن باتريك بدا منزعجاً. ومن دواعي ارتياحي الكبير أننا وصلنا إلى مرآب المدرسة، وصار بوسعي الترجّل من السيارة والابتعاد عنها.

ناولنا باتريك بطاقات دخولنا وهو يقول:

- عليّ أن أذهب للتحقّق من الصوت.

فقلت له:

- أريد أن أرى مينا إذا كان ذلك ممكناً. هل أستطيع أن أذهب إلى الكواليس؟

- بكل تأكيد.

وجدتُ طريقي إلى الكواليس حيث كان مارلون يغنّي بصوت فرِح أمام أطفال وأهل متوتّري الأعصاب.

قلتُ لإحدى الأمهات:

- أنا أبحث عن مينا.

فقالت:

- إنها في الكواليس، ولكن في الجانب الآخر من المسرح.

قمتُ بدورة من الخلف. إن للكواليس الرائحة نفسها في العالم كلّه: صباغ الشعر، والمكياج السميك والحرارة الكهربائية والكاوتشوك من أجل

اللاصق للمجاري. وكان الظلام مخيّماً، ولا أمتلك إلا نور مصباح جيب المساعدين التقنيين لإضاءة طريقي. وجدتُ مينا جالسة على كرسي بلا مسند، ونظرها شارد في الفراغ، فقلتُ لها:

- مرحباً.

التفتت نحوي، ابتسمت ثم أجابت:

- مرحباً.

- هل أنت بكامل لياقتك؟

- أنا خائفة قليلاً.

- هذا طبيعي، وهذا جيد، فأفضل راقصات البالية يشعرن بالرهبة.

- صحيح؟

- تماماً، فهذا يعني أن العرض مهم بالنسبة إليهن. انظري، معي شيء لك.

- ما هو؟

أخرجتُ التاج من محفظتي ثم سألتها:

- أتذكرينه؟

أمسكت به وسارعت إلى وضعه على رأسها. أصلحتُ وضعه كما يجب ثم ثبّتُّه بدبابيس في شعرها، دون أن أكفّ عن الكلام:

- أنا لم أعد أستطيع أن أرقص كما كنتُ من قبل يا مينا. لذا فإن هذا التاج لن ينفعني بعد الآن في شيء. هل تحبّين الاحتفاظ به؟

جحظت عيناها وهي تقول:

- نعم، نعم، نعم!

- إذن يجب أن تنتبهي إليه، فهو سريع العطب، وكان عزيزاً عليّ في الماضي.

- ولم يعد كذلك الآن؟
قلتُ قبل أن أضحك:
- بلى. ولكن بطريقة أخرى. وقد أصبح لك الآن، إنه رائع عليك.
بدت وكأنها تذكّرتْ شيئاً، فقالت:
- هل تعرفين شيئاً؟ أبي سيأتي هذا المساء.
أصبت بالذهول. ربما أفلحتُ في إقناعه في النهاية، فقلت:
- هذا عظيم، وسيكون فخوراً بك جداً.
- سوف يأخذني لنأكل البيتزا. أنا أعشق البيتزا.
عانقتُها ثم قلت:
- والآن، يجب عليّ أن إلى مقعدي. حظاً سعيداً يا صغيرتي.
تركتها جالسة، منتشية بحالة الفوران التي تعتمل من حولها.
بدأت القاعة تمتلئ. تحقّقتُ من رقم مقعدي فتبيّن لي بأنه ملاصق لمقعد مونيكا: هذا طبيعي، لأن التذاكر باسم باتريك وهما معاً. لملمتُ أطراف شجاعتي وجلستُ بجانبها. رفعت نظرها دون أن تتكلّم. فقلتُ لها:
- أنا آسفة، هل تريدين أن أجلس في مكان آخر؟
رفعت كتفيها ثم قالت:
- هذا سيّان عندي. فلديّ صديقة ستأتي قريباً.
ثم ربتت على المقعد المجاور لها وقالت:
- فلن نكون مضطرّتين لتبادل كلام عادي يضايقنا. ما علينا إلا أن نتصرّف كما لو أننا لا تعرف إحدانا الأخرى.
لم أستطع الامتناع عن الضحك ثم قلت:
- أوه يا مونيكا. لم أكن أتصوّر أنكِ بهذه القسوة.
توتّرت زاوية فمها ولكنها منعت نفسها من الابتسام. فسألتُها:

- هل يمكنني أن أشرح لك شيئاً ما؟
- يمكنك أن تحاولي.
- أنا لا أعرف أين يوجد الأمر الجوهري حتى الآن. أعتقد أنه كان يجب عليّ أن أفقده لكي أدرك أني مشتاقة إليه.
التفتت إليّ لكي تسألني:
- هل تتكلمين عن باتريك؟
- عن باتريك وعن غيره.
أمعنت النظر إليّ بصمت للحظاتٍ وسط الثرثرات والحركات التي أخذت تزداد في الصالة، ثم قالت:
- إنه هائم بك يا إيمّا. وإذا كسرتِ قلبه فسأقتلك.
وابتسمتْ الآن.
وُلد لديّ إحساس بأن فراشات تداعب بطني:
- حقاً؟ هائم؟
- لا أريد أن أضطر لقتلك.
- لست مضطرّة لذلك. فسأعرف كيف أصمد.
أتت صديقتها بعد قليل، فأرحتُ ظهري إلى مسند مقعدي وأخذتُ أنتظر. شيئاً فشيئاً استقرّ الجميع في أماكنهم. ضوضاء بعض الأصوات النافدة الصبر تتصاعد في الظلام. أغمضتُ عينيّ لحظة وأخذت أستذكر عروضي في أوربا. وحين فتحتهما كان حزني قد تلاشى.
ثم رأيتُ والد مينا وقد وصل قبيل إغلاق الأبواب تماماً، وشقّ طريقه كيفما اتفق حتى مقعده متعثّراً بأقدام الجالسين، وعيناه تتابعان أرقام المقاعد. وأخيراً وجد مكانه، في الصف الرابع. جلس متصلّباً جداً، ثم وضع يديه عل فخذيه. راقبتُه لبعض الوقت دون أن يراني. وبعد ذلك

خفتت الأنوار لتترك مكانها للكواشف. أطلق الجمهور صيحات قوية، وبدأ العرض.

كان الجزء الأول كارثياً. فقد تجمّد الأطفال الأصغر سنّا: فلم يبدؤوا الرقص إلا مع المازورة الثامنة، وظلّوا غير متناسقين حتى نهاية القطعة. وعلى الرغم من كل شيء فقد كانوا متحمّسين، وسعداء لأن الجمهور صفّق لهم بفرح. والجزء الثاني تمّ بصورة أفضل. فقد رقص الأطفال على أنغام أغنية قديمة وكان بعضهم مصمّمين تماماً على ألاّ يرتكبوا أي خطأ بحيث أن الأرض أخذت ترتجّ على وقع خطواتهم القوية والصاخبة.

استرخيتُ في مقعدي. وأعجبني العرض والإحساس المريح للعمل ضمن مجموعة. وشعرتُ بأني محظوظة جداً.

وكان الجزء الأخير، عرض مينا. تباطأت الموسيقى وتقاطر ستة أطفال يرتدون اللباس الأبيض ليشكّلوا نصف دائرة، ثم مشت مينا وهي ترفل بلباس الملكة وتضع التاج على رأسها ووقفت وسط المسرح، ووجهها باسم. رفعت ذراعيها... وأخذت ترقص. كلّ زمن محدّدٌ بدقّة، وكل حركة من الذراع منفّذة بحيوية وعناية. أدهشتني بحركاتها إلى حدّ أني كدتُ أن أنسى أن أنظر إلى ردّات فعل والدها. التفتُّ إليه في المازورات الأخيرة، فرأيتُه يمسح دموعه بظاهر يده.

ذهبت مونيكا وصديقتها بعد انتهاء مباشرة. ذهبت لتُمضي بقية العطلة الأسبوعية في هوبارت. وبقيتُ بانتظار باتريك. كان يشيّع العائلات الفرحة، ويراقب تغليف عدة الصوت والأنوار الكاشفة.

قال لي وهو يحمّل الصناديق الأخيرة في الشاحنة:

– أنا آسف، فسوف نعود في وقت متأخر إلى البيت.

- لا مشكلة لديّ، فلا أحد ينتظرني.

ابتسم لي وقال:

- لقد نجحتِ في إقناع والد مينا بالمجيء.

- أعرف.

- أنا كنت سأتركه، أما أنت فقد كنت محقة في هذه المسألة.

- لديَّ حق في هذه النقطة، هذا هو الأمر.

- حسنٌ، يمكن أن نذهب.

كان الليل لطيفاً وبارداً. والنجوم تنعكس على مياه النهر. في السيارة كان الظلام مخيماً ما عدا الأزرار الملونة لتابلوه السيارة والتي انعكست أضواؤها على بشرة باتريك. وكان صوت المذياع خافتاً جداً بحيث لا نسمعه. تبادلنا بعض أطراف الحديث حول أجزاء العرض المختلفة تخلّلتْها فترات صمتٍ طويلة، مستفيدين من اتساع الحقول وظلال الأشجار اليابسة ونقاء السماء المليئة بالنجوم وسحر الظلام.

حين وصلنا إلى البيت، انعطف في المر دون أن يطفئ المحرك. أراد أن يدفعني إلى القيام بالخطوة الأولى، فسألته:

- ألا تدخل؟

- هل أنت واثقة من أنك تريدين ذلك؟

كنت مسرورة لوجودنا في الظلام ولأنه لم يرَ احمرار وجهي وأنا أقول:

- أوه، نعم.

أطفأ المحرك وترجّلنا ومشينا حتى المدخل. كنت قد صرت بين ذراعيه قبل أن آخذ أنفاسي. سحقت شفتاه القويتان والحارتان شفتيَّ. طوقت عنقه بذراعيَّ وتعانقنا كمراهقين. تحركت يداه لتداعب نهديَّ فبدت بشرتي تلين للمساته.

قلت له:

- إلى فوق.

- إلى فوق.

استيقظت مع العصافير وهي تصيح وتغرد وتزقزق بنشاطها المعتاد. فتحت عينيَّ ورأيت باتريك وهو ما يزال نائماً. وكتفه الشاحبة والعارية فوق الشرشف. باتريك عارياً في سريري! ذوّبتني هذه الفكرة. نظرت إليه لحظة وكفّت أهدابه عن التحرك. انحشرتُ به وطبعت قبلة على كتفه.

بقينا معددين هكذا متداخلين أحدنا في الآخر نسمع تغريد العصافير.

ثم سألني:

- ماذا ستفعلين الآن؟

- كيف ذلك؟

أفلت من معانقتي وانتصب لكي ينظر إليَّ ثم قال:

- والآن بعد أن انتهى العرض، هل ستبيعين البيت؟ هل ستعودين إلى سيدني؟

- بالطبع لا، فأنا لن أبيع البيت.

- إذن ستبقين هنا؟

- أعتقد أن ليس لدي خيار.

ابتسم، فقلت:

- هذا إذا كنتَ تريدني أن أبقى.

- طبعاً أريدكِ أن تبقي.

على الفطور نظمت قائمة بكل ما كنت قد رفضتُ القيام به عندما كنت أتخيل أني لن أبقى في هذا البيت، ثم قلت:

- سوف أشتري برّاداً جديداً، مع ثلّاجة تعمل.
- ودوزني البيانو أيضاً من فضلك.
- نعم، وسوف أشتري جهاز تلفزيون وغسّالة حقيقية.
- هذا سيشبه بيتاً حقيقياً.
- إنه بيتي، وسوف أستقر في الغرفة الرئيسة، كما نصحتني مونيكا أن أفعل منذ البداية. سأفعل ذلك الآن.

بعد أن أنهينا فطورنا صعدنا إلى الغرفة الرئيسة. وهناك مارسنا الحب على البطانيات المغبرّة بنعومة وشغف. وبعد ذلك فتحت الستائر وتأملت شجرة السنط وفكّرت بجدتي وبتشارلي.

سألني وأنا أرتدي ملابسي:

- هل ستشترين فراشاً جديداً لهذا السرير، فنوابضه ميتة؟
- بلا شك. ولكن سوف أكتفي بقلبه الآن. هل تريد أن تساعدني.

سحبنا الشراشف عن السرير فعطسنا بسبب الغبار ورفعنا الفراش.

قال لي:

- إيمّا.
- لقد رأيته.

كان هناك جيب صغير من الورق المقوى مسطّح منذ سنوات، ومحشور بين الفراش ومفرش السرير. فسارعتُ إلى التقاطه وباتريك يرفع الفراش الذي ما لبث أن أسقطه بحركة صمّاء ثم جلسنا على السرير وفتحت الجيب.

صور، عشرات الصور. الفتاة الصغيرة نفسها، مهما يكن اسمها، ترتدي فساتين مختلفة، وتلتقط صوراً من زوايا مختلفة: على حصان، أو تلعب مع كلاب، أو تنحني في الحديقة أو تقف أمام شجرة عيد الميلاد.

قلتُ وأنا أستعرضها:

- هكذا إذن!

وفي إحداها، كانت جدتي تشير، وكانت ما تزال شابة آنذاك، إلى الشخص الواقف خلف آلة التصوير. وفي إحداها يوجد رجل طويل القامة، غامق البشرة، ووجهه مغطّى بقبعته، يجلس براحة على حصان. وحين قلبتُ الصورة وجدت أن جدتي قد كتبت اسم تشارلي. أريتُها لباتريك، فاستنتج قائلاً:

- لقد انكشف السر.

- وليس هذا هو السرّ الوحيد.

وبدأت أتحقّق من قفا الصور الأخرى: هناك اسم يتكرّر باستمرار: *لوسي*. فقلتُ بصوت عال:

- لوسي! اسمها لوسي!

لستُ أدري لماذا تأثرتُ وكدتُ أن أبكي.

- أنا أتساءل عما حلّ بها.

وفي أسفل الجيب تماماً وجدت مغلّفاً مختوماً مع عنوان، قرأتُه: «سافرت إلى اسكتلندا».

قرأ باتريك العنوان من فوق كتفي، ثم سأل:

- تُرى لماذا لم تُرسل بيتي هذه الرسالة؟

- لنفس السبب الذي من أجله لم تكلّمنا عن لوسي، فإنجاب طفل غير شرعي آنذاك كان أمراً مختلفاً عن يومنا هذا.

- هل ستفتحينها؟

- لن يكون هذا جيداً.

- افتحيها.

ناولته إياها وأنا أقول:

- لا أستطيع. افتحها أنت.

فتح المغلف وأخرج رسالة ، وسألني:

- هل تريدين أن أقرأها لك؟

وافقتُ بإيماءة، وأنا لستُ واثقة من أني أستطيع أن أكبح دموعي:

لوسي، عزيزتي،

ها قد مرّت سنوات لم أرَكِ فيها، ولم أحتضنك بذراعيّ. وعندما قلتُ لكِ«إلى اللقاء» آخر مرة، كنتِ فتاة صغيرة خفيفة كالريشة. أعرف أن والدك ومولي قد فعلا ما كانا يعتقدان أنه جيد من أجلك. ولكنني لو كنتُ أعلم، في ذلك اليوم، أني لن أراك أبداً، لكنتُ ضممتُك بقوةٍ أكبر بكثير بين ذراعيّ ولما تركتك تذهبين.

أنت بالغة الآن، ولديك أربعة أولاد، وبتّ تعرفين مدى قوة الرابط الذي يربط بين الأم وابنتها. ربما تلومينني لأني هجرتك. لقد حاولتُ أن أبقى حاضرة في حياتك كما تعرفين. وحين طلبتِ مني أن أدَعكِ بسلام، أطعتك. وما كان يجب عليّ أن أفعل ذلك، بل كان يجب عليّ أن أواظب لأنك كنتِ قد خرجتِ للتو من مراهقتك، ولم تكوني تعرفين بعد ماذا تريدين. ولكنني شعرتُ بالخجل ـ ليس منك، فأنا لن أشعر بالخجل منك أبداً ـ ، بل من نفسي، ومن ماضيّ. لقد تزوّجتُ من رجلٍ هو في قلب المشهد العام، وقد أملى عليّ الحسّ السليم أن من الأفضل ألّا أواصل السير على هذا الطريق، بالإضافة إلى أنك أصررتِ على أن أمنحك حريتك.

ومع ذلك، لن نستطيع أبداً، لا أنا ولا أنتِ، أن نتحـرّر، إحداهنا من الأخرى. فقد كبرتِ بداخلي، وخرجتِ من جسمي، ودقّات قلبك كانت مرتبطة بدقّات قلبي. وحين وُلدتِ كنتُ بحاجة إليك أكثر مما كنتِ بحاجة إليّ. مهما حصل، فإن هذا الرابط لا يمكن أن تنفصم عراه. على الرغم من أن مولي تحب أن تعدّ نفسها الأم الوحيدة التي احتجتِ إليها، فإنها لم تعرف هذا الحب الأولي قطّ. كلٌّ منا، أنا وأنت، تشكّل جزءاً من الأخرى يا لوسي، على الرغم من أننا متباعدتان منذ سنوات طويلة.

لا أعلم ما إذا كنت تحبّين قراءة هذه الرسالة ذات يوم، بينما أفترض أني لن أرسلها. وعلى الرغم من كل شيء أشعر بأني في حال أفضل عندما أؤكد لك حبي مرة جديدة، وعندما أقول لك إن فقدكِ دمّرني. لوسي الحبيبة، ابنتي العزيزة، يا ذات البشرة الناعمة، لا تشكّي يوماً في أني كنت أحبك، وأني ما أزال أحبك، وأني سأحبك حتى تنطفئ النجوم في السماء ويسود الصمتُ العالم.

أمك المُحبّة، بيتي

انقبض قلبي، فجدتي الحبيبة خبأت عنا جميعاً هذا الجرح طوال سنوات وسنوات. داعب باتريك ظهري بحنان، وأنا لم أكن أدري أني كنت أبكي. بعد أن مسحت دموعي أصبحت قادرة على النظر إلى الصور من جديد. بيتي ولوسي. جدتي تبدو جميلة جداً وسعيدة.

قال لي باتريك:

- إنها تشبهك.

- الناس جميعاً يقولون هذا. وأمي تشبه جدتي أكثر فهي طويلة القامة وجذّابة، وأنا أشبه جدتي.

- لا، أنا أقصد الفتاة الصغيرة لوسي، فهي تشبهك.

أمسكت بإحدى الصور وتفحّصتها عن كثب. كانت لوسي تبتسم. وهي تشبهني كثيراً في الواقع. وابتسامتها، ابتسامة جدتي، هي ابتسامتي.

سألني باتريك:

- ماذا ستفعلين؟

التفت نحوه وكان وجهه حانياً وعيناه الناعمتان تغوصان في عينيّ، ثم أجبته:

- سأفعل ما يجب أن أفعله.

خاتمة

حلَّ الربيع في غلاسكو بالنسبة إلى الناس جميعاً، أما أنا فقد بدا لي أن الثلج لن يذوب أبداً. من البديهي أني فقدت الاعتياد على البرد القارس. وقد سخر مني باتريك وهو يراني أراكِم عدة أطواق من الملابس قبل أن نغادر فندقنا.

قال لي مستفزاً:

- لا أعرف كيف ستبقين على قيد الحياة في شتاء تاسمانيا.

دافعتُ عن نفسي قائلة:

- يوجد ثلج حقيقي هنا في الخارج، وهو بارد جداً.

اجتزنا البهو المدفأ ثم خرجنا إلى الشارع. أمسك باتريك بالمخطط، وتبعناه بحذافيره. كان من السهل علينا أن نجد عنوان لوسي ماك كونيل، أو لوسي سوثرلاند، بحسب كنية زوجها. وبالمقابل، وجدنا عناءً كبيراً في اختيار الموقف الذي يجب أن نتبعه. فإذا أرسلتُ الرسالة بالبريد من الممكن أن ترفضها. وإذا اتصلت بها دون أن أعطيها الرسالة فإنها قد ترفضني أيضاً. وانتهى بي الأمر بأن أقول لنفسي إن الوسيلة

الوحيدة للاتصال بها هي أن أقابلها شخصياً والرسالة بيدي. وبعد ذلك ستكون الكُرة في ملعبي.

كنت قد طلبت من أمي أن ترافقني ولكنها ألغت رحلتها في اللحظة الأخيرة. ليس لأنها تغار من لوسي أو تحقد عليها، بل لأنها لا تريد أن تُمطرها بوابل من الانفعالات دفعة واحدة. وإذا كانت لوسي موافقة فإن لدى أمي وخالي مايك الوقت الكافي لترتيب لقاء. أما من ناحيتي، فأنا أرى أن دوري يتلخّص بأن أسلّمها الرسالة.

أعلن باتريك:

– ها قد وصلنا.

وقف أمام بيت قديم له حديقة معتنى بها جيداً.

تأملتُ المدخل ثم قلت لباتريك والبخار يخرج من فمي:

– أنا متوتّرة الأعصاب.

– هل تريدين أن آتي معك؟

هززت رأسي، وقلت:

– طبعاً، هيا بنا.

مشينا حتى البيت وتركتُه يقرع الباب لأني أعرف أن حركته ستكون أكثر ثقة من حركتي. ولكنه قال لي:

– أنت من يجب عليك أن تتكلمي.

فأجبته وأنا أتحقق من جديد من أن الرسالة في جيبي:

– حسنٌ.

سمعنا أصواتاً في الداخل.

فُتح الباب، وظهرت امرأة مسنّة، شعرها أشيب، ولكننا لم نجد عناءً في تمييز بعض الآثار لشعرٍ أصهب. سألتنا بصوت هادئ:

– هل أستطيع أن أساعدكما؟

عندما ابتسمت كدت أن أهوي: فالتشابه مع جدتي مدهش. حبَسَ العالمُ أنفاسَه للحظة.

ثم جمعتُ شتات شجاعتي وأخرجتُ الرسالة من جيبي وناولتُها إياها، وقلت:

– هذه لكِ. وكان يجب أن تصلك منذ زمن طويل.

